

جوهرة خط العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلتك ، ومزيد تطولك ، وأصلى وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فهاهو ذا « الجزء الثاني - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاويا ما وصل إلينا من خطب العصر الأموي ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافردواعي الخطابة في هذا العصر ، ونفاق سوقها .

وقد نهجت فيه نهجي في سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يميظ اللثام عن خفايا مراميها ، وغواض مغازيها ، فإني بحمده تعالى وافيًا مرضيًا ، والله نسأل أن يكلائنا برعايته ، وأن يمن علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجي ، فنعم المولى ونعم النصير ؟

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في
رجب سنة ١٣٥٢ هـ
نوفمبر سنة ١٩٣٣ م

فهرس

مآخذ الخطب فى هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثانى - السابع - الثالث عشر -
- : الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
- : عشر - العشرون - الحادى والعشرون
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « الخامس - السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- المقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- نهج البلاغة : للشريف الرضى : « الأول
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
- جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : « الأول

- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : الجزء الأول - الثاني
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : « السادس - السابع - الثامن - التاسع
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث - الرابع
- مروج الذهب : للمسعودي : « الثاني
- الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : « الأول - الثاني
- معجم البلدان : لياقوت الحموي : « الثالث
- أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : « الثالث
- النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : « الأول
- لابن تفرى بردى :
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثاني
- معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : « الأول
- نفع الطيب ، للمقرئ : « الأول
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري الأوسى : « الثالث
- مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : « الثاني
- محمد البيهقي العلوي

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبي الفرج بن الجوزي

« « « « : لابن عبد الحكم

شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصري

أنباء نبياء الأنبياء : لابن ظفر المسكي

الحسن البصري : لابن الجوزي

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاي

إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلاني

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح



الباب الثالث

الخطب والوصايا

في

العصر الأموي

الخطب

خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه (١)

خطب الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنعاه فقال :

« لقد قتلم الليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتى موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه أحدٌ كان

(١) في الكامل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن علي توفي سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م : ٤ :

ص ٤) أنه توفي سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفي سنة ٥١ .

قبله ، ولا يُدْرِكُه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبيعه في السرية^(١) ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ثم خنفته العترة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) ، فاقترافُ الحسنة مودتنا أهل البيت . »

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحببنا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

(١) السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . (٢) الرجم : القدر والمأثم ، وكل ما استقدر

من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

تعبته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يشوبون ويحتمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن عليّ في الحثّ على الجهاد

« أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرْهًا ^(١) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فليست أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزهنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، أخرجوا رحم الله إلى معسكركم بِالْخَيْلَةِ ، حتى ننظر وتنظروا ، ونرى وترؤا » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فأتكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! لا يُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُصَرِّ الدين أَسِنْتُهُمْ كَالْخَارِيقِ فِي الدَّعَةِ ^(٢) ، فإذا جَدَّ الْجِدُّ

(١) يشير إلى قوله تعالى « كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ » .

(٢) جمع مخراق بالكسر : السيف (وهو أيضا المنديل يلف ليضرب به) وفي الدعاء : أي وقت الدعاء :

أي الخفض والسلم .

فَرَوَّاعُونَ كَالثَعَالِبِ ، أَمَا تَخَافُونَ مَقْتِ اللَّهِ ! وَلَا عَيْبَ لَهَا وَعَارَهَا (١) .

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أَصَابَ اللَّهُ بِكَ الرَّاشِدَ ، وَجَنَّبَكَ الْمَسْكَرَ ، وَوَقَّفَكَ لِمَا تَحْمَدُ وَرُودَهُ وَصُدُورَهُ ، قَدْ سَمِعْنَا مَقَالَتَكَ ، وَانْتَهَيْتَنَا إِلَى أَسْرِكَ ، وَسَمِعْنَا لَكَ ، وَأَطَعْنَاكَ فِيمَا قُلْتَ وَمَا رَأَيْتَ ، وَهَذَا وَجْهِي إِلَى مَعْسُكِرِي ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُؤَاقِبَنِي فَلْيُؤَاقِبْ » ثم مضى لوجهه ، إِلَى النَّخِيلَةِ .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فَأَتَبُوا النَّاسَ وَلاموم وحرضوم ، وكلوا الحسن بمثل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرّفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فمسكروا ونشطوا للخروج ، وسار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٤)

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط (٢) ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ كَلِمًا حَمِيدَةً حَامِدًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمًا شَهِيدًا لَهُ شَاهِدًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ، أُرْسِلَهُ بِالْحَقِّ ، وَأُتِمَّنِي عَلَى الْوَحْيِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَمَا بَعْدُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ أَصْبَحْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَنِّهِ ، وَأَنَا أَنْصَحُ خَلْقَهُ لَخَلْقِهِ ، وَمَا أَصْبَحْتُ مَحْمُولًا عَلَى مُسْلِمٍ ضَعِيفَةٍ ، وَلَا مُرِيدًا لَهُ بِسُوءٍ وَلَا غَائِلَةً (٣) ، أَلَا وَإِنِّي مَا تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ خَيْرَ لَكُمْ مِمَّا تَحِبُّونَ فِي الْفِرْقَةِ ، أَلَا وَإِنِّي نَازِلٌ لَكُمْ خَيْرًا مِنْ نَظَرِكُمْ

(١) أى عار فلتكم هذه : ومعى تقاعسهم عن إجابة الحسن إلى مداعهم إليه ، وفى الأصل : «وعارتها»

وأراه محرفاً إذ العارة هى العارية ولا معنى لها هنا . (٢) ساباط كسرى بالمداين .

(٣) الغائلة : الشر والفساد وللداهية .

لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيي ، غفر الله لى ولکم ، وأرشدنى وإياکم
لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترّونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن
يصلح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فأنهبوه ،
حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُطَرَفَه^(١) عن عاتقه ، فبقي جالسا
مقلداً سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ،
ومنعوا منه من أراده ، ولا موه وضغفوه لما تكلم .

فلما مرّ في مُظَلِّم^(٢) ساباط ، قام إليه رجل من بني أسد يقال له جراح بن سنان ،
وبيده مِعْوَل^(٣) ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ،
ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت في فخذه فشقته ، حتى بلغت أُرْبَيْتَه^(٤) ،
وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده واعتنقه فخرّاً
جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ - خطبته يهرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ،
فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن
يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - فى أشياء اشتراطها - ثم قام الحسن
فى أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخى بنفسى عنكم ثلاثٌ : قتلكم أبى ، وطعنكم إياى ،
وانتهابكم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام . (٢) مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن : موضع هناك .

(٣) المعول : القاسم العظيمة التى ينقر بها الصخر . (٤) الأربية : أصل الفخذ .

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإنفاذ الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ، وكان عمرو ابن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنني أريد أن يبدؤ عيبي للناس^(١) ، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : قم يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيهِ ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بأخرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت ، وتسلمون من سلمت ، وقد سلمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ أَدْرَى أَعْلَى فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قال معاوية اجلس ، فلم يزل ضرمًا^(٢) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

وأنباء نجيلاء الأنبياء ص ٥٦ وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٢٢٤)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال :

(١) روى أبو الفرج الأصبهاني أنه كان في لسان الحسن ثقل كالثأفة (شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١) .

(٢) ضرم عليه كفرح : احتدم غضبا فهو ضرم .

« الحمد لله الذي توحد في ملكه ، وتفرد في ربوبيته ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزعهُ عن من يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وحقن دماء آخركم ، فبلاؤنا عندهم قديماً وحديثاً أحسن البلاء ^(١) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن ربَّ عليّ كان أعلم بعليّ حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فبهيات هيئات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها ، جرّعكم رنقاً ^(٢) ، وسقاكم علقاً ^(٣) ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فليست بلومين على بفضله ، وإيم الله لا ترى أمةٌ محمد خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمية ، ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تصدروا عنها حتى تهلكوا ، لطاعتكم طواغيتكم ^(٤) ، وانضوائكم ^(٥) إلى شياطينكم ، فعند الله أحنسبُ ماضى ، وما ينتظر من سوء دعتكم ، وحنيف ^(٦) حكمكم ، ثم قال :

« يأهل الكوفة لقد فارقتكم بالأمس سهم من مرأى الله ، صائب على أعداء الله ، نكالٌ على فجّار قريش ، لم يزل آخذاً بمناجرها ، جأماً على أنفاسها ، ليس باللومة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة ^(٧) في حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجاب ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فصولات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عجلٌ أو كاد ، وأصاب متثبتٌ أو كاد ، ماذا أردتُ من

(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ص ١٠)

خطبة الحسن ؟

(١) البلاء يكون منعمة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول .

(٢) ماء رنق : كعدل وكشف وجيل كدر . (٣) العلق : الدم ودويبية في الماء تمس الدم .

(٤) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان وكل رأس ضلال . (٥) انضمامكم .

(٦) الحيف : الظلم : (٧) الفروق والفروقة : شديد الفزع .

٨ - خطبة معاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلاح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك - وهو لى حلال - لصلاح الأمة وألقهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« يا أهل الكوفة ، أتراى ، قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج . وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحججون ، ولكنى قاتلتكم لأنامر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطول ، وكل شرط شَرَطْتَه فتحت قديمى هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإقبال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تغزؤهم غزؤكم » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ - رد الحسن بن عليّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما جالسان تحت المنبر ، فذكر عليّاً عليه السلام ، فقال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ابعد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذّاكر عليّاً : أنا الحسن ، وأبى عليّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأخى فاطمة ، وأمك هند ، وجدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتَيْبَةُ بن ربيعة ،

(١) إرجاعهم وردهم .

وجدتني خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخلصنا ذكراً ، والأمننا حسباً ، وشرنا قديماً
وحديثاً ، وأقدمنا كفرةً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ، أتى سليمان
ابن صرد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم - فدخل على الحسن
فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، فجلس
سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فإن تَمَجَّبْنَا لا ينقضى من بيعتك معاويةَ ومعك مائة ألفِ مقاتل من
أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء ، مع مثاهم من أبناءهم ومواليهم ، سوى شيعةك من
أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد ، ولا حظاً من القضية ،
فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت
كتبت عليك بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب ، أن هذا
الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا ، فرضيت به من قوله ،
ثم قال ، وزعم كلِّي رعوس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطاً ،
ووعدتهم عِدَاتٍ ، ومنيتهم أمانى ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ،
إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك نحت قديمي هاتين ، والله ما عني بذلك
إلا تقض ما بينك وبينه فأعد الحرب جذعة^(١) ، وأذن لي أشخص إلى الكوفة ،

(١) هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أي فتية .

فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعها ، وأنبذ إليه ^(١) كَلَى سَوَاء ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْغَائِبِينَ .

ثم سكت ، فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلمهم يقول : ابث سليمان
ابن سرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعها .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن تعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد
فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، والدنيا أعمل وأنصب ، ما كان
معاوية بأبأس مني وأشد شكيمه ، ولكان رأي غير ما رأيتم ، لكني أشهد الله
وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حَقَنَ دَمَائِكُمْ ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ،
وارضوا بقضاء الله ، واصلحوا الأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برئ
أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سبلي الأمر ، فواؤه لوسرنا إليه
بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ^(٢) ، إن الله لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ،
وأما قولك يا مُذِلُّ الْمُؤْمِنِينَ ، فواؤه لأن تَذَلُّوا وتُعَافُوا أحب إلي من أن تَعَزُّوا وتَقْتُلُوا ،
فإن رَدَّ اللَّهُ علينا حَقَّنَا في عافية ، قَبَلْنَا وسألنا الله العون على أمره ، وإن صرفه عنا رَضِينَا
وسألنا الله أن يبارك في صرفه عنا ، فليكن كل رجل منكم جَلِيسًا ^(٣) من أحلاس بيته ،

(١) معناه إذا هادنت قوما ، فعلمت منهم النقص للمهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقص ، حتى تعلمهم
أنك نقصت المهد ، فتكفونوا في علم النقص مستورين ، ثم أوقع بهم . (٢) يطلب .

(٣) الخلس : بساط البيت ، وفلان جلس من أحلاس البيت : الذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة
كن جلسا من أحلاس بيتك حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية » أي لا تبرح .

مادام معاوية حياً ، فإن يَهْلِكِ ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمه على رشدنا ، والمعونه على أمرنا ، وأن لا يَكِلِنَا إلى أنفسنا ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَةٌ ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون .
وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين ^(٢) اللذين خلقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والموعول عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئُنَا تأويله ، بل نتيقن حقايقه ، فأطيعونا ، فإطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ^(٣) : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (وَكَوَزِدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ، وأحذركم الإصغاء لهاتف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياته الذين قال لهم : (لَا غَائِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ وَإِنِّي

(١) العترة : رطل الرجل وعشيرته الأذنون . (٢) الثقل : كل شيء نفيس مصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ) فَيَقْتَلُونَ لِلرَّمَاحِ أَزْرًا^(١) ، وَلِلسُّيُوفِ جَزْرًا^(٢) ، وَلِلْعَمْدِ حَظًّا^(٣) ،
وَلِلسَّهْمِ غَرَضًا ، ثُمَّ : (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) . (مروج الذهب ٢ : ٥٣)

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضى الله عنه :

« اعلموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف^(٤) ،
والمجالة سفه ، والسفة ضعف ، والقلق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة
أهل الفسوق ريبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

(١) الأزر: جمع إزار، وهو الملحفة وكل ماواراك وسترك: أى فتكونون أجرية للرماح تغيب فأبدانكم وتستر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الظهر: أى تركيبكم الرماح وتعاونكم ، والمراد تطمنون وتضربون بها والأول أوجه . (٢) أى قطعاً . (٣) عمد بفتحيتين ، وعمد بضميتين : جمع عمود ، وهى من الآلات التى كانت تستعمل فى القتال . (٤) الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الطرف والادعاء فوق ذلك تكبراً .

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال :

« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْط ، وعُتْبَةُ بن
أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن عليّ عليه السلام
قوارص^(١) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين : إن الحسن قد أحمى أباه
وَذَكَرَهُ ، وقال فَصَدَّقْ ، وأمر فأطيع ، وخَفَقَتْ^(٢) له النعالُ ، وإن ذلك لَرَأْفَةٌ إلى ما هو
أعظم منه ، ولا يزال يبلِّغنا عنه ما يسوءنا . قال معاوية : فما تريدون ؟ قالوا: ابعث إليهم
فليحضر لِنَسْبِهِ ونسب أباه ونعيِّره ونوبِّخه ، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرّره بذلك ،
ولا يستطيع أن يغيّر علينا شيئاً من ذلك . قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا:
عزمنّا عليك يا أمير المؤمنين لِنَفْعَلَنَّ ، فقال : وبحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيت قط جالساً
عندي إلا خفت مقامه وعيِّبه لي ، قالوا ابعث إليهم على كل حال . قال : إن بعثت إليهم
لأنصفته منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يُرْجى قوله
على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليهم لأمرته أن يتكلم بلسانه كَلِّه . قالوا :
مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتهموني وبعثتم إليهم وأبتم إلا ذلك ، فلا تَمْرَضُوا^(٣) له

(١) القوارص من الكلام: التي تنفصك وتؤلك . (٢) الخفق : صوت النعل .

(٣) تمرض : ضعف في أمره .

في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يَمِيهِم المائب ، ولا يَلْصِقُ بهم العارُ ، ولكن اذفوه بحجره ؛ تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وَكَرِهَ خلافة الخلفاء من قبله ؛ فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله . فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسأله . فقال الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خَرَّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابغيني ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، وأدرا^(١) بك في نحورهم ، وأستمين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأتَى شئت ، بحول منك وقوة ، يا أرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقد ارتاد^(٢) القوم ، وخطروا^(٣) خطرَ ان الفحول ، بنياً في أنفسهم وعُلُوًّا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني . فقال الحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ؛ والله إن كنت أحببتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحي لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف ، فأيهما تقرّ وأيهما تُنكر ؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبدالمطلب ، ومالي أن أكون مستوحشاً منك أو منهم ؟ إن ولي الله وهو يتولى الصالحين ؛ فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف^(٤) ومنى ، وإنما دعوناك لنعزرك أن عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبههم ، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكلِّ لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

(١) أدفع . (٢) الارتياح : الذهاب والمجيء . (٣) خطر الرجل في مشيته : رفع يديه ووضعها اهتز وتبختر ، وخطر بسيفه ورجحه : رفعه مرة ووضعه أخرى خطرانا (بالتحريك) وخطر الفحل بذنبه : ضرب به يمينا وشمالا . (٤) الإنصاف والعدل .

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايحه مُكْرَهًا ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له . ثم ذكر الفتنة يعيره بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بنى عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ؛ ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا ليه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قريش ، يُسخر منك ، ويُهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ؛ وإنما دعوناك لنسبنا وأباك ؛ فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إنثم من الله ، ولا عيب من الناس ؛ فهل تستطيع أن ترد علينا وتسكذبنا ؟ فإن كنت ترى أننا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال :

« يا بنى هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فعرّف حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصهرُ كان لكم يُكرمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك . »

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حسنُ : كان أبوك شرًّا قر يش لقر يش ، لِسْفِكِهِ الدماثها ، وقطعِهِ لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحى ويعيب الميت ، وإنك ممن قَتَلَ عثمان ونحن قاتلوك به . وأما رجاؤك الخلافة فلست فى زَندِها^(١) قادحا ، ولا فى ميزانها راجحا ، وإنكم يا بنى هاشم قتلتم عثمان ، وإن فى الحق أن نقتلك وأخاك به ، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد^(٢) منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بثمان إنم ولا عدوان . »

١٧ - مقال المغيرة بن شعبه

ثم تكلم المغيرة بن شعبه ، فشم عليا وقال : والله ما أعيبه فى قضية يخون ، ولا فى حكم يميل ، ولسكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

١٨ - رد الحسن بن علي عليهم

فتكلم الحسن بن علي عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فإهؤلاء شتمونى ، ولسكنك شتمتى ، فُحْشًا أَلْفَيْتَهُ ، وسوء رأى عُرِفَتْ به ، وَخَلْقًا سِيئًا تَبَّتْ عَلَيْهِ ، وبنيا علينا ، عداوة منك لحمد وأهله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا ، فَلَأَقُولَنَّ فَيْكَ وَفِيهِمْ ما هو دون ما فيكم ، أنشدكم الله أيها الرهط ، أتعلمون أن الذى شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين^(٣) كليهما ، وأنت يا معاوية

(١) للزند : العود الذى يقدح به النار . (٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

(٣) كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت

المقدس تألفا لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول .

بهما كافر ، تراها ضلالة وتمبد اللات والعزى^(١) غواية ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما ببيعة الفتح^(٢) وبيعة الرضوان^(٣) ، وأنت يامعاوية يا حداهما كافر ، وبالآخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وأنت يامعاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم ، تُسِرُّونَ الكفر وتُظهِرونَ الإسلام ، وتَسْتَمَلونَ بالأموال ، وأنشدكم الله ألسن تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ، ويُفْلِحُ^(٤) حجته ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك ساخط ؛ وأنشدك الله يامعاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحر ، وأنت تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم العن الراكب والقائد والسائق » أنسى يامعاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك - لما تمَّ أن يُسَلِمَ - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّمَنَّ يَوْمًا فَيَفْضَحَنَا بَعْدَ الَّذِينَ بِيَدْرِ أَصْبَحُوا مِرْقَاً^(٥)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمِّ نَالَهُمْ وَحَنَظَلَّ الْخَيْرُ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقَاً^(٦)

(١) اللات : صنم ثقيف بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان بيطن نخلة .

(٢) روى الطبري في تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام فجلس لهم - فيما بلغنى - على الصفا ، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبري ٣ : ١٢١ - وكان معاوية ممن أسلم بعد الفتح .

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية في غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين

لبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان . (٤) ينصر .

(٥) المزق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره . (٦) أي لشدة الحزن والأسى .

لَا تَهْ كَنْنَ إِلَى أَمْرٍ تُكَلِّفُنَا وَالرَّافِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرَّافِ (١)
فَلَمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْعُدَاةِ «لَقَدْ حَادَا بَنُ حَرْبٍ عَنِ الْعَزْمِيِّ إِذَا فَرِقَا» (٢)

والله لما أخفيتُ من أمرِك ، أ كبر بما أبديتُ ؛ وأنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن علياً حرّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) . وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أ كابر أصحابه إلى بني قُرَيْظَةَ ، فنزلوا من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالرابية ؛ فاستنزهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيبرٍ مثملاً ، ثم قال : يامعاوية أظنك لا تعلم أني أعلم مادعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جذيمة (٣) فبعث إليك ونهمك (٤) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط .

(١) الخرق محرقة : ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور ، والحقق . (٢) فرق : فزع .

(٣) في الأصل « خزيمة » ، وهو تحريف ، وهم بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلاً ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجرين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما - فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال : يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي بيلغة الكلب ، (والميلغة بالكسر : الإناء يلع فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحسن ، ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد ، ثلاث مرات . (٤) الذي في كتب اللغة : « نهمه : زجره ، وحذفه بالخصى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه .

نشدتكم الله ألا تعملون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردّها؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو تقيفاً إلى الدين؛ فوقع به، وسبه وسفه، وشتمه وكذّبه وتوعده. وهم أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه. والثانية يوم العير^(١) إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام. فطردها أبو سفيان وساحل^(٢) بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها. والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه، وهو ينادى أعلُّ هبل^(٣) مرارا فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ولعنه المسلمون. والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل. والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والهدى معكوفاً أن يبلغ محله^(٤) ذلك يوم الحديبية. فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سفيان، ولعن القادة والأنبياء، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن. فقيل يارسول الله أفنا يُرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: لا تصيب اللعنة أحداً من الأنبياء. وأما القادة فلا يُفلح منهم أحد^(٥). والسادسة يوم الجمل الأحمر. والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة ليستنقروا ناقته وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان. فهذا لك يامعاوية.

وأما أنت يا بن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من عهد^(٦)

(١) العير: الإبل تحمل الميرة: (٢) أتى بها ساحل البحر. (٣) أى اعل وانصر يا هبل:

وهو صنم كان في الكعبة. (٤) والهدى معكوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهدى ما يهدى

إلى مكة، ومعكوفاً أى محبوساً وهو حال. أن يبلغ محله أى مكانه الذى ينحر فيه عادة وهو الحرم.

(٥) لا يتعارض مع هذا أن أبا سفيان أفلح بعد وأسلم، إذا النفي فيه بلا، وليس النفي بلى.

(٦) فجور: ذكروا أن النابغة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من هذيلة (بالتحريك) فسببت:

فاشترها عبد الله بن جدهان التيمي بمكة، فكانت بغيا، ثم أعتقها، فوقع عليها أبو هب بن عبد المطلب، =

وسَفَاحٍ فتحاكم فيك أربعة من قريش . فقلب عليك جزأرها . الأهمم حسبا ، وأخبرهم
مَنْصِبًا . ثم قام أبوك فقال : أنا شاني محمد الأبتَرُ^(١) . فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت
رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد . وهجوته وآذيته بمكة ، وكذته كيدك
كله . وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة . ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب
السقيفة لتأني بجمعهم وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) . فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائبا
وأكذبتك واشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي
حسدا لما ارتكب من حليته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك . فأنت عدو بني هاشم

= وأمية بن خلف الجمحي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل
السهمي في طهر واحد ، فولدت عمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه ، فقالت هو من العاص بن وائل ،
وذلك لأن العاص كان ينفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث
ابن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت لنا فيك منه بينات الشائيل

ويقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرا وهو على المنبر : من أمه ؟ فسأله فقال : أمي سلمى
بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عذرة أصابها رماح العرب فبيعت بمكاذ ، فاشترها الفاكه بن المغيرة ،
ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذ .
(ورأى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

(١) الشافي المغض ويسهل : وذلك أن العاص بن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم أبتَر عند موت
ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المتقطع من كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر
الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيبقى حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبتَر لأنت .

(٢) يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثمان عشرة
امراة ، وكان من الرجال جمعهم بن أبي طالب ، ولما رأيت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ،
وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائبين ، وأبي النجاشي أن يخف ذمتهم .

(٣) وذلك أن عمرا وعمارة ركبا البحر إلى الحبشة كما قدمنا - وكان عمارة جميلا وسيما تهواه النساء ،
وكان مع عمرو بن العاص امرأته - فلما صاروا في البحر ليالي أصابا من خمر معهما ، فانتهى عمارة فقال
لامراة عمرو قبلي ، فقال لها عمرو قبيل ابن عمك ، فقبلته ، فهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها ، =

في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرَّهَطِ يملون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتا من الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي . اللهم العنه بكل حرفٍ ألفَ لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يُخَصِّي من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سَعَرْتِ^(١) عليه الدنيا نارا ، ثم لَحِقَتْ بِفِلَسْطِينَ ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نَكَأَتْ قَرْحَةَ أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حَيًّا ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك يا بن العاص ! ألسن القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟ وما السيرُ مني بِمُسْتَنْكَرٍ

= فانتمنت منه ، ثم إن عمرا جلس على منجاف السفينة يبول « منجاف السفينة هوسكانها الذي تعدل به » فدفعه عمارة في البحر ، فلما وقع عمرو سبج حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا حتى نزل الحبشة ، فلما اطمانا به لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلص إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه عمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته ومبيته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقا فقل لها فلتدهنك بدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فإني أعرفه وأتني بشيء منه حتى أصدقك ، قال : أفعل ، فسألها ذلك فدهنته منه وأعطته شيئا في قارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ! ماسمعا بمثل هذا ، ثم سكت عنه حتى اطمان ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة أخر فجرده من ثيابه ثم أمرهن ينفضن في إحليله ثم خلى سبيله فخرج هاربا .

(١) سمر النار : كنع أوقها . وكان عمرو أول خلائة عثمان واليا على مصر - منذ خلافة عمر ابن الخطاب - ثم إن عثمان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثمان من الرضاع - خراج مصر ، وولى عمرو بن العاص على الجند فلم يتفقا ، فجمع لعبد الله الخراج والجند وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يطعن على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو بعدئذ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، فكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لألقى الراعي فأعرضه عليه (نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرا فندبت) .

قلت : ذَرَيْتَنِي فَأَبَى امْرؤُ
لَا كُوفِيَهُ عِنْدَهُ كِيَةً أُفِيمُ بِهَا نَخْوَةَ الْأَصْعَرِ (١)
وَسَأَنِي أَحَدًا مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عُنْتَبَةَ جَاهِدًا وَلَوْ كَانَ كَالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ (٢)
وَلَا أَتْنِي عَنْ بَنِي هَاشِمٍ وَمَا اسْتَطَعْتُ فِي الْغَيْبِ وَالْمَحْضَرِ
فَإِنْ قَبِلَ الْعَتَبُ مِنِّي لَهُ وَإِلَّا لَوَبْتُ لَهُ مِشْفَرِي (٣)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في الحُرِّ (٤) .
وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صَبْرًا (٥) ، وأنت الذي سماه الله الفاسق

(١) الصعر محرّكة : الميل في الخد ، صعر : كفرح فهو أصعر ، وصعر خده تصعيرا : أماله من الكبر . (٢) كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة عتبة بن غزوان ، وهو من بني نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعني عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أي في صعوبة الوصول إليه .
(٣) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . (٤) وذلك أن عثمان رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولّى عليها الوايد بن عقبة - وهو أخوه لأمه - ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم وأنه تكلم في الصلاة والتفت إلى من يقتدون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا صلواتنا ، وشهد الشهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتا وأراد أن يحده فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضربه ناشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى على ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلده به .

(٥) القتل صبورا : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم العظيم الاستهزاء به . صنع مرة وليمة ودعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبي ابن خلف الجمحي ، وكان صديقا له ، فقال ما شيء بلغني عنك ؟ قال لا شيء . دخل منزلي رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له ، قال أبي : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبرق في وجهه ، وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله -

وسمى علياً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت يا علي ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً . فقال لك علي اسكت يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق . فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : (أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) ثم أنزل فيك علي موافقة قوله أيضا (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١)) ويحك يا وليد ؟ مهما نسيت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتاب عزيز) في علي وفي الوليد قرآنا ^(٢)
فتبوا الوليد إذ ذاك فسقا وعلى مبوا إيمانا ^(٣)
ليس من كان مؤمناً (عمرك الله) كمن كان فاسقا خوآنا
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلى إلى الحساب عيانا
فعلى يجزى بذاك جنانا ووليد يجزى بذاك هوانا
رب جد لعقبة بن أبان لابس في بلادنا تباناً ^(٤)

= صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه (وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصلي في حجر الكعبة فأقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن الرسول ، وقال : (اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد قتله عليه الصلاة والسلام وهو راجع .

(١) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لأخذ الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهم يقتلهم ، فأثروه منكرين ما قاله عنهم ، فنزلت الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . (٢) مسهل من « قرآنا » . (٣) فتبوا : مسهل من « فتبوا » .

(٤) أهان : هو والد أبيه عقبة ، فهو الوليد بن عقبة بن أبي ميعط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس ، والتبان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للداحين .

وما أنت وقريش ا ، إنما أنت عذج من أهل صفورية^(١) ، واقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة ، فوالله ما أنت بحصيف^(٢) فأجيبك ، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرجى ، ولا شرٌّ يُتقى ، وما عقلك وعقل أمّتك إلا سواء ، وما يضر علياً لو سببته على رهوس الأثهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يا للرجال وحادث الأزمان
ولسببة تخزي أبا سُفيان^(٣)

نُبئتُ عتبةَ خانة في عرسه
جنسٍ لثيم الأصل من لحيان^(٤)

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفضحه ، فكيف يخاف أحدٌ سيفك ؟ ولم تقتل فاضحك . وكيف ألومك كلّي بفض عليّ ، وقد قتل خالك الوليدَ مبارزةً يوم بدره ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : « استمسكي فإني طائرةٌ عنك » فقالت النخلة : وهل علمتُ بك واقمةً كلّي ، فأعلم بك طائرةٌ عني ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علمنا بها ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ولقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه . ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان . وأما

(١) صفورية : بلد بالأردن (بضم الهمزة والذال وتشديد النون) ، والمليح : الرجل من كفار العجم .
وذلك أن جده ذكوان كان يلقب بالصفوري . ذكر جماعة من النسابين أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بني أمية لصلبه (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤) .
(٢) حصيف : ككرم استحکم عقله فهو حصيف . (٣) السبة : العار . (٤) عرس الرجل : امرأته : وبنو لحيان : حى من هذيل ، وهو لحيان بن هذيل بن مدركة .

نفركم علينا بالإمارة ، فإن الله تعالى يقول : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا^(١) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) .

ثم قام الحسن ففرض ثوبه فانصرف ؛ فتملق عمرو بن العاص بثوبه وقال : يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وقذفه أي بالزنا ، وأنا مطالب له بحد القذف .

فقال معاوية : خل عنه ، لاجزأك الله خيرا ، فتركة ، فقال معاوية : قد أنبأتكم أنه من لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فمصيتموني ، والله ما قام حتى أظلم على البيت ، قوموا عني ؟ فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدولكم عن رأي الناصح الشفوق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن علي رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسين ومحمد بن الحنفية^(٢) وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ، وقد اغرورت عيناه ، وقال :

« رحمك الله أبا محمد فلئن عزت حياتك لقد هدأت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ، وخامس أصحاب الكساء^(٣) ؛ وخلف

(١) أي كثرنا ، أمره : كنصره ، وآمره : كثره ، (وفي قراءة : أمرنا) أو المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا وعصوا ، وقد يكون من الإمارة أي جعلناهم أمراء . (٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب : والحنفية أمه ، وهي امرأة من بني حنيفة بن لبيم وتسمى خولة بنت جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . (٣) الكساء : هو كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يضافون إليه ، فيقال : « آل الكساء » وهم النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ديك الجن :

أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ،

= وقال أبو عثمان الخالى :

أعاذل إن كساء التقي كسانيه حي لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ماروت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحيى الموتى ويبرئ الأكمة والأبرص ويخلق من العطين كهية الطير ، وبابينا على أنه ابن الله ونحن نبإيعك على أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فا زالوا يحاجونه ويلاحونه حتى أنزل الله : (قَدْ حَاجَّكَ فِيهِ) أى فى عيسى (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فقال لهم : إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم - والمباهلة الملاعبة - فقالوا يا أبا القاسم : بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم . قال ياقوت في معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا . . الخ » يا عبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمدا نبي مرسل ، واقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم » أى عيسى « والله ما باهل قوم نبيا قط ، فاعش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لكان الاستئصال ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أو خز » وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمنوا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إنى لارى وجوها أو سأورا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصراى إلى يوم القيامة » ثم قالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك « فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا ، يكن لكم مالمسلمين وعليكم ماهل المسلمين » فأبوا ، فقال : فإني أنا جزم القتال ، فقالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصلحك على أن لاتنزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن تؤدى إليك فى كل عام ألفى حلة ، ألفا فى صفر وألفا فى رجب ، وثلاثين درهما عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدل على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قرده وخنازير ، ولاضطرم عليهم الرادى نارا ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رهوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى =

وعمك جعفر^(١) الطيار في جنة المأوى ، وغذتك أكف الحق ، ورُبيت في حجر الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فطبت حيا وميتا ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك ، إنها غير شاكّة أن قد خير لك^(٢) ، وإنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والمقد الفريد ٢ : ٧)

= أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج في المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم علي رضى الله عنهم ، ثم قال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا) فمن ذلك الوقت سمي الخمسة أصحاب الكساء (انظر كتاب ثمار القلوب في المصنف والمنسوب للثعالبي ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازي مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩) .

(١) هو جعفر بن أبي طالب ، وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخذ

الراية من زيد بن حارثة الذي استشهد قبله في هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وباردا شرابها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة

البارحة ، فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ . (٢) خار الله لك في الأمر . : جعل لك فيه الخير .

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأنيبه عن بيعته يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولي الخلافة يزيد بن معاوية (في هلال رجب سنة ٥٦٠) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ الحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بالبيعة أهدأ شديداً ليست فيه رخصة^(١)، فبعث الوليد إلى الحسين رضى الله عنه ونعى له معاوية ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين: «إن مثلي لا يعطى بيعته سراً، ولا أراك تجترئ بها منى سراً، دون أن تُظهرها على رموس الناس علانيةً، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس، فكان أمراً واحداً» فقال له الوليد - وكان يحب العافية - «فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس».

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء، فقال: «أصبحوا ثم ترون ونرى» فكفوا عنه تلك الليلة ولم يلبثوا عليه، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيام من رجب سنة ٥٦٠) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له:

(١) الرخصة: التسهيل.

٢٠ - نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تمنح بتبعتك^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس فادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مصر من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، ففهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتلوا ، فتكون لأوّل الأسيئة ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأمّاً أضيّعها دماً ، وأذلها أهلاً .

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نبت^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشعف^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوب ما يكون رأياً ، وأحزمه عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً » .

قال : « يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موقفاً » . وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلمهم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى فأقدم علينا^(٤) - وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة -

(١) تبعة جمع تابع . (٢) ضاقت . (٣) الشعف : جمع شعفة مجركة ، وهى رأس الجبل .
 (٤) اجتمعت الشيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن سرد ، فذكروا هلاك معاوية فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببيته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعة وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصره ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه وإن خفتم الوهل (بالتحريك) =

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، فقال له :

« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى » ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ، فخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبل الشيعة تختلف إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

= الضعف والفرع والفضل) فلا تنزوا الرجل من نفسه» قالوا « لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه » قال :
فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من سلجان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة ابن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى (وثب) على هذه الأمة فابتزها أمرها ، وغصبها فيها ، وتأمر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها ، فبعدا له كما بمدت ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ، لستنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه ، حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فحيلا (أي أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى لهم في غيرك ، فالعجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجناب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جهم بالفتح ، وهو معظم الماء وطى الماء : علا ، وطم : غمر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي إلى الملا من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هائنا وسعيدا (وهما هاني بن هاني وسعيد بن عبد الله) قدما على بكتبكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلكم ، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جللكم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والهادئ بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام » .

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم مافي أنفسهم ، وما أغرؤك منهم ،
والله أحَدُّكَ عما أنا موطنٌ نفسي عليه ، والله لأجيبَنَّكُمْ إذا دعوتهم ، ولأقاتلَنَّ معكم
عدوَّكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .
فقام حبيب بن مظاهر الفقمسي فقال :

« رحمتك الله قد قضيت مافي نفسك بواجزير من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي
لا إله إلا هو طي مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولها .

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ - خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عبادَ الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلكُ
الرجال ، وتُسْفِكُ الدماء ، وتُغْصَبُ الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال :
إني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أئيبُ على من لا يئيبُ عليَّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرشُ
بكم ، ولا آخذ بالفرقة^(١) ولا الظنَّةَ ولا التَّهْمَةَ ، ولكنكم ، إن أديتم صَفْحَتَكُمْ^(٢) لي
وَنَسَكْتَكُمْ بيمعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما نبتت
قائمه في يدي ولولم يكن لي منكم ناصر ، أما إني أرجو أن يكون من يَعْرِفُ الحقَّ
منكم أكثر ممن يُرْدِيهِ الباطلُ » .

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

(١) الفرقة : التهمة ، وقرفه بالشيء : آتته . (٢) أي جاهرتهم بالعداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا العَشم^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُستَضْعَمِينَ » فقال : « أن أكون من المُستَضْعَمِينَ في طاعة الله أحبُّ إلىَّ من أن أكون من الأَعَزِّينَ في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قوياً غير النعمان ، فبعث إلى عبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضمَّ إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) ولآتي مصركم وثغركم^(٢) ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، ومُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لحسنكم ومطيعكم كالوالد الأبّر ، وسوّطى وسيفى على من ترك أمرى ، وخالف عهدى ، فليُتيق امرؤ على نفسه ، الصدق يُنبئُ عنك لا الوعيد » .

ثم نزل فأخذ العرفاء^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج من دار الختار ، حتى انتهى إلى دار هاني بن عروة المرادي لا يُدأ به ، ونمى خبره إلى ابن زياد ، فبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال : لا والله لا أُجيبك به أبداً أنا أُجيبك بضيفي تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد بالقضيب ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وسيلّ الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

(١) العشم : الظلم ، والمراد الشدة . (٢) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

(٣) جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمي لأنه عرف بذلك أو النقيب وهو دون الرئيس .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هاتماً وحبسه ، خَشِيَ أَنْ يَنْبَغِ النَّاسُ بِهِ ، فَخَرَجَ فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ النَّاسِ وَشُرَطُهُ وَحَشَمَهُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تَخْتَلِفُوا ، ولا تَفْرَقُوا ، فَهَلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتُقْتَلُوا ، وَتُجْفَوُوا وَتُحْرَمُوا ، إِنْ أَخَاكَ مِنْ صَدَقَتِكَ ، وَقَدْ أَعْذَرَ مِنْ أَنْذَرِ » .

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاني وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجعلهم إليه ، ثم قال : « أشرُّ فوا على الناس ، فَتَنُوا أَهْلَ الطَّاعَةِ الزِّيَادَةَ وَالكَرَامَةَ ، وَخَوَّفُوا أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ الْحُرِّمَانَ وَالْعَقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوهُمْ فُصُولَ ^(١) الْجُنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :

« أيها الناس : ائْتَمُّوا بِأَهْلِيكُمْ ، وَلَا تَعَجَّلُوا الشَّرَّ ، وَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ ، فَإِنَّ هَذِهِ جُنُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ قَدْ أَقْبَلَتْ ، وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ الْأَمِيرُ عَهْدًا لَنْ تَمْتَمَ ^(٢) عَلَى حَرْبِهِ ، وَلَمْ تَنْصَرِفُوا مِنْ عَشِيَّتِكُمْ أَنْ يَحْرِمَ ذُرِّيَّتِكُمُ الْعَطَاءَ ، وَيَفْرُقَ مُقَاتِلَتِكُمْ فِي مَغَازِي أَهْلِ الشَّامِ عَلَى غَيْرِ طَمَعٍ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْبَرِيءَ بِالسَّقِيمِ ، وَالشَّاهِدَ بِالْغَائِبِ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ فِيكُمْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ إِلَّا أَذَاهَا وَبَالَ مَا جَرَّتْ ^(٣) أَيْدِيهَا » .

(١) فصل من البلد فصولاً : خرج منه . (٢) يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

(٣) جر جريرة : اجترم جريمة .

وتسكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تؤويه فأوته في دارها .

٣٦ — خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انفضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ، وأمر ففودى « أَلَا بَرِيَّتِ الذِّمَّةُ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْمَغْتَمَةَ ^(١) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفيفه الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق ، فَبَرِثْتُ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيْبَتُهُ ، اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالزَّمُوا طَاعَتَكُمْ وَيَمَعْتَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا .

يَا حُصَيْنَ بْنَ نَمَيْرٍ ^(٢) ، ثَكِلْتِكَ ^(٣) أَمْكُ إِنْ صَاحَ ^(٤) بَابِ سِكَّةٍ مِنْ سَكِّكَ الْكُوفَةِ ، أَوْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ ، وَقَدْ سَلَطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَابْتَثْ مُرَاصِدَةً عَلَى أَفْوَاهِ السَّكِّ ، وَأَصْبِحْ غَدًا وَأَسْتَبِرِ الدُّورَ ^(٥) ، وَجِسْ خِلَالَهَا ، حَتَّى تَأْتِنِي بِهِذَا الرَّجُلِ » ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد ابن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء . (٢) وكان على شرط ابن زياد . (٣) ثكله : فقده .

(٤) صاحه يصوحه فانصاح : أى شقه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

(٥) سبر الجرح وغيره واستبره : امتحن غوره .

عنقه ، فهوى رأسه إلى الأرض ، وأتبع جسده رأسه ، ثم أمر بهانى بن عروة ، فأخرج
إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هانى ، كتب إلى الحسين : « إني قد بايعني من
أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فمَجَّل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك
ليس لهم في آل معاوية رأى ولا هوى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ،
وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه المسيرَ إلى الكوفة ، أتاه عبد الله ابن عباس ، فقال : « يا بن عمّ إنك قد أرحف الناس أنك سائر إلى العراق ، قَيِّينَ لي ما أنت صانع ؟ » قال : « إني قد أجمعت المسير في أحد يومَي هذين إن شاء الله تعالى » ، فقال له ابن عباس : « فإني أعيذك بالله من ذلك ، أخبرني - رحك الله - أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وَضَبَطُوا بلادهم ، ونَفَوْا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسِرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْكَ إليهم ، وأميرهم عليهم ، قاهرٌ لهم ، وَعَمَّالُهُ تَجِبِي بِإِلَادِهِمْ ، فإنهم إنما دَعَوْكَ إلى الحرب والقتال ، ولا آمنُ عليك أن يَغْرُوكَ ويكذِبُوكَ ويخالفوكَ ويخذلوكَ ، وأن يُسْتَنْفَرُوا إليك ، فيكونوا أشدَّ الناس عليك » فقال له حسين : « وإني أستخير الله وأُنظِرُ ما يكون . »

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدثه ساعة ثم قال :

« ما أدرى ما تَرَكْنَا هؤلاء القومَ وكفنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، وولاءُ هذا الأمرِ دونهم ، خَبِرْني ما تريد أن تصنع ؟ » فقال الحسين : والله لقد حَدَّثت نفسي بإتيان الكوفة : ولقد كتب إلى شيعتي بها وأشرف أهلها ، وأستخير الله » فقال له ابن الزبير : « أما لو كان لي بها مثلُ شيعتك ما عدتُ بها » ثم إنه خشي أن يتهمه فقال : « أما إنك لو أقتَ بالحجاز ، ثم أردت هذا الأمرَ ها هنا ما خولف عليك إن شاء الله » ثم قام فخرج من عنده . فقال الحسين : « ها ، إن هذا ليس شيءٌ ، يؤتاه من الدنيا أحبُّ إليه من أن

أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معى شيء ، وأن الناس لم يبدلوه^(١) ، فَوَدَّ أنى خرجت منها لتخلو له .

فلما كان من العشيِّ أو من الغد ، أتى الحسينَ عبدُ الله بن العباس . فقال :

« يا بن عم ، إني أتصبرُّ ولا أصبر ، إني أتخوف عليك في هذه الوجه الملاك والاستئصال ، إن أهل العراق قومٌ عُذْرٌ^(٢) ، فلا تقرّ بينهم ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفقوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن أبيتَ إلا أن تخرج ، فسيرن إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشعاباً^(٣) وهي أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثُّ دعائكَ ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحبُّ في عافية .

فقال له الحسين : « يا بن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ولكنى قد أزمعت وأجمعت^(٤) على المسير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائراً ، فلا تسير بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك^(٥) ، والله الذي لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصريتك حتى يجتمع علىَّ وعليك الناس أطعتنى ، لفعلتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير . فقال : قرَّت عينك يا بن الزبير ، ثم قال :

(١) أى لم يسووه . (٢) جمع غدور كصبور .

(٣) الشعب بالكسر : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

(٤) يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر وعليه عزمتم عليه وثبت عليه هي .

(٥) أى مع وجودك .

يَاكَ مِنْ قُبْرَةِ بَعْمَرٍ خَلَاكَ الْجَوْفِيُّ وَاصْفَرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرِي (١)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

٢٨ — نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام (٢) على الحسين رضي الله عنه . فقال :

« يا ابن عمِّ ، إنَّ الرِّحِمَ يُظَاثِرُنِي (٣) عليك . ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال: يا أبا بكر ، ما أنت بمن يُسْتَفْشُ فقال أبو بكر :

« كان أبوك أشدَّ بأساً ، والناس له أرْجَى ، ومنه أَسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه — إلا أهل الشام — وهو أعزُّ منه ، فخذلوه وتناقلوا عنه حرصاً على الدنيا وضناً بها ، فخرَّعوه الفيظ وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ، وقد شهدت ذلك كله ورأيتهُ . ثم

(١) القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : يضم القاف والباء ، والجمع قنابر . قال صاحب القاموس : ولا تقل قنبرة (كقنفذة) أو هي لغية ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « والعامية تقول : للقنبرة وقد جاء ذلك في الرجز » ورويا شاهداً عليه أنشده أبو عبيدة . والمعمر : المنزل الكثير الماء والكلاء ، وهو مثل . وأول من قاله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي ، فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيش له ، فنصبه للقنابر وبقي عامة يومه فلم يصد شيئاً ، ثم حمل فخه ورجع إلى عمه ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن مائز لهن من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في الحاجة يتمكن منها صاحبها .

(٢) هو أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي .

(٣) الرحم : القرابة ، ويظاثرني : يمطفي . يقال : ظأرنى فلان على أمر كذا ، وأظأرنى وظاهرنى :

أنت تريد أن تسير إلى الدين عدّوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعنوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحبُّ إليه ممن ينصره ، فاذا ذكر الله في نفسك .

فقال الحسين : « جزاك الله خيرا يا بن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله يكن » فقال : « وعند الله نحتسب أبا عبد الله » .

٢٩ — خطبة عميد الله بن زياد

ولما نبي إلى عميد الله بن زياد خبر الكتاب الذي كتبه الحسين رضى الله عنه إلى أشرف البصرة يستنصرهم سعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أما بعد فوالله ما تُقرن بي الصعبة ، ولا يقمع لي بالشنان ^(١) ، وإني لنِكل ^(٢) لمن عاداني ، ومُسٌّ لمن حاربني ، أنصف القارة ^(٣) من رامها .

يأهل البصرة: إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أي سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولأخذن الأذنى بالأقصى حتى تستمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاق .

أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطئ الحصى ، ولم ينتزعي شبه خال ولا ابن عم .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٠٠)

(١) القمعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وإذا قمع بالشنان للبل نفرت . وهو مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له .
(٢) يقال إنه لنكل شره : أي ينكل به أعداؤه . (٣) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة .

٣٠. خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بهت الحَصَيْنَ بن نُمَيْرِ التميمي، فأمره أن ينزل القادسية، وأن يضع المسالِحَ^(١)، وقدم الحرَّ بن يزيد التميمي بين يديه، في ألف فارس من القادسية، فيستقبل حسينا، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسْمِ ونزل به، فسار إليه الحرُّ حتى وقف هو وخيله مُقَابِلَهُ في حرِّ الظَّهْرِ، وحضرت صلاة الظاهر؛ فخرج الحسين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

« أيها الناس: إنها مَعْذِرَةٌ إلى الله عز وجل وإليكم، إني لم آتِكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت على رُسُلِكُمْ أَنْ أَقْدَمَ عَلَيْنَا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تُعْطُونِي مَا أَطْمَأَنُّ إِلَيْهِ مِنْ عَهْدِكُمْ وَمَوَائِقِكُمْ أَقْدَمَ مِصْرَكُم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين، انصرفت عنكم إلى المسكان الذي أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه، ثم أقيمت الصلاة. فقال الحسين للحر: أتريد أن تصلى بأصحابك؟ قال: لا بل تصلى أنت، ونصلى بصلاتك، فصلى بهم الحسين.

٣١ -- خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر، أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل، ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر، وصلى ثم سلم، وانصرف إلى القوم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

« أما بعد: أيها الناس فإنكم إن تفقوا وتعرفوا الحق لأهله، يكن أرضى الله،

(١) المسالِح: جمع مسلحة بالفتح، وهي القوم ذور السلاح.

ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والمدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجهتكم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم، وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم» .

فقال له الحر: إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر؟ فأخرج له الحسين خرّجين مملوئين صُحُفًا، فنشرها بين أيديهم، ثم سار الحسين في أصحابه والحرّ يسايره .

٣٢ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضي الله عنه بذى حُسم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتناكرت، وأدبر معروفها، واستمرت^(١) جدًا، فلم يبق منها إلا ضيابة كضيابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعملُ به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محققًا، فإنني لارأى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برّ ما^(٢)» .

٣٣ - خطبة زهير بن القين البجلي

فقام زهير بن القين البجلي، فقال لأصحابه: تكلمتُم أم أنكم؟ قالوا: لا، بل تكلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

(١) في كتب اللغة: «مر الشيء يمر بضم الميم وفتحها مرارة وأمر» ولم أر فيها بناء «استمر» ولا ناع منه على أن الهمة والسين والتاء للصيرورة: أي صارت مرة، وتظيره استحجر الطين، واستحصن المهر (صار حصانًا) واستمرّب القوم. وفي الأمثال: «إن البغاث بأرضنا يستنسر» «كان عنزا فاستنيس» «قد استنوق الجمل» . (٢) البرم: السامة والضجر، برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يا بن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ،
وكننا فيها مُخَلَّدِينَ ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة
فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٤ - خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً
مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ ، ناكثًا لعهده الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
يعمل في عباد الله بالإثم والعُدوان ، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن
يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ » ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا
الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنبي ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا
أحق من غير ، وقد أتنى كتبكم ، وقدِمْتُ علىَّ رسلكم ببيعتكم أنكم لا تُسَلِمُونِي^(١)
ولا تُخَذِلُونِي ، فإن تَمَسَّمْتُمْ على بيعتكم تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلنكنم في
أُسْوَةٍ ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلتم بيعتي من أعناقكم ، فلم يرم ما هي لكم
بُنُكْرٌ^(٢) ؛ لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والغرور من اغتربكم ، فحظكم
أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(٢) النكر بضم وبضتين : المنكر .

(١) أسلمه : خذله .

٣٥ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كربة بلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجدية^(١) . فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُهُ عَلَى السَّراءِ والضَّرَّاءِ ، اللهم إني أحمدُكَ على أن أكرمْتنا بالنبوة ، وعلمْتنا القرآن ، وقممتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماء وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد : فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عنى جميعاً خيراً ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً . ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلِّ ، ليس عليكم من ذمام ، هذا الليلُ قد غَشِيكم فاتخذوه جَمَلاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما يطلبونى ، ولو قد أصابوني لَهَوَا عن طلب غيري . »

(١) التقي عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن نسيره إلى أى ثغر من ثغور المسلمين شئتنا ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، وفي هذا لكم رضا وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذى الجوشن ثناه عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنتيه السلامة والبقاء ، ولا لتتعد له عندي شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما ، وإن أبوا فازحف لإيهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم . »

٣٦ - رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته: « لِمَ نَفَعَلُ؟ اِنْتَبَى بِعَمْدِكَ؟ لَأَرَانَا اللهُ ذَلِكْ أَبْدًا » فقال الحسين: « يَا بَنِي عَقِيلِ حَسْبِكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِمَسْلَمٍ ، اذْهَبُوا قَدْ أذِنْتُ لَكُمْ » قالوا: « فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ يَقُولُونَ إِنْ أُنَا تَرَكَنَا شَيْخِنَا وَسَيِدِنَا وَبَنِي عَمُومَتِنَا خَيْرَ الْأَعْمَامِ ، وَلَمْ نَرْمِ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ ، وَلَمْ نَطْعُنْ مَعَهُمْ بِرُمْحٍ ، وَلَمْ نَضْرِبْ مَعَهُمْ بِسَيْفٍ ، وَلَا نَدْرِي مَا صَنَعُوا ، لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ ، وَلَكِنْ تَفْدِيكَ أَنْفُسُنَا وَأَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ، وَنَقَاتِلُ مَعَكَ حَتَّى نَرِدَّ مَوْرِدَكَ ، فَتَقْبِحَ اللهُ الْعَيْشَ بِمَعَكَ » .

٣٧ رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيُّ فقال: « أَمْحَنَ نُحْلَى عَنكَ وَمَلَأَ نَعْدِرُ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْبِرَ فِي صَدُورِهِمْ رَمْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا تَبَّتْ قَائِمَةٌ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتَلَهُمْ بِهِ ، لَقَذَفْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَوْتِ مَعَكَ » .

وقال سعد بن عبد الله الْحَنْفِيُّ: « وَاللَّهِ لَا نُحْلِيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ أَنَّ قَدْ حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُحْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذْرَى ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَلْتَقِيَ حِمَامِي دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قِتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامَةُ الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا » .

وقال زهير بن القين: « وَاللَّهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ حَتَّى أَقْتُلَ كَذَا أَلْفَ قِتْلَةٍ ، وَأَنَّ اللهُ يَدْفَعُ بِذَلِكَ الْقَتْلَ عَن نَفْسِكَ ، وَعَن أَنْفُسِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ » .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، نقيمك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كنا وفينا ، وقضينا ما علينا . »

٣٨ - خطبته غداة يوم قتله

وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« يا عباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لسكنت الأنبياء أحقّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجددوها بالبر ، ونعيمها مضمحل ، وسرورها مكفهر ، والمنزل تلعة^(١) ، والدار قُلة^(٢) ، فتزودوا فإن خير الزاد التَّقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . »

٣٩ - دَعَاؤُهُ وَقَدْ صَبَحَتْهُ الْخَيْلُ

ولما صَبَحَتْهُ الْخَيْلُ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :

« اللهم أنتِ ثِقَّتِي فِي كُلِّ كَرْبٍ ، وَرَجَائِي فِي كُلِّ شِدَّةٍ ، وَأَنْتِ لِي فِي كُلِّ أَسْرٍ نَزَلَ بِي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ ، كَمِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فِيهِ الْفَوَادُ ، وَتَقَلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ ، وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أَنْزَلْتَهُ بِكَ ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةً مَنِي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ ، فَأَنْتِ وَلِيٌّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ . »

(١) التلعة : مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض ، والنزول بالتلعة مخوف ، لأن من نزلها فهو على خطر إن جاء السيل جرفه . (٢) الدنيا دار قلة : أى انقلاخ ، وهو على قلة أى رحلة ، ومنزل قلة أى ليس بمستوطن ، أو لا يملكه أو لا يندى متى نتحول عنه .

٤٠ - خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، ولا تُعجلوني حتى أعظكم ، بما لحقَّ لكم على ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم ، فإن قبيلتم عذري ، وصدقتم قولي ، وأعطيتموني النصف ، كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العذر ، ولم تعطوا النصف من أنفسكم . فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثم أفضوا إلي ولا تنظرون - إن وإي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بناته ، فارتفعت أصواتهن ، فأرسل إليهن أخاه العباس بن عليّ وعليّاً ابنة ، وقال لهما : أشكيتاهن ، فلعمرى لا يكترن بكأوهن

٤١ - خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أما بعد : فانسبوني فانظروا من أنا ؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها ، فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟ ألسنتُ ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم وابن وصيّه ، وابن عمّه ! وأول المؤمنين بالله ، والمصدق لرسوله بما جاء به من عند الله ؟ أو ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجفّاحين عمي ؟ أو لم يبلغكم قولٌ مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولأخي :

هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ، وَيَضُرُّهُ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم . سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك ، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخي ، أفا في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ » .

ثم قال : « فإن كنتم في شك من هذا القول ، أفتشكون أترأ^(١) ما أنى ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ، ولا من غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصة ، أخبروني أطلبوني يقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ؟ أو بقصاص من جراحة ؟ »

فأخذوا لا يكلمونه ، فنأدى ياشبث بن ربعي ، وياحجر بن أبيجر ، وياقيس بن الأشعث ، ويازيد بن الحارث ، ألم تسكتبوا إلى أن قد أيفعت النار ، واخضر الجناب ، وطممت الجمام ، وإنما تقدم على جندك مجند ، فأقبل ؟ قالوا لم نفعل ، فقال : سبحان الله بلى ، والله لقد فعلتم ، ثم قال : « أيها الناس : إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض » . فقال له قيس بن الأشعث : أولاً تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يرؤك إلا ماتحِبُّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه . فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء اللدليل ، ولا أقر إقرار العبيد ، عباد الله ، إننى عذت بربى وربكم أن تترجمون ، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » ، فأقبلوا يزحفون نحوه .

(١) أترا منصوب على نزع الخافض ، أى أفتشكون فى أثر ، وما زائدة ، وأنى ابن بنت نبيكم

٤٢ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذنوب^(١) شاك^(٢) في السلاح فقال :

« يا أهل الكوفة ، نذاري لكم من عذاب الله نذار ، إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة^(٣) ، وكننا أمة وأنتم أمة ، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم ، وخِذْلان الطاغية عبيد الله بن زياد ، فإنكم لا تدرّون كون منهما إلا بسوء ، عُمرَ سلطانهما كلّه ، لَيْسْمُلَانِ أعيديكم^(٤) ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم وَيُمَثِّلَانِ بكم ، ويرفعا نكم على جذوع النخل ، ويقتلان أمائلكم وقراءكم ؛ أمثال حُجْرِ بن عَدِيٍّ^(٥) وأصحابه ، وهاني بن عروة وأشباهه . »

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب . (٢) يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أى دخل ، شك فيه (كرد) شكاً أى لبسه تاماً فلم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شائك السلاح ، وشاكى السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشائك : من شاك الرجل يشاك شوكا (كنام نوما) أى ظهرت شوكته وحدته - والشوكة : حدة السلاح - والشاكي مقلوب . من شائك ، ويقال أيضا رجل شاك السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شاك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كقرح) قلت شاك (بضم الكاف) وهو مثل جرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل مال وفال (بالضم) من المال والنوال وإنما هو مائل ونائل . (٣) العِصمة : القلادة ، أى تفرقت وحدتنا ، وانفردت عقد جماعتنا . (٤) سمل عينه : فقأها بحديدة محماة .

(٥) هو حجر بن عدى بن جبلة الكندي من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له الكوفة والبصرة بلغه أن حجرا مجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية في أمره فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهردا =

فسبّوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعّوا له، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلمياً .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن مسميّة ، فإن لم تنصروهم ، فأعيذكُم بالله أن تقتلهم ، فخلّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلمعمرى إن يزيداً ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين » .

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال : « اسكت ، أسكت الله نأمتك ^(١) ، أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البوّال على عقبيه ، ما إياك أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تحكّم من كتاب الله آيتين ، فأبشّر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » قال : « أفبالموت تخوفنى ؟ فوالله للموت معه أحبّ إلى من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يفرّغنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم قومًا هراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذبّ عن حريمهم » .

فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أفبيل ، فلمعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه ، وأبأغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء ، وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

= أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ؛ ولعن الخليفة ، ودما إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلاً ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم فخلّى سبيلهم ، وقال رسول معاوية للباقيين إذا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فأبرهوا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل نتولاه ونتبرأ من تبرأ منه ، فقتلوا وقتل حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . (١) التامة : الصوت .

٤٣ - خطبة الحر بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحر بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال : « إى والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرؤوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .

ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خِصَلَةً من هذه الخصال التى عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حربته وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلمته ، فكلمته بمثل ما كلمه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حَصَتْ لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت » .

فقال : « يا أهل الكوفة : لِأُمَّمِ الْهَبْلِ وَالْعَبْرِ^(١) إذ دعوتموه ، حتى إذا أنا كم أسلمتموه^(٢) ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتكم بنفسيه ، وأخذتم بكظمه^(٣) ، وأحطتم به من كل جانب . فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضرا ، وحلأتموه^(٤) ونساءه^(٥) وأصبيبيته^(٥) وأصحابه عن ماء الفرات الجارى ،

(١) الهبل : الشكل ، هبلته أمه : كفرح ثكلته وفقدته ، والعبر والعبير (كسبب وقفل) سخنة فى العين

تبيكها ، عبرت العين كفرح جرى دمعها ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبير : دعاء عليه .

(٢) خذلتموه . (٣) الكظم : مخرج النفس . (٤) حلاؤه عن الماء تحليشا وتحلثة : طرده ومنعه .

(٥) مصفر صبية على غير قياس .

الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى ، وتمرغ فيه خنازيرُ السواد وكلابُه ، وهام
قد صرّهم العطش ، بئسما خلقتُم محمداً فى ذريته ، لأسقاكم الله يوم الظام إن لم تتوبوا ،
وتنزِعوا عما أنتم عليه ، من يومكم هذا ، فى ساعةكم هذه .

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واسمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فنوا ، وقتل
الحسين رضوان الله عليه . قتله سنان بن أنس (وكان قتله بالطف^(٦) يوم عاشوراء
سنة ٤٠ هـ) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطنوا خيالمهم الحسين ، فوطنوه بخيالمهم ، ثم حمل
النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨ إلى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١) .

(٦) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحى « حسين » لرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطف ثاوريا

فياليتنى إذ ذاك كنت شهيدته فصاربت عنه الشائنين الأعاديا

سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى بغربية الطف الغمام الغواديا

طلب التوايين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، واتعدوا الاجتماع بالثخيلة للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندّم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرّة وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُفَسَّلُ عارهم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما فرّط منهم في ذلك « فسمّوا التوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة : إلى سليمان بن صرد الخزاعيّ ، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى المسيّب بن نجبة الفزاريّ ، وإلى عبد الله بن سعد ابن نقيّل الأزديّ ، وإلى عبد الله بن وال التيميّ ، وإلى رفاعه بن شداد البجليّ ، ثم إن هؤلاء نفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيّب بن نجبة بالكلام فتكلّم :

٤٤ - خطبة المسيّب بن نجبة الفزاريّ

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا من يقول له غدا : (أُولَمْ نَعْمَرُكُمْ مَا يَتَدَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَدَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بانعه ، وقد كنا مُقَرَّمِينَ بتزكية أنفسنا ، وتقرّبط شيهتنا ، حتى

بلا الله أختيارنا ، فوجدنا كاذبين في موطين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه ، وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً ، وعلانية وسراً ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لأنحن نصرناه بأيدينا ولا جادأنا عنه بأسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصره إلى عشائرتنا ؛ فما عذرنا إلى ربنا ، واعد لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قتل فينا ولده وحببيه وذريته ونسله ، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والمولين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك ؛ فمسي ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ؛ وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن ، أيها القوم ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ، ورأية تحفون بها ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

فبدر (١) القوم رفاة بن شداد بعد المسيب الكلام .

٤٥ - خطبة رفاة بن شداد

حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد هداك لأصوب القول ، ودعوت إلى أرشد الأمور ، بدأت بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ودعوت إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فسموع منك ، مستجاب لك ، مقبول قولك : قلت ولوا أمركم رجلا منكم تفزعون إليه ، وتحفون برأية ، وذلك رأى ، قد رأينا مثل الذى رأيت ، فإن تسكن أنت ذلك الرجل تسكن عندنا مرصيا ، وفينا متنصحا ، وفي جماعتنا محبا ، وإن رأيت (ورأى أصحابنا ذلك) ولينا هذا الأمر شيخ الشيمة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد ، المحمود فى بأسه ودينه ، والموثوق بحزمه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . »

ثم تكلم عبد الله بن والٍ ، وعبد الله بن سعد ، فحمدآ ربهما وأثنيا عليه ، وتكلما
بنحوٍ من كلام رفاعة بن شداد ، فذكر المسيب بن نجبة بفضله ، وذكر سليمان
ابن سرد بسابقته ورضاهما بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم ووفقتم ، وأنا أرى
مثل الذى رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٦ - خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إنى لشاهد بهذا اليوم يوم ولّوا سليمان بن سرد^(١) وإنا
يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم فى داره ، قال : فتكلم سليمان
فشدد ، وما زال يردّد ذلك القول فى كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال :

« أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله ، أما بعد : فإنى والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر (الذى نكّدت
فيه الميثة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجورُ أولى الفضل من هذه الشيعة) لِمَا هو
خيرٌ ، إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ومُنْتَمِيهِم النصر ، ونَحْتُمُّهم على القدوم ؛
فلما قَدِموا وَنَدِينَا وَعَجَزْنَا وَأَذَهْنَا وَتَرَبَّصْنَا وانتظرنا ما يكون حتى قُتِلَ فينا وَلَدِينَا
وَلَدُ نَدِينَا وَسُلَالَتِهِ وَعَصَارَتِهِ وَبَضْعَةٌ^(٢) من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخُ ويسأل
النَّصَفَ^(٣) فلا يُعْطَاهُ ، انخذه الفاسقون غَرَضاً لِلنَّبْلِ ، وَدَرِيَّةً^(٤) للرماح ، حتى أَقْصَدُوهُ^(٥)
وَعَدَّوْا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سَخِطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل^(٦) والأبناء
حتى يَرْضَى اللهُ ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُتَاجَزُوا من قتله أو تُبَيَّرُوا^(٧) ، ألا لاتهابوا

(١) وقد سُمى أمير التوابين . (٢) البضعة بالفتح وقد تكسر : القطعة من اللحم .

(٣) الإنصاف . (٤) مسهل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرى عليها .

(٥) أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلانا : طمته فلم يخطئه .

(٦) جمع حليلة : وهى الزوجة . (٧) بار يبور بوارا : هلك . وأباره أهلته ، أى تهلكتوا أنفسكم .

الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قطُّ إلا ذلَّ ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم » فافعل القوم ؟ جثوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟ أشحدوا السيوف ، وركبوا الأسنة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيل (١) » حتى تدعوا وتستنقروا .

٤٧ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسي يُخرجني من ذنبي ، ويُرضى عني ربي لقتلتها ، ولكن هذا أمرٌ به قومٌ كانوا قبلنا ونهيننا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كلَّ ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين أقوىهم به على قتال القاسطين (٢) » .

وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حسبكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت بماله عبد الله بن وال التيمى تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجه من أموالكم ، جهزنا به ذرى الخلة (٣) والمسكنة من أشياعكم » .

(١) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله فعامل بمعنى مفعول ، أو مصدر سمى به كالمربطة ، أو جمع ربيط

فعليل بمعنى مفعول . (٢) الجائرين ، قسط كجلس قسوطا : جار وعدل عن الحق .

(٣) الخلة : الحاجة والفقير ، وفى المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلال والمرقة .

٤٨ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن سرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه هم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يَجِدُوا ويستعدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن سرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمَعِينَ على نصر الحسين ، وقتالِ عدوه ، فلم يَفْجَأْكم أولُ من قتله ، والله مُتَّبِعُكُمْ على حُسْنِ النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضلَ الأجر والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ » .

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٩ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى مادَعُونَا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسَرَّخْنِي إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لاتعجل ، استمدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير ونسيرون » وكتب سعد إلى ابن سرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٥ - خطبة عبید الله بن عبد الله المرى

وحدث رجل من مُزينة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبغ من عبید الله بن عبد الله المرى في منطق ولا عظة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان ابن صرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكة ، وآمن به سبلكم للخوفة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخريين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، لله أنتم ! ألم تروا ويبلغكم ما أجترم^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وحدثته ، وترميلهم^(٣) إياه بالدم ، ونجس أرواحهم على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنيل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً^(٤) ، فله عيناً من رأى مثله ! والله حسين بن علي ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قلتُ حمانته ، وكثرتُ عداته^(٥) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقائل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجة ، ولا لخاذله معذرة ، إلا أن يُنصح الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقبل العثرة

(١) الشفا : حرف كل شيء . (٢) ارتكب واقرن . (٣) رمه : لطمه بالدم .

(٥) العداة : جمع عاد ، وهو العدو .

(٤) قطعاً .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُجِلين
والمارقين ، فَإِنْ قُتِلْنَا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظَهَرْنَا رددنا هذا الأمر إلى أهل
بيت ندينا .

قال : « وكان يعيد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عامتنا . »

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَجِدُونَ في جمع
آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدمه
حتى كثرت تبعهم ، وكان الناس إلى أتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية (في ١٤ ربيع الأول
سنة ٦٤ هـ) أسرع منهم قبل ذلك .

وقدم المختار بن أنى عبید النقفى الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد
اجتمعت ردوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد ، فليس يَعْدِلُونَهُ به ، فكان
المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان
ابن صرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إني قد
جئتكم من قبيل المهدي محمد بن علي (ابن الحنفية) مؤتمناً مأموناً ، مُنْتَجِباً^(١)
ووزيراً » فزال بهم حتى انشعبت إليه طائفة تُعْظِمُهُ وتجيبه وتبظر أمره ، وعُظُمُ
الشيعة مع سليمان بن صرد .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصارى من قبيل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على
حر بها وثغرها ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبید الله التيمي أميراً على خراجها
(وذلك بعد مقدم المختار بثمانية أيام) وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يذبوا
بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعترام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم
قام في الناس .

(١) المنتجب : المختار .

٥١ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقيل لي زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلِّتُ على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ؟ فوالله ما أنا قتلنا حسيننا ولا أنا من قاتلته ، ولقد أصبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير^(١) ، هذا ابن زياد قاتلُ الحسين وقاتلُ خياركم وأمائكم ، قد توجه إليكم عهدُ العاهد به^(٢) على مسيرة ليلةٍ من جسر منبج^(٣) ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيأقاكم ذلك العدو غداً وقد رَقَّتم^(٤) ، وتلك والله أمنيَّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلقِ الله لكم ، مَنْ ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يُقْلِمَانِ عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي قتلكم ، وَمِنْ قِبَلِهِ أُتِيتُمْ ، والذي

(١) معين . (٢) وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشام ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبيع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييتك عما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ماتصنعه ! وشد من عزمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له فبوع بها ، فلما استوثقت له الشام بالطاعة بعث جيشاً إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً . (٣) بين حلب والفرات . (٤) ضمتم .

قتل من تشأرون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بمحدم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحا^(١) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أمتنا .

٥٢ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة^(٢)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يفرّ تكم من السيف والفتش^(٣) مقالة هذا المداهن الموادع ؛ والله لئن خرج علينا خارج لنعقلنه ، ولئن استيقننا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لناخذن الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن الحميم^(٤) بالحميم ، والعريف^(٥) بما في عرافته ، حتى يدينوا للحق ، ويذلوا للطاعة . »

٥٣ - رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين^(٦) : أنت تهددنا بسيفك وعشمتك ؟ أنت والله أدل من ذلك ، إنا لانلومك على بفضنا وقد قتلنا أباك^(٧) وجدك ، والله إني لأرجو أن لا يخرجك الله من بين ظهراني أهل المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك ، وأما أنت أيها الأمير ، فقد

(١) أي لم أقصر في نصيحتكم . (٢) مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش .

(٣) الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدّة . (٤) حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره .

(٥) العريف : رئيس القوم ، سمى لأنه عرف بذلك ، أو للثقب ، وهو دون الرئيس ، عرف

ككرم وضرب عرانة صار عريفا . (٦) يشير إلى ما كان من جده طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام

علياً ثم نكث بيعة ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عنقه . (٧) قتل محمد بن طلحة يوم

الجل مع أبيه ومر به على ، فقال هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته .

قلت قولا سديدا ، إني والله لأظن من يريد هذا الأمر^(١) ، مستنصحا لك ،
وقابلا قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إى والله ليقتلن وقد أذهنن ثم أعلن » .

٥٤ - رد عبد الله بن وال التيمي

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعترضك يا أخا بنى تيم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا؟ فوالله ما أنت علينا بأمير ،
ولالك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلمر الله لنن كنت
مفسدا ، ما أفسد أسرا هذه الأمة إلا والدك وجدك الننا كنان ، فكانت بهما اليديان^(٢)
وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :

« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا نرجو أن تكون به عند العامة محمودا ، وأن تكون
عند الذي عنيت واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهل هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شخّص سليمان بن صرد في وجوه أصحابه ،
وقد كان واعد أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمسكر بالذخيلة ، وأقام بها ثلاثا يبعث
ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّرهم الله وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب
ابن نجبة ، فقال : « رحك الله إنه لا ينفك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته

(١) أى الطلب بدم الحسين رضى الله عنه . (٢) تقول العرب : كانت به اليدان ، أى فعل الله به

مايقوله لى ، ومرقوم من الخوارج بقوم أصحاب على وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليدان أى حاق
بكم ما تدعون به وتبسطون أيديكم .

النية ، فلا تنتظرن أحدا ، واكش^(١) في أمرك « قال : « فإنك والله لنعميما رأيت » فقام سليمان بن صرد في الناس متوكئا على قوس له عريمة فقال :

٥٥ - خطبة سليمان بن صرد

« أيها الناس : من كان إنما أخرجه إرادة وجه الله وثواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه ، فرحة الله عليه حيا وميتا . ومن كان إنما يريد الدنيا وحزنها^(٢) ، فوالله ما أتى قيتما نستيفيته ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البلغة^(٣) إلى لقاء عدونا ، فن كان غير هذا ينوي فلا يصحبتنا » .

٥٦ - خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني فقال :

« آتاك الله رشدا ، ولقأك حجتك ، والله الذي لا إله غيره مالنا خير في حجة من الدنيا همته ونيتة . أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبة من ذنبا والطلب بدم ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما تقدم على حد السيوف وأطراف الرماح »

فتنادى الناس من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا » .

٥٧ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادي الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رموس أصحابه جلوس حوله :

(١) أسرع ، كش ككرم كاشة فهو كش (كشهم) وكيش ، أى سريع .

(٢) أى كسبها ومتاعها . (٣) ما يبلغ به .

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفقّ ، وإن يكن ليس بصواب فينبغي قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نصّحاً ، خطأً كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين وقبيلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورواس الأرباع^(١) وأشراف القبائل ، فأني نذهب هاهنا ونُدع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ » .

فقال سليمان بن صرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلتقي من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٨ - رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكى ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرْجَانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يظهركم الله عليه ، رجونا أن يكون من بعهده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنتظرون إلى كل من شريك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تفشّموا^(٣) ، وإن تستشهدوا فإنما قاتلم الموحدين ، وما عند الله خير للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب أن تجملوا حدكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين ، والله

(١) كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتقسيم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وصحفته العامة فقالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويحسن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب »

(٢) الأقتال : جمع قتل بالكسر ، وهو المدو والمقاتل ، والأوتار : جمع وتر ، الجناية والثأر ، أى وندع

أعادنا وذوى ثاراتنا . (٣) غشمه : كضرب ظلمه .

لو قاتلتم غداً أهل مصركم ، ما عدِمَ رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ،
أو رجلاً لم يكن يريد قتله ، فاستخيروا الله وسيروا » فتهياً للناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد وأصحابه
فراياً أن يأتيهم ، فخرجوا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهيا إلى ابن سرد دخلا عليه .

٥٩ — خطبة عبد الله بن يزيد

حمد الله عبدُ الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يفسدُهُ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ، وأحبُّ أهل
مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تَفْجَمُونَا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصُوا عددنا
بمخروجاتكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتميسر ونهتياً ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف
بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .

وتسكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٦٠ — خطبة سليمان بن سرد

حمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لها :

« إني قد علمت أنكما قد محضتما^(١) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله
وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا
إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نعبئ معكم جيشاً كثيراً فتلقوا عدوكم

(١) محضه الود وأحضره : أخلصه .

بِكْتَفٍ^(١) ، وَجَمْعٌ وَحَدٌّ » فقال له سليمان : « تنصرفون وزي فيما بيدنا ، وسيأتكم إن شاء الله رأي » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخص ، واستقبال ابن زياد .

٦١ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن صرد قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا بُجَارًا ، وللآخرة تجاراً ؛ فأما تاجر الآخرة فساع إلىها متنصب^(٢) بتطلابها ، لا يشتري بها ثمنًا ، لا يرمى إلا قائمًا وقاعدًا ، وراكعًا وساجدًا ، لا يطلب ذهبًا ولا فضة ، ولا دينًا ولا لذة ؛ وأما تاجر الدنيا ، فكسب عليها ، رايغ فيها ، لا يبتغي بها بدلًا ، فعليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيرًا على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قد زتم عليه ، حتى تلقوا هذا العدو ، والمجبل القاسط فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثوابًا من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنام العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللاؤاء^(٣) وإنا مُدْجُون^(٤) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلُّوا »

فأدلى عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال يسير حتى انتهى إلى عين الورد^(٥) فنزل في غر بيها .

(١) الكتف : الجماعة . (٢) أي قد نصب نفسه طالبًا لها ، نصب الشيء : رفعه فانتصب وتنصب .

(٣) الشدة . (٤) أدلىج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فادلىج بالتشديد .

(٥) هي رأس العين : بلد في وسط الجزيرة .

٦٢ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة . قال عبد الله ابن غزيرة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم أحصه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آباء^(١) الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذرين ، فقد جاءوكم بل جثثهم وأنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يوليهم أمرؤ دبره إلا متحرفاً^(٢) لقتال أو متحيزاً^(٣) إلى فئة ، لا تقتلوا مذبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم^(٤) إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أو يكون من قتل إخواننا بالطف رحمة الله عليهم ، فإن هذه كانت مسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة . »

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبید الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رهوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله بن والير ، فلما رأى من بقي

(١) آباء الليل : ساعاته واحداً إلى (كألى) أو إلى (كحمل) أو إنو كذلك .

(٢) أى منعطفاً يريد الكر بعد الفر وتغيير العدو ، فإنه من مكاييد الحرب .

(٣) أى منحازاً إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم .

(٤) ملتكم .

من التوابع أن لا طاقة لهم بمن يذأهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم
رفاعة بن شداد البجلي .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ)^(١) .

٦٣ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأنى عبد الملك بن مروان بيشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رموس أهل العراق مُلقِح^(٢) فتنمة ، ورأسَ
ضلالة ، سليمان بن صُرَد ، والأ وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريِف^(٣) ،
ألا وقد قتل من رموسهم رأسين عظيمين ضالين مُضايين : عبد الله بن سعد أخا الأزد ،
وعبد الله بن والٍ أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دِفَاعٌ ولا امتناع » .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

(١) وقال المسعودى في مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الوردة كانت في سنة ٦٦ هـ » .

(٢) أصله : من ألقح النخلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . (٣) تركت للسيوف رأسه
خذاريِف : أى قطعاً كل قطعة كالخذروف ، والخذروف : كمصفور شئ يدوره الصبى بخيط في يديه فيسمع
له دوى (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٤ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أوى عبىء الثقفى^(١) الكوفة فى النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأناه بعض الشيعة ليلا ، فساء لهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعى ، وإنه إن يلبث إلا يسيرا حتى يخرج . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) هو المختار بن أبى عبىء بن مسعود الثقفى ، وقد قدمنا فى الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولى الخلافة أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام ، فلا يندب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول منتدب أبو عبىء ابن مسعود ووالد المختار ، ولم يكن المختار فى تشييمه لآل على بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه فى أمر الحسن بن على رضى الله عنه يوم طعن فى مظلم ساياط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد ابن مسعود عاملا على المدائن - فقال له المختار : هل لك فى الفنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتمتأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ! بنس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله تعالى عنه نزل دار المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فمسجن ، وبعث المختار إلى عبء الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت صفية أخت المختار تحت عبء الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلى سبيله ، فشفعه فيه ، وخلى ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقاىل ٥٥٠ حين حاصر مكة جيش يزيد - وكان تحت إمرة الحصين بن نمير السكوفى - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة فى منتصف رمضان سنة ٦٤ هـ .

« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،
وَمُنْتَجِباً وأميراً ، وأمرني بقتال المُلْحِدِينَ ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئتم من قِبَلِ وَلِيِّ الأَمْرِ ،
وَمَعْدِنِ الفضل ، ووصي الوصي ، والإمام المهدي ، بأمر فيه الشفاء ، وكشفُ الغطاء ،
وقتلُ الأعداء ، وتعمامُ النعماء . إن سليمان بن صُردٍ يرحمنا الله وإياه ، إنما هو عَشْمَةٌ^(١)
من القَسَمِ ، وَحِفْشٌ^(٢) بَالٍ ، ليس بذی تجربة للأُمُور ، ولا له علمٌ بالحروب ، إنما
يريد أن يخرجكم فيقتلَ نفسهُ ويقتلكم ، إني إنما أعملُ على مِثَالِ قَدُمْتَلِّ لِي ، وأمرٍ
قد بُيِّنَ لِي ، فيه عزٌّ وليكم ، وقتلُ عدوكم ، وشفاءُ صدوركم ، فاسمعوا مني قولي ،
وأطيعوا أمري ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنني لكم بكل ما تأملون خيرٌ زعيم » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وعظَّمهم يومئذ مع
سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري
— أمير الكوفة من قبل ابن الزبير — أن يثب المختار عليه ، فزجَّه في السجن .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٥ — ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردُّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَا وَرَبِّ البِحَارِ ، والنخيل والأشجار ، والمِهَامَةِ^(٣) والقِفَارِ ، والملائكة الأبرار ،

(١) العشمة : الشيخ الفاني للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحنى الظهر ، وكان عمر بن صرد حين

قتل ٩٣ سنة . (٢) الحفش : الشيء البالي ، والجوالق العظيم البالي ، وما كان من أسقاط الآتية كالتقوارير
وغيرها ، وأحفاش البيت : وذال متاعه .

(٣) المهامة : جمع مهمه كجعفر ، وهو البلد المقفر ، والمفازة البعيدة .

والمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، لِأَقْتِنَانِ كُلِّ جَبَّارٍ ، بِكُلِّ لَدْنٍ خَطَّارٍ^(١) ، وَمُهَنْدٍ بَجَّارٍ^(٢) ،
فِي جُوعٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، لَيْسُوا بِمَيْلِ أَعْمَارٍ^(٣) ، وَلَا بِعُزْلِ^(٤) أَشْرَارٍ ، حَتَّى إِذَا أَقْتُ
عَمُودَ الدِّينِ ، وَرَأَيْتُ شَعْبَ^(٥) صَدْعِ الْمَسْلُومِينَ ، وَشَفَيْتُ غَلِيلَ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَأَدْرَكْتَ بِنَارِ النَّبِيِّينَ ، لَمْ يَكْبُرْ عَلَيَّ زَوَالُ الدُّنْيَا ، وَلَمْ أَحْجِلْ بِالْمَوْتِ إِذَا آتَى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه
الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل
أصحابه يكثرون ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة
وولى عليها عبد الله بن مطيع العدوي .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٦ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة

وَقَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَطِيْعِ الْعَدَوِيِّ الْكُوفَةَ (لِخَمْسِ بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ ٦٥) فَصَلَّمَ
الْمَنْبِرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ :

«أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وتغوركم ،
وأمرني بجباية فيئكم ، وأن لا أحجل فضل^(٦) فيئكم عنكم إلا برضا منكم ، ووصية
عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته^(٧) ، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها
في المسلمين ، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، وإلا تفعلوا

(١) الرمح اللدن : اللين ؛ وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف ، وقد لدن كسكرم لدافة ولدونة ،
والرمح الخطار : أى المهتز ، خطر كضرب خطرانا . (٢) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ،
والبتر : القطاع . (٣) ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن
لا ترس معه أولا سيف أو لارمح ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور .
(٤) العزل : جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه . (٥) الشعب : الصدع أى الشق ، ومن
معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصلحه . (٦) الفضل : الزيادة .
(٧) انظر وصيته الخليفة من بعده . ج ١ : ص ٢٦٣ .

فَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَلُومُونِي ، فَوَاللَّهِ لِأَوْقَعَنَّ بِالسَّقِيمِ الْعَاصِي ، وَلَأَقِيمَنَّ دَرَأًا^(١)
الْأَضْعَرَّ^(٢) الْمُرْتَاب .

٦٧ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رهوس أصحاب المختار -

فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاَّ تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشْهَدُكَ
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيئنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلا فينا ، وأن لا يُسَارَ فينا إلا بسيرة
عليّ بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلك رحمةُ الله عليه ، ولا حاجة
لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت أئرةً وهوى ، ولا في سيرة
عمر بن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين علينا ضرًا ، وقد كان لا يَألو
الناسَ خيرًا » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وَبَرٌّ ، رأينا مثلُ رأيه ،
وَقَوْلًا مثل قولهِ ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وَهَوَيْتُمُوهَا ،
ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها يا سائب ، لا يَعدَمُكَ المسلمون !

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

(١) الدرأ : الميل والعوج في القناة ونحوها . (٢) الصمر محرّكة : ميل في العنق وانقلاب

في الوجه إلى أحد الشقين ، صمر كفرح فهو أصمر ، وربما كان الإنسان أصمر خلقة ، وصمر خده بالتشديد :
أماله عن الناس إعراضًا وتكبرًا .

٦٨ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب بالكوفة في الحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهمضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا . »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووقفتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة أخرى له

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنكم أهلُ بيتٍ خصَّكم الله بالفضيلة ، وشرفكم بالنبوة ، وعظَّم حقكم على هذه الأمة ، فلا يجهلُ حقكم إلا مغبونُ الرأي ، محسوسُ النصب ، قد أصبتم بحسينٍ رحمة الله عليه ، عظمت مصيبة ! ما قد خصكم بها ، فقد عمَّ بها المسلمون ، وقد قدَّم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء فبايعناه على ذلك ، ثم إننا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحوٍ مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا -
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٧٠ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ،
والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان
في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحمة ^(٢) كتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفع
بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضّح بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ،
وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدماننا ،
فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم . »

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله انتصر لنا
من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لاتفعلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة المختار

وبلغ المختار نخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخذل الشيعة عنه ،
فكان يقول :

« إن نفيراً منكم ارتابوا ، وتحيروا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبِلوا وأنابوا ، وإن هم

(١) يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . (٢) الملحمة : الواقعة العظيمة القتل .

كَبُورًا وَهَابُوا ، وَاعْتَرَضُوا وَانْجَابُوا^(١) ، فَقَدْ ثَبَرُوا^(٢) وَحَابُوا^(٣) » وَأَقْبَلَ الْقَوْمَ فَدَخَلُوا
هَلِي الْمَخْتَارَ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَا وَرَاءَكُمْ ؟ قَدْ فُتِنْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ، فَقَالُوا لَهُ : قَدْ أَمَرْنَا بِنَصْرَتِكَ ،
فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! أَنَا أَبُو إِسْحَقَ ! اجْمَعُوا إِلَى الشَّيْعَةِ ، فَجَمَعَ لَهُ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا
فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ : إِنْ نَفَرْنَا مِنْكُمْ أَحْبَابًا أَنْ يَعْلَمُوا مِصْدَاقَ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَوَرَّحُوا
إِلَى إِمَامِ الْهُدَى ، وَالنَّجِيبِ الْمُرْتَضَى ، ابْنَ خَيْرٍ مِنْ طَشَى^(٤) وَمَشَى ، حَاشَا النَّبِيَّ الْمُجْتَبَى^(٥)
فَسَأَلُوهُ عَمَّا قَدِمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَنَبَّأَهُمْ أَنِّي وَزِيرُهُ وَظَهْرِيهِ ، وَرَسُولُهُ وَخَلِيلُهُ ، وَأَمْرُكُمْ بِانْبِئَانِي
وَطَاعَتِي فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، مِنْ قِتَالِ الْمُجَلِّينَ ، وَالطَّلَبِ بِدِمَاءِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكَ الْمُصْطَفَيْنَ .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ — خطبة عبد الرحمن بن شريح

فَقَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شَرِيحٍ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدَ : يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ فَإِنَا قَدْ كُنَّا أَحْبَبْنَا أَنْ نَسْتَثْبِتَ لَأَنْفُسِنَا خَاصَّةً ، وَجَمِيعَ
إِخْوَانِنَا عَامَةً ، فَقَدِمْنَا هَلِي الْمُهْدَى بْنِ هَلِي ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ حَرْبِنَا هَذِهِ ، وَعَمَّا دَعَانَا إِلَيْهِ
الْمَخْتَارِ مِنْهَا ، فَأَمَرْنَا بِمُظَاهَرَتِهِ وَمَوَازَرَتِهِ ، وَإِجَابَتِهِ إِلَى مَا دَعَانَا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلْنَا طَيِّبَةً أَنْفُسُنَا

(١) انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسلخوا منا وانشقوا علينا .

(٢) ثبر ، كقعد ثبوراً : هلك . (٣) حاب : أثم ، والحبوب بالفتح والضم : الإثم ، وفي الأصل
خابوا ، وأرى أن تكون بالخاء لتقدم كلمة خابوا في أول قوله .

(٤) هكذا في الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » في كتب اللغة ، وفي لسان العرب « تطشى المريض يرى »
وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه إتباع لفعل قبله
انتقويته وتوكيده ، وهو كثير في كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفريت ، وعطشان نطشان
وشحیح بحيح ، وكثير بثير ، وحيالك الله وبيالك - وإن قيل إن الإتياع لا يكاد يكون بالواو - اقرأ باب
الإتياع في الزهر للسيوطي (١ : ٢٤٤) وفي الأمالي (٢ : ٢١١) . (٥) المختار .

منشحة صدرنا، قد أذهب الله منها الشك وَالزَّلَّ وَالرَّيْبَ، واستقامت لنا بصيرتنا
في قتالنا عدونا، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم، واستعدوا وتأهبوا ثم جلس .
وقاموا رجلاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه، فاستجمعت له الشيعة وَحَدِّبَتْ^(١) عليه.
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٣ - خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم بن الأشتر^(٢)
يدعوه أن يناصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائِد فجلسوا عليها ،
وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :

« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ، أما بعد :
فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو خيرُ أهل الأرض
اليومَ ، وابنُ خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن
تنصرنا وتوازننا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ،
وسيفي الله المهدي محمداً وأوليائه عنك^(٣) » فبايعه إبراهيم .

(١) عطف . (٢) وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إلى زمريتهم فقال : إنني قد أحببتكم
إلى مادعوتكم إلي علي أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالقتال وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رد عليهم .

(٣) ثم دفع إليه الكتاب ففرض خاتمه وقرأه ، فإذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى
إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنني قد بعثت
إليكم بوزيري ، وأميني ، ونجيبتي الذي ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرته وأجبت دعوته ، وساعدت وزيري كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمانة الخيل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين
الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل ، =

وجعل المختار وأصحابه يديرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشِب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٤ - خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حلت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرّضاً، فقال: « يا معشر الشيعة : قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمَل أعينكم ، وتُرفعون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهرُوا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عينا تطرف^(١) ، وليقتلنكم صبرا^(٢) ، وآتروُن منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خيرٌ منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظمن الصائب في أعينهم ، والضرب الدراك على هامهم ، فتيسرُوا للشدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رابتي مرتين فاحلوا . » (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٥ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام في الناس ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

— الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقبله أبداً ، والسلام عليك « فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ، قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلى إلا بإسمة واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : ابسط يدك أبابعدك فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

(١) طرف البصر (كضرب) تحرك، وطرف بصره (كضرب أيضا) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) قتل صبوا : هو أن يجلس ويرى حتى يموت .

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عَجَزَكم عن عصابة منكم ، قليلٍ عددها ،
خبِيثٍ دينها ، ضالَّةٍ مُضِلَّةٍ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حرِّمكم ، وقاتلوهم عن مصركم ،
وامنعوا منهم فيثكم ، وإلا ليشاركنكم في فيثكم من لا حق له فيه ، والله لقد بلغتني
أن فيهم خمسمائة رجل من محرِّريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهابُ عزِّكم وسلطانكم ،
وتعزُّدُ دينكم حين يكثرون » . ثم نزل . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٦)

٧٦ - تحريض ابن الأشر في أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدده ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه
فقال لهم :

« قربوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُضِلِّين^(١) السيوف ،
ولآيهُوننكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بن رِبْعِيٍّ ، وآلُ عُتَيْبَةَ بن النَّهَّاسِ ، وآلُ الْأَشْعَثِ ،
وآلُ يَزِيدِ بن الحارث ، وآلُ فلان - فسَمِّيَ بيوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال :
إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا^(٢) عن ابن مطيع انصفاقَ الْمِزْمَرِ
عن الذئب » ثم قال لأصحابه شدُّوا عليهم ، فدَاكم عى وخالى .

فما لبثهم أن هزهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا
السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧)

٧٧ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بن رِبْعِيٍّ أن يخرج
من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عند من يستنصحه ، ويتق به ،
ولا يُعلمُ بمكانه إلى أن يخرج فيباحق بصاحبه (ابن الزبير) .

(١) أصلت السيوف : جرده من غمده . (٢) انصفق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صَنَعُوا هذا مِنْكُمْ مَنْ هُمْ ، وقد علمت إيمانهم أراذلكم وسفهاؤكم وطفانكم وأخسائوكم ، ما عدا الرجل أو الرجلين ، وأن أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبْلِغ ذلك صاحبي ، ومُعَلِّم طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتكم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » .

فقال له شَبَّتَ : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَفْتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاك الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذي وعد وليّه النصرَ ، وعدوّه الخُسْرَ ، وجمله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من افتري ، أيها الناس : إنه رُفِعَتْ لنا رايةٌ ، ومُدَّتْ لنا غايةٌ ، فقيل لنا في الراية أن ارفعوها ولا تَضَمُّوها ، وفي الغاية أن أجروا إليها ولا تَعُدُّوها ، فسمنا دعوة الداعي ، ومقالة الواعي ، فكم من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتَلِي

فِي الْوَاعِيَةِ^(١) وَبَعْدَ الْمَنْطِيِّ ، وَأَدْبَرَ وَعَصَى ، وَكَذَّبَ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَيَايَعُوا بَيْعَةَ هُدَى ، فَلَا وَالَّذِي جَمَلَ السَّمَاءَ سَقَمًا مَكْفُورًا^(٢) ، وَالْأَرْضَ فِجَاجًا^(٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ عَلِيٍّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطالب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحجّين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سالنا ، والوفاء ببيعتنا ، لأنقياسكم ولا نستقيلكم ، فإذا قال الرجل نعم : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضي الله عنه والمشايخ طلي قتلته ، فقتل من قدر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ، وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٩ - خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضي الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعددهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له^(٤) نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

(١) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب نعيمهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الثأر من أهدائهم الذين لم يكفهم ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء وبكاهم .

(٢) الكفة بالكسر ويضم : حبال الصائد ، وكل مستدر . (٣) الفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواضح الواسع . (٤) وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة - وكان ابن الزبير يفضيه ويحسده على أيده وقوته - فحبسه مع أربعة عشر رجلا من

« هذا كتاب مَهْدِيَّتِكُمْ ، وصریح^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا مَحْظُورًا^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار ، في آناء الليل وتارات^(٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرًا مُؤَزَّرًا^(٤) ، وإن لم أسرِّب إليهم الخليل في إثر الخليل ، كالتسيل يتلوه السيل ، حتى يَحْمِلَ بَابِن الكاهلية^(٥) الويلُ » .

(تاريخ قطربى ٧ : ١٣٦)

بنى هاشم في سجن عارم وقال : لتباين أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهدا إن لم يبايعوا أن ينفذ فيهم ماتوعدم به ، وضرب لهم في ذلك أجلا . فكتب ابن الحنفية إلى المختار مستصرخا ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسكرون الليل ويكننون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقى من الأجل يومان . فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : دخل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إني لا أستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

(١) الصريح : الخالص من كل شيء . (٢) حظر الشيء وعليه (كقتل) منعه وحجر ، ويقال لما حظر به على الغنم وغيرها لينمها ويحفظها حظيرة . (٣) جمع تارة ، وهى هنا الحين .

(٤) نصر مؤزر : أى بالغ شديد من التنازير وهو التقوية .

(٥) ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، فهو عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت عمرو ابن خنثر بن ربيعة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك الوالى الأسدى - من بني أسد بن خزيمه - أتى ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتى ، ونقبت راحلتى (نقب الخلف كفرح : رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها ففعل ، فقال : « أرقعها بسبت ، واخصفها بهلب ، وأنجد بها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كحمل كل جلد مدبوغ . والهلب كقفل : الشعر أو ماغلظ منه أو شعر الذئب أو شعر الخنزير الذى يخرز به ، والبردان بفتح الباء وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشى) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مستحملا ، ولم آتتك مستوصفا ، فلن الله ناقة حملتى إليك (مستحملا أى طالبا أن تحملى على ناقة أخرى تعطينها) قال ابن الزبير : « إن وراكها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فانصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعرا منه قوله :

٨٠ - خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣) فقال للناس:

أقول لعلتى شدوا ركابي
فألى حين أقطع ذات هرق
أجاوز بطن مكة فى سواد
إلى ابن الكاهلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهاتى فميرنى بها وهى خير عماتى » - انظر الأغاني « ١ : ٨ » وشرح ابن أبى الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » ومجمع الأمثال للميدانى (١ : ٧٥) وفيه « فلما يبلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لى أما الأمام من عمته لسنى بها » وبهذه المناسبة نقول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانفضاض الناس من حوله ، روي أنه كان يطعم جنده تمرًا ويأمرهم بالحرب فإذا فروا من وقع السيوف لأمهم وقال لهم : أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم : ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يبنى الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماع فى صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رمحا أعطاه رمحا ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا . وجاءه أعرابي سائل فردده ، فقال له : لقد أحرقت الرمضاء قدى ، فقال : بل عليهما يبردا ، (ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس بمكة ، فأنزله دار الضيفان - وكان ينزلها الغرباء وأبناء السبيل والضيغان - فأقام يومه لم يطعم شيئا ، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهلم نيف وسبعون رجلا ، فغضب معن وخرج من عنده ، فأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه ، ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه ، وأقام عنده ثلاثا حتى رحل ، فقال معن فى ذلك :

رمانا أبو بكر (وقد طال يومنا)
وقال : اطعموا منه « ونحن ثلاثة »
فقلنا له : لا تقربوا ، فأماننا
وكن آمننا وارفق بتيسك إنه
بتيس من الشاه الحجازى أعفر
وسبعون إنسانا « فوالقوم مخبر !
جفان ابن عباس العلاء وابن جعفر
له أعنز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ .

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل

الصلاة كثير الصيام ، ولسكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا » « تاريخ الطبري ج ٨ : ص ٥٨ .

(١) قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشا عليه عبيد الله بن زياد ،

وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردة من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . (٢) وقد خرج يشيعه ماشيا ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدمائى فى نصرة آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعة فرسخين .

(٣) وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا فدعواها ، وإن =

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حصتم حيصة^(١) فإني أجد في مُحكم الكتاب ،
وفي اليقين والصواب ، أن الله مؤيدٌكم بملائكة غضاب ، تأتي في صور الحمام دُورين^(٢)
السحاب . »
(الكامل لمبرد ٢ : ١٦٩)

٨١ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مصعب بن الزبير إليه من البصرة^(٣) ، قام في أصحابه فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة ، يأهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة
الرسول ، وآل الرسول ، إن فراركم الذين بَغَوْا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين
فاستغَوْهم عليكم ، لِيَمَّصِح^(٤) الحقُّ ، وَيَنْتَعِشَ الباطلُ ، وَيُقْتَلَ أولياء الله ، والله
لو تهلكون ما عبد الله في الأرض إلا بالقرمي^(٥) على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ،

= رأيت الأمر علينا فأرسلوها ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة في أول النهار ، فأرسل أصحاب
المختار الطير ، فصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلطت الظلام ، وأسرع القتل في
أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأثير : لقد ضربت رجلا على
شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبى فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداما وجراة فصرعته ، فذهبت يده
قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب : فانظروه فانتمسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٨٦٧ هـ .

(١) حاص يحيص حيصا : عدل وهرب . (٢) مصغر دون : أي قريبا منه .

(٣) وكان أخوه عبد الله بن الزبير بعثه عليها (سنة ٨٦٧ هـ) بعد هزل القبايع عنها (والقباع كشجاع
هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب
شيث بن ربيعي ، وجاءه أشرف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب
صبيدهم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

(٤) مصح كنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولي لون زهره : والظال قصر .

(٥) فرى الكذب كرمى : اختلقه كافتراه .

أَتْتَدَبُوا^(١) مع أحرر بن شَمَيْط : فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد^(٢) وإلزام .

وتزاحف الجنندان ، واهزم أصحاب المختار ، وقتل (في رمضان سنة ٦٧)^(٣) .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٤٨)

(١) اقتدب إليه : أسرع . (٣) أي أهدمتموهم كما باد هؤلاء .

(٢) قال أبو العباس المبرد في الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا في ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمر تكون ثم يحتمل فيوقمها ، فيقول للناس : ههنا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَقَبْرَانِ مِنَ السَّمَاءِ نَارَ دَهْمَاءَ ، فَلْتَحْرِقَنَّ . دار أسماء » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع أبو إسحق ؟ هو والله محرق داري ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال في بعض سجمه : « أَمَا وَالَّذِي شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْعَصِيَانَ ، لِأَفْتَلَنَّا أَزْدَ عَمَانَ ، وَجَلَّ قَيْسِ عَيْلَانَ ، وَتَمِيمَا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبِ ظَبْيَانَ » فكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل في عمر المختار أنقلب آتانا .

وقال ابن عدي ربه في العقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وعمر ابن سعد جعل يتبع قتلة الحسين بن علي ومن سخله فقتلهم أجمعين ، فلما أقتنهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبيح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي ، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعني مصعبا) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه » .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البده على الله تعالى ، والبده له معان ، البده في العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبده في الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبده في الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبده ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما يوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جملة =

٨٢ - خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

خطب ابن الزبير فقال من الإمام على كرم الله وجهه ، فباغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وُضع له كرسى قدامه ، فعلاه وقال :

« يا معشر قريش ، شاهدت الوجوه ^(١) ، أَيْنَقَصَ على وأنتم حضور ؟ إن علياً كان ستمها صادقاً ، أحد مرآى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهوؤهم ^(٢) ما كلبهم ، فنقل عليهم ، فرموا بصرة الأباطيل ^(٣) ، وأنا معشر له على نهج ^(٤) من أمره بنو الحنيفة ^(٥) من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة نذر عظامهم ، ونحسر ^(٦)

دايلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعائه ووجاهه ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهمة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولستم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محل فيكم محل التابوت في بني إسرائيل وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم أخذوا من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - انظر قصته في تاريخ الطبري (٧ : ١٤٠) .

(١) شاه وجهه : قبح . (٢) هوعه ما أكل : قياها . (٣) مؤنث صرف ، والصرف : الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة أو إبطالة بكسرها أو هو جمع باطل على غير قياس . (٤) النهج : الطريق الواضح .

(٥) الحنيفة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو بها . (٦) حسره كحصر وضرب : كشفه .

عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .
فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتسكلمون ، فما بال
بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان ^(١) ، ومالي لا أتسكلم ؟ أليست فاطمة
بنت محمد حَلِيلَةَ ^(٢) أبي وأمّ إخوتي ؟ أليست فاطمة ^(٣) بنت أسد بن هاشم جدتي ؟
أليست فاطمة ^(٤) بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ^(٥)
ما تركت في بنى أسد عظماً إلا هشمته ، وإن نالتني فيه المصائب صبرت .
(مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٣ -- عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قریش ، فلما سلم وجلس ،
قال له معاوية : « إنى أريد أن أسألك عن مسائل » قال : « سل عما بدا لك » قال :
« ماتقول في أبى بكر ؟ » قال : « رحم الله أبا بكر ، كان والله للقرآن تالياً ، وعن
المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبال معروف آمراً ،
وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ^(١) ، وسادهم زهداً وعفافاً ،
فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه » قال معاوية : « إيهما ^(٢) يابن عباس ، فما تقول
في عمر بن الخطاب ؟ » قال : « رحم الله أبا حفص عمر ، كان والله حليف الإسلام ،

-
- (١) أم رومان بنت عامر هي زوج أبي بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . (٢) زوجته .
(٣) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام على كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد عشر
من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .
(٤) هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم أبي طالب ، وهي أم عبد الله والد سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم . (٥) هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعمة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .
(٦) أى رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٧) أمر بالسكوت
أى حسبك .

ومأوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحلّ الإيمان، وَكَهْفٌ^(١) الضعفاء، وَمَمْقِلُ
الحنفاء^(٢)، قام بحق الله عزّ وجلّ صابراً مُحْتَسِباً^(٣)، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد
وَأَمَّنَ العبادَ، فأعقب الله على من يَنْقُصُهُ اللعنة إلى يوم الدين. قال: «فما تقول
في عثمان؟» قال: «رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجماعة^(٤)، وأفضل البرّة،
هَجَاداً^(٥) بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهأصاً عند كل مَكْرُمة، سَبَّاقاً
إلى كلِّ مَنَحَةٍ، حَمِيماً أَيْباً وَفِيّاً، صاحب جيش العُسرة^(٦)، وَخَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صلى الله عليه وآله، فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين، إلى يوم الدين» قال:
«فما تقول في علي؟» قال: «رضى الله عن أبي الحسن، كان والله عَلمَ الهدى، وَكَهْفُ
الثَّقِي، وَنَحْمِلُ الْحِجَابِ^(٨)، وَبِحْرِ النَّدى، وَطَوْدِ النَّهْيِ^(٩)، وَكَهْفِ العِلا، لِلوَرَى داعياً
إلى المَحَجَّةِ^(١٠)، متمسكاً بالمرؤة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمّص
وارتدى، وأبرّ من اتعمل وَسَمَى^(١١)، وأفصح من تنفّس وقرا، وأكثر من شهّد
النَّجْوَى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد؟
وأبو السَّبْبَلَيْنِ^(١٢) فهل يقارنه بشر، وزوج خير النِّسوان^(١٣)، فهل يفوقه قاطن بلد؟
لِلأَسود قتال، وفي الحروب ختال^(١٤)، لم تر عيني مثله ولن ترى، فعلى من انتقصه

-
- (١) الكهف: الملجأ، وكذا العقل. (٢) جمع حنيف، وهو الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه.
(٣) احتسب بكذا أجراً عند الله: اعتده ينوي به وجه الله. (٤) الكرام، يقال للكرم: جمع يفتح فسكون، فأما إذا قيل فلان جمع اليمين أو جمع الأنازل فهو البخيل، وربما لم يذكروا معه اليد.
(٥) الهجاء والمجود: يفتح الهاء، والمتجد: المصل بالليل. (٦) تقدم شرحه في خطبة ذى
الكلع الحميرى. راجع الجزء الأول ص ٣٤٠. (٧) أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة
أم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٨) الحمل في الأصل: شقان على اليعبر يحمل فيهما
العديان، والحجاء: العقل والفطنة. (٩) الطود: الجبل، والنهى العقل. (١٠) الطريق الواضح.
(١١) في الأصل «واسما» وهو تحريف. (١٢) الحسن والحسين رضى الله عنهما، وهما سبطا رسول
الله صلى الله عليه وسلم، (والسبط ولد الولد). (١٣) السيدة فاطمة رضى الله عنها.
(١٤) خداع، من الختل: وهو الخلداع، والمراد أنه ذو بصير بالحروب.

لعنة الله والعباد ، إلى يوم التَّنَاد^(١) » قال : « إِيهًا يابن عباس ، لقد أكرت في ابن عمك » قال : « فما تقول في أبيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباسَ أبا الفضل ، كان صِنُو^(٢) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وَقُرَّةَ عَيْنِ صَفِيِّ اللَّهِ ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباؤه الأجواد ، وأحلام أجداده الأجداد ، تباعدت الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسَّقَاية والمُشَاعِر^(٣) والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دَب^(٤) » فقال معاوية : « يابن عباس ، أنا أعلم أنك كَلِمَانِي^(٥) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم قَهْمُهُ في الدين ، وَعَلْمُهُ التَّأْوِيلُ . » ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدَّست أَسْمَاؤُهُ ، خَصَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بصَحَابَةٍ آثَرُوهُ على الأنفس والأموال ، وبذَلُوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ) ، قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقه ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاؤه^(٦) الله ، واستقرَّ دينه ، ووضَّحت أعلامه ، وأذلَّ الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دُطْمَهُ ، وصارت كلمةُ الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أَمْحَاءُ ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعدُ فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إيها ابن عباس ، حديثًا في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

(١) يوم القيامة . (٢) الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنان صنوان والجمع صنوان برفع النون . (٣) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشمارية بالفتح ، والمشرع : موضعها ، والمشرع الحرام بالمزدلفة . (٤) في الأصل : « من دب » أي مشى والمعنى عليه صحيح ، ولكني أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . (٥) رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشددة اللام ، وبكسرتين مشددة الميم وتكلام وتكلامه بكسر فسكون وتشد لهما : جيد الكلام فصيح . (٦) الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) وألى (بفتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٤ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كأننا صَمَقَيْنِ^(٢) دون الناس ، فحَفِظْتُ الميت في الحى ، والحى في الميت ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عبِيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك^(٣) على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هَنَأْتِكُمْ^(٤) ما فى أيديكم ، ولم أ كَشِفْكُمْ عما وَعَت غرائرُكم^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدءَ التَّوْم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقِيَّانِكُمْ ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرُّك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذاتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتموني بِصِفِّين ، ولعمري لَبَنُو تَيْم وَعَدِي^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسئوا فيكم هذه السنة ، فحتى متى أُغْضِي الجفون على القَدَى^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعل الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

(١) أى كثير التحقير له . (٢) الصق : الحبيب المصافى . (٣) لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أمر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة فثم بن العباس (فثم كعمر) وخرج إليهم . (٤) هنأه كنع وضرب : أطعمه وأعطاه . (٥) جمع غرارة بالكسر وهى الجوالق (الشوالق) . (٦) يعنى ببني تيم أبا بكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى ببني عدى عمر ابن الخطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . (٧) القلى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٥ - مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام^(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلا لهواك لانفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبُسر بن أرطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرُد ، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة مُخَصَّب ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أذني عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسها ، وأما خذنا عثمان فلوزمنا نصره لنصرناه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحق وادعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها « وسكت . (المقد الفريد ٢: ١١٠) »

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٦ - مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوما على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أتيتم إلينا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صبرت عليه منكم ، إني لا أريد أسرا إلا أظلماتم

(١) للتفاوض : الاشتراك في كل شيء. والمساواة .

(٢) يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند

النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

صَدْرِهِ^(١) ، ولا آتى معروفًا إلا صغرتم خَطَرَهُ^(٢) ، وأعطىكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نقصَ الحقّ دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف أعطىها الرجل منكم ، ثم أكون أسرًّا بإعطائها منه بأخذها؟ والله أئن أخذت لكم فى مالى ، وذَلَّتْ لكم فى عرضى ، أرى انخداعى كرما ، وذلى حلمًا ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ، ولا نسألكم أموالكم لعلنا بحالكم وحالتنا ، ويكون أبعضها إينا أحبها إليكم أن نُعْفِيَكُمْ .

٨٧ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو وَلِينَا أَحْسَنًا المَوَاسَاةَ ، وامْتَنَنَّا بِالْأَثَرَةِ^(٣) ، ثم لم نَفْشِمِ^(٤) الحى ، ولم نَشْتَمِ الميت^(٥) ، فإسْتَمَ بِأَجْوَدَ مِنَّا كُفًّا ، ولا أكرم أنفسًا ، ولا أصون لأغراض المروءة ، ونحن والله أَعْطَى لِلْآخِرَةِ منكم للدنيا ، وَأَعْطَى فى الحق منكم فى الباطل ، وأعطى على التقوى منكم على الهوى ، والقَسَمَ بالسَّوْبَةِ والعدل فى الرعية يأتیان عَلَى المنى والأمل ، ما أَرْضَاكُمْ مَتَا بِالْكَفَافِ ، فلورضيتم متًا لم نرض بأنفسنا به لكم ، والكَفَافُ رِضًا من لآحَقَّ لَهُ ، فلا تُبَخِّلُونَا^(٦) حتى تسألونا ، ولا تَلْفِظُونَا حتى تذوقونا .

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه : أى رجع صدرًا « بسكون الدال » وصدورا والاسم منه الصدر « بفتح الحين » أى أصدرتم ورددتم واردة ظمان لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . (٢) قدره وشأنه . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتننا أى وتفضلنا وأنمنا بما نستأثر به . (٤) فشمه غشما : ظلمه . (٥) يعرض به فى سبه طليا على المنابر . (٦) لآرمونا بالبخل (بجله بالتشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجده بخيلا) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٨ - مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيرى لكم لمنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علة ، ولا يؤصد^(١) بابى دونكم مسألة ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم لترون أنكم أحق بما فى يدي منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلم أعطانا دون حقا ، وقصر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . »

٨٩ - مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا فى كتاب الله حقان : حق فى الغنيمة وحق فى الفى . فالغنيمة : ما غلبنا عليه . والفى : ما اجتبيناه ، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منازير ، يحملة خوف ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفانى فإنك لا تغز^(٢) ، ولا تشج^(٣) . » (المقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) أى ولا يثقل وفى الأصل « ولا يوجد » وهو تحريف .

(٢) لا تغز أى لا تغلب ، غزه يمزه (كنعره) غزا (بالفتح) غلبه وفى الأصل « لا تغز » وهو مصحف .

(٣) شج رأسه : جرحه ، والمراد لا تغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديها وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بواندها ودياتها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجباتها ولواتها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تميم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدى ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهانها وبنو جمح ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر بن لؤى بفارسها وقريبتها ^(١١) ، فمن ذا يُجمل مضمارها ، ويجرى إلى غايتها ، ماتقول يا بن عباس ؟ » .

(١) بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . (٢) بنو أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . (٣) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . (٤) بنو عبد الدار بن قصي ، والحجابة : سدة البيت الشريف ؛ أي تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلونها على رمح وينصبونها علامة للمسكر إذا توجهوا إلى محاربة العدو فيجتمعون تحتها ويقاثلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولى البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابنتى دارا بها وهى دار الندوة : وكانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، قال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضميما ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذوهم كل مذهب وعبد العزى ، وعبد - « أما والله لأخفئك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم للكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء الحربهم إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك ، فأعطاء داره دار الندوة ، وأعطاه الحجابة واللواء والندوة والسقاية والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به ، فيصنع طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . (٥) بنو مخزوم بن يقظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٦) بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤى . (٧) بنو عدى بن كعب بن لؤى . (٨) بنو سهم ابن هصيص (كزبير) بن كعب بن لؤى ، ومنهم عمرو بن العاص السهمي . (٩) بنو جمح بن هصيص ابن كعب . (١٠) جمع أنف : وهو السيد . (١١) القريع : المقارع .

٩١ - مقال ابن عباس

قال : « أقول ليس حتى يَفْخَرُونَ بأمرٍ إلا وإلى جنبهم من يشرّكهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفخَرُونَ بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُسَاوَوْنَ بها ، ولا يُدْفَعُونَ عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمدًا من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إن بنا فتوح الأمر وبننا يُحْتَم ، ولك مُلْكٌ مُعَجَّل ، ولنا ملكٌ مُؤَجَّل ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين » .

(المقدم الفرید ٢ : ١١٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نفي الحسن بن علي رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا بن عباس هلك الحسن بن علي ، ولم يظهر حزنا ؛ فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إن الله وإنا إليه راجعون ، ترجيعا مُكْرَرًا ، وقد بانني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِيبْنَا به لقد أُصِيبْنَا بمن كان خيرا منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخير الله مصيبتيه ، وخالف علينا من بعده أحسن الخلافة .

فقال له معاوية : كم كانت سنّته ؟ قال : مولده أشهر من أن تُتعرّف سنّته ! قال : أحسبه ترك أولادا صغارا ؟ قال : كلنا كان صغيرا فكبير . ولئن اختار الله لأبي محمد

ما عنده وقبضه إلى رحمته ، لقد أبق الله أبا عبد الله (يعني الحسين) ، وفي مثله الخلف
الصالح ، ثم شفق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٩٣ - عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عتبة بن أبي سفيان لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان
أبي موسى يوم الحكمين ؟ » قال : « منعه والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ،
ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه ، ناقصاً لما أبرم ،
ومبرماً لما نقض ، أسف^(١) إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف
ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى » .

(إعجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٥ ، وأمال المرتضى ١ : ٢٠٧) .

(١) أسف للطائر : دفا من الأرض في طيرانه .

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزيد بن سُمَيَّة . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومَرْوان بن الحكم . وعمر بن العاص . والمُعيرة بن شُعبة . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرَ^(١) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبَهُ للتحكيم فدَفِعَ عنه^(٢) ، فخرَّ كوه على الكلام لئبلىح حقيقة صفته ، ونَقِفَ على كُفِّهِ معرفته ، ونعرف ما صُرف عنا من شَبَابٍ^(٣) حدّه . ووُورى عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه . وأعطى من النعت والاسم ما لا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتداء ابن أبي سفيان فقال : يا بن عباس مامن عليا أن يُوجَّه بك حكما ؟

٩٤ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرنَ عمرًا بصَفِيَّةٍ من الإبل ، يُوجِع كَتْفِيهِ مِرَاسُهَا^(٤) ولأذهلت عقله ، وأجرَضْتُهُ بريقه^(٥) ، وقَدَحْتُ في سُوَيْدَاءِ قلبه ، فلم يُبْعِرِمِ امرأ ،

(١) شجر بينهم الأمر: تنازعا فيه. (٢) لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبههم بقبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكما من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .
(٣) الشبا: جمع شباة، وهي حد كل شيء . (٤) أى علاجها وقيادتها . (٥) جرح بريقه كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وأجرضه بريقه : أخصه .

ولم ينفذ تراباً إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نكته أرمت^(١) قواه ، وإن أرته فصنت^(٢) عراه ، بفرزب^(٣) مقول لا يقل حده ، وأصالة رأي كمتاح^(٤) الأجل لاوزر منه ، أضدع^(٥) به أديمه ، وأفل به شبا حده ، وأشحد به عزائم المعتيز^(٦) ، وأزيح به شبه الشاكين .

٩٥ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين مجوم^(٧) أول الشر ، وأقول آخر الخير ، وفي حسنه قطع مادته ، فبادره بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، وادع بالتفكيك به غيره ، وشرّد به من خلفه . »

٩٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يابن التابغة ، ضلّ والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق الشيطان على لسانك ، هلاً توليت ذلك بنفسك يوم صفين حين دُعيت نزال^(٨) وتكافح الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً ، فأنكفأ محوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(٩) من الموت ، أعددت حيلة السلامة

(١) أرم الحبل: قتله شديداً . (٢) حالت . (٣) الغرب : حد كل شيء ، والمقول: اللسان .

(٤) من إضافة الصفة للموصوف أي كالأجل المتاح: أي المقدر . والتوزر: الملجأ . (٥) أشق ، والأديم:

الجلد ، وهو كناية عن غلبته إياه وانتصاره عليه . (٦) في الأصل « المعتيز » وقد بحث في كتب اللغة

عن مادة « قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التي يظن أنها محرفة عنها ، ورجع لدى أنها

محرفة عن « المعتيز » من اعتنز : أي تمنى وانفرد ، يريد الذين تمنحوا عن الفتنة والنزاع بين علي ومعاوية

وكانوا محايدين . (٧) ظهور (مصدر نجم) . (٨) نزال : اسم فعل بمعنى انزل . أي حين قال

الأبطال بمضهم ليمض نزال . (٩) جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء والنهر .

حبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، ففتحته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوف بأسه سوءتك ، حذراً أن يصطلمك^(١) بسطوته ، أو ياتهمك بمحلمته ، ثم أشرت على معاوية كالتامع له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكافحته ، رجاء أن تكتفى مئوته ، وتعدّم صورته ، فعمل غلّ صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلمك ، وعرف مقرّ سهمك في غرضك ، فاكفّف غرّب لسانك ، واقمّع عوّراء^(٢) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٣) ، وبحر زاخر ، إن تبرزت للأسد افتسك ، وإن عُمت في البحر قَمَسَك^(٤) .

٩٧ - مقال مروان بن الحكم^(٥)

فقال مروان بن الحكم : « يا بن عباس إنك لتصرف^(٦) بنا بك ، وتورى نارك ، كأنك ترجو الغلبة ، وتؤمّل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٧) ، وامررى لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، واثن عفا عن جرائمكم لقديم ما نُسب إلى ذلك » .

(١) اصطلمه : استأصله . (٢) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة . (٣) الخدر : أجمة الأسد ومنه قيل أسد خادر . (٤) غمسك وأغرقتك . (٥) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٥٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . (٦) صرفت البكرة تصرف كضرب صريفاً : صوتت عند الاستقاء ، وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . (٧) الصدر : الرجوع .

٩٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حمله على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أئباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثاره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لى : إنك لتصرف بنايك ، وتورى نارك ، فسل معاوية

(١) يريد « وياطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « ويا بن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لاتساكني في بلد أبدا » أوقيته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - وكان النبی صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوما فرآه وهو يتخلى في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل متغيا حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر ، فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم عمه - رده ، وقال : « كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدى برده » وقد توفى في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفى النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف إبان نفي أبيه بها . (٢) أى في فتنة عثمان ، وذلك أن الثوار يعد أن هذا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى عامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذى كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . (٣) جمع وديج (محرقة) وهو عرق الأضدع الذى يقطع الذابح ، فلا يبقى معه حياة . (٤) جمع ثبج (محرقة) وهو ما بين السكاهل إلى الظهر .

وعمرًا يخبرك ليلة المرير^(١) كيف ثبأتنا للمثالات^(٢) ، واستخفأنا بالمعضلات ، وصدق جيلادنا عند المصاولة ، وصبرنا على اللأواء^(٣) والمطاولة ، ومصاحتنا مجباهنا السيوف المرهفة^(٤) ، ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأستة ، هل خننا^(٥) عن كرائم تلك المواقف ؟ أم لم نبذل مهجنا^(٦) للمتالف ؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود ، ولا يوم مشهود ، ولا أثر معدود ، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلتك ، فزبع على ظلمك^(٧) ، ولا تتعرض لما ليس لك ، فإنك كالمغروز في صغد^(٨) ، لا يهبط برجل ، ولا يرقأ^(٩) بيد .

٩٩ - مقال زياد

فقال زياد : « يابن عباس : إني لأعلم ، ما منع حسنًا وحسينًا من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سولت لها أنفسهما ، وغرما به من هو عند البأساء بسليهما^(١٠) ، وإيم الله لو وليتهما لأدأبا^(١١) في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقل بمكانهما كبئهما » .

١٠٠ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « إذن والله يقصر دونهما بأعك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولو رمت ذلك لوجدت من دونهما فئة صدقا صبرا^(١٢) على البلاء ، لا يخيمون عن اللقاء ،

-
- (١) هي ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش عليّ على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش عليّ أن تكون له الغلبة .
(٢) جمع مثلة (كفرقة) من مثلت بالقتيل : إذا نكلت به . (٣) اللأواء : الشدة .
(٤) المرقمة . (٥) خام عنه يخيم : جبن ونكص . (٦) جمع مهجة ، وهي الدم أو الروح .
(٧) ريع كنع : وقف وانتظر وتحمس ، وظلغ ظلما كنع : غمز في مشيه ، واربع على ظلمك أي أنك ضميم فأنته عملا تطيقه واسكت على مانيك من عيب . (٨) الصغد : التقيد ، وفي الأصل « كالمغروز في صغد » وأراه « كالمقرون في صغد » . (٩) أي يصمد ويعلو : رقا في الدرجة صمد : يقال رقات ورقيت (كرضيت) وترك الهزمة أكثر . (١٠) أسلمه : خذله . (١١) أجهدا وأتعبا .
(١٢) أي ذات صدق وصبر على البلاء أو هو « صدقا صبرا » بضمين جمع صدوق وصبور .

فَلَمَرَ كُرُوكَ بِكَلَالِكِهِمْ ^(١) وَوَطِئُوا بِمَنَاسِكِهِمْ ^(٢) وَأَوْجَرُوا ^(٣) مَشَقَّ رِمَاحِهِمْ ، وَشَفَّارَ ^(٤) سِيوفِهِمْ ، وَوَحَزَّ أَسِنَّتَهُمْ ، حَتَّى تَشْهَدَ بِسُوءِ مَا أَتَيْتَ ، وَتَدْبِينُ ضِيَاعِ الْحَزْمِ فِيمَا جَنَيْتَ ، فَحَذَارِ حَذَارٍ مِنْ سُوءِ النِّيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَرُدُّ الْأَمْنِيَّةَ ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِفَسَادِ هَذَيْنِ الْحَيِّينَ بَعْدَ صَلَاحِهِمَا ، وَسَعِيًّا فِي اخْتِلَافِهِمَا بَعْدَ اتِّقِلَافِهِمَا ، حَيْثُ لَا يَضُرُّهَا إِبْسَاسُكَ ^(٥) ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمَا إِبْنِاسُكَ .

١٠١ - مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم :
« اللَّهُ دَرُّ ابْنِ مُلْجَمٍ ^(١) ، فَقَدْ بَلَغَ الْأَمَلَ ، وَأَمَّنَ الْوَجِلَ ، وَأَحَدَ الشَّفْرَةَ ، وَالْأَنْ الْمُهْرَةَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَنَفَى الْعَارَ ، وَفَازَ بِالْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَا ، وَرَقِيَ الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى » .

١٠٢ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَّعَ ^(٢) كَأْسَ حَتْفِهِ بِيَدِهِ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بَرُوحَهُ وَلَوْ أَبَدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ ، خَالَطَهُ الْفَحْلُ الْقَطْمَ ^(٣) ، وَالسَّيْفُ الْخَلْدِمَ ، وَلَا لَعْفَهُ صَابَا ^(٤) ، وَسَقَاهُ سِمَامًا ^(٥) ، وَأَلْحَقَهُ بِالْوَلِيدِ وَعُتْبَةَ وَحَنْظَلَةَ ^(٦) ، فَكَلِمَهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً ^(٧) ،

(١) جمع كلكل وهو الصدر . (٢) جمع منم (كجلس) وهو خف البعير .

(٣) أوجره الرمح : طعنه به في فيه ، والمشق : سرعة في الطعن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قضيب

مشوق : أي طويل دقيق . (٤) جمع شفرة : وهي حد السيف . (٥) الإبساس : التلطف بالناقة

وقت حلبها ، بأن يقال لها بس بس (بفتح فسكون) تسكينها لها . (٦) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى

لمنه الله قاتل الإمام علي . (٧) كرع في الماء : تناوله بفيه من موضعه . (٨) قطم الفحل كفرح

فهو قطم : اشتهى الضراب . (٩) عصارة شجر مر . (١٠) جمع سم مثلث للسين .

(١١) الوليد بن عتبة : خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة : جده لأمه ، وحنظلة بن أبي سفيان أخوه ،

وقد قتلهم على يوم بدر . (١٢) الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة : أي أنف أبي لا ينقاد .

وأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَفَرَمَى بِالسَّيْفِ هَامِمًا ^(١) ، وَرَمَلَهُمْ ^(٢) بِدِمَائِهِمْ ، وَقَرَى الذُّؤَابَ
أَسْلَاهُمْ ^(٣) ، وَفَرَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ ، أَوْلَيْكَ حَصَبٌ ^(٤) جَهَنَّمُ لَهَا وَارْدُونَ ، فَهَلْ
تُحْسِثُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ^(٥) ؟ وَلَا غَرْوًا وَلَا خُتْلًا ، وَلَا وَصْمَةً إِنْ قُتِلَ ،
فَإِنَّا لَكَمَا قَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ :

فَإِنَّا لَلْحَمُ السَّيْفِ غَيْرَ مُكْرَمٍ وَنُلْحِمُهُ طَوْرًا وَلَيْسَ بَذَى نُكْرٍ ^(٦)
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتْرِينَ فَيْشَتَّ فَنَى بِنَا إِنْ أَصْبْنَا أَوْ نُغَيْرَ عَلَى وَتْرِ ^(٧)

١٠٣ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرْتُ عَلَى عَلِيٍّ بِالنَّصِيحَةِ ، فَأَثَّرَ رَأْيَهُ ، وَمَضَى عَلَى غَلَوَاتِهِ ^(٨) ،
فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ عَلَيْهِ لَا لَهُ ، وَإِنِّي لِأَحْسِبُ أَنْ خَلْفَهُ يَقْتَدُونَ بِمَنْهَجِهِ » .

١٠٤ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كَانَ وَاللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَمَ بِوَجُوهِ الرَّأْيِ ، وَمَعَاقِدِ الْحَزْمِ ، وَتَصْرِيْفِ
الْأُمُورِ ، مِنْ أَنْ يَقْبَلَ مَشُورَتَكَ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَنْفَ عَلَيْهِ ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

(١) هام : جمع هامة ، وهى الرأس . (٢) رمل الثوب : لطنه بالدم ، ويجوز أن يكون وزمهم
أى لفهم بدمائهم (على المجاز) . (٣) أسلاه : جمع شلو ، وهو المضو ، وقرى الضيف قرى
(بالكسر) : أضافه . (٤) الحطب ، وما يرى به فى النار . (٥) الصوت الخفى .
(٦) ألحمه : أطعمه اللحم . (٧) الوتر : الثأر ، وقد وتره يتره . (٨) الغلواء : الغلوة ،
وذلك أن المغيرة جاء طليا بعد مقتل عثمان ، وقال له : إن النصح رخيص وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح ،
وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان عاملك هذا ، فاكتب إليهم بائبائهم على أعمالهم ، فإذا بايموا لك ، واطمان =

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ (١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفت على ذكر مابين وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » . وهل كان يسوع له أن يُحَكِّمَ في دماء المسلمين ، وَفِيءَ الْمُؤْمِنِينَ ، من ليس بأمون عنده ، ولا موقوف به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبَيِّنَ خلافَ ما يُظْهِرُ إِلَّا لِلتَّقِيَّةِ (٢) ، ولات حينَ تقيّةٍ ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضي كالسيف المُصَلَّتِ (٣) في أمر الله ، مُؤَثِّرًا لاطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٥ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يا بن عباس ، إنك لتتطق بلسان طليق (٤) ، ينبي عن مكنون قلب حرق (٥) ، فاطو على ما أنت عليه كشحاً (٦) ، فقد محاضوه حقناً ظلمة باطلكم » .

= أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطى الرياء في أمري ، قال : فإن أبييت فانزع من شئت وأترك معاوية فإن له جراءة وهو في أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة في إثباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبائع ، وقال لعلى : فإن بايع لك فعل أن أقلعه من منزله ، فقال على : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . (١) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه . (٢) التقيّة : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين . (٣) المسلول .

(٤) لسان طلق : (بسكون اللام وكسرهما) ذلق . (٥) الحرق : المحروق وفي الحديث « الحرق شهيد » وفي رواية « الحريق » أى الذى يقع في حرق النار (بفتحتين) فيلتهب ، والحرق محرقة : النار ولهبها ، وفي الحديث « الحرق والفرق والشرق شهادة » وحرق شعره كفرح : تقطع ونسل . (٦) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

١٠٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلا يزيدُ ، فوالله ما صَفَّتْ القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنت بالحبة إليكم ، منذ نأت بالبغضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ما سَخِطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلَّ (١) الأيامُ نستقصي ما شدَّ عنا ، ونسترجع ما ابتزَّ (٢) منا ، كيلاً بكيل ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله ولياً لنا ، ووكيلاً على المعتدين علينا . »

١٠٧ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسي منكم لحزازاتٍ يابني هاشم ، وإني لخليق أن أدرك فيكم الثار ، وأنفي العار ، فإن دماءنا قبيلكم ، وظلامتنا فيكم . »

١٠٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمت ذلك يا معاوية لَتُثِيرَنَّ عليك أسداً مُخْدِرَةً (٣) ، وأفاعي مُطْرِقَةً ، لَا يَفْتَوْهَا (٤) كثرة السلاح ، وَلَا تَمُضُّهَا نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ،

(١) أداله الله من عدوه : فصره عليه . (٢) ماسلب . (٣) أخدر الأسد : لزم الأجمة ،

وأخدر للعرين الأسد : ستره فهو مخدر (بكسر الدال وفتحها) . (٤) فتأ الغضب كنع : سكنه وكسره ،

والقدر سكن غليانها .

يضربون قَدَمًا قَدَمًا من ناوأم^(١) ، يهون عليهم نُباح الكلاب ، وعُواء الذئاب ، لا يُفَاتون بوترٍ ، ولا يُسَبِّقون إلى كريم ذكرٍ ، قد وطَّنوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء همهم ، كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهِدُوا الهِياجَ فلا ضَرْبٌ يَنْهِنُهُمْ وَلَا زَجْرٌ^(٢)
وكأنهم آسادٌ غِيْنةٌ قد غَرِثَتْ وَبَلَّ مُتُونَهَا الْقَطْرُ^(٣)

فلتكوننَّ منهم بحيث أعددت ليلة الهريز للهرب فرسك ، وكان أكبر همك سلامة حُشاشة^(٤) نفسك ، ولولا طعام^(٥) من أهل الشام وقوك بأنفسهم ، وبدلوا دونك مُهَجِّجهم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشفَّار ، وأيقنوا بجلول الدمار ، رفعوا المصاحف مستجبرين بها ، وعائدين بعصمتها ، لكنتن شلوا مطروحًا بالعراء^(٦) ، تسفني عليك رياحها^(٧) ، ويعتورك ذئابها ، وما أقول هذا أريد صرْفك عن عزيمتك ، ولا إزالتك عن مقود نيتك ، لكن الرِّحِم التي تعطف عليك ، والأواصر^(٨) التي توجب صرف النصيحة إليك .
فقال معاوية : « لله درك يا بن عباس ، ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل ، ورأى أصيل ! و بالله لو لم يلد هاشم غيرك ، لما نقص عددهم ، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثَّرم » ا ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

(١) القدم : الشجاع والمضى أمام أمام ، وناوأم : عداوم . (٢) نهيه عن الأمر : كفه وزجره .
(٣) الغينة : بالكسر الأجمة ، والغينة بالفتح : الأشجار الملتفة في الجبال وفي السهل بلا ماء ، فإذا كانت بماء فهي غينة ، وغرث : كفرح جاع فهو غرثان . (٤) الحشاشة : بقية الروح في المريض والجريح .
(٥) الطعام : أوغاد الناس . (٦) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشيء . (٧) سفت الريح : التراب تسفيه : ذرته ، أو حملته . (٨) في الأصل « والأوامر » وهو تحريف .

عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مَشَاهِدَهُ بِصِفَيْنِ ، واجتمعت قریش فأقبل عبد الله ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٩ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، وَمَتَّكَ ما بيد غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته ، وكلُّ راضٍ بما أخذ وأعطى^(١) ، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعزل والتنغيص^(٢) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقىتها إليه ، وذكرت يومك مع أبي موسى ،

(١) وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب

لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنزل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطني مصرا فأربح صفقة أخذت بها شيئا يضر وينفع

ثم إنه بعثه سنة ٣٨ في جيش لغزو مصر، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام هل فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميرا . (٢) روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير

(ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر امعرو ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح

به وببديره وعنايه وسميه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشأم مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، =

فلا أراك فخرت إلا بالقدر ، ولا مَنَنْتُ إلا بالفجور والنش ، وذكرت مشاهدك بصيفين ،
فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ، ولا نَكَيْتَنَا^(١) فيها حربك ، ولقد كَشَفْتَ فيها
عورتك ، وإن كنتَ فيها لَطَوَيْلَ اللسان ، قصير السِّنَان ، آخر الخليل إذا أقبلت ، وأولها
إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تَبْسُطُهَا إلى خير ، وأخرى لا تَقْبِضُهَا عن شر ، ولسان غرور
ووجهان : وجه مُوحِش ، ووجه مُوئِس ، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لَحْرَى أن
يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خَطَل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك
قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١١٠ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : والله ما في قريش أثقلُ على مسألة ، ولا أمرٌ جواباً منك ،
ولو استطعتُ ألا أجيبك لفلعت ، غير أني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بعث الله
نفسى ، ولم أنس نصيبي من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تُعَلِّمُ الْقَمَوَانُ
أَلْخُمْرَةَ^(٢) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيّرني له ، وأما خفة وطأني
عليكم بصيفين ، فلما استنقذت حياتي واستبطلت أمتى وفاتى . وأما الجبن فقد علمت قريش أنى
أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لسانى ، فإنى كما قال هشام بن الوليد لعثمان
ابن عفان رضى الله عنه :

= وكتب بينهما كتابا ، وشرط فيه شروطا لمعاوية ، وعمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر
سبع سنين ، وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوائفا وتماعدا على ذلك ، وأشهدا طليهما به شهودا ،
ثم مضى عمرو بن العاص على مصر واليا عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله ما مكث بها إلا سنتين
أو ثلاثا حتى مات . (١) نكح العدو نكحة: قتل وجرح . (٢) في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة »
والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختيار ، واختمرت المرأة ، لبست الحمار بكسر الخاء
(الطرحة) يضرب للرجل المجرّب .

لسانى طويل فاحترس من شَدَاتِهِ عليك ، وسيفى من لسانى أطول^(١) ،
وأما وجهى ولسانى ، فإنى ألتى كلَّ ذى قدر بقدره ، وأرجى كلَّ نابعٍ بحجره ،
فمن عرف قدره كفانى نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسه ، ولعمري ما لأحدٍ من
قريش مثل قدرك ما خلا معاويةَ ، فما ينفعنى ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بني هاشمٍ ماى أراكم كأنكم بى اليومَ جهالٌ ؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أنى جسور على الوغى سريعٌ إلى الداعى إذا كثر القتل
وأول من يدعو « نزالِ » طبيعةٌ جُبِلتُ عليها ، والطَّباع هو الجبل^(٢)
وأنى فصلتُ الأمر بعد اشتباهه بدؤمةً إذ أعيأ على الحكمِ الفضل^(٣)
وأنى لا أعيأ بأمر أريده وأنى إذا عَجَّتْ بِبِكارِكُمْ فَعَل^(٤)

(العقد الفرید ٢ : ١١٢ ، وشرح بن أبى الحديد ١ : ص ١٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ١٥٩)

١١١ - عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حجج عمرو بن العاص فرَّ بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من هيبة
الناس له ، وموقمه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : « مالك إذا رأيتنى وليتنى
القصرة^(٥) ، وكان بين عينيك دَبْرَةٌ^(٦) ، وإذا كنت فى ملامن الناس كنت

(١) الشدة : الحدة ، والشدا والشذا بالذال والذال : حد كل شيء . (٢) أى نازلونى أيها الأقران ،
والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل . (٣) هى دومة الجندل التى اجتمع
فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري . (٤) البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهى الناقة
الفتية ، وعجت : أى صاحت ورفعت صوتها . (٥) القصرة : أصل العنق فى مركبه فى الكاهل ، ويقال
لعنق الإنسان كله قصره ، والمعنى وليتنى عنقك لإمرأى عنى . (٦) الدبرة : بسكون الباء وفتحها الهزيمه
فى القتال : وهو اسم من الإدبار والمراد بها هنا الإفشاء وعدم الإقبال .

الهُوَاهَاةُ^(١) أَلْمَزَّةُ ؟ فقال ابن عباس : « لأنك من اللثام الفَجْرَةِ ، وقريش الكرام
الْبُرَّةِ ، لا ينطقون بباطل جهلوه ، ولا يكتمون حقاً علموه ، وهم أعظم الناس أعلاماً ،
وأرفع الناس أعلاماً . دخلت في قریش واست منها ، فأنت الساقط بين فراشين ،
لا في بني هاشم رَحْلُكَ ، ولا في بني عبد شمس راحلتك ، فأنت الأثيم الزَّئِيمُ^(٢) الضَّالُّ
المُضِلُّ ، حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو بجمه ، وتسمو بكرمه » فقال عمرو :
أما والله إنى لسرور بك ، فهل ينفعنى عندك ؟ قال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ،
وحيث سلك قَصَدْنَا .
(المقد للفريد ٢ : ١١٢)

١١٢ — عمرو بن العاص وابن عباس

قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عباس :

« إن هذا الأمر الذى نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وقد بلغ الأمر
منا ومنكم ما ترى ، وما أبت لنا هذه الحرب حياء ولا صبرا ، ولسنا نقول : ليت الحرب
عادت ، ولكننا نقول : ليتها لم تكن كانت ، فانظر فيما بقى بغير ما مضى ، فإنك رأس
هذا الأمر بمد على ، وإنما هو أمير مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاور مأمون ، وأنت هو .
(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨)

١١٣ — مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو بنت منظور بن زَبَّانِ الفَزَّارِيَّةِ ، فلما دخل بها قال
لها تلك الليلة : أتدريين من معك في حَجَلَتِكَ^(٣) ؟ قالت : نعم ، عبد الله بن الزبير بن

(١) قال صاحب اللسان : وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهوَاهَاةُ أَلْمَزَّةُ » الهوَاهَاةُ : الأحمق ،
وقال أيضا : « رجل هوَاهاء وهوَاهَاة وهوَاهَاة بفتح الأول ضميم الفؤاد جبان ، ورجل هوَاهة بضم الأول
جبان أيضا . (٢) الزئيم : المستلحق في قوم ليس منهم والذى . (٣) الحجلة : كالكعبة ، وموضع يزير
بالثياب والستور للعروس .

العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى . قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : مملك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أن بعض بنى عبد مناف حصرَكَ ، لقال لك خلاف قولك ، فغضب وقال : الطعام والشراب على حرام حتى أحصرَكَ الهاشميين وغيرهم من بنى عبد مناف ، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً ، قالت : إن أطعنتى لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك ، فخرج إلى المسجد فرأى حلقة فيها قوم من قريش ، منهم : عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير : أحبُّ أن تنطلقوا معى إلى منزلى ، فقام القوم بأجمعهم ، حتى وقفوا على باب بيته ، فقال ابن الزبير : يا هذه اطرحى عليك سترَكَ ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فتعَدَّى^(١) القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتمكم لحديثٍ رَدَّته على صاحبةِ الستر ، وزعمت أنه لو كان بعض بنى عبد مناف حضرنى لما أقرَّ لى بما قلت ، وقد حضرتهم جميعاً ، وأنت يا بن عباس ماتقول ؟ إني أخبرتها أن معها فى خدرها من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس ، فردت على مقالتي .

فقال ابن عباس : أراك قصدت قصدى ، فإن شئت أن أقول قلت ، وإن شئت أن أكف كفت . قال : بل قل وما عسى أن تقول ؟ ألسنت تعلم أن أبى الزبير حوارى^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين^(٣) ؟

(١) تغدى : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء للمفطر) . (٢) الحوارى : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عمى ، وحوارى من أمى » . (٣) كان يقال لأسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقاً على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل فى الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه وهما فى الغار . قال الأزهري : وهذا أصح القولين ، وقيل : إنها شقت نطاقها نصفين ، فاستعملت أحدهما وجملت الآخر شدادا لزيدهما . وجاء فى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير =

وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين ؟ وأن صفيّة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي^(١) ؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، وغزراً فاخراً ، غير أنك تفاخر من يفخره فخرتَ ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارةَ مَنْ رامها^(٢) ، نَشَدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلبَ أشرفُ أم حُوَيْلِد في قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العُزَيّ ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تَنَافَرُنِي يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لِقَوْلِ هَازِلٍ

= بمكة ناداه ويك يا بن ذات النطاقين ، اقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها : سمعت رحك الله ما يقول القوم ، وما يدعونني إليه من الأمان؟ قالت : سمعتم لعنهم الله ! فا أجهلهم ! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لسكان ذلك أعظم فخرك عندهم ، قال : وما ذلك يا أمّاه ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر (وروى عن عائشة رضى الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهيأت لها سفرة ، فطلبها شيئاً يربطانها به فا وجداه ، فقطعت من مئزرى لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين في الجنة ، وفي القاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاماً لقربته . (١) هي جدته لأبيه .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . ويزعمون أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من واماما إنا إذا مائة تلقاها
ترد أولاهـ ا على أخراها

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فواده .

ولو غيرنا يابن الزبير فخرته وَلَكِنَّا سَامَيْتَ شَمْسَ الْأَصَائِلِ^(١)
قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افترتك فرقتان إلا
كنت في خيرهما » فقد فارقناك من بعد قصى^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فرقة الخير أم لا ؟
إن قلت نعم خصمت ، وإن قلت لا كفرت ، فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير :
أما والله لولا تحرمك^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرتك^(٤) جبينك قبل أن تقوم من
مجلسك . قال ابن عباس : ولم أباطل ؟ فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق
لا يخشى من الباطل .

فقلت المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترون ،
فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقنعي ببعك ، فأعظم الخطر ، وما أكرم الخير ،
فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمي ، فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أرحمتك غير
مرة ، فهض وقال :

ألا يا قومنا ارحلوا وسيروا فلو ترك القطا لنعنا وناما^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أقبل طي ، فإ كنت لتدعني حتى أقول :
وأيم الله لقد عرف الأقوام أنى سابق غير مسبوق ، وابن حواري وصديق ، متبجح^(٦)
في الشرف الأنيق ، خير من طليق^(٧) وابن طليق ، فقال ابن عباس : رُسِفَتْ

(١) الأصائل: جمع أصيل، وهو العشي « ما بعد صلاة العصر إلى الغروب » . (٢) كان من أولاده
عبد العزيز بن قصى (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصى (ومن سلالة بنو هاشم) . (٣) تحرم منه
بحرمة : تمنع وتحمى بذمة . (٤) أى لذكرت لك من المساوى ما يمرق له جبينك ويندى خجلا .
(٥) غفا وأغنى : نام نومة خفيفة . (٦) من تبجح به : إذا افتخر وتمظم ، وأرجح أنه «متبجح»
من تبجح : أى تمكن في المقام والحلول . (٧) يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع
المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ، وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « وروى
أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ منى للفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهوني ، فقال له صلى الله
عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

بِحُرْمَتِكَ^(١) فلم تُبْقِ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنت سابقاً فألى من سبقت ؟ وإن كنت فاحراً فبمن فخرت ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالكَشْكُ^(٢) في فك ويديك ، وأما ما ذكرت من الطليق ، فوالله لقد ابتلي فَصَبْرَ ، وَأَنْعِمَ عليه فَشَكَرَ ، وإن كان والله لوفياً كريماً ، غيرَ نَاقِضٍ بَيْعَةً بعد توكيدها ، ولا مُسَلِّمٍ كَتِيبَةً بعد التأمُر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجنين ؟ والله إنك لتعلم منه خِلافَ ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلا أنه فرّ وما كره ، وحارب فما صَبَرَ ، وباع فما تَمَّمَّ ، وقطع الرَّحِمَ ، وأنكر الفضلَ ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جرّمي الكرام وبلداً
وما كان إلا كالمهجين أمامه عتاقٌ ، فجراه العتاق فأجهداً^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يبقَ يا بني هاشم غيرُ المشائمة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين

(١) الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، تقيب في التراب لطبي يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا هطلت يده في الحباله انمقدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليفلت فد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير : شد رسغ يديه بخيط . والمعنى وقعت في حبالتك ، وعاد ما فخرت به حجة عليك لا لك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزاً للنع العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت بحجرتك » من رصعه بالرمح إذا طعنه طعناً شديداً غيب السنان كله فيه ، أى طعنت بسهمك وارتدت إليك حجبتك ، ومعناه كالأول . (٢) الكشكك (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفتات الحجارة .

(٣) يعرض بالزبير وقد بايع الإمام ثم نكث ببعته ، وخرج لقتانه مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم .

(٤) أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر اهلاً

ولا أولى به منا » . (٥) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً ، وفرس عتيق : أى كريم والجمع عتاق ، وفي

الأصل « عتاق » بالنون ، وهو تصحيف .

ابن الحرث : أقمناه عنك يا ابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالسَّغْبِ (١) الظَّمَان ، يفتح فاه يستزيد من الرِّيح ، فلا يَشْبَع من سَغْبِ (٢) ، ولا يَرَوِي من عَطَش ، قفل إن شئت أو فدَّع ، وانصرف القوم .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سيرره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سيرر آخر قد أحدث تجاه (٣) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سيرره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحَدَّث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٤ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلتةً ومُعَالِبَةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، يزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقةً من أبي بكر ، فن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقَد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ ، وجدّم في جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ،

(١) الجماع . (٢) جوع . (٣) تجاهه ووجهه مثلثين : تلقاء وجهه .

فأخّر الله سَنَهُمْ ، وأدحض جَدَّهُمْ ، ووَلِيَ الأَمْرَ عليهم من كان أحقَّ به^(١) منهم ، فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غِرَّةً^(٢) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قِتْلَةً ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٥ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك^(٣) أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدّم لعيب عيناؤه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلمتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تيناً لتيم ، وعدياً لعدى^(٤) وأميّة لأمية ، ولو كلني تينى أو عدوى أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبرَ حاضر عن حاضر ، لا خبرَ غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ، فإن يكن في أسد بن عبد العزى شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيتَ تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوبُ صفيّة بعدد ، والله المستعان على ما تصفون . »

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٦ - خطبة عبد الله بن عباس

يردّ على عبد الله بن الزبير وقد عاب بنى هاشم

لما كاشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بفضهم وعآبهم ، وهم بما همّ به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ،

(١) يشير إلى اختيار عمر رضى الله عنه أصحاب الشورى الستة ، وفيهم الإمام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضى الله عنه بالخلافة . (٢) غفلة . (٣) الرسل : الرق والتؤدة . (٤) تيم رهط أبي بكر الصديق ، وعدى رهط عمر الفاروق .

عانبه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءوا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ، فقال : « والله ما تركت ذلك علانيةً إلا وأنا أقوله سرًّا وأكثر منه ، لكنني رأيت بنى هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشراً بؤاً^(١) وانحزرت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ما كنت لآتي لهم سرورًا وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرة ، ثم أضرمها عليهم نارًا ، فإني لا أقتل منهم إلا آتماً كغائرًا سجّارًا ، لا أنمام الله ، ولا بارك عليهم ! بيتُ سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم خيرًا ، استفرغ^(٢) نبيُّ الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد بن أبي وقاص فقال : « وفكك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : والله ما قلت صوابًا ، ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتل ، والعربُ حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين ، ما سوغ الله لك ، والله لو لم ينصرم الناس منك لنصرم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مُغضبًا ومعه ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أولَ لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر ! فيأعجبا كلَّ العجب ، لافترائه وتكذيبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

(١) اشرب إلىه : مد عنقه لينظر أو ارتفع . (٢) في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال

استفرغ فلان مجهوده : إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئًا ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا !) . (٣) الناموس : الحاذق ، وهو أيضا صاحب السر المطلع على

باطن أمرك . (٤) تكذب : تكلف الكذب . (٥) روى أبو علي القالي في أماليه قال :

« كانت قریش تجاراً ، وكانت تجاراتهم لا تعدو مكة ، وإنما تقدم عليهم الأعاجم بالساع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا =

وَحَمَى عِبْرَات^(١) قريش لهاشيم^١ ، وإن أول من سقى بمكة عذبا ، وجعل باب الكعبة

= كذلك، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام، فزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنة تر يد، ويجمع من حوله فياكلون، وكان هاشم من أجل الناس وأتمهم، فذكر ذلك لقيصر، فقيل له: ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم - وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز - فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجيب به، فكان يبعث إليه في كل يوم، فيدخل عليه ويحادثه، فلما رأى نفسه تمكن عنده، قال له: «أياها الملك إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرون من آدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم» فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا - والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الطريق - وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع، فيكفونهم حتملانها، ويؤدون إليهم رعوس أموالهم ورجبهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يجرهم؛ يترفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، حتى أوردتهم الشام، وأحلهم قراها، ومات في ذلك السفر بعمرة، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفيس، وهلك برمان من اليمن، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون، وخرج نوفل بن عبد مناف، وكان أصغر ولد أبيه، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش، وإيلافاً ممن مر به من العرب، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان، واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام» - ذيل الأمالي ص ٢٠٤ .

(١) العير بالكسر الإبل تحمل الميرة: بلا واحد من لفظها، أو كل ما متير عليه إبلا كانت أو حيرا أو

بغالاً وجمه كمنيات ويسكنه .

ذَهَبًا ، لَعَبْدُ الْمَطْلَبِ ^(١) وَاللَّهِ لَقَدْ نَشَأَتْ نَاشِئَتُنَا مَعَ نَاشِئَةِ قُرَيْشٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَقَاءَ لَتَمِّهِمْ ^(٢) إِذَا قَالُوا ، وَخَطَبَاءَهُمْ إِذَا خَطَبَوْا ، وَمَا عُدُّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قُرَيْشٍ مَجْدٌ لغيرِنَا ، لِأَنَّهَا فِي كُفْرِ مَاحِقٍ ، وَدِينِ فَاسِقٍ ، وَضِلَالَةِ ^(٣) فِي عَشَوَاءٍ ^(٤) عَمِيَاءَ ، حَتَّى اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نُورًا ، وَبَعَثَ لَهَا سِرَاجًا ، فَاتَّجَبَهَ ^(٥) طَيِّبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسَبُّ بِمَسَبَّةٍ ، وَلَا يُبَيِّنُ عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فَكَانَ أَحَدَنَا وَوَلَدَنَا وَعَمْنَا وَابْنُ عَمْنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مِنْنا وَابْنُ عَمْنَا ^(٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلَحْمَتُنَا ^(٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ إِنْ نَخِيرَ النَّاسَ بَعْدَهُ أَكْرَمَهُمْ أَدَبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ رَحِمًا .

وَاعْجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لابن الزبير! يعيب بنى هاشم ، وإنما شرف هو وأبوه وجدّه بمصاهرتهم ، أما والله إنه لمصلوب قريش ، ومتى كان العوام بن خويلد يطعم في صفة بنت عبد المطلب ؟ قيل للبعل : من أبوك يا بعل ؟ فقال : خالي الفرس « ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٧ — خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال : « إن هاهنا رجالاً قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، يزعم أن مُتَعَمَّةَ النِّسَاءِ حلالٌ من

(١) قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدفوناً ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرهم دفنتهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية » ومرج القلعة بحركة : موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب ، فكان أول ذهب حليته فيما قيل للكعبة « تاريخ الطبري ٢ : ١٧٩ »

(٢) القائفة جمع قائل . (٣) الضلة والضلالة : ضد الهدى . (٤) أي في جهالة وقتنة عشواء ، من العشى (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهي عشواء (والعشواء أيضا الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخبط بيدها كل شيء ، لأنها ترفع رأسها فلا تتمهد مواقع أخفافها) . (٥) انتجبه : اختاره . (٦) يعني الإمام علياً كرم الله وجهه .

(٧) اللحمة : القرابة .

الله ورسوله ، وَيُفْتِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمَلَةِ ، وقد احتمل بيت مال البصرة^(١) بالأمس ، وترك المسلمين بها يرتضخون^(٢) النوى ، وكيف أومئ في ذلك : وقد قاتل أم المؤمنين وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ بِيَدِهِ^(٣) .

(١) ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يستعمله قط ، فقال له يوما : كدت استملكك ، ولكن أخشى أن تستحل النوى على التأويل ، فلما صار الأمر إلى علي استعمله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » ، واستحله لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومر ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت جملا ، ولو كنت راعيا ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته في المشي ، فكتب أبو الأسود إلى علي كتابا يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ماتحت يديه بغير علمك ، فلم يسعني كتابك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك » فكتب علي إلى ابن عباس « أن ارفع إلى حمايك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلغك باطل » . فكتب إليه علي : « إنه لا يسعني تركك ، حتى تعلمني ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعت » فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « ابعث إلى عمك من أحببت ، فإني ظانن منه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبودلت الكتب بين علي وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « والله إن لم تدعني من أساطيرك لأحملنه إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه علي ، - انظر المقدم الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ - .

وقال آخرون : إن ابن عباس ما فارق عليا ولا باينه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل على وبعد مقتل علي حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة - انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمال السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ . (٢) رضح النوى (كعب وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يرتضخون أي يكسرون الخبز فإيا كلونه ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يرتضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذي جاء « وهو يرتضخ لسكنة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى المعجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة القحط والفاقة . (٣) كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

١١٨ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبير مولى بنى أسد بن خزيمه - وكان ابن عباس قد كف بصره - استقبل بي وجه ابن الزبير وارفع من صدرى ، فاستقبل به قائده وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فحسرت عن ذراعيه ، ثم قال : « يا ابن الزبير :

قد أنصف القارة من رامها إننا إذا ما فئنة نلقاها
نرد أولها على آخرها حتى تصير حرضا دعواها^(١)

يا ابن الزبير : أما العمى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فتياى فى القملة والنملة ، فإن فيها حكمين لاتصلهما أنت ولا أصحابك . وأما حلى المال ، فإنه كان ما لا جبيناه ، فأعطينا كل ذى حق حقه ، وبقيت بقية هى دون حقتنا فى كتاب الله ، فأخذناها بحقنا ، وأما المتعة فسئل أمك أسماء إذ نزلت عن بردى عوسجة ، وأما قتالنا أم المؤمنين ، فبنا سميت أم المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك^(٢) إلى حجاب مدته الله عليها ، فهتكاه عنها ، ثم اتخذها فتنة يقاتلان دونها ، وصانا حلائلها فى بيوتها ، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبرزا زوجة نبيه وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم زحفاً ، فإن كنا كفاراً فقد كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا مكان صافية فيكم ، ومكان خديجة فينا ، لما تركت لبني أسد بن عبد العزى عظما إلا كسرته .

(١) الخرض : الفساد فى المذهب والعقل والبدن . (٢) يعنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر

الصدىق ، فهو طلحة بن عبید الله بن عثمان بن عبید الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، وأبوبكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . الخ ، وإنما جعله خاله باختيار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنك عن ابن عباس ، وعن بنى هاشم ؟ فإنهم كُفُّمٌ ^(١) الجواب إذا بُدِّهوا ^(٢) » فقال : بلى وعصيتك ، فقالت : يا بُنى احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقتة الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضائح قریش ومخازيها بأشرفها ، فإياك وإياه آخر الدهر .

ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لعكرمة : أقم وجهي نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نَوْرَهَا فِي فُؤَادِي وَعَقْلِي مِنْهَا نُورٌ

وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فإن كان طي مؤمناً فقد ضلّتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد يؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخّص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ^(٣) .

(١) كم البعير كنع : شد فاه لئلا يمض أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يجعل على فاه ، والجمع كم ككتب . والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخرسة تلجم أفواه مناظرهم .

(٢) بدّه بأمر كنعته : استقبله به أو بدأ به . (٣) جاء في المصباح المنير : « المتعة اسم المنع ،

ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ونكاح المتعة هو المؤقت في العقد ، وقال في الباب : كان

الرجل يشارط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يخل سبيلها من

غير تزويج ولا طلاق ، وقيل في قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ »

المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فاستمتعتم » فأنكحتم على

الشريطة التي في قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين

النكاح ، واستمتعتم بكذا وتمتعتم : انتفعت ، ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج : إذا أحرم بالعمرة في أشهر

الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتاً » هـ . =

وأول مجمر^(١) سَطَعَ فِي الْمُتَمَّةِ مَجْمَرِ آلِ الزَّبِيرِ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد ٤م : ٤٨٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٩ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاصِ إذ قال الأذن : قد جاء عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب . فقال عمرو : والله لأسوأَنَّهُ اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تُظْهَر لَنَا مِنْ مَنَقَبَتِهِ^(٣) ما هو خفي عنا ، ومالا نحب أن نعلمه منه ، وغَشِبهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من على عليه السلام جهارا غير سَاتِرٍ لَهُ وَثَلْبَةٌ ثَلْبًا^(٤) قبيحا ، فامْتَقِع^(٥) لُون عبد الله ، واعتراه أَفْكَك^(٦) ، حتى أُرْعِدَت خصائله^(٧) ثم نزل عن السرير كالْفَنِيْقِ^(٨) ، فقال عمرو : مَهْ يَا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أُمُّ لَكَ ، ثم قال :

أظن الحلمَ دلَّ على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

= وجاء في التفاسير : « وقيل نزلت الآية في المتمة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، إلا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم سمى بها ، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتيمها بما تعلى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه . »

(١) المجمر : العود ، واستجمر بالمجمر : تبخر بالعود . (٢) قال المسعودي في مروج الذهب :

« وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عني متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكرا في الإسلام ، وزوجه أبو بكر معلنا ، فكيف تكون متعة النساء ؟ » .

(٣) المنقبة : المفخرة . (٤) ثلبي : عابه . (٥) تغير لونه . (٦) الأفكل : الرعدة .

(٧) جمع خصيلة : وهي لحم الفخذين والعضدين والذراعين ، أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

(٨) الفنيق : الفحل المكروم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

« يامعاوية حَتَّامٌ تَجَرَّعَ غَيْظَكَ ، وإلى كم الصبر على مكروه قولك ، وسيءُ أدبك ،
وذميم أخلاقك ، هَبِلْتَكَ الْهَبُولَ (١) ، أما يزجرك ذِمَامُ (٢) المجالسة عن القَدْعِ (٣) لجليسك
إذا لم تكن لك حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ، والله لو عطفتك أو اصبرُ (٤)
الأرحام ، أو حاميت على سهمك من الإسلام ، ما أُرْعيتَ بنى الإماءِ الْمُتَكِّ (٥) ، والعبيدِ
السُّكِّ (٦) أعراضَ قومك ، وما يجهل موضعَ الصَّفْوَةِ (٧) إلا أهلُ الجفوة ، وإنك لتعرف
وشأج (٨) قريش ، وصفوة غرائزها ، فلا يدعُونَكَ تصويبَ ما فرطَ من خطئك في سفك
دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التماذى فيما قد وضح لك الصواب في خلافه ،
فاقصِدْ لمنهج الحق فقد طال عمهك (٩) عن سبيل الرشد ، وخبطك في دَبْجُورِ (١٠) ظلمة
الغى ، فإن آيت أن لاتتابعنا في قبح اختيارك لنفسك ، فأعفنا عن سوء القالة (١١) فينا ،
إذا ضمنا وإياك الندى (١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله حسيبك ، فوالله لولا
ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن كلفتنى ما لم أطق ، ساءك ما سئرت منى
من خلق . »

(١) هبلته أمه : ثكلته ، والهبول : المرأة لا يعيش لها ولد . (٢) الذمام : الحرمة . (٣) قذمه وأقذعه :
رماه بالفحش وسوء القول . (٤) جمع آصرة ، وهى القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الخباء . (٥) المتك : جمع
متكاه (كحمراه) وهى البظراء والمفضاة واللى لاتمسك البول . (٦) السك جمع أسك من السكك (محركة) ،
وهو صفر الأذن وإزوقها بالرأس ، أو صفر فوف الأذن وضيق الصباخ . (٧) أى صفوة القوم وسادتهم .
(٨) فى الأصل « وشائك » وقد بحثت فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والشيك السريع والتقريب ،
وامرأة وشيك : أى سريعة » فلو جعلنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على التأنيث » لم يستقم معنى العبارة ،
وأراء محرفا عن « وشائج » بالجم . جمع وشيجة ، وهى عرق الشجرة ، فعنى وشائج قريش أصولها وعروقها
« والعرق أصل كل شئ » أى وإنك يامعاوية لتعرف أصول قريش للكريمة الزاكية التى تأبى الضيم ولا تحتمل
الثلب والإهانة « والشيج أيضا شجر الرماح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق « مشتقة من رسول الله
نبيته » - والنوع : شجر تتخذ منه القسي والسهام . (٩) العمه محركة : التردد فى الضلال .
(١٠) الديجور : الضلام . (١١) القول فى الخبر ، والقال والقيل والقالة فى الشر . (١٢) النادى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر تغيّر الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسن^١ ، لعن الله من أخرج
حَبَّ صدرك من وِجَارِهِ^(١) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن
مَحْتِدُكَ^(٢) ومنصِبِكَ لكان خُلُقُكَ وَخَلَقُكَ شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين
وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لا ينازعهما
في ذلك أحد ، فقال : أبا جعفر أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة
ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما في هذا في المجلس فلا ، ثم انصرف ،
فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكان رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخلقه وخلقه ،
وإنه لمن مشكاته^(٣) ، لو ددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه ممنعه من الكلام معك ؟ قال : ما لا
خفاء به عنك . قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله واسكنه ازدراك واستحقرك
ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو :
فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين
جواب فيما يرى اليوم ؛ ونهض معاوية وتفرق الناس .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١٢٠ - الحسن بن عليّ وعمرو بن العاص

وَوَفَدَ الحسن بن عليّ رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية :
يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه
عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعيد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو

(١) جحره . (٢) أصلك . (٣) المشكاة : الكوة التي ليست بناقلة .

(٤) أفه : ووصف من الفهامة ، وهي العي ، وفعله فهو كفرح ، وقياس الوصف منه أفه على أفعل لأنه

يدل على خلقه « عيب » كعمور وعمى وعرج ، واسكن الذي في كتب اللغة : فه كمدب وفيه وفهفه .

طلبتم ابنا لبيكم ما بين جابرئس إلى جابلق^(١) لم تجدوه غيري وغير أخي : (وَإِنْ أَدْرَى
لَمَلَهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) فساء ذلك عمرا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له :
أبا محمد ، هل تنعمت الرطب^(٢) ؟ فقال : « أَجَلٌ تُلْقِيهِ الشَّمَالُ ، وَتُخْرِجُهُ الْجَنُوبُ ،
وَيُنْضِجُهُ بَرْدُ اللَّيْلِ ، بَحْرَ النَّهَارِ^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنعمت الخراة^(٤) ؟ قال :
« نعم ، تُبْعِدُ الْمَشْيَ فِي الْأَرْضِ الصَّحَّاحَ^(٥) ، حتى تتواري من القوم ، ولا تستقبل
القيلة ، ولا تستدبرها ، ولا تستنج بالروثة ، ولا العظم ، ولا تبيل في الماء الزاكد »
وأخذ في كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١٢١ — الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسن بالباب ، فقال
معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإني أسأله
ماليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام وأذن له ،
فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويقال إن ذلك
من الخرق^(٦) ، فقال الحسن : ليس كما بلانك ، ولكننا ممشر بنى هاشم ، أفواها عذبة

(١) جابرس : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه
بسكون اللام ، وفي القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها
صاحب اللسان بفتح اللام . وفي القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه أنسى ، وفي العقد
الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ما بين لابتها » ولا بتا المدينة : حرتان تكتنفانها . (٢) يسأله هذا
وما بعده تعجيزا له . (٣) وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » . (٤) خرى كسمع
خراة بفتح الخاء وكسرهما : سلح . (٥) الصحصح : ما استوى من الأرض . وفي العقد الفريد
« للصحح » وهو تحريف . (٦) الخرق كسبب : الحق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور
والاسم الخرق كقفل .

شِفَاهُهَا ، فَنَسَاؤُنَا يُقْبِلِينَ عَلَيْنَا بِأَنْفَاسِهِنَّ وَقُبُلِهِنَّ ، وَأَنْتُمْ مَعَشَرَ بَنِي أُمَيَّةَ فِيكُمْ بَحْرٌ (١) شَدِيدٌ ، فَنَسَاؤُكُمْ يَصْرِفُنْ أَفْوَاهَهُنَّ وَأَنْفَاسَهُنَّ عَنْكُمْ إِلَى أَسْدَانِكُمْ ، فَإِنَّمَا يَشِيبُ مِنْكُمْ مَوْضِعَ الْمِذَارِ (٢) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . قَالَ سِرْوَانٌ : إِنْ فِيكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ خَصَلَةٌ سَوَاءٌ . قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْعُلْمَةُ (٣) . قَالَ : أَجَلٌ ، نُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ نِسَائِنَا ، وَوُضِعَتْ فِي رِجَالِنَا وَنُزِعَتِ الْعُلْمَةُ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَوُضِعَتْ فِي نِسَائِكُمْ ، فَمَا قَامَ لِأَهْلِهَا وَبَيْتِهَا إِلَّا هَاشِمِيٌّ ؛ فَغَضِبَ مَعَاوِيَةُ وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ حَتَّى سَمِعْتُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْكُمْ بَيْتَكُمْ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكُمْ مَجْلِسَكُمْ » (المقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٢٢ — عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمَعَاوِيَةُ

وَكَانَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَعَاوِيَةَ مُغَاضِبًا لِأَخِيهِ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ (٤) ، فَأَكْرَمَهُ مَعَاوِيَةُ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ ، وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ : « وَاللَّهِ إِنْ عَلِيًّا غَيْرُ حَافِظٍ لَكَ ، قَطَعَ قَرَابَتِكَ ، وَمَا وَصَلَكَ ، وَلَا اصْطَنَعَكَ » قَالَ لَهُ عَقِيلٌ : « وَاللَّهِ لَقَدْ أَجْزَلَ الْعَطِيَّةَ وَأَعْظَمَهَا ، وَوَصَلَ الْقَرَابَةَ وَحَفِظَهَا ، وَحَسُنَ ظَنَّهُ بِاللَّهِ إِذْ سَاءَ بِهِ ظَنُّكَ ، وَحَفِظَ أَمَانَتَهُ ، وَأَصْلَحَ رَعِيَّتَهُ ، إِذْ خُنِمَ وَأَفْسَدَتْكُمْ وَجُرْتُمْ ، فَا كَفَفَ لِأَبَائِكَ فَإِنَّهُ عَمَّا تَقُولُ بِمَعَزَلٍ » .

وَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « أَبَا يَزِيدَ ، أَنَا لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ عَلِيٍّ » قَالَ « صَدَقْتَ ، إِنْ

(١) البخر : اللبن في الفم وغيره . (٢) المذار : جانبها اللحية .

(٣) العُلْمَةُ : شدة الشهوة كالشبق بالتحريك . (٤) وكان قد قدم عليه بالكوفة ، فسأله أن

يقضى عنه دينه ، قال : ولم دينك ؟ قال : أربعون ألفا ، قال : ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج

عطائي فإنه أربعة آلاف فأدفعه إليك ، قال : بيوت المال بيدك وأنت تسوفني بعطائك ؟ قال : أتأمرني أن أدفع

إليك أموال المسلمين وقد ائتمنوني عليها ؟ قال : فإن آت معاوية ، فأذن له فقدم عليه « انظر أسد الغابة ٣ :

٤٢٣ والفخرى ص ٧٦ » اقرأ أيضا كلمة في هذا الصدد في شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ٨٢ وفي ترجمة علي

ابن أبي طالب للمؤلف ص ٨٣ .

آخى آثرَ دِينَهُ على دِينِيهِ ، وأنت آثرت دِينِيكَ على دِينِكَ ، فأنت خير لى من آخى ،
وأخى خير لنفسه منك^(١) .

وقال له مرة : « أنت معنا يا أبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » .
وقال له يوما : إن علياً قد قطعك ووصلتُك ، ولا يُرضيني منك إلا أن تلعنَه على
على المنبر . قال : أفعلُ ، فأصعد فصعد ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس
إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعنَ على بن أبى طالب فالعنوه ، فعليه لعنةُ الله
والملائكة والناس أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين - أبا يزيد - من
لعنتَ بينى وبينه . قال : والله لا زدتُ حرفاً ولا نقصتُ آخر ، والكلام إلى
نِيَّة المتكلم .

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره ، فأجلسه على سريرهِ ، ثم قال له :
« أنتم معشرَ بنى هاشم تُصابون فى أبصاركم » قال : « وأنتم معشرَ بنى أمية تُصابون
فى بصائركم » .

وقال له يوماً : ما أبينَ الشَّبَقَ فى رجالكم يا بنى هاشم اقال : لسكنه فى نساءكم
أبينُ يا بنى أمية .

وقال معاوية يوماً : « يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى فى كتابه : (تَبَّتْ
يَدَا أَبِي لَهَبٍ^(٢) وَتَبَّ) ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن أبا لهب عمه ، فقال عقيل : فهل سمعتم
قول الله عز وجل : (وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ^(٣)) قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم

(١) وفى البيان والتبيين أن معاوية قال : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أنى خير له من أخيه لما أقام
عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخى خير لى فى دينى ، وأنت خير لى فى دنياى » . (٢) هو أبو لهب
ابن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الإيذاء له ، يرمى القدر على يابه .

(٣) هى أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل
الشوك والسعدان وتلقيه فى طريق النبى عليه الصلاة والسلام إيذاء له وكانت جارته ، أو هو النخلة إذ كانت
تسمى عليه بالنخلة وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداته ، وتحمل
زوجها على إيذائه .

قال « يا معاوية ، إذا دخات النار، فاعدل ذات اليسار، فإنك ستجد عمى أبا لهب ، مفترشا
عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير؟ »

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخصلة ما تمجبنى يا بنى هاشم . قال : وما هي ؟
قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال إيانا تُعَيِّر يا معاوية ؟ أَجَلْ والله
إن فينا لَلِينَا من غير ضَعْف ، وعزا من غير جَبْرُوت ، وأما أنتم يا بنى أمية ، فإن لينكم
غَدْر ، وعزكم كُفْر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لِمَ جَفَوْتَنَا يا أبا يزيد ؟ فَأَنْشَأُ يَقُول :

إني امرؤ مني التكرُّمُ شِيمَةٌ إذا صاحبي يوما على المون أضيرا

ثم قال « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مهَّدتك مهَادَهَا ، وأظَلَّتْكَ
بِحَدَّافِير^(١) أهلها ، ومدَّتْ عليك أطنابَ سلطانها ، ما ذاك بالذي يَزِيدُكَ مني رغبة ،
ولا تخشَمًا لرغبة » قال معاوية : « لقد نَعَمَّيَّأَ أبا يزيد نَعَمَّتَا هَشَّ لَهَا قَلْبِي ، وإني لأرجو أن
أن يكون الله تبارك وتعالى مارَدَّاني برداء ملكها ، وَحَبَّأني بفضيلة عيشها ، إلا لكرامة
ادَّخَرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، وإِنَّمَا هُوَ المِثَالُ يُحْتَدَى عَلَيْهِ ،
والأمورُ أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كَرِيمًا ، وإلينا حَبِيبًا ،
وما أصبحتُ أضيرُ لك إِسَاءَةً . »

(المقد الفريد ٢ : ١١٠ - ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) الحدافير : جمع حذفور أو حذفار (كحصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٣٣ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأدخِلَ النَّسْوَةَ من كَرَمِ بِلَاءِ إِلَى الكوفة جعلت نساؤها يَلْتَدِمُنَ^(١) ، وَيَهْتِكُنَ الْجُيُوبَ عَلَيْهِ ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نَحَلَ^(٢) من المرض - يا أهل الكوفة إنكم تكون علينا ، فمن قتلنا غيركم ؟ وأومات أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهَدَّأتِ الأجراس^(٣) ، قالت .

« أبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على أبيه^(٤) ، أما بعد : يا أهل الكوفة يا أهل الخَلْتِ^(٥) والخِذْلِ ، لا ، فلا رِقَاتِ^(٦) العبرة ، ولا هَدَّأتِ الرِّفَّةَ^(٧) ، إنما مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ التي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا^(٨) ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا^(٩) بَيْنَكُمْ ، أَلَا واهل فيكم إلا الصِّلَفُ^(١٠) والشَّنْفُ^(١١) ، ومَلَقُ^(١٢) الإمام ، وغَمْزُ الأعداء ، واهل أنتم

- (١) لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وضربت صدرها في النياحة ، ويهتكن : يمزقن ، والجيوب جمع جيب : وهو طوق القميص . (٢) كنع وعلم ونصر وكرم . (٣) الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . (٤) تريد جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . (٥) الغدر والخديعة ، أو أبيع الغدر . (٦) رقاً الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمعة قبل أن تفيض . (٧) الرفة : الصوت . (٨) أنكاثا : جمع نكت كحمل ، وهو مانقض لينزل ثانية - حال من غزها ، أو مفعول ثان لنقض لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم القرشية ، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثم تنقضه . (٩) الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخل من فساد في عقل أو جسم ، والغدر والمسكر والخديعة . (١٠) الصلف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا . (١١) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمعرض عليه ، أو كالمتعجب منه ، أو كالمكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبفضه وتنكره . (١٢) ملق الجارية : بجمعها ، أو هو ملق بالتحريك ، والملق : التلق .

إلا كَمَرَّعَى عَلَى دِمْنَةٍ (١) ، وَكَفِيضَةً عَلَى مَلْحُودَةٍ (٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتِ أَنْفُسَكُمُ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْمَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَا بَكَوْا ، وَإِنَّا لَنَكْمُ وَاللَّهِ أَخْرِيَاهُ (٣) بِالْبَيْكَاءِ ، فَا بَكَوْا كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَزَيْتُمْ بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا (٤) وَلَنْ تُرْحَضُوا (٥) بِفَسَلٍ بَعْدَهَا أَبَدًا ، وَأَنْتِ تُرْحَضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبِوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرَّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شَبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَعَارِ حُجَّتِكُمْ ، وَمِذْرَةٍ (٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرَخِ (٧) نَازِلَاتِكُمْ ، فَتَمَسَّسًا وَنُكْسًا (٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّمِيُّ ، وَخَسِرَتِ الصَّفْقَةُ (٩) ، وَبُؤْتُمْ (١٠) بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (١١) ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (١٢) ؛ أَتَدْرُونَ أَيَّ كَبِدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ ، وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرْقَاءَ (١٣) ، شَرُّهَا طِلَاحٌ (١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؛ أَفَعَجِبْتُمْ أَنْ قَطَرَتْ السَّمَاءُ دَمًا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ؛ فَلَا سَمْعَظْفَنَكُمْ الْمَهْلُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْفِزُهُ الْمُبَادِرَةُ (١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ فَوْتُ النَّارِ ، كَلَّا ، إِنْ رَبُّكَ لَنَا لِهَمٌّ لِبِالْمُرْصَادِ (١٦) » ثُمَّ

- (١) الدمنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البئر والرماد وغيرها ، أخذت هذا القول من قول جدها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهي المرأة الحسناء في منبت السوء .
- (٢) ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . (٣) جذبرون .
- (٤) الشنار : أقيح العيب . (٥) رحضه كنهه وأرحضه : غسله . (٦) دره عن القوم كنع : إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . (٧) أي مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » - على الأمر وبضم الراء من روعك - أي اسكن وأمن ، والروع : القلب . (٨) التمس : الهلاك ، ونكسه نكسا : قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بعد النقه ، ويقال : تمسا له ونكسا ، بضم النون وقد يفتح ازدواجًا . (٩) البيعة . (١٠) رجعت . (١١) أي فظيما منكرا . (١٢) يتشققن ، وتخز : تسقط ، هدا : أي تهد هدا . (١٣) بها أي بفعلتكم هذه ، وخرقاء من الحرق : وهو الأليسن الرجل العمل والتصرف في الأمور . (١٤) طلاح الشيء : ملؤه . (١٥) أي لا تدفعه إلى العقوبة المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى . (١٦) المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته منها شيء .

ولت عنهم ، فظلّ الناس حيارى ، وقد ردّوا أيديهم إلى أفواههم . وقال شيخ كبير من
بنى جُمُعيّ - وقد اخضلت (١) لحيته من دموع عينيه .

كُوهلُهُمْ خَيْرُ الكُوهلِ ونَسَلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَنْجُزِي

(بلاغات النساء ص ٢٧)

١٣٤ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام

بين يدي يزيد

ولما وجّه عبّيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثّلوا بين
يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طست ، فجعل ينسكت ثناياه بقضيب في يده ، وهو
يقول من أبيات (٢) :

ليت أشياخي بيدير شهيدوا جزع الخرزج من وقع الأسل (٣)
لأهلوا وأستهلوا فرحاً ثم قالوا : يا يزيد لا تشل (٤)
فجز ينام بيدير مثلها وأقنا مئيل بدر فاعتدل (٥)

فقال زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! (ثم كان
عاقبة الذين أساءوا الشؤءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أظننت
يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكفاف السماء فأصبحنا نساق كما يساق

(١) ابتلت . (٢) تمثل يزيد بهذه الأبيات وهو لعبد الله بن الزبيرى ، قالها في غزوة أحد ، وهو
يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة .

(٣) كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخرزج : قبيلة
من الأنصار . (٤) كل من رفع صوته فقد أهل إهلالاً واستهل استهلالاً ، وثلت يده تشل كتعب يتعب ،
وأثلت وثلت مبنيين للمجهول : يبست وهى جملة دعائية ، يقال فى الدماء : « لا تشل يدك ولا تكلل » -
والبيت من قول يزيد - . (٥) لاتنس ماقدمناه لك من أن عليها كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان
بيدر ، فقتل حنظلة بن أبي سفيان أخا معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

الأسارى ، أن بناهوانا على الله ، وبك عليه كرامة ؟ وأن هذا لعظيم خطرِكَ ؟
فَسَمَخْتَ بِأَنْفِكَ ، ونظرت في عطفيك^(١) ، جَذْلَانِ فَرِحَا ، حين رأيت الدنيا مستوسقةً
لك ، والأمور منسقةً^(٢) عليك ، وقد أمهلت ونفست^(٣) ، وهو قول الله تبارك وتعالى :
(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي (٤) لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ
لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) أَمِنَ الْعَدْلُ ، يابن الطَّلَقَاءِ تَحْدِيرُكَ (٥) نِسَاءَكَ وَإِمَاءَكَ
وَسَوْتُكَ بِنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ هَتَكَتَ سَتُورَهُنَّ ، وَأَصْحَلْتَ (٦)
صَوْتَهُنَّ ، مَكْتَنِبَاتٍ تَخْدِي (٧) بِنِ الْأَبَاعِرُ ، وَيَحْدُو (٨) بِنِ الْأَعَادِي ، مِنْ بِلَدٍ إِلَى
بِلَدٍ ، لَا يُرَاقِبِينَ وَلَا يُؤَوِّينَ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ (٩) الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، لِبَسِّ مَعْنَى وَبِ (١٠) مِنْ
رِجَالِهِنَّ . وَكَيْفَ يُسْتَنْبَطُ فِي بَعْضَتِنَا مِنْ نَظَرِ إِلَيْنَا بِالشَّنْفِ (١١) وَالشَّنَانِ ، وَالْإِحْنِ
وَالأَضْغَانِ ؟ أَتَقُولُ « لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدُوا » غَيْرَ مُتَأَمِّمٍ وَلَا مُسْتَعِظَمٍ ؟ وَأَنْتَ تَتَكَّتْ
ثَنَابًا أَمِي عَبْدَ اللَّهِ بِمِخْصَرَتِكَ (١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونِ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتَ (١٣) الْقَرْحَةَ ،
وَاسْتَأْصَاتِ الشَّافَةَ (١٤) ، يَا هَرَاكُ دِمَاءُ ذَرِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنُجُومِ-

- (١) أى جانبيك ، وهو كناية عن إعجابه بنفسه . (٢) من استوسقت الإبل : أى اجتمعت ،
ومنسقة : منتظمة . (٣) أى فسح لك فى أمرك ، من نفس الله كربتته : فرجها . (٤) نملي .
(٥) صوتهن فى خلودهن . (٦) أبجته ، جعل صوته كفرح : بيج .
(٧) خدى البعير والفرس كجبرى : أسرع وزج بقوائمه ، أو هو ضرب من سيرها .
(٨) يسوق . (٩) يتناول وينظر إليهن ويشرف عليهن . (١٠) قريب أو نصير .
(١١) سبق تفسيره ، وفى الأصل « بالشنق » وهو تحريف (والشنق : أن تكف البعير بزمامه حتى
تلزق ذفره بقادمة الرجل ، والذفرى بكسر الذال : العظم الشاخص خلف الأذن) ، والشنان : الكراهية ،
والإحن : الأحقاد . (١٢) المخرصة : ما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب . (١٣) نكأ القرحة
كنع : قشرها قبل أن تبرا فتديت ، كناية عن نبشه عما كاد ينسى من العداوة بين بنى هاشم وبنى أمية .
(١٤) الشافة : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ، واستأصل الله شافته : أذهب كما تذهب
تلك القرحة .

الأرض من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكًا (١) مَوْرِدُهُمْ ، وَلَتَوَدََّنَّ أَنْكَ عَمِيَّتِ وَبَكِيَّتِ وَأَنْكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرِحًا » اللَّهُم خذْ بِحَقِّنَا ، وَانْتَقِمْ لَنَا مِنْ ظَلَمَانَا . وَاللَّهُ مَا فَرَبْتِ إِلَّا فِي جِلْدِكَ . وَلَا حَزْرَتْ إِلَّا فِي لِحْمِكَ ، وَسَتَرْدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَعْنَمِكَ (٢) . وَعَعْرَتُهُ وَأُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ (٣) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ مَلُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ (٤) . وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَانًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ (٥) وَكُنْكَ مِنْ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحُكْمَ اللَّهُ ، وَالْخِصْمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَوَارِحُكَ شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ فَيَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَبْشِكُمْ شَرًّا مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ يَاعِدُوكَ اللَّهُ وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصْفِرُ قَدْرَكَ ، وَأَسْتَعِظُمُ تَقْرِيْعَكَ (٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعَيُونَ عَيْرِي وَالصُّدُورَ حَرَي (٧) ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُغْنِي عَنَّا ؛ وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ (٨) يَقْرَبُنَا إِلَى حِزْبِ السَّفَهَاءِ (٩) ، لِيُعْطُوهُمْ أَمْوَالَ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكَ مُحَارِمِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطَفِ (١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَحْلَبُ (١١) مِنْ لَحُومِنَا ، وَتِلْكَ الْجِثَثُ الزُّوَاكِي يَمْتَاهُمَا عَسَلَانِ الْقَلَوَاتِ (١٢) ، فَلَنْ اتَّخَذْتُمَا مَغْنَمًا لَتَتَّخِذَنَّ مَغْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ (١٣) : يَا بَنَ صَرْجَانَةَ ، وَيَسْتَصْرِخُ بِكَ ، وَتَمَعَاوِي وَأَتْبَاعًاكَ

(١) سريعا . (٢) الرغم : اللذ . (٣) العترة : رھط الرجل وعشيرته الأذنون ، والحممة : القرابة ، والقدس : الطھر ، - أي في الجنة - . (٤) التفريق . (٥) أي أحلك في كرسی الخلافة وهو معاوية . (٦) التفریح : التأنيب . (٧) عين عبري : جرت عبرتها ، والصدر حری : شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . (٨) تريد عبید الله بن زياد ورجاله . (٩) أي إلى يزيد وشيعته . (١٠) نطف الماء كنصر وضرب : سال ، ونطف كفرح ، وعنى : تلتخ بعيب . (١١) تحلب العرق : سال وتحلب بدنه عرقا : سال عرقه . (١٢) الزواكي : جمع زاكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهي خيار المال ، وعسل الذئب عسلانا كجری جريانا : اعتق وأسرع ، والعالس : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والمراد هنا معنى الجمع لا المصدر : أي ذؤبان القلوات ، ولم أجد في كتب اللغة لعامل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف . (١٣) تستغيث .

عند الميزان ؛ وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاوية فتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ،
فوالله ما اتقيت^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكذلك كيدك ، واسع سمعك ،
وناصب جهذك^(٢) . فوالله لا يرضخ عنك عارٌ ما أتيت إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم
بالسعادة والمغفرة اسادات شتبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة . أسأل الله أن يرفع لهم
الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٥ - رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن عليّ عند قبر أخيه الحسن عليهما السلام :

« رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ، إن كنت لتناصرُ الحقَّ مظانّه^(٣) ، وتؤثرُ اللهُ عند
تداحضِ^(٤) الباطل في مواطن التقيّة بحسن الروية ، وتستشف^(٥) جليلَ معاظِم الدنيا
بعين لها حارقة ، وتفيض عليها يدا طاهرة الأطراف ، نقيّة الأسيرة^(٦) ، وتردع بادرة
غرب أعدائك بأيسر المئونة عليك . ولا غرورَ وأنت ابنُ سُلالة النبوة ، ورضيعُ لبان
الحكمة . فإلى رَوْحِ وَرَيْحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ . أعظمَ اللهُ لنا ولكم الأجر عليه ، ووهب
لنا ولكم السّلوّة وَحَسَنَ الأُمِّي^(٧) عنه » (عيون الأخبار م ٢ : ص ٣١٤)

-
- (١) أى لا أخاف إلا الله . (٢) ناصبه العداوة : أظهرها له .
(٣) فى الأصل « لتناصر » بالياء وأراه بالنون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .
(٤) هى تفاعل من الدحض ، دحض برجله كمنع : فحص بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والمعنى :
عند تطاحن الباطل ومغالبة بعضه بعضا . (٥) استشفه : نظر ماوراه . (٦) الأسيرة جمع سرار
ككتاب : الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجهة . (٧) الأسمى بضم الهمزة وكسرهما جمع أسوة بالضم
والكسر أيضا : ما يتعزى به .

١٢٦ - عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص

في مجاس معاوية

روى المسعودى في مروج الذهب قال :

« لما قَتَلَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ ، كان في نفس معاوية من يوم صَفِينِ عَلَى هاشمِ ابنِ عُتْبَةَ بنِ أُمِّي وَقَاصِ المِرْقَالِ وولدهِ عبدِ اللَّهِ بنِ هاشمِ إِحْنٌ ؛ فلما استعمل معاوية زياداً على العراق ، كتب إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة فشُدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعت به إلى » فحمله زياد من البصرة مُقَيِّدًا مَمْلُولا إلى دِمَشْقِ ، وقد كان زيادُ طَرَفَهُ بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمر بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صَفِينِ ^(١) :

إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلَا وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَمَا أَقْلَا ^(٢)

أَعورُ يَبِينِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الحَيَاةَ حَتَّى تَلَا ^(٣)

لَا بَدَّ أَنْ يَقُولَ أَوْ يُفَلِّأَ يَتَلَهُمْ بِذِي الكُمُوبِ تَلَا ^(٤)

لاخير عندي في كريمٍ ولى

(١) وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور فقمت عينه يوم اليرموك بالشأم) فقال : يا هاشم ، أعورا وجبنا ! لاخير في أعور لا يمشي بالأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إني شريت النفس . . . الخ وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم أتى الأحبة محمدا وحزبه .

(٢) شريت النفس : أى بعثتها في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أى ادعى ذنبا لم يفعله) ، وقاطله ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتل أى لما رماني عمار بالجبن . (٣) يبنى أهله محلا : أى يبنى محل أهله أى يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبنى لقاءهم والاجتماع بهم هناك .

(٤) يقل : يهزم ويفلب ، وتله صرعه ، أو ألقاه على عنقه وخده (وفى الأصل : أسلمهم بذى الكموب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبرى ، وابن الأثير يتلهم بالثناء ، وهو صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانترعها) ، وذو الكموب : الرمح ، وكموب الرمح : النواثر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو متمثلاً :

وقد يَنْبُتُ الرَّحَى عَلَى دِمَنِ النَّزْرِى وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ^(١)
 « دونك يا أمير المؤمنين الضبُّ الضبُّ »^(٢) ، فاشخُبْ أوداجه^(٣) على أسباجه^(٤) ،
 ولا تردّه إلى أهل العراق ، فإنه لا يبصر على النفاق ، وهم أهل غدرٍ وشقاق ، وحزبُ
 إبليسَ ليومِ هيجانه ، وإن له هوى سيؤديه^(٥) ، ورأيًا سيُطغيه^(٦) ، وبطانةً ستُقويه ،
 « وَجَزَاهُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(١) الدمن : جمع دمنة ، وهى ما اسود من آثار الدار بالبحر والرماد وغيرها ، وهذا البيت
 لزفر بن الحارث السكلاي من قصيدة قالها ، وقد قتل ابناه يوم وقعة مرج راهط ، التى نشبت بعد
 موت معاوية الثاقب بين مروان بن الحكم وبين من خالف على الأموية ودعا إلى الزبيرية من الضحاك بن قيس
 الفهري وأتباعه ، ومهم زفر السكلاي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبرى ،
 ومروج الذهب ، والعقد الفريد » . (٢) الضب : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بحر
 الشمس كما تتلون الحرباء ، وقد ضرب به المثل فقالوا : « أُخدع من ضب » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ،
 فيأتى الحارث (حرش الضب واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها
 فيأخذه ، ولكن الضب شديد الحذر فإنه يمد بلذنبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئاً آخر إن جاءه ،
 فيجىء المحترش ، فإن كان الضب مجرباً أخرج ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء ضربه وإلا بقى فى
 جحره ، فهذا هو خدعه - يمتنون به شدة حذره - وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من عقرب ، لما بينها
 من الألفة والاستعانة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يديه لدغته وأنشدوا :

وأخدع من ضب إذا جاء حارث أهد له عند الذنابة عقرباً

ويقولون : « فلان خب ضب » (والخب بالفتح وبكسر المخادع) فيشبهون الحقد الكامن فى قلبه
 الذى يسرى ضرره ، بخدع الضب فى جحره (ومن أمثاله فيه أيضاً) « أعق من ضب » - يريدون الأثى ،
 وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضبية إذا باضت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من ورل وحية
 وغير ذلك ، فإذا نعت أولادها ، وخرجت من البيض . ظنّها شيئاً يريد بيضها ، فوثبت عليها تقتلها ،
 فلا ينجو منها إلا الشريد - وقالوا : « أعقد من ذنب الضب » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين عقدة
 - « وأجبن من ضب » ، « وأبلد من ضب » ، « وأحيا من ضب » - أى أطول عمراً .

(٣) الأوداج جمع ودج بالتحريك : عرق فى المتق ، وشخبت أوداج القتييل دما من بابى قتل ونفع :
 جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : در وسال ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى . (٤) الأسباج جمع
 سبجة « كفرصة » وسبجة القميص : لبنته - بنيقته . (٥) أى وإن له ميلا إلى آل على سبيلك .
 (٦) طغى : جاوز القدر وارتفع وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والظلم .

فقال عبد الله : « يا عمرو إن أقتل فرجلاً أسلمته^(١) قومهُ ، وأدركه يومهُ ، أفلا كان هذا منك إذ تحييد عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ بِشَمَالِ النَّطَافِ^(٢) ، وعقائِقِ الرِّصَافِ^(٣) ، كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء^(٤) لا تَدْفَعُ يَدَ لَامِسٍ . »

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعتَ في لَهَادِمِ^(٥) شَدَقَمِ الأقران ذى لَبِيدٍ ، ولا أحسبك مُنْقَلَبَتِيَا من مخاليب أمير المؤمنين . »

فقال عبد الله : « أما والله يا ابن العاص ، إنك لبَطِرٌ في الرِّخَاءِ ، جبان عند اللِّقَاءِ ، غَشُومٌ^(٦) ، إذا وليتَ ، هَيَّابٌ إذا لَقِيتَ ، تَهْدِرُ^(٧) كما يهدِرُ العودُ المنكوسُ ، المقيدُ بين مجرَمِي الشولِ ، لا يُسْتَعَجَلُ في المدة ، ولا يُرْجَى في الشدة ، أفلا كان هذا منك ، إذ غَمَرَكَ أقوامٌ لم يُعَنَّفُوا صغاراً ، ولم يُمَزَّقُوا كباراً . لهم أيدٍ شِدَادٌ ، وألسنةٌ حِدَادٌ ،

(١) مخذله . (٢) النطاف جمع نطفة (كفرصة) وهى الماء الصافي ، قل أو أكثر ، وفى الحديث « قطعنا إليهم هذه النطفة » أى البحر وماده ، وفى حديث على : « وليلها عند النطاف والأعشاب » يعنى الإبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدعها لترد وترعى . (٣) الرصفة بالتحريك الحجارة التى يرصف بعضها إلى بعض فى مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائِق : الغدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسمه عقيق ، والجمع أعقة وعقائِق ، وقيل العقائِق هى الرمال الحمر . (٤) مؤنث الأقود : وهو الذول المنقاد . (٥) جمع لهزم كجمفر : وهو القاطع من الأسنه ، والشدقم : الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أى أسد مبتلع للأقران ، واللبد جمع لبة بالكسر ، ولبدقر الأسد : ماتلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبة » ويكنى أيضا أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا الزعفران . (٦) ظلوم ، غشمه كضربه غشما ظلمه .

(٧) هدر البعير وهدر بالتشديد : صوت ؛ وفى المثل « كالمهدر فى العنة » والعنة بضم العين وتشديد التون : الحظيرة . يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالبعير يحبس فى الحظيرة ممنوعاً من الضراب وهو يهدر ، والعود : المسن من الإبل ، والمنكوس : الذى عاوده المرض بعد النقه ، والشول جمع شائلة ، وهى من الإبل مأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفت لديها .

يَدْعُمُونَ الْعُوجَ^(١) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ^(٢) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَسْفُونَ الْغَلِيلَ ،
وَيُعِزُّونَ الدَّلِيلَ ؟

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق^(٣) أحشاؤه ، وتبُّق^(٤) أمعاؤه
وتضطرب أصلاؤه^(٥) ، كأنما انطبق عليه ضمُّد^(٦) . »

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلوناك ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كذوياً غادراً ،
خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجنيد لا يسأمونك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام ،
لجَحَظَ^(٧) إليه عقلك ، ولتلجج لسانك ، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود^(٨) الذي
أثقله حمله . »

فقال معاوية : « إيهيأ^(٩) عنكما ، وأسر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :

أمرتك أمراً حازماً فقصيتني	وكان من التوفيق قتلُ ابن هاشم
أليس أبوه (يامعاوية) الذي	أعان علياً يوم حز القلاصم ^(١٠)
فلم يئنني حتى جرت من دماننا	بصفين أمثال البحور الخضارم ^(١١)
وهذا ابنه ، والمرء يشبه سنخه	ويوشك أن تقرع به سن نادم ^(١٢)

(١) العوج : بالفتح ، في كل ما كان منتصباً مثل الإنسان والعصا والعمود وشبهه ، والوعج :
بالكسر ، ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعمه
(كنمه) مال فأقامه . (٢) حرج صدره كفرح حرجاً : ضاق . (٣) تضطرب .

(٤) تخرج ، بق الثبت بقوفاً : طلع . (٥) جمع صلا بالفتح : وهو وسط الظهر من الإنسان ومن
كل ذي أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . (٦) ضمد جرحه : شده بالضمد والضادة (بالكسر)
أى العصابة ، والجمع ضمد ككتب . (٧) من جحظت العين جحوظاً : إذا برزت مقلتها ، والمراد
اضطرب عقلك وشرد ولم يسلس لك قياد التفكير . (٨) القعود من الإبل : الذي يقتعده الراعي في كل حاجة .
(٩) أمر بالسكوت . (١٠) الغلاصم : جمع غلصمة يفتح الغين والصاد ، وهي رأس الخلقوم
— الموضع الثاني في الخلق — أو أصل اللسان . (١١) الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر
العظيم . وإثبات النياء في يئنفي مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصل محذوف للجازم .

(١٢) قرع فلان سنه : حرقه ندما (حرق نابه - كنصر وضرب - سحقه حتى سمع له صريف)

وسكن الفعل للضرورة ، والسنخ : الأصل من كل ثوب ، (وقى الأصل شيعه وهو تصحيف) .

فقال عبد الله بحبيبه :

مُعاوِيَ : إِنْ الْمَرْءَ عَمَرًا أَبَتْ لَهُ ضَمِينَةٌ صَدْرٍ غَشِيهَا غَيْرُ نَائِمٍ
يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَابْنَ هِنْدٍ) وَإِنَّمَا يَرَى مَا يَرَى عَمْرُو مَلُوكِ الْأَعَاجِمِ
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمَسَالِمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً عَلَيْكَ جِنَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمٍ (١)
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا، وَإِسِ الَّذِي مَضَى وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْغَاثِ حَالِمٍ (٢)
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنِ ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ مَحَارِمِي (٣)

فقال معاوية :

أَرَى الْعَفْوَ عَنْ عَلِيًّا قَرِيشَ وَسَيْلَةَ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْمَصِيبِ الْقُمَاطِرِ (٤)
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعَدَاةِ ابْنَ هَاشِمٍ بِإِدْرَاكِ ثَارِي فِي لُؤَيٍّ وَعَامِرٍ (٥)
بَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَاتِرِ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَمْرَةَ عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرٍ (٦)

(١) نعر القوم كنعج : هاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونعر الرجل خائف ، وفي الأصل « نقرة » وهو

تصحييف . (٢) قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية ، إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن وهيب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب . (٤) يوم عصيب :

شديد ، ويوم قاطر وقطير : شديد أيضا . (٥) العداة جمع عاد : وهو العدو ، ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية

وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن لثني عليه الصلاة والسلام) وعامر : هو عامر بن لؤي .

(٦) النهابر : المهالك جمع نهبرة بضم النون والباء وكذا النهابر جمع نهبورة .

١٢٧ - عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يَخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمَرْوَةِ » ؟ فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ،
أما الجود : فابتذالُ المال ، والمطيةُ قبل السؤال : وأما النجدة : فالجراة على الإقدام ،
والصبر عند ازورار الأقدام ^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ،
والحماسة عن الجار .
(مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار
على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٨ - مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، يَمَّ تَطْلُبُونَ مَا قَبِيلِي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي ، كثيرا
مع عليّ ، ولقد قَلَّتْمْ حَدْيِي يَوْمَ صِفَيْنَ ، حتى رأيت المنايا تَنْظِي ^(٢) في أَسِنَّتِكُمْ ،
وهجوتموني في أسلافي بأشدّ من وقع الأسنّة ، حتى إذا أقام الله منا ما حاولتم مَيْلَهُ ،
قلتم ازرع فينا وصية رسول الله ^(٣) صلى الله عليه وسلم ، هيهات يا أبي الحقيير الغدرة . »

(١) أي عند انحرافها وترلزها . (٢) تنظلي : أي تتهلب . (٣) وقد وصى عليه الصلاة
والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

١٢٩ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما تمتُّ به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك . وأما هجاؤنا إياك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كُرهِه كان منا . وأما فلئنا حدك يوم صفين فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يا أبا الحخير العُدرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية . »

فقال معاوية يمؤه : « ارفعوا حواججكم »

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٣٠ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صفصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء الأندلسى كرى ورجالاً من أصحاب عليّ ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال : « نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقا ، أى الخلفاء رأيتموني ؟ فقال ابن الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى قتل الأخيار ، ولسكنا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة^(١) ، قريب الثرى بعيد المرعى^(٢) ، تجمل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات . » فقال معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر

(١) أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

(٢) قريب الثرى : قريب الحلول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى : كناية عن أنه بعيد

الأميل . والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمانى ، مع يقينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

بأهل الشام ، الذابئين عن بيضته ، التاركين لحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنتهكين لحارم الله ، والمُحِلِّين ما حرَّم الله ، والمُحَرِّمِينَ ما أحلَّ الله . فقال عبد الله ابن الكواء : « يابن أبي سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جَبْرُوتَكَ ، فإن كنت تُطَلِّقُ ألسنتنا ذَبَبْنَا عن أهل العراق ، بألسنة حِداد ، لا يأخذها في الله لومة لأم وإلا فإننا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على فَرَجِهِ » . قال : « والله لا يُطَلِّقُ لك لسان » .

ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبي سفيان فأبْلَغْتَ ، ولم تُقَصِّرْ عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أئى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ، ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرا ؟ أما والله مالك في يوم بدر مَضْرَبٌ ولا مَرْمِي ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لَأَحْيِي وَلَا سِيرِي » ، ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ^(٣) ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أنت طليق ابن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى تصلح الخليفة لطليق ؟ » ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول :

(١) دانه : ملكه وأذله واستعبده . (٢) أى مالك ضرب ولا رمى . (٣) العير : الإبل تحمل الميرة ، والمراد بها هنا عبر قريش التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين انصرافها من الشام - فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بعيره (أى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان يبعث إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورجعت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل متصرفين إلى مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يابن زهرة لافى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبى وأظفره الله بهم ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه . (٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

قَابَلْتُ جَهْلَهُمْ حِلْمًا وَمَمْفِرَةً وَالْعَمُورُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرَبٌ مِنَ الْكُرْمِ .
لَقَتَلْتَكُمْ « (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣١ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له :

« يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبجبالها ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والحل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة^(١) العرب ، وَمُنْتَهَى الشرف والسودد ، وهم أهل الخِطَط^(٢) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سرّوات^(٣) العرب كدورّان الرّحى على قُطْبِهَا » ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبَّةُ الْإِسْلَامِ ، وَذِرْوَةُ الْكَلَامِ ، وَمَصَانُ ذَوِي الْأَعْلَامِ - إِلَّا أَنْ يَهِيَ أَجْلَافًا^(٤) . تَمْتَنِعُ ذَوِي الْأَمْرِ الطَّاعَةَ ، وَتَخْرُجُهُمُ عَنِ الْجَمَاعَةِ - وَتَلِكُ أَخْلَاقُ ذَوِي الْهَيْئَةِ وَالْقِنَاعَةِ » . قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَضْمَفُهُمْ غِنَاهَا ، وَأَقْلَهُمْ غِنَاءً^(٥) فِيهَا ، غَيْرَ أَنْ لَهُمْ ثَبَاتًا فِي الدِّينِ ، وَتَمَسُّكَ بِمُرُوءَةِ الْيَقِينِ ، يَتَّبِعُونَ الْأَيْمَةَ الْأَبْرَارَ ، وَيَخْلَعُونَ الْفَسَقَةَ الْفُجَّارَ » فقال معاوية : مَنْ الْبَرَّةُ وَالْفَسَقَةُ ؟ فقال : « يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ ، تَرَكَ الْخِدَاعَ ، مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ ، عَلَى وَأَحْبَابِهِ مِنَ الْأَيْمَةِ الْأَبْرَارِ ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ أَوْلَئِكَ » ثم أحب معاوية أن يمضي صعصعة في كلامه ، بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القُبَّةِ الْحَمْرَاءِ فِي دِيَارِ مُضَرَ^(٦) ، قال :

(١) هو على التشبيه بواسطة العقد : وهي الجوهرة الفاخرة التي تجعل وسطه . (٢) الخطط جمع خطة

بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك ، ومنه خطاط الكوفة والبصرة . وقد خطها لنفسه واختطها : وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها . (٣) السرو بالفتح : المروءة في شرف ، سرو فهو سري وجمعه أسرياء وسرواء وكفضلاء والمرأة بالفتح اسم جمع وجمعه سرورات .

(٤) جمع جلف بالكسر : وهو الرجل الجاني . (٥) غناء : كفاية . (٦) ذكروا أن نزار

ابن معد لما حضرته الوفاة جمع بنيته : مضر وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء =

« أُسْدٌ مُضَرٌ بُسْلَاءٌ بَيْنَ غِيَلَيْنِ ^(١) ، إِذَا أُرْسَلَتْهَا أَفْتَرَسَتْ ، وَإِذَا تَرَكَتْهَا احْتَرَسَتْ » .
 فقال معاوية: « هنالك يابن صوحان ، العز الراسى ، فهل فى قومك مثله هذا ؟ قال :
 هذا لأهله دونك يابن أبى سفيان ، ومن أحب قومًا حُشِرَ معهم » قال : فأخبرنى عن ديار ربيعة ،
 ولا يَسْتَخْفِنُكَ الجُهْلُ ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك ^(٢) ، قال : « والله ما أنا عنهم براص ،
 ولكنى أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب فى الدين والميل ، لن تُغَلَبَ
 رايتهما إذا رُشِّحَتْ ، خوارج الدين ، برازخ اليقين ، من نصروه فَلَجَ ^(٣) ، ومن خذلوه
 زَرَجَ ^(٤) » . قال : فأخبرنى عن مضر ، قال : « كِنَانَةٌ ^(٥) العرب ، ومَعْدِنُ العز والحسب ،
 يقذف البحر بها آذِيَةٌ ^(٦) ، والبرزردية » ثم أمسك معاوية ، فقال له صعصعة : سَلْ
 يامعاوية ، وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل
 الشام » قال : « فأخبرنى عنهم » ، قال : « أطوع الناس لخلق ، وأعصاهم لخلق ، عُصاة
 الجبار ، وخليفة ^(٧) الأشرار ، فعليهم الدمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله

= - وكانت من آدم - لمضر - وهذا الفرس الأدهم والحياه الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شمطاء
 - لإياد ، وهذه البدره (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس
 لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فأتوا الأفعى الجرهمى ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا
 فى ميراثه ، فاختصموا إلى الأفعى الجرهمى ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى
 به أبوه فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدنانير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء
 لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والحياه الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيل
 الدهم ، فقيل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم للشمطاء فهو لإياد ، فصار له المشاية لبلق من الحبلق والنقد
 (الحبلق : بفتح الحاء والباء وتشديد اللام : غم صغار لا تكبر ، أو قصار المعز ودماهما ، والنقد كسبب :
 جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل : فسمى أنمار الفضل
 فصدروا من عنده على ذلك . - مجمع الأمثال ١ : ١٠٠ . (١) بسلاء جمع باسل : وهو الأسد والشجاع
 والغيل بالسكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجمة . (٢) وكان صعصعة من بنى عبد القيس
 ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن زار . (٣) فلج على خصمه : ظفر وفاز . (٤) زلق وزل .
 (٥) الكنانة فى الأصل : جعبة السهام . (٦) الآذى : الموج . (٧) الخليفة فى الأصل :
 ماعلق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .

يابن صوحان ، إنك لحامل مديتك منذ أزمان (١) « إلا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك .
فقال صعصعة : « بل أمر الله وقدرته ، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٢ - صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مصقلة بن هبيرة الشيبانى قال : سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن
عباس : ما السؤدد^(٢) فيكم ؟ فقال : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، وبذل النوال ،
وكف المرء نفسه عن السؤال ، والتودد للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك
شراً^(٣) . قال : فما الروءة ؟ قال : « أخوان اجتمعا ، فإن لقياً قهراً ، (وإن كان)^(٤)
حارسهما قليل ، وصاحبهما جليل ، محتاجان^(٥) إلى صيانة ، مع نزاهة وديانة » . قال : فهل
تحفظ فى ذلك شراً ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مرة بن ذهل بن شيبان حيث يقول :
إن السيادة والمروءة علماً حيث السماء من السماء الأعزل^(٦)
وإذا تقابل مجربان لغاية عتر المهجين وأسلمته الأرجل^(٧)
ويجى الصريح مع العتاق معوداً قرب الجياد فلم يجمه الأفكل^(٨)

- (١) كناية عن مجاهرته بالعداوة . (٢) السؤدد بفتح الدال غير مهموز ، والسؤدد بضم الدال
مهموزا والسيادة والسؤدد . (٣) شراً بسكون الراء وفتحها أى سواء . (٤) أى أنهما قوتان
عظيمتان لصاحبهما ، تقهران مايلقاه من الشدائد والصعاب . وقوله « وإن كان » أى وإن كان مالقيهما عظيماً
ولعله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . (٥) فى الأصل « لحاجان » وهو تحريف .
(٦) السما كان الأعزل والرامح : نجمان نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شئ بين يديه من السكواكب
كالأعزل الذى لاسلح معه كما كان مع الرامح . (٧) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً كريماً ، وأسلمته : خذلته .
(٨) لم يجمه الأفكل : أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيباً من عيوب القافية وهو الإقواء ،
لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبياني ، وحسان
ابن ثابت ، وبشر بن أبى خازم . . . » .

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباطاً^(١) إبلاً ، مُنَرِّقاً وَمُغَرِّباً
لَفَأْنَدَةَ هذه الأبيات ما عَنَّفْتُهُ ، إنا منك يا ابن صُوحان لَمَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ واستنباطٍ ما قد عَفَا^(٢)
من أخبار العرب ، فن الحلِيمُ فيكم ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَسُحِيَ إِلَيْهِ بِحَقِّ
أَوْ بَاطِلٍ فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَوَجَدَ قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ ، فَصَفَحَ وَلَمْ يَقْتُلْ ، ذَلِكَ الْحَلِيمُ يَا بِن
عباس . » قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا قليلاً ، وإنما وصفت لك أقواماً
لا تجدم إلا خاشعين راهبين ، لِلَّهِ مُرِيدِينَ ، يُبْذِلُونَ وَلَا يَنْالُونَ ، فَأَمَّا الْآخَرُونَ فإِنَّهُمْ
سَبَقَ جَهْلُهُمْ حِلْمَهُمْ ، وَلَا يَبَالِي أَحَدُهُمْ (إِذَا ظَفِرَ بِنُغَيْتِهِ) حين الحفيظة^(٣) مَنْ كَانَ ،
بعد أن يُدْرِكَ زَعْمَهُ ، وَيَقْضَى بِنُغَيْتِهِ ، وَلَوْ وَتَرَهُ أَبُوهُ لَقَتِلَ أَبَاهُ ، أَوْ أَخُوهُ لَقَتِلَ إِخَاهُ ،
أما سمعت إلى قول رِيَّانُ بنِ عَمْرِو بنِ رِيَّانٍ ، وذلك أن عمرأ أباه قتله مالكُ بنِ كُومَةَ ،
فَأَقَامَ رِيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ غَزَا مَالِيسًا ، فَأَتَاهُ فِي مَائِثِي فَارِسٍ صَبَاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ،
فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، — وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ — وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاوِرَهُمْ ،
فَقَتِلَ لِرِيَّانِ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتَ صَاحِبَنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُمَّيْ ثَقِفْتُ بِحَيْثُ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَاقٌ صَبِيبٌ^(٤)
وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةٌ أُخْتُ عَمْرٍو بِهَذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيبٌ
شَهَرَتْ السَّيْفَ فِي الْأَذْنَيْنِ مِثِّي وَلَمْ تَعْطِفِ أَوْاصِرَنَا قُلُوبٌ^(٥)

فقال ابن عباس : فن الفارسُ فيكم ؟ حَدُّ لِي حَدًّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ
مَوَاضِعَهَا يَا بِن صُوحان ، قال : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعَمَ^(٦) عَلَى أَمَلِهِ
بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَى عَلَيْهِ مِنْ أُمِّهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ^(٧) الْحَرْبُ ،

(١) آباط جمع إبط كحمل وإبل : باطن المنكب . (٢) درس واحي . (٣) الحمية والغضب .

(٤) ثقفه كسمعه : صادفه ، والعلق : الدم ، أو الشديد الحمرة ، وصبيب : أى مصبوب .

(٥) أواصر جمع أصرة : وهى القرابية ، وحيل صغير يشد به أسفل الحياء . (٦) ضغمه كنع : عضه .

(٧) وقدت النار (كوقد) توقدت .

واشدت بالأنفس السكروب ، وتداءعوا للنزال ، وتزاحفوا للقتال ، وتخالسوا المهيج^(١) ،
واقتمحوا بالسيوف اللجيج ، قال : أحسنت والله يابن صوحان ، إنك أسليل أقوام
كرام ، خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كلاله^(٢) ، زدني ، قال : نعم ، الفارس
كثير الحدّر ، مُدير النظر ، يلتفت بقلبه ، ولا يدير خرزاتِ صلبه^(٣) . قال : أحسنت
والله يابن صوحان الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، زهير بن
جناب الكأبي^(٤) يرثي ابنه عمراً حيث يقول :

فَارِسٌ تُكَالًا الصَّحَابَةُ مِنْهُ بِحُسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الحَرِيقِ^(٥)
لَا تَرَاهُ لَدَى الوَعَى فِي جَبَالٍ يُمْفِلُ الصَّرْبَ لَا ، وَلَا فِي مَضِيقِ
مَنْ يَرَاهُ يَحُلُّهُ فِي الحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أُحْرِقَ مُضَلَّ الطَّرِيقِ^(٦)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يابن صوحان ؟ صفهما لأعرف
وزنك ، قال : أما زيد فكما قال أخو غنّى^(٧) :

(١) المهج جمع مهجة : وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاصها واستلابها .

(٢) تقول العرب : لم يرته كلاله أى لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفرزدق :

ورثم فناة الملك غير كلاله عن ابى مناف عبد شمس وهاشم

والكلاله : ما لم يكن من النسب لحاً ، وبنو العم الأبعاد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالى كثير ويرثه

كلاله متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالد للبيت ولا ولد له فهو كلاله موروثه . (٣) أى فقرات

ظهره . (٤) شاعر جاهلي ، وهو أحد المعمرين . (٥) كلاله : حفظه وحرصه .

(٦) الأخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأفياء تنسى »

ومثل : « كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانيا » . . . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن إثبات حرف العلة مع

الجازم لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصل محذوف للجازم . وعندى أنه ربما

كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت . (٧) هو كعب بن سعد الغنوي

(شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثي بها أخاه أبى المغوار وأوطا :

نقول سليمانى ما لجسلك شاحبا كأنك يحملك الطعام طيب

(انظرها في الأمالي ٢ : ١٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٩) .

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بوجهه (إذا نالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبٌ^(١)
 إذا ما تَرَاءَاهُ الرَّجَالُ حَفَظُوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريب^(٢)
 حَلِيفُ النَّدَى ، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ^(٣)
 يَبْبِئْتُ النَّدَى (يَا أُمَّ عَمْرٍو) ضَجِيعَهُ إذا لم يكن في المنقيآت حَلُوبٌ^(٤)
 كَانَ بِيُوتَ الْحَى (مالم يكن بها) بَسَائِسُ مَا يُبْلَغُ بِهِنَّ غَرِيبٌ^(٥)

في أبيات ، كان والله يابن عباس ، عظيم المروءة^(٦) ، شريف الأخوة ، جليل
 الخطر ، بعيد الأثر ، كعيش^(٧) العروءة ، أليف الندوة^(٨) ، ساهم جوانح الصدر ، قليل
 وسواس الدهر ، ذا كبراً لله طرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا^(٩) مِنَ اللَّيْلِ ، الجوعُ وَالشَّبَعُ عنده
 سَيَّانٍ ، لا يَبْنَأْفِسُ في الدنيا ، وأقل أصحابه مَنْ يَبْنَأْفِسُ فيها ، يُطِيلُ السَّكُوتَ ، ويحفظ الكلام ،
 وإن نطق نطق بعقاصم^(١٠) يَهْرُبُ منه الدُّعَارُ^(١١) الأشرار ، ويألفه الأحرار الأخيار .
 قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل الجنة ، رحم الله زيدا ، فأين كان عبد الله
 منه ؟ » ، قال : كان عبد الله سيداً شجاعاً ، يُؤَلَّفًا^(١٢) مُطَاعًا ، خَيْرُهُ وَسَاعٌ^(١٣) ، وشره

- (١) خللات جمع خلة بالفتح : وهي الخصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وعنى شحوبا: تغير من هزال أو جوع أو سفر . (٢) العوراء : الكلمة القبيحة . (٣) الندى : الجود .
 (٤) المنقيآت : ذوات النقي (بالكسر) وهو الشحم ، نانة منقية أى سميحة .
 (٥) بسائس جمع بسيس كجمفر : وهو الفقير الخالي (وفي الأصل بسائس وهو تصحيف) .
 (٦) مسهل عن المروءة . (٧) يقال رجل كعيش الإزار : أى مشمر جاد ، ورجل كعيش : عزوم
 ماض سريع في أموره . (٨) الندوة والنادى والمنتدى والندى : مجلس القوم ومتحدثهم ، وفي الأصل
 « البدة » وأراه مصحفاً ، أو هو فملة من البدو وهو الظهور ، أى ذو مظاهر حسن يؤلف ولا يبيع .
 (٩) جمع زلفة بالضم : وهي الطائفة من الليل . (١٠) داء عقاصم : لا يبرأ ، أى نطق بقوارص من
 السكلم جارحة مؤلفة لادواء لها . (١١) جمع داعر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرهما : وهي الخبث
 والفسق . (١٢) ألفتة وآلفتة : أنست به فهو مألوف ومؤلف . (١٣) على التشبيه بالفرس
 الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ، والأشبه العظيم يدفع به ثلثه
 وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه .

حُفَّاع ، قَلْبِي النَّحِيْزَةَ ^(١) ، أَحُوْدِي ^(٢) الغريزة ، لَايْنَهْنِمُ ^(٣) مُنْهِنُهُ عما أَرَادَهُ ،
ولا يركب من الأمر إلا عتاده ^(٤) ، سِمَامٌ عِدَا ^(٥) ، وَبَاذِلٌ قِرَى ^(٦) ، صعب المقادة ،
جَزَلُ الرَّفَادَةِ ^(٧) ، أَخُو إِخْوَانٍ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وهو كما قال الْبَرْجِيُّ عَامِرُ بنِ سَنَانٍ :
سِمَامٌ عِدَا ، بِالنَّبِيلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وبِالسَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرَّدِّيُّ يَشْعَبُ ^(٨)
مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مَعُوْدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ
في أبيات ، فقال له ابن عباس : أنت يابن صوحان باقر ^(٩) علم العرب .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣٣ - صعصعة بن صوحان ورجل من بني فزارة

وروقف رجل من بني فزارة على صعصعة ، فأسمه ، كلامًا (منه) :

« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ طَى النَّاسِ قَهْمِيْبُوكَ ، أَمَا لَيْتُنْ شَتُّتُ لَأَكُوْنَنَّ لَكَ
إِصَاقًا ^(١٠) ، فَلَا تَنْطِقْ إِلَّا جَدَدْتُ ^(١١) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(١٢) مِنْ ظُبَّةِ السَّيْفِ ، بَعْضُ قَوِيٍّ ،
وَلِسَانٌ عَلِيٌّ ، ثُمَّ لَا يَكُوْنُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فقال صعصعة : « لو أجد

- (١) القلب : محض كل شيء ، والنحيزة : الطبيعة ، أى خالص الطبيعة صانها . (٢) الأحوذى :
الخفيف الحاذق ، والمشمز للأمر القاهر لها لايشذ عليه شيء . (٣) نهمة : كفه وزجره .
(٤) العتاد : العدة . (٥) سمام جمع سم مثلث السنين ، والعدا بالسكمر والضم امم جمع عدو أى
هوللاءعداء سم قاتل . (٦) قرى الضيف (كرى) قرى : أضافه ، والقرى أيضا : ماقرى به الضيف .
(٧) رفته (كضربه) أعطاه ووصله ، والرفادة فى الأصل خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من
أموالها فيصنع به طعام للحاج ، والمراد بها هنا العطية . (٨) الردينى نسبة إلى ردينة امرأة سمير ،
وكانا يقومان الرماح بخط هجر ، ويشعب : أى يمزق ويصدع . (٩) أصل البقر : أنفتح والشق
والتوسعة ، وكان يقال لمحمد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم محمد الباقر ؛ لأنه بقى العلم وعرف
أصله واستنبط فرعه . (١٠) الإصاق : مايلصق به . والمعنى لأكونن لك ملاصقا ملازما .
(١١) جد الشيء من باب رد : قطعه . (١٢) أذرب : أحد ، من ذرب كفرح صار حديدا ماضيا ،
والظبة : حد السيف .

غَرَضًا^(١) منك لرميت ، بل أرى شَبَعًا ، ولا إخال مِثَالًا إِلَّا كَسْرَابٍ^(٢) بَقِيْعَةٍ ،
يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، أَمَا لَوْ كُنْتَ كَفْئًا لَرَمَيْتُ
حَصَائِكَ^(٣) بأذرب من ذَلِقٍ^(٤) السنانِ ، ولرَشَقْتُكَ بنبالٍ ، تردُّعُكَ عن النَّضَالِ ،
وَنَخَطَمْتُكَ بِخَطَامٍ^(٥) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّمَامِ^(٦) . فاتصل الكلام بابن عباس ،
فاستضحك^(٧) من الفزاري ، وقال : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ أَخُو فَرَاةٍ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ
جَبَلِ شَمَامٍ^(٨) إِلَى الْمَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَازِعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، نَخَابَ
أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ وَقُوَاهُ الْمَرِيْرَةَ^(٩) ! ثُمَّ تَمَثَّلُ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمَّمٍ . إِنْ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقِيْنَ مَصْبُوبٌ^(١٠)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٤ - رجل من آل صوحان يجنبه^(١١) عبد الملك بن مروان

وهو يخطب

وخطب عبد الملك بن مروان ، فلما بلغ الغليظة^(١٢) ، قام إليه رجل من آل صوحان ،
فقال : « مهلا مهلا يا بني مروان ، تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتعظون

(١) الغرض : الهدف . (٢) السراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع قاع : وهو أرض
سهلة مطمئة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع .

(٣) الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا والامم الحصيلة ، قال لبيد :

وكل امرئ يومًا سيعلم غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : لرميت ماحصلته من العلم والمعرفة . (٤) ذلق السنان واللسان كفرح : ذرب فهو ذلق
وأذلق ، وذلق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . (٥) الخطام : كل ماوضع في أنف البعير ليقماد

به ، وخطمه بالخطام جعله على أنفه ، أو جرت أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه حتى لا ينبس .

(٦) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة (ككتابة) والزمام : مايزم به . (٧) استضحك

الرجل وتضاحك بمعنى . (٨) جبل شمَامٍ بالعالية . (٩) أى القوية ، يقال رجل مرير أى قوى

ذومرة « والمرة بالكسر القوة » . (١٠) الأُمم : القرب . (١١) جبهه كقطعه : لقيه بما يكره .

(١٢) وربما كان صوابها « العظة » أى مقام العظة والنصح بدليل قوله « وتعظون ولا تنهون » .

ولا تمنعون . أفنتدى بسيرتكم في أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فإن قلم اقتدوا بسيرتنا ، فأتى وكيف ؟ وما الحجة ؟ وما المصير من الله ؟ أنتدى بسيرة الظلمة الفسقة ، الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا^(١) ، وعبيده خولا^(٢) ؟ وإن قلم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح غيره من يغش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها . فعلام ولينا كم أمرنا ، وحكمنا كم في دماننا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح بالمعظات ؟ فتخلوا عنها^(٣) ، وأطلقوا عقلمها ، وخلوا سبيلها ، ينتدب^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شرردتموهم في البلاد ، ومزقتهم في كل واد ، بل تثبت في أيديكم لانهضاء المدة ، وبلوغ المهلة ، وعظم المحنة ، إن لكل قائم قدرا لا يمدوه ، ويوما لا يخطوه ، وكتابا بعده يتلوه : (لا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ثم التمس الرجل فلم يوجد (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٥ - وصف عقيل بن أبي طالب

لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب : « مَيِّزْ لِي أَصْحَابَ عَلِيٍّ وَابْدَأْ بِأَكْ صُوحَانَ ، فَإِنَّهُمْ تَخَارِيقُ الْكَلَامِ^(٥) » . قال :

(١) جمع دولة بالضم : أى جملة متداول بينهم . (٢) الخول : ما أعطاك الله تعالى من النعم (محركة) والبيد والإماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى ، ويقال للواحد خائل . (٣) أى من الخلافة . (٤) انتدب إليه : أسرع . (٥) مخاريق جمع مخراق بالكسر : وهو السيف ، والسيد والمتصرف فى الأمور الذى لا يقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى مخراقا لأن الكلاب تطلبه فيقتل منها ، وفلان مخراق حرب أى صاحب حروب يخف فيها) .

« أَمَا صَمَّصَعَةُ فَعَظِيمُ الشَّانِ ، عَضْبُ اللِّسَانِ ^(١) ، قَائِدُ فُرسَانَ ، قَاتِلُ أَقْرَانَ ،
يَرْتُقِي ^(٢) مَا فَتَقَ ، وَيَفْتُقُ مَا رَتَقَ ، قَلِيلُ النَّظِيرِ . وَأَمَّا زَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فَإِنَهُمَا نَهْرَانِ جَارِيَانِ
يَصْبُ فِيهِمَا الْخَلْجَانِ ^(٣) ، وَيُعَاثُ بِهِمَا الْبُلْدَانَ ، رَجُلًا جَدًّا لَأَمِيبَ مَعَهُ ، وَأَمَّا بِنُفُوصُوحَانَ
فَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا نَزَلَ الْعَسَدُ فَإِنِ عِنْدِي أُسُودًا تَخْلِسُ الْأَسَدَ النَّفُوسَا ^(٤)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٦ - وصية محمد الباقر ^(٥) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ، علي
عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال : يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَوْصِنِي ، قَالَ :

« أَوْصِيكَ أَنْ تَتَّخِذَ صَغِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَدًا ، وَأَوْسَطَهُمْ أَخًا ، وَكَبِيرَهُمْ أَبًا ، فَارْحَمَ
وَلَدَكَ ، وَصِلْ أَخَاكَ ، وَبِرَّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا فَرَبِّهِ ^(٦) . »

(الأمال ٢ : ٣١٢)

(١) العضب : القاطع . (٢) للرتق : ضد الفتق . (٣) الخليج : نهر فشق من النهر الأعظم .

(٤) خلس الشيء كضرب خلصا : استلبه . (٥) توفي سنة ١١٣ هـ . (٦) أي أدمه ، يقال

رب بالمسكان وأرب : أقام به ودام .

خطب الزبير بين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوماً على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان وعند معاوية جماعة من قریش ، فيهم ابن الزبير ، فرحّب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره وقال : ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فإنه ليذكره الحسد لبني عبد مناف^(٢) فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتك فضل الزبير علىّ أبينا أبي سفيان فعلت ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

(١) تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٦٥ - ٧٠ - ٧٦ - ٨٢ - ٦٦ - ٨٣ . (٢) عبد مناف جد يجمع بني هاشم وبني أمية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير ، فمن بني أسد أبوه الزبير بن العوام بن خلود بن أسد بن عبد العزى ابن قصي .

١٣٧ - مقال ذكوان

« يابن الزبير : إن مولاى ما يمنعهُ من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان ، رابط الجنان ، فإن نطقَ نطقَ بعلم ، وإن صمّت صمّت بحلم ، غير أنه كيف الكلام ، وسبق إلى السّنام ، فأقرت بفضلها الكرام ، وأنا الذى أقول :

فيم الكلام لسابقى فى غايةٍ والناس بين مقصّر ومبذل^(١)
إن الذى يجرى ليذكرك شأوه يُنمى لغير مسود ومسدد^(٢)
هل كيف يذكرك نور بذر ساطع خير الأنام وفرع آل محمد

فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله فى موالى الكرام مثلك ، فقال ابن الزبير : إن أبا عبد الله^(٣) سكت وتكلم مولاة ، ولو تكلم لأجبناه ، أو الكفّفنا عن جوابه إجلالاً له . ولا جواب لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » ، فأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولأء ، وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني است أجيّب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٨ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يابن الزبير ! ما أعياك^(٤) وأبغاك ! أتفخرُ بين يدي أمير المؤمنين وأبى عبد الله ! إنك أنت المتعدى لطورك ، الذى لاتعرف قدرك ، فقس شريك بفترك^(٥)

(١) بلد تليدا : لم يتجه اشيء ، والفرس : لم يسبق ، والسحابة لم تمطر .

(٢) الشأو : الغاية ، وينمى : ينسب . (٣) كنية الحسين . (٤) ما أعجزك .

(٥) الفتر : ما بين الإبهام وطرف العصابة .

ثم تعرّف كيف تقع بين عرّانين^(١) بنى عبد مناف ، أما والله إنّ دقّت في بحور
بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لتقطعنك بأواجها ، ثم لتوهين^(٢) بك في أجاجها ، فابقاؤك
في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهرتك^(٣) ؟ هنالك تعرّف نفسك ، وتقدم على
ما كان من جرأتك ، وتسمى^(٤) ما أصبحت إليه من أمان ، وقد حيل بين العير
والنزوان^(٥) . فأطرق ابن الزبير ملياً ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٩ - مقال ابن الزبير

« أسألکم بالله : أتملمون أن أبي حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه
أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ،

(١) جمع عرنين بكسر العين : وهو السيد الشريف (وفي الأصل : الأنف أو ماصلب من عظمه) .
(٢) أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . (٣) بهره بهرا (بالفتح) : غلبه .
(٤) مساه تمسية : قال له كيف أمسيت أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ماكنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بحذف إحدى التاءين أى وتتمنى ، أو الأصل « ويتمنى » من
تمنى : إذا تقطع أى يمحق ويندثر ما كنت فيه من أمان . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ،
والنزوان : الوثوب . وهو مثل يضرب للقوى تخور قواه ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الخنساء ،
وذلك أنه غزا بنى أسد ، فاكتسح إبلهم ، فجاءهم الصريخ فركبوا ، فالتقوا ، فطن أبو ثور الأسد صخرًا
طعنة في جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بملك ؟
فقال : لاحت فيرجو ، ولا ميت فينقى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى : فرض زمانا حتى ملته
امرأته ، وكان يكرمها فر بها رجل وهى قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : بيناع السكندل ؟ فقالت : نعم عما
قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله إنّ قدرت لأقدمتك قبلى ، ثم قال لها : ناويلنى السيف
أنظر إليه ، هل تقله يدي ؟ فتأولته ، فإذا هو لا يقله ، فقال :

أرى أم صخر لا تملى عيادتي	وملت سليمانى مضجعى ومكافى
فأى امرئ ساوى بأم حليمة	فلا عاش إلا فى شقا وهوان
أهم بأمر الخزم لو أستطيعه	وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال به البلاء ، وقد تنأت قطعة من جنبه فى موضع الطعنة ، قيل له لو قطعها لرجونا أن تبرأ ، فقال
شأنكم ، وأشفق عليه قوم فهو فأنى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فات .

وأمه هند آكلة الأكباد؟ وجدّي الصديق، وجدّه المشدوخ^(١) بيدر، ورأس الكفر
وعمتي خديجة ذات الخطر^(٢) والحسب، وعمته أم جميل حاملة الخطب؟ وجدّتي صفية^(٣)
وجدته حمامة^(٤)؟ وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم، وزوج عمته
شر ولد آدم أبو لهب، سيصلي نارًا ذات لب؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته
أشقى الأشقين؟ وأنا عبد الله، وهو معاوية .

(١) هو جد معاوية لأمه عتبة بن ربيعة قتل على يوم بدر، والمشدوخ: المسكور: أى المقتول.
(٢) القدر، أو المنزلة وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمه أبيه، وزوج الرسول عليه
الصلاة والسلام. (٣) هى صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعمه الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٤) روى ابن أبي الحديد (م ١: ص ١٥٧) قال:

« لما ارتحل عقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية، فكان في مجلسه يوما وجلساء معاوية
حوله، فقال: يا أبا يزيد: أخبرني عن عسكري وعسكر أخيك، فقد وردت عليهما، قال: «أخبرك:
مررت والله بعسكر أخى، فإذا ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه
وآله، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم، مارأيت إلامصليا، ولا سمعت إلا قارئا،
ومررت بعسكرك فاستقبلني قوم من المنافقين من نفر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة» ثم قال:
من هذا عن يمينك يامعاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص، قال: هذا الذى اختصم فيه ستة نفر، فغلب
عليه جزار قريش، فن الآخر؟ قال الضمك بن قيس الفهري: قال: أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ
لعبس التيوس «وكان يبيع عصب الفحول في الجاهلية، والمعب كعذب: الكراء الذى يؤخذ على ضرباب
الفحل، أو ضرابه، أو ماؤه، وعصب الرجل كضرب: أعطاه الكراء على الضراب، وفي الحديث: «هى
النبي صلى الله عليه وسلم عن عصب الفحل فإن إعارة الفحل مندوب إليها» فن هذا الآخر؟ قال أبو موسى
الأشعري، قال: هذا ابن السراقة، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه، علم أنه إن استخبره عن نفسه
قال فيه سوء، فأحب أن يسأله ليقول فيه مايلمه من سوء، فيذهب بذلك غضب جلسائه، قال: يا أبا يزيد
فما تقول في؟ قال: دعنى من هذا، قال لتقولن، قال أتعرف حمامة؟ قال: ومن حمامة يا أبا يزيد؟ قال:
قد أخبرتك، ثم قام فضى، فأرسل معاوية إلى النسابة فدعاه، فقال: من حمامة؟ قال: ولى الأمان؟
قال نعم، قال حمامة جدتك أم أبي صفيان كانت بغيا في الجاهلية صاحبة راية، فقال معاوية لجلسائه: قد
ساويتكم وزدت عليكم . فلا تفضبوا .»

١٤٠ - مقال معاوية

فقال له معاوية :

« وَيْحَكَ يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قَدْ نَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لِفَدْلِكَ إِتْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هُوَ لَأَمْهُرُ الْخُضُورِ كَيْفَ لَمْ يَكُنْ أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ الْفِجَارِ^(١) عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بَنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ وَأَسْرَتَكَ تَحْتَ رَايَتِهِ ، رَاضُونَ بِإِمَارَتِهِ ، غَيْرَ مُفَكِّرِينَ لِفَضْلِهِ ، وَلَا طَامِعِينَ فِي عِزِّهِ ، إِنْ أَمَرَ أَطَاعُوا ، وَإِنْ قَالَ أَنْصَتُوا فَأَنْزَلَ فِينَا الْقِيَادَةَ ، وَعَزَّ الْوَلَايَةَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) حرب الفجار : هي حرب هاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس عيلان) وسبها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة (واللطيمة كصحيفة : العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويشترى له بضمن ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشرف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم للبراض بن قيس - وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد - وعروة الرحال بن عتبة - وهو من بني هوازن والرحال كشداد أيضا - فقال ، من يجيرها ؟ قال البراض : أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجيرها لك على أهل الشيع والقيصوم من أهل نجد وتهامة ، فقال البراض : أعلى بني كنانة يجيرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، والقائد العام للجميع حرب بن أمية والدة أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد ووالد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والفجار بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب فجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجزنا إذ قاتلنا فيها أي فسقتنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام وإنما سبها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، هذا هو الفجار الرابع وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أنجرة أخرى - انظر للسيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٢٦٠ .

فانتخبه من خير خلقه ، من أُمِّرْتِي لَا أُمِّرْتِكَ ، وبنى أبى لابنى أيبك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشاً وقادم إلا أبو سفيان بن حرب ، فكانت الفئتان تلتقيان ، ورئيسُ الهدى منا ، ورئيسُ الضلالة منا ، فمهدَيْكُمْ تحت راية مهدينا ، وضالكم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلاص الله أبا سفيان بن حرب بفضلِهِ من عظيم شره ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيماً شأنه ، وفي الإسلام معروفاً مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح مالم يُعْطَ أحد من آبائك ، وإن مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَادَى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لا دارك ولا دار أيبك ؛ وأما هند فكانت امرأة من قريش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخير ، وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سُمِّيَ صديقاً ، لا بتصديق عبد العزى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ بيدى ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو كَرَّتَ إِلَيْهِ أَنْتِ وَأَبُوكَ مَا بَارَزُوكِمْ ، وَلَا رَأَوْكِمْ لَهُمْ أَكْفَاءٌ ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أكفاؤهم من بنى أيبهم ، ففضى الله مناياهم بأيديهم ، فنحن قُتِلْنَا ، ونحن قُتِلْنَا ، وما أنتِ وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبينا شَرُفْتَ ، وسُمِّيتِ أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صغية فهي أدنتك من الظلِّ ، ولولا هي لكانت ضاحياً^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أيبك^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، وغرهم وإرثهم لى دونك ، ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم .

(١) ضحا كسعى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز والمنعة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة

العوام لبني هاشم ، وزواجه بصغية بنت عبد المطلب . (٢) ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن

ابن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد .

وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علمت قريش أينما أجود في الإِزَم^(١) ، وأحزم في القدم ، وأمنع للحُرَم ، لا والله ما أراك منهيًا حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك ، فقد طأ لهم الذحول^(٢) ، وقدم إليهم الخيول ، وخدمهم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساءكم السجوف^(٣) ، وأبرزتم زوجته للحثوف ، ومقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربًا ، فلم ينجح ذلك أن طحنه أبو الحسين بكنكله طحن الحصيد^(٤) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأقلت بعد أن حشيتك^(٥) برائيتنه ، ونالتك مخالبيه ، وإيم الله ليقومنك بنو عبد مناف يثقافها^(٦) أو لتصبحن منها صباح أيبك بوادي السباع^(٧) ، وما كان أبوك المدهن حده^(٨) ، ولكنه كما قال الشاعر :

تتارل سِرْحَانٌ فريسةً ضَيِّعِمٍ فقضقضه بالكف منه وخطما^(٩)

(المقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٤١ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لا تدعن مروان يرمى جاهل قريش بمشاقصه^(١٠) ، ويضرب حفاتهم بمؤله ، أما والله لولا مكانك ، لكان أخف على رقابنا من فراشة ، وأقل »

(١) الأزيمة (بالفتح ويحرك) للشدة ، وجمعها إزم (كشمس وعنب) . (٢) جمع ذحل (بالفتح) وهو الثار ، والعداوة ، والحقد : أي كاشفهم بذلك . (٣) جمع سجع (بالفتح ويكسر) الستر . (٤) الحصيد : الزرع المحسود . (٥) خشه : خدشه . (٦) الثقاف : ماتسوى به الرماح . (٧) مقتل أبيه الزبير . (٨) حده : بأسه ، والمدهن : المغشوش ، من أدهن أي غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب بسالته شائبة خور ولكنه . . . الخ « وفي الأصل « المدهن حده » بالخاء وأراء مصحفاً . (٩) السرحان : الذئب ، والضيعم : الأسد ، وقضقضه فتقضقض : كسره ودقه ، والتقضقضة : صوت كسر العظام . وفي الأصل ففضفضه بالفاء ، وهو تصحيف . (١٠) المشاقص : جمع مشقص كنبير ، وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرى به الوحش .

في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(١) ، وإيْمُ اللهِ لَنْ مَلَكَ أَعِنَّةَ خَيْلٍ تَنْقَادُ لَهُ ، لَتَرَكِبَنَّ مِنْهُ طَبَقًا^(٢) تخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طَمِعَ فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بِمُنْتَهَيْنَ حتى يبعث الله عليكم من لا يعطِفَ عليكم بقراية ، ولا يذْكَرُكم عند مُلَمَّةٍ ، يَسُومُكم خَسْفًا^(٣) ، ويسوقكم عَسْفًا^(٤) » .
فقال ابن الزبير : « إذن والله يُطَلِّقُ عِقَالَ الحرب بكتائبِ تَمُورٍ^(٥) كَرَجِلِ الجراد ، حَافَاتُهَا الأَسْلُ ، لها دوى كدوى الریح ، تتبع غِطْرِيَقًا^(٦) من قریش ، لم تكن أمه رَاعِيَةً ثَلَّةً^(٧) » . فقال معاوية : « أنا ابن هند ، أطلقت عِقَالَ الحرب ، فأكلتُ ذِرْوَةَ السَّامِ ، وَتَمَرِيَّتُ عُنْفُوانِ المَكْرَعِ^(٨) ، وليس للأكل بعدى إِلَّا الفِلْدَةَ^(٩) ، ولا للشارب إِلَّا الرِّتْقُ^(١٠) » . فسكت ابن الزبير .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ص ٤٩٣ ، والمعقد الفريد ٢ : ١١٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٤)

١٤٢ - عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قَدِمَ عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فَرَحَّبَ به وأدناه ، حتى أجلسه على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خَبِيْبٍ^(١١) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سَلْ غير ما سألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فيهم ، وتحفظ وصية نبي الله فيهم ، تقبل

(١) الخشاشة : واحدة الخشاش بتثنية الخاء ، وهي حشرات الأرض والمصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . (٢) الطبق : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرَكِبَنَّ مِنْهُ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »

(٣) أي يوليكم ذلاً . (٤) العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

(٥) تمور : تضطرب . (٦) الفطريف : السيد الشريف . (٧) الثلة : جماعة الغنم

أو الكثيرة منها . (٨) عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمسكرع : المورد ، مفعول من كرع

في الماء أو في الإناء . (٩) الفلذة : اللقطة من اللحم . (١٠) ماء رنق كمدل وكتف وجبل : كدره

(١١) هي كنية ابن الزبير كنى بإبنته خبيب ، وكان أسن ولده ، ويكنى أيضاً أبا بكر .

من مُحْسِنِهِمْ ، وتجاوز عن مُسِيئِهِمْ « فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن
 النجمة الذئبَ وقد أكل أليتها (١) » . فقال ابن الزبير : « مهلا يا معاوية ، فإن الشاة
 لتدبر (٢) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل الأريب ليصارع ولده الذي خرج من
 صلبه ، وما تدور الرحاء إلا يقطبها (٣) ، ولا تصأح القوس إلا بهجتها (٤) » فقال : « يا أبا
 حبيب ، لقد أجززت الطرؤفة قبل هباب الفحل (٥) ، هيهات ! وهى لا تصطك لحياها
 اصطكاك القروم السوامى (٦) » . فقال ابن الزبير : « العطن بعد العل ، والعل بعد
 النهل (٧) ولا بد للرحاء من الثفال (٨) ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العشاء أخذت قرش
 مجالسها ، وخرج معاوية على بنى أمية ، فوجد عمرو بن العاص فيهم ، فقال : ويحك
 يا بنى أمية ! أفبيكم من يكفينى ابن الزبير ؟ فقال عمرو : أنا أ كفيك يا أمير المؤمنين قال :
 ما أظنك تفعل ، قال : « بلى ، والله لأزبدن (٩) وجهه ، ولأخرسن لسانه ، ولأردنه
 ألين من خميلة (١٠) » . فقال : دونك فاعرض له إذا دخل ، فدخل ابن الزبير - وكان قد
 بلغه كلام معاوية وعمرو - فجلس نضب عيني عمرو ، فتحدثوا ساعة ، ثم قال عمرو :

وإني لنارٌ ما يطأق اصطلاؤها لدى كلامٍ معضيلٍ متفامٍ (١١)

فأطرق ابن الزبير ساعة ينفكت في الأرض ، ثم رفع رأسه وقال :

(١) الألية : ماركب العجز من شحم ولحم . (٢) در اللبن وغيره من باي ضرب وقتل ، ودرت
 الناقة بلبنها أدرته . (٣) قطب الرحا : ماتدور عليه ، والرحاء عدود الرحا . (٤) العجب : مؤخر
 كل شيء . (٥) ناقة طرؤفة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ، وأجره رسنه : جعله يجره ، وهب
 الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهيبيا : أراد السقاد . (٦) تصطك : تضطرب . والقروم : جمع قرم
 بالفتح وهو الفحل ، والسوامى جمع سام : وصف من سما الفحل سماوة : تطاول على شوله « والشول كركع
 جمع شائل وهى الناقة تشول بذنبا للقاح » . (٧) العطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والعل والعلال :
 الشرب الثانى ، والنهل : الشرب الأول . (٨) الثفال : جلد أو نخوه يبسط تحت الرحي ليقع عليه الطحين .
 (٩) أى لأصيرنه أربد ، من الربدة بالضم : وهى لون إلى الغبرة . (١٠) الخميطة : القطيفة ،
 وفى الأصل : « ولأوردنه » وهو تحريف . (١١) تفام الأمر : عظم .

وإني لبحرٌ ما يُسَامِي عِيَابَهُ متى يَلْقَى بحري حَرَّ نارِكَ تَحْمُدُ

فقال عمرو: والله يا بن الزبير إنك ما علمتُ أَمِيحَ جَلَابِيبِ الْفِتْنَةِ، مُتَأَزَّرٌ بِوَصَائِلِ (١)

الْتِيهِ ، تَتَعَاطَى الذَّرَى الشَّاهِقَةَ ، وَالْمَعَالَى الْبَاسِقَةَ ، وَمَا أَنْتَ مِنْ قَرِيشٍ فِي لُبَابِ جَوْهَرِهَا وَلَا مُؤَنِقٍ (٢) حَسَبِهَا . فقال ابن الزبير : « أما ما ذكرت من تعاطى الذرى . فإنه طال

بى إليها وسما مالا يطول بك مثله ، أنف حمي ، وقلب ذكي ، وصارم مشرفي ، في تليدٍ فارغ (٣) ، وطرِيفٍ مانع ، إذ قعد بك انتفاخ سَحْرِكِ (٤) ، وَوَجِيبِ (٥) قلبك ، وأما

ما ذكرت من أنى لست من قريش في لباب جوهرها ، ومؤنق حسبها ، فقد حضرتني وإياك الأ كفاء ، العالمون بى وبك ، فاجعلهم بينى وبينك . فقال القوم : قد أنصفك يا عمرو . قال : فد فعلت . فقال ابن الزبير : « أما إذ أمكننى الله منك فلأرِيدَنَّ وجهك .

ولأُخْرِسَنَّ لسانك ، ولترجعن في هذه الليلة ، وكان الذى بين منكيبك مشدود إلى عروق أخذ عيك (٦) ، ثم قال : أقسمتُ عليكم يا معاشر قريش ، أنا أفضلُ في دين الإسلام

أم عمرو؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبى أفضل أم أبوه؟ قالوا : أبوك حواريُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته ، قال : فأبى أفضل أم أمه؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبي بكر

الصديق ، وذات النطاقين ، قال : فعمتى أفضل أم عمته؟ قالوا : عمتك سلمى بنته العوام صاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : فخالتى أفضل أم خالته؟

قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : سجدتى أفضل أم جدته؟ قالوا : جدتك صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سجدتى أفضل أم جده؟ قالوا :

جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قَصَّتِ الْعَطَّارِفُ مِنْ قَرِيشٍ بَيْنَنَا فَاصْبِرْ لِفَضْلِ خِصَامِهَا وَقَضَائِهَا

(١) الوصائل: جمع وصيلة ، وهى ثوب مخطط يمان . (٢) آتفتى الشيء إينافا : أعجبتى ، فهو

مؤنق وأنيق: أى حسن معجب . (٣) فارغ عال . (٤) السحر ويحرك ويضم: الرثة، وانتفخ سحره :

عدا طوره وجاوز قدره . (٥) خفقان واضطراب . (٦) الأخدعان : عرقان فى موضع الحجامة .

وإذا جَرَيْتَ فلا تُجَارِ مُبْرِزًا بَدًّا الْجِيَادَ على احتفالِ جِرِّ أُمَّهَا^(١)
أما والله يابن العاص . لو أن الذي أمرك بهذا واجهني بمنته لقصرتُ إليه من ساجي
بصره ، ولتركته يتلجج لسانه ، وتضطرم النار في جوفه ، ولقد استعان منك بغير وافٍ ،
ولجأ إلى غير كافٍ ، ثم قام فخرج .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤٣ - خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الحُسَيْنَ عليه السلام ، قام عبد الله بن الزبير في أهل مكة ، وعظَّم مَقْتَلَهُ ،
وعاب على أهل الكوفة خاصَّةً ، ولأم أهل العراق عامَّةً ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى
عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم :

« إن أهل العراق غُدُرٌ فُجِّرَ إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شِرَارٌ أهل العراق ،
ولإنهم دَعَوَا حُسَيْنًا لينصروه ويؤلُّوه عليهم ، فلما قَدِمَ عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إما
أن تضع يدك في أيدينا ، فنبتت بك إلى ابن زياد بن سُمَيَّةَ سِلْمًا ، فِيمُضِي فيك حكمه ،
وإما أن تحارب ، فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير - وإن كان الله عزَّ وجلَّ لم
يُطْلِعْ على الغيب أحدا - أنه مقتول ، ولكنَّهُ اختار الميعة الكريمة على الحياة الذميمة ،
فرحم الله حسينًا ، وأخزي قاتل حسين . لعمرى لقد كان من خِلافهم إياه وعِصيانهم
ما كان في مثله واعظ وناه عنهم ، ولكنَّهُ ما حَمَمَ^(٢) نازلٌ ، وإذا أراد الله أمرًا
لن يُدْفِعَ .

أبعد الحسين نظمُنْ إلى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ، ونقبل لهم عهدًا ؟
لا ، ولا نراهم لذلك أهلاً ، أما والله لقد قتلوه ، طويلًا بالليل قيامه ، كثيرا في النهار

(١) برز تبرزوا : فاق أصحابه . وبذ : فاق وغلب ، واحتفل القوم : اجتمعوا ، والجراء والمجاراة :

(٢) ما قدر .

مصدر جارى .

صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن النِّفَاء ، ولا بالبكاء من خشية الله الخدَاء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلّاب الصيد (يعرض بيزيد) فسوف يتقون غيًّا^(١) .

فتار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازحك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت .
(تاريخ العبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٤ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم ابن عقبة المرّي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسرّ بمقدّمهم وتبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم آتق بعضهم بعضاً فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أميس يقاتلكم هو وأبوه ، ينادى بالثارات عثمان ، ندخل إليه فننظر ما عنده ، فإن قدّم أبا بكر

(١) أي شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف

أي جزاء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام : الإثم ، أي يلقي جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم) .

وعمر ، وبرى من عثمان وعلى ، وكفر أباه وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ،
ظهر لنا ما عنده ، فتشاغلنا بما يُجدي علينا .

فدخلوا كلّي ابن الزبير وهو مُبتذل^(١) ، وأصحابه متفرقون عنه ، فقالوا : إنا جئناك
لتخبرنا رأيك ، فإن كنت كلّي الصواب بايعناك ، وإن كنت كلّي غيره دعوناك إلى
الحق ، ما تقول في الشيخين ؟ قال : خيراً . قالوا : فما تقول في عثمان الذي أحى^(٢) الحمى ،
وآوى الطريد^(٣) ، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه ، وأوطأ آل أبي معيط^(٤)
رقاب الناس ، وآثرهم بنى المسلمين ، وفي الذي بعده ، الذي حَكَم في دين الله الرجال ،
وأقام كلّي ذلك غير تائب ولا نادم ، وفي أبيك وصاحبه ، وقد بايعا علياً وهو إمام عادل
مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم نكثنا بعرض من أعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاتل ،
وقد أسرها الله وصواحبها أن يقرن^(٥) في بيوتهن ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة
فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلني^(٦) عند الله والنصر كلّي أيدبنا ، ونسأل الله لك التوفيق
وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول ، وتصويب أبيك وصاحبه ، والتمحيق بعثمان والتولّي
في السنين الست التي أحلت دمه ، ونقضت أحكامه ، وأفسدت إمامته ، خذلك الله

(١) المبتذل : لابس البذلة (بالكسر) أو المبتذلة : وهي الثوب الخلق ومالا يصابن من الثياب .

(٢) أحى المكان : جملة حمى لا يقرب ، وكان من المطاعن التي وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه حمى
عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء في الماء والكأ ، ولما سئل في ذلك قال
إنما فعلت ذلك لإبيل الصدقة ، وقد أطلقتها الآن ، وأنا أستغفر الله . وروى الواقدي أن عثمان كان يحمى
الريذة والشرف والبقيع . فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان ، فكان
يحمى الشرف لإبله وكانت ألف بعير وإبيل الحسك بن أبي العاص ، ويحمى الريذة لإبيل الصدقة . ويحمى البقيع
لخيل المسلمين وخيله وخيل بني أمية . شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٣٥

(٣) هو الحسك بن أبي العاص - انظر ص ١٠٤ . (٤) من ولاهم عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط
ولاه الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . (٥) من قر بالمكان يقر (بالكسر والفتح) قراراً أى استقر .
أصله يقرن حذف الأول من الرايين ونقلت حركتها إلى القاف . (٦) الزافة والزلني : القرية والمنزلة .

وانتصر منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزة والقدرة) في مخاطبة أ كفر الكافرين ، وأهق العتاة ، بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى لأخيه صلى الله عليهما : « أذهباً إلى فرعون إنه طمى ، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى » .
 فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجاد في الحاربة ، والمتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذى سميت فيه طلحة وأبي أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ » فإن كانا منهم دخلاً فى عُمار (١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم يُحفظوني (٢) بسب أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن فى أوبه : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ، وقال جل ثناؤه : « وقولوا للناس حسناً » وهذا الذى دعوتم إليه أمرته ما بعده ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصریح (٣) ، ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل صاحب من عدوه ، فروحوا (٤) إلى من عشيتكم هذه ، أكشفت لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشي راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نبذة (٥) قال : هذا خروج منايد (٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ، ثم وصلهن بالسنين التى أنكرن سيرته فيها ، فجعلها كالماضية ، وخبر أنه

(١) بالضم ويفتح جماعتهم . (٢) تفضبون . (٣) تبين الأمر .

(٤) الرواح : العشى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم وراحا . (٥) هو نبذة بن عامر الحنفى من

كبار زعمائهم . (٦) نايذه : كاشفه بالمداوة .

أرى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحنفي وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استعقبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أو لا مُصيباً ، ثم أعتبهم بعد ذلك محسناً ، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه ، بعد أن ضمن لهم العتبي^(١) ثم كُتِب لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفنوا الكتاب إليه ، حلف بالله أنه لم يكتبه ، ولم يأمر به ، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله ، ومكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه^(٢) ، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين ، لو حلف عليها لحلف قلى حق ، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف له بالله فليرض » . فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا وليُّ وليه ، وعدوُّ عدوه ، وأبي وصاحبه صاحب رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ يوم أحد ، لما قُطعت إصبع طلحة : « سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ » ، وقال : « أوجب طلحة^(٣) » ، وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : « ذاك يومٌ كله أو جلُّه لطلحة » . والزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، فقال جلَّ وعزَّ : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعدُ أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقاً ، فأهل ذلك هم ، وإن يكن زلة ففي عفو الله تمحيصها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأتم بأمر عائشة رضي الله عنها ، فإن أبي آب

(١) العتبي : الرضا . (٢) وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اختار عثمان ابن عفان رسولاً من قبله إلى قريش ، يعلمهم بمقصده ، وأنه أتى مكة معتمراً ، فقالوا : إن محمداً لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ثم إنهم حبسوه . فشاع عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حيناً سمع بذلك : لا تبرح حتى نناجزهم الحرب . ودعا المسلمين إلى البيعة على القتال فبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان . (٣) الموجبة من الحسنات التي توجب الجنة . وأوجب : أتى بها .

أن تكون له أما نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جلّ ذكره ، وقوله الحق :
« النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ،
ثم انصرفوا عنه .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والمعقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٥ — أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي في هُدَيْلٍ ،
وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهوَاهِ في بني أمية ، فنعمه عطاءه ، فقال : عَلَامٌ
تَمْنَعُنِي حَقَالِي ؟ وأنا امرؤٌ مُسْلِمٌ ما أحدثتُ في الإسلام حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعةٍ يداً .
قال : عليك بني أمية ، فاطلب عندهم عَطَاءَكَ . قال :

« إِنْ أَجَدَمَ سِبَاطًا (١) أَكْفُهُمْ ، سَمِحَةً أَنفُسُهُمْ ، بُذْلَاءَ لَأَمْوَالِهِمْ ، وَهَابِينَ
لِمُجْتَدِيهِمْ (٢) كَرِيمَةً أَعْرَاقِهِمْ ، شَرِيفَةً أَصُولَهُمْ ، زَاكِيَةً فُرُوعَهُمْ ، قَرِيبًا مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبُهُمْ وَسَبَبُهُمْ ، لَيْسُوا إِذَا نُسِبُوا بِأَذْنَابٍ وَلَا وَشَائِظٍ (٣)
وَلَا أَتْبَاعٍ ، وَلَا مِمْ فِي قَرِيشٍ كَفِقَعَةَ الْقَاعِ (٤) ، لَمْ السُّودَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالْمَلِكُ فِي الْإِسْلَامِ
لَا كُنْ لَا يُعَدُّ فِي عِيْرِهَا وَلَا نَفِيرِهَا (٥) ، وَلَا حَكَمَ آبَاؤُهُ فِي نَفِيرِهَا وَلَا قَطْمِيرِهَا (٦) لَيْسَ

(١) رجل سبط اليمين : سخي (وسبط كشمس) . (٢) المجتمى : طالب الجدوى ، وهي العطية .

(٣) وشائظ جمع وشيظة ، يقال : هم وشيظة في قومهم أي حشو فيهم ، وفي الأصل : « وسائط »
وهو تصحيف . (٤) الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من الكمأة وجمعه فقع كعنبية ، والقراع :

أرض سهلة معشنة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب المثل بالفقع في الذل ، لأنه لا يمتنع على
من اجتنائه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . (٥) أخذنا من المثل وهو « لا في العير ولا في النفير » وأول من

قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب للرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم شرحه .

(٦) النفير : النكتة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والتمر .

من أحلافها (١) المطيبين ، ولا من سادتها المطعمين ، ولا من جودائها (٢) الوهابين ، ولا من هاشمها المنتخبين ، ولا عبد شمسها المسوِّدين ، وكيف فقاتل الرءوس بالأذنان ، وأين النصلُ من الجفن (٣) والسنان من الزُّجج (٤) ، والدُّنَابِي (٥) من القُدَامَى (٦) وكيف يُفضّل الشحيح على الجواد ، والشوكة على الملك ؛ والجامع بخلا على المطعم فضلا ؟ » .

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه (٧) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قرّنه إلى قدمه ، وامتقع لونه ، ثم قال له : يا بن البوّالة على عقيها ، ويا جِلْف (٨) ، يا جاهل . أما والله لولا الحُرّمات الثلاث : حرمة الإسلام ، وحرمة الحرم ، وحرمة الشهر الحرام . لأخذت الذي فيه عيناك ، ثم أسر به إلى سجن « عارم » فحبس به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خُمولة في هذيل ، فأطلقه بعد سنة . وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا .

فلما وليّ عبد الملك ، أسره له بما فاته من العطاء ، ومثله صِلّة من ماله وكساه وحمله .
(الأغاني : ٢١ : ٩٤)

١٤٦ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قدّم وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأتوه في المسجد الحرام في يوم الجمعة ، فسألوا عليه . فسألهم عن مصعب أخيه ، وعن سيرته فيهم . فقالوا : أحسن الناس سيرةً ،

(١) الأحلاف في قریش ست قبائل : عبد الدار ، وكعب ، وجمع ، وسهم ، ومخزوم ، وعلوى ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، فقد كل قوم على أمرهم حلقة مؤكدا على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعت لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيم عند السكبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ، وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلقة آخر مؤكدا فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : لغمس أيديهم في الطيب . (٢) جوداء: جمع جواد ، وهو السخي ، ويجمع أيضا على أجواد وأجاود . (٣) غمد السيف . (٤) الحديدية في أسفل الرمح . (٥) الذنب . (٦) أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح . (٧) جمع فريصة ، وهي اللحم بين الجنب والسكرتف . (٨) الجلف : الرجل الجاني .

وأفضاه بحق ، وأعدّله في حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ،
وأثنى عليه . ثم قال :

قد جرّبوني ثم جرّبوني من غلوتين ومن المثين (١)

حتى إذا شابوا وشيبوني خلوا عني ثم سيبوني (٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب بن
الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب . ألا إن مصعباً أطبى (٣) القلوب ،
حتى مات عدل به ، والأهواء حتى مات تحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ؛ والقلوب بنصحتها .
والنفوس بمحبتها . فهو المحبوب في خاصته . المحمود في عامته . بما أطلق الله به لسانه من
الخير . وبسط يده من البذل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ؛ والأماك ١ : ٢٨٦)

١٤٧ - خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبد الملك بن مروان مُصعب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) وانتهى خبر مقتله
إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياما ، حتى تحدث به إمام مكة في الطريق ،
ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم ، والكأبة على وجهه ، وجبينه يرشح عرقا . فقال
رجل من قريش لرجل إلى جانبه : ماله لا يتكلم ، أترأه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه للبيب
الخطباء . قال : لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير
معلوم ، ثم تكلم فقال :

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومُلِك الدنيا والآخرة ، يُؤْتِي المُلْكَ من يشاء ،
وَيَنْزِع المُلْكَ من يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء . أما بعد : فإنه لم يُعِزَّ اللهُ

(١) الفلوة: الغاية ، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هي قدر ثلثائة ذراع إلى أربعمائة .

(٢) تركوني . (٣) أطبى : استمال .

مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنْامُ طُرًّا^(١) ، وَلَمْ يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ مُفْرَدًا ضَعِيفًا ؛ أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ أَتَانَا خَبْرٌ مِنَ الْعِرَاقِ ، بِلَدِّ الْقَدَّرِ وَالشَّقَاقِ ، فَسَاءَ نَا وَسَرَّ نَا ، أَتَانَا أَنْ مَصِيبًا قَبِلَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتُهُ ؛ فَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ لِفِرَاقِ الْحَجِيمِ لَذَعَةً وَلَوْعَةً يَجِدُهَا حَمِيمُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، ثُمَّ يَرْعَوِي مِنْ بَعْدُ ذَوِ الرَّأْيِ وَاللَّيْنِ إِلَى جَمِيلِ الصَّبْرِ ، وَكَرِيمِ الْعَزَاءِ . وَأَمَّا الَّذِي سَرَّ نَا مِنْهُ فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنْ قَتَلَهُ شَهَادَةٌ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَنَا وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَسْلَمَهُ الطَّغَامُ^(٢) ، الصَّمَّ الْأَذَانَ ، أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِسْلَامَ النَّعَمِ الْمُخْطَمَةِ^(٣) ، وَبَاعُوهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ، فَإِنْ يُقْتَلُ قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَأَخُوهُ^(٤) ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَمُوتُ حَتَّى آنَافًا^(٥) ، وَلَكِنْ قَعَصًا^(٦) بِالرَّمَاحِ ،

(١) جميعا . (٢) الأوغاد . (٣) خطم البعير بالخطام : جعله على أنفه ، والخطام كسكتاب : ما وضع في أنف البعير ليقناده به . (٤) بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز فقتله في الصلاة ، ويعني بعمة عبدالرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة ٣ : ٢١٣ » .

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة كاقلمنا ، سار إلى مكة لغزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك — وكان أخوه المنذر من شهد الحرة . ثم لحق به — فجرد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم إن رجلا من أهل للشأم دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرسا صاحبه لها ميتا . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ - تاريخ الطبري ٧ : ١٤ - . (٥) الحتف : الموت ، ويقال مات حتف أنفه : أي على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . (٦) القمص : الموت الوحي (أي السريع كغني) ومات قصا : أصابته ضربة ، أو رمية فمات مكانه ، وفي السكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله ماموت حبيجا » وزاد السكامل « كيتة آل أبي العاص » والحجج محرقة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجمفر) ، وربما قتله ذلك ، يعرض بين مروان لسكرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالثخمة .

وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنومروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قطُّ ؛ ألا وإنما الدنيا عاريةٌ من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبديد ملكه ، فإن تقبل الدنيا طيِّباً لم آخذها أخذ الأثير البطر^(١) ، وإن تدبّر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين^(٢) . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .
ثم نزل .

(الألفاني ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٨ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال :
« إن مصعباً قدّم أيراه ، وأخر خيراه ، وتشاغل بنسكاح فلانة وفلانة^(٣) ، وترك حلبة^(٤) أهل الشام ؛ حتى غشيت به في داره ، ولئن هلك مُصعب إن في آل الزبير خلفاً منه » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٩ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو والأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، قام خطيباً فقال :

(١) الأثير : البطر . (٢) من الخرق محرقة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فاتحاً عينيه ينظر ، والمهين : الحقير ، ويروى : « بكاء الخرف المهتر » والخرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من الهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (يضم الميم وفتح التاء) : شاذ وقد قيل أهتر بالبناء للمجهول (٣) كان تحته عقيلتا قریش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين . (٤) الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة .

« إن أبا ذبَّان^(١) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ^(٢) ، كَذَلِكَ نُوتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٥٠ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من
الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

يا أمّه : خَذَلَنِي النَّاسَ حَتَّى وَلَدِي^(٣) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ
مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أَرَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟
فَقَالَتْ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَإِلَيْهِ تَدْعُو فَامضْ لَهُ ،
فَقَدْ قُتِلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُكَ ، وَلَا تَمَكِّنْ مِنْ رَقَبَتِكَ يَتَلَعَّبُ بِهَا غِلْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَإِنْ كُنْتَ
إِنَّمَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا ، فَبئسَ العَبْدُ أَنْتَ ، أَهْلَكَتَ نَفْسَكَ ، وَأَهْلَكَتَ مِنْ قُتِلَ مَعَكَ ،
وَإِنْ قُلْتَ كُنْتُ عَلَى حَقٍّ ، فَلِمَا وَهَنَ أَصْحَابِي ضَعُفْتُ ، فَهَذَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَحْرَارِ وَلَا أَهْلِ
الدِّينِ ، وَكَمْ خُلُودُكَ فِي الدُّنْيَا ؟ الْقَتْلُ أَحْسَنُ ، وَاللَّهُ لَضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ فِي عِزٍّ ، أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ ضَرْبَةٍ بِسَوْطٍ فِي ذَلٍّ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُ إِنْ قَتَلُونِي أَنْ يُمَثِّلُوا بِي ، قَالَتْ : يَا بَنِي إِنْ
الشَّاةُ لَا يَضُرُّهَا سَلْخُهَا بَعْدَ ذُبْحِهَا .

فَدَنَا مِنْهَا وَقَبِلَ رَأْسَهَا ، وَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَأْيِي ، وَالَّذِي قَتَلَ بِهِ دَاعِيًا إِلَى يَوْمِي هَذَا ،

-
- (١) الذبَّان : الذباب ، والعرب تكنو الأبخر « أبا ذباب » وبعضهم يكتنيه « أبا ذبَّان » وقد غلب ذلك
على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في فمه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب .
(٢) هو عمرو بن سعيد الأشدق ، سمي بذلك لميل كان في فمه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان »
قال الوزير الكاتب ابن عبدون في مراثيه المشهورة لدولة بني الأفتس بالأندلس التي مطلعها :
« الدهر يفتح بعد العين بالأثر فا البكاء على الأشباح والصور »
ولم تدع لأبي الذبَّان قاضيه ليس اللطيم لها عمرو بمنصر
(٣) وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حمزة وخبيب فأخذاهما منه لأنفسهما أمانا .

ما رَكَنْتُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَمَا دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَّا الْغَضَبُ اللَّهُ أَنْ تُسْتَحَلَّ حُرْمَتُهُ ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ رَأْيِكَ ، فَزِدْتَنِي بِصَبْرَةٍ مَعَ بَصِيرَتِي ، فَانظُرِي يَا أُمُّهُ ، فَإِنِّي مَقْتُولٌ مِنْ يَوْمِي هَذَا ، فَلَا يَشْتَدُّ حَزَنُكَ ، وَسَلِّمِي لِأَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ ابْنَكَ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِتْيَانِ مُنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلًا بِفَاحِشَةٍ ، وَلَمْ يَجْزُ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَغْدِرْ فِي أَمَانٍ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ ظُلْمَ مُسْلِمٍ وَلَا مَعَاهِدٍ ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي ظُلْمٌ عَنْ عَمَالِي فَرَضِيَتْ بِهِ ، بَلْ أَنْكَرْتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ آثَرَ عِنْدِي مِنْ رِضَا رَبِّي ، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَقُولُ هَذَا تَزَكِيَةً مِنِّي لِنَفْسِي - أَنْتَ أَعْلَمُ بِي - وَلَكِنْ أَقُولُهُ تَعَزِيَةً لِأُمِّي لَتَسْأَلُو عَنِّي ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي لِأَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عَزَائِي فِيكَ حَسَنًا إِنْ تَقَدَّمْتَنِي ، وَإِنْ تَقَدَّمْتِكَ فِي نَفْسِي حَرَجٌ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَامَ يَصِيرُ أَمْرُكَ . قَالَ : يَا أُمُّهُ جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ! فَلَا تَدْعِي الدُّعَاءَ لِي قَبْلُ وَبَعْدُ ، فَقَالَتْ : لَا أَدْعُهُ أَبَدًا ، فَمَنْ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ فَقَدْ قُتِلَ عَلَى حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَتْ : « اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ ذَلِكَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَذَلِكَ النَّجِيبِ وَالظَّمَا فِي هَوَاجِرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، وَبِرَّهَ بِأَبِيهِ وَبِي ، اللَّهُمَّ قَدْ سَلَّمْتَهُ لِأَمْرِكَ فِيهِ ، وَرَضِيَتْ بِمَا قَضَيْتَ ، فَأَثْبِتْنِي فِي عَبْدِ اللَّهِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ » . ثُمَّ وَدَّعَهَا وَخَرَجَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٢ ، والفخرى ١١١ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٥١ - خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ تَمَشَّقَ كَمَا سَحَابُهُ ، وَأَحْدَقَ بِكُمْ رَبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد تفرُّقٍ ، وارجحنَّ بعد تَمَشُّقٍ ^(٢) ، وَرَجَسَ ^(٣) نَحْوَكُمْ رَعْدُهُ ، وَهُوَ مُفْرَغٌ عَلَيْكُمْ وَدَقَّةً ^(٤) »

(١) الرباب : السحاب الأبيض . (٢) ارجحن : مال من ثقله واهتز ، وتمشَّق ثوبه : تمزق .

(٣) رجست السماء : رعدت شديدا وتمخضت . (٤) الودق : المطر .

وقائد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجملوا السيوف لها غرَصًا ، واستعينوا عليها بالصبر .
وتمثل بأبيات ، ثم افتتحم يقاتل وهو يقول :

قد جدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساق^(١)

(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٢ - خطبة أخرى

وروى الطبري قال :

لما كان يوم الثلاثاء صديحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ
الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طَبَّتم لي نفسًا عن أنفسكم ، كنَّا أهل بيتٍ من العرب
اضْطَلَمْنَا^(٢) في الله ، لم تُصَبْنَا زَبَاءَ بَيْتَةٍ^(٣) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يَرُغِمُ وقع
السيوف ، فإنِّي لم أحضُرْ موْطِنًا قَطُّ إلا أَرْتُنْتُ^(٤) فيه من القتل ، وما أجد من دواء
جراحها أشدَّ مما أجد من ألمٍ وَقَمِيها ، صُونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ؛ لا أعلم امرأ
كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزلٌ ، غَضُّوا
أبصاركم عن البارقة^(٥) ، وليشغَلْ كل امرئٍ قِرْنَه ، ولا يُلْهَيْنِكُم السؤالُ عني ، ولا
تقولُنَّ : أين عبد الله بن الزبير ، إلا من كان سائلًا عني فإنِّي في الرَّعِيلِ^(٦) الأول :

أبي لابن سلمى أنه غيرُ خالد مَلَأَقي المنايا أيَّ صَرَفِ تَيْمَمًا

(١) هو من مشطور السريع الموقوف . (٢) أي استوصلنا . (٣) الزبَاء من الدواهي :

الشديدة ، ويقال لافعله ألبتة ، وبته ، لكال أمر لارجعة فيه . (٤) ارتث (مبنيًا للمجهول) حمل

من المعركة ريثما أي جريحا وبه رمق . (٥) البارقة : السيوف . (٦) الرعيل : القطعة من الخيل

القليلة ، أو مقدمتها .

فلستُ بمبتاعِ الحياةِ بسبِّةٍ ولا مُرتقٍ من خشيةِ الموتِ سلماً
احملوا على بركةِ الله « ثم قاتل حتى أُنحِنَ بالجراحاتِ وقتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥٣ - خطبة مصعب بن الزبير

بعت عبد الله بن الزبير أخاه مُصعباً والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم طسم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ
نَبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار بيده نحو الشام « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنُمْكِنَنَّ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده
نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفي سنة ٥٦٠ هـ)

١٥٤ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإني والله ما وِئيتُها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً ، ولقد رُضت^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، ففقرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَات^(٢) عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإني خير لكم ولايةً ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دبر^(٣) أذني ،

(١) من راض المهر: إذا ذلّه . (٢) سنّية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

(٣) جعل كلامك دبر أذنه : لم يصغ إليه ، ولم يرج عليه .

وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحققكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أنا كم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثري ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفسد المعيشة وتكدر النعمة » ثم نزل .
(المقد للفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٥ - خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنا قدمنا على صديق مستبشر .
أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون . فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت تحمّدة ، فلا بد من مذمة ، فلو ما هونا إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أوبقت ، وإن ذُكرت أوثقت » ثم نزل .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٦ - خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق ، يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعته نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُنكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرئى خير من الفتق ، وفي كلِّ بلاغٍ ، ولا مُقام على الرزية » .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ - خطبته حين ولي المغيرة بن شعبه الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبه الكوفة في جمادى سنة ٤٠ هـ دعاه ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا^(١) ، وسد طال المتلمس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا وما علم الإنسان إلا ليعلمًا

وقد يُجزى^(٢) الحكيمُ بغير التعليم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا
تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني ، ويُساعد سلطاني ، وتصلح به رعييتي ، ولست تاركاً
إيصاءك بمخلة : لا تتحَمَّ^(٣) عن شتمٍ على وذمه ، والترحم على عثمان ، والاستغفار له ،
والعيب على أصحاب علي ، والإفصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وإطراء شيعة عثمان
رضوان الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم . »

فقال المغيرة : « قد جربتُ وجربتُ ، وحميتُ قبلك لعيرك ، فلم يُذمَّ بي دَفْعٌ
ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فستَبَلُّو^(٤) فتحمد ، أو تذمَّ » قال : « بل نحمد إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤١)

(١) من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لذي الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ،
وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب العدواني ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ،
وقيل عمرو بن حمة الدوسي ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عامر بن الظرب كان أحد حكام العرب
المهاجرين : لا تمدل بفهمه فهما ، ولا يحكمه حكما ، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه :
إنه قد كبرت سني ، وعرض لي سهو ، فإذا رأيتموني خرجت من كلامي ، وأخذت في غيره ، فاقرعوا لي
المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريده :

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا البيت .

(٢) يجزى مسهل عن يجزى أى يفنى ، يقال : أجزأت عنك مجزاً فلان : أى أغثيت عنك مغناه .

(٣) احتمى وتحمى : امتنع . (٤) أى تختبر .

١٥٨ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عزَّ وجلَّ خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم (المقدم الفرید ٢ : ١٤٠)

١٥٩ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إني من زرع قد استحصد^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيت فراقى ، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتيكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحبيب لقاءى » ثم نزل ، فاصعد المنبر حتى مات^(٢) . (الآمال ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٦٠ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قریش يتباشرون بموتك ، قال : ويحك ؟ ولم ؟ قال : لا أدرى . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأوجز ثم قال :

(١) استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . (٢) سيرد عليك بقية خطبه بعد في موضعها .

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا في دهر عَنُود^(١) ، وزمن شديد^(٢) يُمَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوتاً ، لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة^(٣) حتى تحلّ بنا؛ فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا ينعمه من الفساد في الأرض إلا مهانةً نفسه ، وكلال حدّه ، ونضيب وفره^(٤) ومنهم المصّات^(٥) أسيفه ، المُجِيب بحيله ورجله ، المعلن بشرته ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه ، لُحطام ينتهزه^(٦) ، أو مقنّب^(٧) يقوده ، أو منبر يفرّعه^(٨) ، ولبئس المتجر أن تراهما لنفسك ثمنًا ، وعمالك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطالب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه ، وشمر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة للعصية ، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن أمه . فتحلى باسم القناعة . وتزين بلباس الزهاد . وليس من ذلك في مراح ولا معدى ، وبقى رجال غصّ أبصارهم ذكرُ المرجع ، وأراق دموعهم خوفُ المحشر ، فهم بين شريد نافر ، وخائف منقمع^(٩) ، وساكِت مكعوم^(١٠) ، وداع مخلص ، وموجع تبكّلان ، قد أخلتهم التقيّة^(١١) ، وشملتهم الذلّة ، فهم بحر أجاج^(١٢) ، أفواهم ضامرة^(١٣) ، وقلوبهم قرحة ، قد وعظوا حتى ملّوا ، وقهروا حتى ذأوا ، وقتلوا

(١) جائز . من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . (٢) وفي نهج البلاغة : وزمن كنود وهو الكفور . (٣) الداهية التي تفرع أي تصيب . (٤) أي قلة ماله . (٥) أصلت السيف : سله . (٦) هيأها وأعدّها (من الشرط (محرّكة) وهو العلامة) أي هيأها للفساد في الأرض . وأوبقه : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكسر من اليبس . (٧) المقنّب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثائة . (٨) يعلوه . (٩) مقهور . (١٠) من كمع البعير كنع : شد فاه لثلا يعض أو يأكل ، وفي البيان والتبيين معكوم ، من عك المتاع يمكه : شده بثوب . (١١) التقيّة : المداراة . (١٢) الأجاج : الملح . (١٣) ساكتة من ضمير كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرتة في فيه ولم يجتر .

حتى قَلَّوا ، فلتسكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُمالة القَرْظ^(١) وقرْاضة الجَلَمين ،
واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فافرضوها ذميمةً فإنها قدرفضت
من كان أشغف بها منكم .

(البيان والتبيين ٢: ٢٨ ، والعقد الفريد ٢: ١٤١ : ونهج البلاغة ١: ٤٠ وإعجاز القرآن ٢١٣)

١٦١ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاويةَ مُسلمَ بنَ عُقبةَ المرثيِّ ،
والضَّحَّاكَ بنَ قيسِ النهريِّ ، فقال : أبلغا عني يزيدَ وقولا له :

« يا بني ، إني قد كفيتك الشَّدَّ والتَّرْحَالَ ، ووطأت لك الأمور ، وذلت لك الأعداء
وأخضعت لك رِقَابَ العرب ، وجمعت لك مالم يجمعه أحدٌ ، فانظر أهلَ الحجاز ، فإنهم
أصلك وَعِزَّتِكَ^(٢) ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتمهده ، وانظر أهلَ العراق ،
فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإنَّ عَزَلَ عاملٍ أهونُ عليك من سلِّ
مائة ألف سيف ، ثم لاندري علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهلَ الشَّامِ ، فاجعلهم
الشُّعَارَ^(٣) دون الدُّنَّارِ ، فإن رآبك من عدوك رَيْبٌ ، فازمهم^(٤) بهم ، فإن

(١) القَرْظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقراض يجزبه الصوف . والقراضة :
ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب
الذي من أجله دعاهم معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الإخبار عنهم ، وعما هم عليه
من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف - أشبه بكلام علي وبمعاوية ، وبجاله منه بحال معاوية . ومنها أنا لم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب لكم
وتخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » .

ونسبها الشريف الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه الذي لا يشك فيه .

(٢) عترة الرجل : عشيرته الأذنون . (٣) الشعار : الثوب يليس على شعر الجسد ، والدنار :

الذي يابس فوق الشعار . (٤) فازمهم (٤) الضمير للعدو ، وهو الواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يشئ
ويجمع ويؤنث .

أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا
بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازلك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَدَهُ^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرهُ بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفِيَكَ الله بمن قَتَلَ أباه وخذل
أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه فإن خرج وظفرت به ، فاصفح عنه ،
فإن له رَحِمًا^(٢) ماسّة ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ؛ وأما
ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ، ليست له همهٌ إلا في النساء
واللهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ^(٣) ، فإن ظفرت به فقطعهُ إزبًا إزبًا^(٤) .
« أو قال » وأما الذي يَحْتِمُ لك جُثُوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته
فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إزبًا إزبًا ،
واحقن دماء قومك ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ الفخرى ص ١٠٢)

(١) وقده : صرعه وغلبه ، وتركه عليلًا كأوقده . (٢) قرابة . (٣) انظر تفسيرها
في صفحة ١٤١ . (٤) أي عضوا عضوا .

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٢ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبِلاً من حبال الله ، مَدَّهُ ما شاء أن يمدَّهُ . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبْلَهُ ، وخيراً ممن يأتي بعده . ولا أزكّيه عند ربه وقد صار إليه . فإن يعفُ فبرحمته . وإن يعاقبه فيذنبه . وقد وليت بعده الأمر . ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(١) بطلب علم ، وعلى رسلكم ، إذا كره الله شيئاً غيره ، وإذا أحب شيئاً يستره . »

(المقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦٣ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وفضله ، وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعاداراً وإنذاراً ، لتلا يكون

(١) في المقد الفريد : ولا آتى على طلب علم ، ولا آتى عن طلب علم .

للناس على الله حجةً بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، وانقطاع مدتها ، وتصرف دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالفاني ، وتحببت بالمعجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكالة غواية غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . لن تعدوا الدنيا إذا تناهت إلى أمينة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ^(٣) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . (العقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٤ - خطبة معاوية بن يزيد^(٤) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودي بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإنني قد نظرت في أمركم فضعت عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى

(١) أي همهم العبادة . (٢) ناضرة . (٣) أي عتكم (مشقتكم) .

(٤) استخلف في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤ ، ولم يلبث في الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوماً .

مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختروا له من أحببتم ، فما كنت لأنزودها
ميتاً ، وما استمعت بها حياً » .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيب حتى مات ^(١) .

(تاريخ الطبری ٧ : ٣٤ ، والفخرى ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

١٦٥ - وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على
مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكماً ولا توصه ، أي بني انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة
فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند
محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيته منك كذب ، فإنهم إن
ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبين
لك فاكتمب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من
رعيته فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ،
ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطقي الجرة ، فإن أول من جعل السجن
كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والرواة فليكونوا أصحابك وجلساءك ،
ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف
الله عليك » .
(للعقد الفريد ١ : ٤٩)

(١) قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً :

وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٨٦ هـ)

١٦٦ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة المدهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١) (يريد يزيد بن معاوية) فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا . ثم نزل^(٢) .

(المقدم الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣ والبيان والتبيين ٢ : ٨٥)

١٦٧ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فإلزمتم تزادون في الذنب ، وتزدادون في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف . » (المقدم الفريد ٢ : ٢٦٣)

(١) المأفون : الضعيف الرأي والعقل . (٢) قال أبو إسحق النظام : « أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف وسببك من هذا المدهن لكنت منها أبعد من العيوق (يفتح العين وتشديد الياء نجم أحمر مضى . يتلو الثريا) والله ما أخذتها بورائة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوصية . »

١٦٨ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(١)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجملوا سلفكم لمن شبر منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا^(٢) من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٣) السطوات ، وتجوس خلالكم بوادرُ الفقمات ، وتطأ رقابكم بشقلها العقوبة ، فتجعلكم همدًا رفاتًا^(٤) ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتًا ، فيأبى من قول قائل ، ورشقة جاهل ، فإنما بيني وبينكم أن أسمع النغوة^(٥) ، فأصمّ تصميم الحسام المطرور^(٦) ، وأصول صيال الحنق الموتور^(٧) ، وإنما هي المصاحفة والمسكافة ، بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتاب تائب ، وهديل خائب^(٨) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبذول ،

(١) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز الضحاك بن قيس الفهري عن مروان ابن الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرضى الأشدق بذلك ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبأيع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من يلاقى معه مالم يخف عليك ، فاجعل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرو ابن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .

(٢) غبر : بقى ، وأغفال جمع غفل كقفل . (٣) الجوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال . (٤) الهامد : البالي من كل شيء ، والرفات : الحطام . (٥) النغوة والنغمة : أول الخبز قبل أن تستثبته . (٦) المشحوذ ، من الطر : وهو تحديد السسكين وغيرها . (٧) صاحب الوتر : وهو الثار . (٨) هدله يهداه كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أى ضعف الخائب وخار ، ولعله حائب من الحوب بفتح الحاء وضهها وهو الإثم . حاب بكذا أثم جوبيا أى ضعف الأثم المذنب . (١٣ - جمهرة خطب العرب - ثان)

لمن عرف رُشدُه ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل
الطاعة يبدأ على أهل الجهل من سفهائكم ، واستدبوا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ،
ونفيس زيتها ، فإنكم من ذلك بين فضيائين : عاجل الخفض والدعة ، وآجل الجزاء
والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وفتنته ونزغهِ (١) ، وأمدكم بحسن معونته وحفظه ،
انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكذرة عليكم .
(صبح الأعشى ١ : ٢١٨)

١٦٩ — خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير (٢)

لما قتل عبد الملك مُصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرة ، وإن السلم آمنٌ ومسرّة ، وقد زبنتنا
الحرب وزبناها (٣) ففرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على
سُبل الهدى ، ودعوا الأهواء المُزديّة ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا
أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لاتعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ،
ولن تزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فن شاء منكم أن يعود بعدُ لثأرها
فليعدُ ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري :

من يَصِلَ نارِي بلا ذنب ولا تِرةٍ يَصِلَ بنارِ كَرِيمٍ غيرِ غَدَارٍ (٤)
أنا النذير لكم مني مجاهرةً كي لا ألام على نهى وإنذار

(١) نزغ بينهم : أفسد وأغرى . (٢) نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها
بصيفين (صبح الأعشى ١ : ٢١٥) وعزاها القائل في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما ترجمه لما يدل
عليه سياق الخطبة . (٣) أي دفعتنا ودفعتها ، والزين : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبينة
أو زبني بكسر الزاي وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضا حرب زبون بفتح الزاي .
(٤) الترة والوتر : النار .

فَإِنْ عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرِفُوا أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرَ الْعَارِ
لَتَرْجِمَنَّ أَحَادِيثًا مُلَمَعَةً لَهْوَ الْمُقِيمِ وَلَهُوِ الْمُدْلِجِ السَّارِي (١)
مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوَاجًا يَطْلُبُهَا عِنْدِي فَإِنِّي لَهُ رَهْنٌ بِأَسْحَارِ (٢)
أُقِيمُ عَوَجَتَهُ إِنْ كَانَ ذَا عِوَجٍ كَمَا يَقُومُ قِدْحَ النَّبْعَةِ الْبَارِي (٣)
وَصَاحِبِ الْوِثْرِ لَيْسَ الدَّهْرَ مَدْرَكَهَ عِنْدِي ، وَإِنِّي لَدْرَاكٌ بِأَوْتَارِ
(الأمالي ١ : ١٢)

١٧٠ - خطبته عام حجة

وحج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بَدْرَةٌ (٤) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفئء ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مَثَلْنَا وَمِثْلَكُمْ أَنْ أَخْوِينِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَرَجًا مَسَافِرِينَ ، فَزَلْنَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ تَحْتَ صَفَاةٍ (٥) ، فَلَمَّا دَنَا الرِّوَّاحُ خَرَجْتَ إِلَيْهِمَا مِنْ تَحْتِ الصَّفَاةِ حَيَّةٌ تَحْمَلُ دِينَارًا ، فَأَلَقْتَهُ إِلَيْهِمَا ، فَقَالَا : إِنْ هَذَا لَيْنَ كَنْزٍ ، فَأَقَامَا عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، كُلُّ يَوْمٍ تَخْرُجُ إِلَيْهِمَا دِينَارًا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِلَى مَتَى نَنْتَظِرُ هَذِهِ الْحَيَّةَ ؟ أَلَا نَقْتُلُهَا وَنَحْفِرُ هَذَا الْكَنْزَ فَنَأْخُذُهُ ، فَهَاهُ أَخُوهُ ، وَقَالَ : مَا تَدْرِي لِمَا لَكَ تَعَطَّبَ وَلَا تَدْرِكُ الْمَالَ ، فَأَبَى عَلَيْهِ

(١) أدلج : سار من أول الليل ، فان سار من آخره فقد ادلج بالتشديد ، والساري : الذي يسير بالليل .
(٢) الحوجاء : الحاجة . وقوله بأصحار : أي لا أستبر عنه ، ولا أمتنع في الأماكن الحصينة ، من أصرح القوم : برزوا إلى الصحراء . (٣) العوج بالفتح في كل ما كان منتصبًا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، قيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والفتح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه قذاح ، والنبة واحدة النبع وهو شجر التمس والسهام .
(٤) البدره : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضمخ .

وأخذ فأَسأَمه ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها . فنارت الحية فقتلتها . ورجعت إلى جحرها . فقام أخوه فدفنه وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء . فقال لها : يا هذه إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضربني ولا أضرك وترجمين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجّة^(١) ، وأنشدهم شعر النايفة :

فقال أرى قبراً تراه مُقابلى وضربة فأس فوق رأسى فاغره

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسمِعتم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعَدَوتم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم « مُسلماً »^(٢) يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .

(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٧١ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج يذبه بخروج ابن الأشعث خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) راجع مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦١ في المثل : « كيف أعادك وهذا أثر فاسك » .

(٢) هو مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرّة . وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد ابن معاوية وخلموه وحصروا من كان بها من بنى أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فحاصرها من جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد يحكم في دماهم وأمواهم وأهلهم ماشاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : فقتل ، ونهب ، وسبى قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعلها افتضت في وقعة الحرّة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قَدْرى ، اللهم سلط عليهم سيوف
أهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك » ثم نزل .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٧٢ - وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذى إن وجد ربحاً تجر ،
وإلاّ تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتيالك
على عدوك أشدّ حذرًا من احتيالك على عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

١٧٣ - وصيته للشعبى

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :
ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تافت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف
فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمة غير الشعبى ، فلما حبل إليه ونادمه ،
قال له :

« يا شعبى ، لاتساعدنى على ما قبّح ، ولا ترُدّ على الخطأ فى مجلسى ، ولا تسكّفنى
جواب التشميت^(١) ، والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح
الأمير ، وكيف أمسى) . وكلنى بقدر ما استطعمك ، واجعل بدل المدح لى صواب
الاستماع منى ، واعلم أنّ صواب الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعنى أتحدث
فلا يفوتنك منه شىء ، وأرنى فهمك من طرفك وسممك ، ولا تجهد نفسك فى نظري^(٢) »

(١) التشميت : الدعاء للمعاصى . (٢) فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراه محرفاً ، والنظر : الانتظار .

صوابي . ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي ، فإن أسوأ الناس حالا من استكدَّ
الملك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبي
أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حق الحرمة . فإن الصمت
في موضعه ربما كان أبلغ من النطق في موضعه وعند إصااته وفرصته .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧٤ - وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :

« ابسط بِشْرَكَ ، وألن كنفَكَ . وآثر الرفق في الأمور ، فإنه أبلغ بك . وانظر
حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَفْقَنَ أحد بيا بك
إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذي تأذن له أو ترُدّه ، وإذا خرجت إلى مجلسك
فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثبت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مُشْكِلٌ ،
فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق^(١) الأمور ، وإذا سخطت على أحد فأخّر
عقوبته ، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدرُ منك على ردّها بعد إمضائها .

(الفخرى : ١١٣)

١٧٥ - وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكي عليه عند رأسه ، فقال :

« يا هذا أحنين الحامة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمّر واتزّر ، والبس جلد تمر ، وضع سيفك
على عاتقك ، فن أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه ،

(١) جمع مغلاق بكسر الميم : وهو ما يغلط به الباب .

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلاكِ لقصير ، وإن كثيرك لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ، وهي أحسن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بحمائل الأمور . وإياكم والبغى والتحاسد ، فهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز المكين يا بني : أخوكم مسئلة نابكم الذي تفرّون^(١) عنه ، ومجتنكم^(٢) الذي تستجئون به ، اصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ أسكم هذا الأمر ، كونوا أولاداً أبراراً ، وفي الحروب أحراراً ، وللمعروف مَناراً ، وعليكم السلام » .
(مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٦ - خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفي سنة ٩٦ هـ)

لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى في الناس الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدّم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وحملته عرشه من الموت موتُ وليّ هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، الذي كان عليه من الشدة على المريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه ، وحيجّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ الغارات على أعداء الله فلم يكن فيها عاجزاً . ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فعليكم أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع القدّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه » . ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

(١) فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها . (٢) المجن : الترس .

١٧٧ - خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفي سنة ٩٩ هـ)

« الحمد لله . ألا إن الدنيا دارُ غُرُورٍ ، ومنزلُ باطلٍ ، تُضحكُ باكيًا ، وتُبسِكُ ضاحكًا ، وتخيفُ آمنًا ، وتؤمِّنُ خائفًا ، وتُفقرُ مثرِيًا ، وتُثري مُقتِرًا ^(١) مَيَّالَةً غَرَّارَةً ، كَعَابَةِ بَاهِلِهَا . عبادِ الله ، فاتخذوا كتابَ الله إمامًا ، وارترضوا به حَكَمًا ، واجعلوه لكم قائِدًا ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم يَنْسَخْه كتابٌ بعده . واعلموا عبادَ الله أن هذا القرآنَ يَجْلُو كَيْدَ الشَّيْطَانِ ، كما يَجْلُو ضَوْءُ الصَّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ظِلَامَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ^(٢) . »

(العقده الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

(١) من أقتَر ، أى افتقر . (٢) تنفس الصبح : أسفر ، وعسس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) .

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٨ - أولى خطبه

قال العُتَيْبِيُّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصالحوا سرائركم ، تصالحوا لئلا يتسكّم ، وأصالحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن اسراً ليس بينه وبين آدم أب حتى لمُترق في الموت » .
(المقد للفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٧)

١٧٩ - خطبة له بالمدينة

وفي سنة ٨٧ هـ وتي الواليد عمر بن عبد العزيز المدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة
من فقهاءها ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتسكونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد
أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو يلبسكم
عن عامل لي ظلّامة فأحرّج^(١) الله على من بلغه ذلك إلا بلغني » .
فخرجوا يمجزونّه خيرا .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦١)

(١) التحريج . التصفيق ، أي فأشدد عليه بالله .

١٨٠ - خطبة أخرى

وروى المسمودي في مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة
خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟
وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل^(١) فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب المصائب ، مع
كل جرعة شَرَق^(٢) ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا يغالون نعمة إلا بفراق أخرى ،
ولا يُعَمَّر مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا يَهْدَم آخر من أجله » .
وأورد القائل في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول ، وهي :

« ما الجزع مما لا بُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرَجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنما
الشيء من أصله ، فقد مَضَّت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس
في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نَهَب المصائب ، مع كل جرعة شَرَق ،
وفي كل أكلة غَصَص ، لا يغالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمرُّ مُعَمَّرٌ يوماً من عمره
إلا يهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الختوف على أنفسكم ، فأين المهزَّب مما هو كائن ؟
وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر
خيبة الخائب فيه ، والسلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالي ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) جمع غرض : وهو الهدف ، وانتضلت : تناضلت وتبارت في الرمي .

(٢) شَرَق بريقه : غصص .

١٨١ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأرض رَجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَاكِبُ الخِلافةِ يا أمير المؤمنين ، قُرِّبَتْ إليك لتركبها ، فقال : مَالِي وَهَلْهَا ؟ نَحْوَهَا عَنِي ، قُرِّبُوا إِلَيَّ بَغْلَتِي ، فقربت إليه فركبها . وجاءه صاحب الشُّرْطَةِ يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تنحَّ عَنِي ، مَالِي وَوَلَاكُ ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إني قد ابْتَلَيْتُ بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه ، ولا طلبية له ، ولا مَشُورَةٌ من المسلمين ، وإني قد خلعت مافي أعناقكم من بَيْعَتِي ، فاخْتَارُوا لأنفسكم . »

فصاح الناس صيحةً واحدةً : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فَلَ أَمْرَنَا بِالْيَمْنِ والبركة ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضى به الناس جميعاً ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَفَتْ من كل شيء ، وليس من تقوى الله عزَّ وجلَّ خَلَفَتْ ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمِلَ لآخرته كَفَاهُ اللهُ تبارك وتعالى أمرَ دُنْيَاهُ وأصلحوا سرائرَكم ، يُصلح اللهُ الكريم عِلَانَيتكم ، وأكثرُوا ذَكَرَ الموتِ وأحسنُوا الاستعدادَ قبل أن ينزل بكم ، فإنه هَادِمٌ اللذات ، وإن من لا يذكر من آيائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أبًا حَيًّا مُعْرِقٌ في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربه عزَّ وجلَّ ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أُعْطِي أحداً باطلاً ، ولا أُمْنَعُ أحداً حقاً ، إني است

بخازن ، ولكنى أضع حيث أمرت . أيها الناس : إنه قد كان قبلى ولاية تجتزون^(١) مودتهم ، بأن تدفموا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أملتُ الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم»

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٨٢ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولى الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويؤمننا على الخير بجهد ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يفتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه . »

فانقش عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

١٨٣ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله لى لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة

وما حرّم الله كَلَى لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكنى منفذٌ لله ، ولست بمبتدع ، ولكنى متّبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاعَ في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلكم حِجْلًا . يأبها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٤ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصّرتم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يأبها الناس ، إنه من يقدر له رزق برأس جبل ، أو بحضيب أرض يأتته ، فأجبلوا فى الطلب » :

(إعجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٨٥ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كتّب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظنن ، فكم عامرٍ مؤثّقٍ عما قليلٍ يخرب ، وكم مُقيمٍ مُعتبِطٍ عما قليلٍ يظمن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة ، بأحسن ما يحضركم من النقلة : وتزوّدوا فإن خير زادٍ التّقوى . إنما الدنيا كنفىٍ ظلّالٍ قلّص^(١) فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا منافس ، وبها قرير عَيْن ،

(١) النوى : ما كان شمساً فينسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : انقبض .

إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حَتْفِهِ ، فسلبه آثاره ودياره ودنياه ، وصيرَ لقوم آخرين مَصَانِعَهُ وَمَعْنَاهُ^(١) ، إن الدنيا لا تسرُّ بقدر ماتصُرُّ ، إنها تسرُّ قليلاً ، وتجرت حزنًا طويلاً .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٩٧ وص ٢٢١)

١٨٦ - خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَاعْمَرِي - وَإِنْ لِعَمْرِي مَنَى لِحَقًّا^(٢) - لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتِئِلَى بِسَمَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيمًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْعَلُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بَدَأْتُ أَنَا بِنَفْسِي وَأَهْلَ بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

ثم كان آخر كلمة تكلم بها حين نزل : « لَوْ لَا سُنَّةٌ أَحْيَيْتُهَا ، أَوْ بَدَعَةٌ أَمُتُهَا ، لَمْ أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا فَوْاقًا^(٣) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٧ - خطبة له

وخطب فقال :

« أَمَا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَا يَطُورُنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ ، وَلَا يَبْعُدُنَّ عَنْكُمْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ مِنْ زَافَتْ^(٤) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِهِ ، وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنِهِ ،

(١) المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمعنى : المنزل . (٢) العمر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا المفتوح في القمم خاصة تخفيفاً ، لكثرة استعماله فيه . (٣) الفواق كفراب ويفتح : ما بين الخلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الصرع . (٤) من زافت الحمامة : إذا نشرت جناحها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافته » .

ألا لاسلامه لامرئ في خلاف السنة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا وإنكم
تعدّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإن
أعاج أسراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه
الأمجى ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبوه ديناً ، لا يرون الحق غيره . ثم قال :
« إنه لحبيب إلى أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ، ولا قوة إلا بالله . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٨ - خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إنما يراد الطبيب للوجع الشديد ، ألا فلا وجع أشد من الجهل ،
ولا داء أخبث من الذنوب ، ولا خوف أخوف من الموت . » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

١٨٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا^(١) ، والله ما كان لهم أن
يُعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه
دون الله محاسب ، ألا وإني قد ردّتها ، وبدأت بنفسى وأهل بيتي » اقرأ يا مزاحم
- وكان مولاه -

وقد جرى قبل ذلك بسقط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله

(١) يريد آباءه وما ورثوه إياه .

عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جِلْمٌ ^(١) ، فجمل يَقْصَهُ ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودى بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٩٠ - خطبة له

وكان يخطب فيقول :

«أيها الناس: من ألمَّ بذنب فلْيَسْتَغْفِرِ اللهُ عز وجل وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فأما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها .»

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٩١ - خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

«إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرُونَ ، فوجدت المصدّق به أحقُّ ^(٢) ، والمكذّب به هالكاً » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

١٩٢ - خطبة له

وخطب فقال :

«أيها الناس ، لاتستصغروا الذنوب ، واتمسوا تمحيصَ ما سَلَفَ منها بالتوبة منها ، إنَّ الحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ . وقال عز وجل : « وَالَّذِينَ

(١) مقص . (٢) أي أحق بثواب الله ونعيم جنته .

إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(العقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٩٣ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سقر زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا
كمن عين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرغبوا ورهبوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد ،
فتفسؤ قلوبكم ، وتفقادوا لمدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح
بعد إمائه ، ولا يُنسى بعد إصابحه ، وربما كانت بين ذلك خطافات المنايا ، فكم رأينا
ورأيتم من كان بالدنيا معترّاً ، فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تقرّ عين^(١)
من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ
من كَلَم إلا أصابه جارح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعود بالله أن أمركم
بما أنهى عنه نفسه ، فتخسر صفتي ، وتظهر عورتى ، وتبدو مسكنتى ، في يوم يبدو
فيه الغنى والفقير ، والموازن منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عنيت بأمر لو عنيت به
النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لدابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تعلمون
أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرُونَ إلى إحداها ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

(١) قرت عينه : بردت وانقطع بكائها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه .

١٩٤ - خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأجملوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سعةً وبلغةً ، وكفافاً ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فـسـكـانٌ لم يكن وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعابنتم تعجيل إخراجهِ ، وقسمة تراثهِ ، ووجهه مفعود ، وذكرة منسي ، وبابه مهجور كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمُر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحقر فيه مثقال ذرة في الموازين . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩٥ - خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، ومن لم يعدّ كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه بما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) وفي رواية : « فلن يعدر » ، أغدره وغادره : تركه . (٢) القنوع : الرضا بالقسم .

(وهو أيضا السؤال والتذلل) . (٣) ساق المريض : شرع في نزع الروح .

(٤) أى المحافظة على وده .

١٩٦ - خطبة له

وحدث شبيب بن شيبه ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدوهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه في يوم عيد ، وعليه قميص كتان ، وعمامة على قنسوة لاطئة^(١) ، فثقلنا بين يديه ، وسلمنا عليه ، فقال : مه أنتم جماعة وأنا واحد ، السلام على ، والرد عليكم ، وسلم فرددنا ، وقربت له دابته فأعرض عنها ، ومشى ومشينا ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا ، فردوا على ققرأهم ، حتى نستوى نحن بهم ، وأكون أنا أولهم » ، ثم قال : « مالى وللدنيا ؟ أم مالى ولها ؟ وتسكلم فأرق : حتى بكى الناس جميعاً ، يمينا وشمالا » ، ثم قطع كلامه ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلت الناس بما أرق قلوبهم وأبكام ، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه ، فقال : يا رجاء إنى أكره المباهاة .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٧ - آخر خطبة له

وخطب بخصاصة^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ارحمه الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تُنزل كوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخير من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم الجنة التي عرّضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه ، وباع قليلاً بكثير

(٢) خصاصة : بلد بالشام من عمل حلب .

(١) لاطئة : لازقة .

وقانياً بيباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب^(١) المهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرُدُّوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تسيِّمون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نَحْبُه^(٢) وبلغ أجله ، ثم تفتيَّبونه في صدع^(٣) من الأرض ، ثم تدَّعون غير مؤسِّد ولا مُمَهِّد ، قد خلغ الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، مرتَهناً بعمله ، غنيا عما ترك ، فقيراً إلى ما قدَّم ، وإيمُ الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سدَّناها ، ولا أحد منكم إلا ودِّدت أن يده مع يدي ، ولحُت^(٤) الذين يَلُونِي ، حتى يستوى عيشنا وعيشكم ، وإيمُ الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غَضارة^(٥) لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً ، عالماً بأسبابه ، لسكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى ، فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل ، فلم يرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٠ ، والقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٤٦ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولابن عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

١٩٨ - خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس . اَلْحَقُّوا ببلادكم ، فإنى أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا وإني قد استعملت عليكم رجلاً ، لا أقولُ مُمَّ خِيَارُكُمْ ، ولكنهم خير ممن هم شرٌّ منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُهُ بِمَظَالِمِهِ فلا إذنَ له على^(٦) ، ألا وإني منعتُ نفسي وأهل بيتي هذا

(١) جمع سلب بالتحريك : وهو ما يسلب . (٢) للنحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .
(٣) شق . (٤) اللحمية : القرابة . (٥) الغضارة : النعمة ، والسعة ، والخصب .
(٦) أى يدخل على بلا إذن ، لا يحول بيني وبينه حاجب .

المال ، فإن صَدَنْتَ به عليكم إني إذن لضمنين ، والله لولا أن أنعش^(١) سنة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فَوْاقًا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٩ - كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مسئلة بن عبد الملك في المرضة التي مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين « إنك قطعت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركهم عائلة^(٢) ، ولا بد من شيء يصلحهم ، فلوأوصيت بهم إلى أو إلى نظرائك من أهل بيتك ، لكفيتك مئوتهم إن شاء الله » فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :

« الحمد لله ، أبا لله تخوفني يا مسئلة ! أما ما ذكرت من أني قطعت أفواه ولدي عن هذا المال ، وتركهم عائلة ، فإني لم أمنهم حقاً هو لهم ، ولم أعظم حقاً هو لغيرهم ؛ وأما ما سألت من الوصاة إليك ، أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب ، وهو يتوكل الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يسراً ، ورزقه من حيث لا يحتسب . ورجل غير وفجر ، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني ، فدعواهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بني : إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لاتمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني مئيت^(٣) رأي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان

(١) نمشه كنع وأنمسه : رفعه . (٢) فقراء جمع مائل من عال يعيل عيلة (بفتح العين) أى افتقر .

(٣) المئيل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمائل بينهما

أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بنيَّ
عصمكم الله ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

(المعقد الفريد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

٢٠٠ - مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذبُ الخارجي - واسمه بسطام من بني يشكر -
فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك
منى فهُلمُ إليَّ أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان
في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك
رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشياً اسمه عاصم ،
ورجلا من بني يشكر ، فقديما على عمر بخناصرة ، فأخبر بمكانهما ، فقال : فتشوها
لا يكن معهما حديد وأدخولهما ، فلما دخلا قالوا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر :
أخبراني ما الذي أخرجكم منخرَجكم هذا ؟ وما نقيم علينا ؟ فقال عاصم : ما نعلمنا سيرتك ،
إنك انتحرتي العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس
ومشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ،
وعهد إليَّ رجلٌ كان قبلي ، فقامت ولم ينكره على أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون
الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فأتروني ذلك الرجل ، فإن خالفت
الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالوا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتنا
فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟
قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن
زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فآلعتهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك
أو يفرق ، فتسكلم عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا تخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لئامانا وقال إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال الله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاؤِهِمْ اقْتَدَى » : وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته . قال : أفتيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أحب الخلق وشرهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟ قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقر به وبشرائمه قبل منه ، فإن أحدث حديثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورؤد أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ومن تقوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل علمتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسب الذراري ؟ قال : نعم . قال : فهل علمت أن عمر قام بعد أبي بكر ، فردت تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قال : نعم ، قال : فهل برى عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قال : لا . قال : فأخبراني عن أهل التمهزان أليسوا من صالحى أسلافكم ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قال : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قال : نعم . قال : فهل علمت أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قديك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن حباب

ابن الأرت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريةته ؟ ثم صبّحوا
حيًا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون
الصبيان في قدور الإقط^(١) وهي تفور ؟ قالوا : قد كان ذلك . قال : فهل برى
أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالوا : لا . قال : فهل
تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالوا : لا . قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قالوا
بل واحداً . قال : فهل يسعكم فيه شيء يميز عنى ؟ قال : لا . قال : فكيف وسعكم أن
توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى
بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعنى
فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم ؟ وَيَحْكُمُ إِنْكُمْ قَوْمُ جِهَالٍ ، أردتم أسراً
فأخطأتموه ، فأنتم تردؤون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن
عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده . قالوا : مانحن كذلك . قال عمر :
بل سوف تقرّون بذلك الآن : هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث إلى
الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله ، فن فعل ذلك حقن دمه ، وأحز ماله ، ووجبت حرّمته ، وكانت له أسوة
المسلمين ؟ قالوا : نعم . قال : أفلمستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فنستحلون دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من
اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرّمون دمه ؟ فقال اليشكرى : أرأيت
رجلاً وليّ قوماً وأموالهم فمدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أترأى
الحق الذى يلزمه الله عزّ وجلّ ؟ أو ترأى قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفنسلم هذا الأمر
إلى يزيد^(٢) من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيرى ،

(١) الأقط بفتح الهمزة وكسرهما : شيء يتخذ من المخيض الغنى .

(٢) هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك من صنع من ولاء حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظرنى (١) ثلاثاً فخرجا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر للبشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعتاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمر يزيد وخصمت فيه ، فاستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاء سما ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزى ٧٧)

٢٠١ — تأييده ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجليه ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال .

« رحمك الله يا بؤى ، فقد كنت برّاً بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنت قط أشدّ سروراً بك ، ولا أرجى حظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلّمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٦٤)

٢٠٢ — خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بَطْراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما لي إطراء نفسي ، وإني لظالم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضباً لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدِيتَ مَعَالِمُ الهدى ، وأُطِفُّ نور أهل التقوى ، وظهر الجَبَّار العنيد^(٢) ، المستجِلُّ لكل حُرْمَةٍ ، والرَّابِكُ لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابنُ عمِّي في النسب ، وكفِيي^(٣) في الحَسَبِ ، فلما رأيت ذلك استخَرْتُ الله في أمره ، وسألته ألاَّ يكلِّني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجنبي من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهرَّ منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس : إن لكم على ألاَّ أضعَ حجراً على حجر ، ولا لَبِنَةً على لبنة ، ولا أكرِي^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيهِ زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أنقله من بلد إلى

(١) قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهمكا في اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهك حرمت الله ، فلما أفضت إليه الخلافة ، لم يزد إلا انغماسا في اللذات ، واستهتارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغضاب أكابر أهله ، والإساءة إليهم ، وتنفيرهم ، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعده ، وتوفى هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ . (٢) يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح فالأ في المصحف فخرج « وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فنصبه غرضاً للنشأ وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد

إذا لا قيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

(٣) كفيته وكفوّه بضم الكاف وكفاؤه بكسرهما : مثله . (٤) كرى النهر : استحدث حفرة .

بلد ، حتى أسد ففر ذلك البلد وخصاصة^(١) أهله ، فإن فَضَلَ فَضْلٌ ، نقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أُجْرِمُ^(٢) في بيوئكم ، فأفْتِنَكُمْ وَأَفْتِنَ أَهْلِيكُمْ ، ولا أُغْلِقُ بَابِي دُونَكُمْ ، فإِذَا كَلَّ قَوْبُكُمْ ضَعِيفَكُمْ ، ولا أَحْمَلُ عَلَى أَهْلِ جَزِيَّتِكُمْ مَا أَجْلِبُهُمْ بِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ ، وَأَقْطَعُ بِهِ نَسْلَهُمْ ، ولكم على إِذْرَارِ الْمَطَاءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، والرَّزْقُ فِي كُلِّ شَهْرٍ ، حتى يَسْتَوِيَ بِكُمْ الْحَالُ ، فيكون أَفْضَاكُمْ كَأَدْنَاكُمْ ، فإن أَنَا وَفِيَّتْ لَكُمْ ، فماليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمسكافة^(٣) ، وإن لم أفِ لَكُمْ ، فماليكم أن تخامروني إلا أن تستثيبوني ، فإن أَنَا تَبَّتْ قَبْلَتُمْ مِنِّي ، وإن عَرَقْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي ، ممن يُعْرَفُ بِالصَّلَاحِ ، يُعْطِيكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ الَّذِي أُعْطَيْتُكُمْ ، فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من بايعه ، ودخل في طاعته .

أيها الناس : إنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخلاق ، ولا وفاء له بنبقض عهد ، إنما الطاعة طاعة الله فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع ، فإذا عصى الله ودعا إلى المعصية فهو أهل أن يُعَصَى وَيُقْتَلَ ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،
الفخرى ص ١٢٠ وتاريخ الطبري ٩ : ٢٦)

٢٠٣ وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لَمَّا وَلاَى يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ سَلْمَ بْنَ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ عَلَى خِرَاسَانَ قَالَ لَهُ :
« إِنْ أَبَاكَ كَفَى أَخَاهُ (بِعْنَى مَعَاوِيَةَ) عَظِيمًا ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتَكَ صَغِيرًا ، فَلَا تَقْتَكِلَنَّ عَلَيَّ عَذْرَ مِنِّي لَكَ ، فَقَدْ اتَّكَلْتُ عَلَى كِفَايَةِ مَنِّكَ ، وَإِيَّاكَ مِنِّي قَبْلَ أَنْ أَقُولَ إِيَّايَ مَنِّكَ ، فَإِنَّ الظَّنَّ إِذَا أَخْلَفَ مَنِّكَ أَخْلَفَ مِنِّي فَيْكَ ، وَأَنْتَ فِي أَدْنَى حَظِّكَ فَاطْلُبْ أَقْصَاءَهُ ، وَقَدْ أَتَمَّكَ أَبُوكَ ، فَلَا تُرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَكُنْ لِنَفْسِكَ تَكُنْ لَكَ ، وَإِذَا كَرِهْتَ يَوْمَكَ أَحَادِيثَ غَدِكَ تَسَعَّدْ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . »
(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

(١) الفقر والحاجة . (٢) جمر الجيش : حبسهم في أرض العدو ولم يقفاهم . (٣) المعاونة .

خطب عتبة بن أبي سفيان^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٤ - خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا^(٢) ، فإن الله فيكم ذبيحا لعنمان ، أرجوان يوليني نسكته ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بحطّة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة^(٣) منه عليكم ، وقد بلغنا عنكم نجم^(٤) قول ، أظهره تقدّم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتننة وإماتة الشئب ، فأطأكم الله وطاة ، لارمق^(٥) معها ، حتى تُنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشفوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين^(٦) ، وما تخفي الصدور .
(المقد الفريد ٢ : ١٥٨)

-
- (١) ولاة أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣) وأقام متبة واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : « أنه توفي سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣ » ، ولسكني قرأت في تاريخ الطبرى أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضا في حوادث سنة ٤٧ « واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان. وقال غيره : بل الذى حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . (٢) أصله الزرع المحصود . (٣) هكذا في الأصل وقد يكون « ومنة » . (٤) من نجم الشيء : إذا ظهر وطاع . (٥) الرمق : بقية الحياة . (٦) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٢٠٥ - خطبة له في تقريرهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

« يا حاملي الأمم أنوفٍ رُكِّبت بين أعين ، إنما قَلَّمْت أظفاري عنكم ، لِيَلِينَا مَسِيَّ إِيَّاكُمْ ، وسألتم صلاحكم لكم ، إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذا أبيتُم إلا الطعن على الأسماء ، والعتب على السلف والخلفاء ، فوالله لأقطعن بطون السِّياط على ظهوركم ، فإن حَسَمْت مُسْتَشْرِي^(١) دَائِكُمْ ، وإلا فالسيفُ من ورائكم ، فكم من عظة لنا قد صَمَّت عنها آذانكم ، وزجرَةٌ مناقدٌ مَجْنَهَا قلوبكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مُؤَيِّساً لَكُمْ من المراجعة إلى الحسنی ، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى . » (صبح الآئشي ١ : ٢١٦ ؛ والمقد للفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمال ١ : ٢٤٥)

٢٠٦ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أَرْجَفَ أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر ، والكتاب في يده فقال :

« يَا أَهْلَ مِصْرَ : قد طالت معانبتنا إِيَّاكُمْ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَظُبَاتِ السِّيُوفِ ، حتى صرنا شَجِيَّ فِي لَهْوَانِكُمْ ، مَا تُسَيِّعُنَا^(٢) حُلُوقَكُمْ ، وَأَقْدَاءَ فِي أَعْيُنِكُمْ ، مَا تَطْرَفُ^(٣) عَلَيْهَا جَفُونِكُمْ ، أَهْنِ أَسْتَدْت عُرَى الْحَقِّ عَلَيْكُمْ عَقْدًا ، وَاسْتَرَخَتْ عُقَدَ الْبَاطِلِ مِنْكُمْ حَلَاً ، أَرْجَفْتُم بِالْخَلِيفَةِ ، وَأَرَدْتُم تَوْهِينَ^(٤) السُّلْطَانِ ، وَخَضَمْتُمُ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَأَقْدَمْتُمْ عَهْدَكُمْ بِهِ

(١) استشرى الداء : عظم وتفاقم . (٢) هو ما اعترض في الخلق من عظم أو نحوه ، والهوات

جمع لهاة : وهي اللحمة المشرفة على الخلق ، وأساعه : ابتلعه . (٣) جمع قذى : وهو ما يقع في العين

والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بعينه : حرك جفניה . (٤) إضعاف .

حديث؟ فازبحوا أنفسهم إذ خسرتهم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ،
والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا مآظهم ،
نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أمررتهم شرّاً ، فإنكم حاصدون ما أنتم
زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تمتدرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد
وليككم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ترادكم^(١) بيده ، وإن استصعبتم
ترادكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمّل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع
والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئنا نؤدّر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها
السنتنا حتى عُقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم نأجزاً بنأجز^(٢) ،
ومن حذر كمن بشر ، فنأدوه سمعاً وطاعةً ، فنأدام عدلاً عدلاً . (المقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٨ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية ويمبئون
السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خفّ على السنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم

(١) يقال : تراد البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . (٢) النأجز والنأجز : الحاضر ،
ومن أمثالهم : نأجزاً بنأجز ، أي حاضرًا بحاضر ، كقولك يدا بيد ، وعاجلاً بعاجل ، وقالوا أبيعك
الساعة نأجزاً بنأجز : أي معجلاً .

تأتونه ، كالحجار يحمل أسفاراً ، أمقله حماتها ، ولم ينفعه علمها ، وإيمُ الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرّة ، ولا أبطى عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوم سهماً بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب

(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٩ - خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريبٌ عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تَمُدُّوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمنٍ حتفه فى أميَّته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوآ ، فإن لوآ قد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلاً على كل » .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تُحْسِنُوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسننا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستتمامه ، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا ، رجل من بنى عامر بن صعصعة يلقاكم بالأمومة ، ويقرب إليكم بالخُولة ، وقد كثر عياله^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله

(١) العيال جمع عيل كعجيد : وهو من يلزم الإنفاق عليه .

منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا لك بِغناك ، فليت إسرعنا إليك يقوم بإطاعتنا عنك .

(الأمالي ١ : ٢٤٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

٢١٠ - خطبته في علمته التي مات فيها

ولما اشتكى شكاياه التي مات فيها تحمل إلى المنبر فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهرَب من ذنب ، إنه قد تقدّمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجرَ فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزرَ منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنيائى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقّى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا ترونه عادداً إليكم » ، فلم يعد .
(المقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢١١ وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدّب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسن ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تُكْرِههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روِّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكّموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم ، وتهدّد ذمّ بي ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، وروِّهم سير الحكماء ، واستزدننى

مزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تتكلم على عذر مني لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وزد في تأديبهم أزدك في برِّي إن شاء الله تعالى .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢١٢ - وصية سعيد بن العاص^(١) لابنيه

لما وُلد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرس فيه النجابة ، وكان يفضلهُ على ولده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمراً معهم ، وقال :

« يَا بَنِيَّ ، قد عرفتم خيرة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمراً ، لذو همة وإعدة^(٣) ، يسمو جدّه ، ويبعد صيته^(٤) ، وتشد شكيمة^(٥) ، وإني أمركم إن نزل بي من الموت مالا يحيص عنه ، أن تظاهروه وتوازره وتعرّروه ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ^(٦) عنكم اللئام ، ويلبسكم عزاً لا تنهجه^(٧) الأيام . »

فقالوا جميعاً : « إنك توثره علينا ، وتحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ماستره

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان ابن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزل ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

(٢) شب وانتقل عن حد الصفر . (٣) من قولهم شجرة واعدة : إذا ظهر لرائتها أن قدحان إثمارها ، وأرض واعدة : إذا رجع خيرها من الثبت ، وظهر لرائتها أن قد قرب إمكان المرعى بها ، وفرس واعد : يعدك جرياً بمدجري ، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، ويوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أوله .

(٤) الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . (٥) الشكيمة : الأنفة ، وفي اللجام : الحديد الممرضة في فم الفرس . وهو مثل يضرب للصرامة في الأمور والمضاه فيها .

(٦) أى يبعد ويطرده . من خسأ الكلب كنع : طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد . (٧) أى لا تبليه . لنهج الثوب ونهجه (كمنه) : أخلقه وأبلاه ، ونهج الثوب مثلثة الهاء ، وأنهج : بلى .

البعي عنكم» ، وصرّهم ، ثم أمهلم حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان ، وراهق^(١) عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم تروا إلى أخيك عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلجِف^(٢) في مسألتى مالى ، فأحشُ غيِّله^(٣) لصفرة ، وأحسِّبه^(٤) بالشئء دون الشئء من مالى ، إلى أن استثببتُ أن أمه بأعْيَيْته^(٥) على ذلك ، فزجرتها فلم تكف ، وهذا تخرَّجه الآن من عندى ، جاء يسألنى الصمصامة^(٦) ، كأن لا ولد لى غيرهُ ، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، لتعلم أمه من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا ، فقال : « يا بني ، والله ما آثرته دونكم بشئء من مالى قطُّ ، ولا كان ما قلته لكم إلا اختلاقاً تساهلت فيه ، لما أمّلته من صلاح أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المِخْدَع^(٧) ، فدخلوا المِخْدَع ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال :

(١) راهق الغلام : قارب الحلم (بضمّتين) . (٢) يلج . (٣) العيل والعيلة : الانتقار والفاقة ، وأحش : أى أقطع وأحعو ، من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفى الأصل فأحسن بالنون أى أجمل فقره حسنا وأزيل قبحه بمطافى إياه والأول أحسن) .
(٤) حسبه (بالتشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى . (٥) بناه الشئء : أعانه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه باعثته على ذلك ») . (٦) الصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان قد صار إلى سعيد بن العاص . وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة أمراءه ، أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو ابن معد يكرب ، فقداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بخمسين ألف درهم ، ووهبه المهدي لابنه الهادى فدعا به بعد ماولى الخلافة فوضعه بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف شعرا ، فبذم ابن يامين البصرى ، فأعطاه الهادى السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ، وقال : دخلتم معى ، وحرمت من أجل ، وفى السيف هوض ، ثم بحث إليه الهادى ، فاشترى منه السيف بخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه باغزا التركى ، فقتله به ، ومن عند باغزا انقطع خبره . « اقرأ خبر الصمصامة فى سرح العميون ، ص ٣١٢ ، والأغافى ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ » . (٧) المِخْدَع بضم الميم وكسرها : الخزافة - بيت صغير يحرز فيه الشئء - .

« يا بَنِيَّ : إني عليك حَدِيبٌ ^(١) مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٢) إخوتك على مكانك مني ، وإني لا آمَنُ بِبَقِيَّةِ الأجل ، ولي كَنْزٌ أدخرته لك دون إخوتك ، وهأنا مُطْلَعٌ عليه ، فاكتمْ أمره . »

فقال : « يا أبت ، طال مُعْزَك ، وَعَلَا أَمْرُك ، إني لأرجو أن يُحْسِنَ اللهُ عنك الدَّفَاعَ ، وَيُطِيلَ بك الإمتاع . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعْجِبُنِي أن أقطع دون إخوتي أمرا ، وأزرع في صدورهم غمرا ^(٣) . »

فقال : « انصرف يا بني ، فإدراك أبوك ، فوالله مالي من كنز ، ولكني أردت أن أُبْلُوَ رأيك في إخوتك وبنِي أبيك » فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخذع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتَقَمَهُم على اتباع مشورته . (أنباء نجباء الأبناء ص ١٠٠) .

(١) متعطف شفيق . (٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة :

لم يره أهلا له . (٣) الغمر محركة والغمر بكسر الغين : الخفة والضعف .

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(١)

(قتل سنة ٥٦٩ هـ)

٢١٣ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد عليه وَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ وعليه جُبَّةٌ خَزَقْرِمِزٌ^(٢) ، وَمُطْرَفٌ^(٣) خَزَقْرِمِزٌ ، وعمامة خزقرمز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرّكم أنكم فعلتم ما فعلتم فغفونا عنكم ، أما إنه لو أُثْبِتُمْ^(٤) بالأولى ما كانت الثانية ، أغرّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأرنا^(٥) منا رقيقاً ، قد فني غضبه وبقي حلمه ، اغتتموا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقبل البعيد الأمل ، الطويل

(١) لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداقه (جمع شدق بالكسر ويفتح وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (يفتحون وهو سمة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سمة الفم والشدقين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :
تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أقدم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى »
وقد ولي معاوية مكة ولابنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله . (٢) القرمز : صبيغ أحمر . (٣) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

(٤) الثواب : الجزاء . (٥) الثائر : الآخذ بالثار ، ووافقتم : أي وجدتم .

الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(١) ، لئین شديد ، رقيق
كثيف ، رقيق عنيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر ببصره ،
واستقبله بأشهره ، فهو إن عَضَّ نَهَس^(٢) ، وإن سطا فَرَس^(٣) ، لا يُقَلِّقُ له الحمى ،
ولا تُقَرِّعُ له العصا^(٤) ، ولا يمشی السَّمَّهِى^(٥) ، فما قى بعد ذلك إلا ثلاث سنين
وثمانية أشهر حتى قَصَمَهُ اللهُ .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٤ - خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد والياً على
مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشى ولا أموى إلا أن يكون الحارث بن نوفل ، فلما لقيه قال له :
يا حارِ ، ما الذى منع قومك أن يلقونى كما لقيتنى ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتنى
به ، والله ما كنتيتنى ، ولا أتممت اسمى ، وإنما أنك عن التشدُّر^(٦) على أكفائك ،
فإن ذلك لا يرفعك عليهم ، ولا يرضهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك
على النصيحة ، وإن الذى رأيت منى تَخَلَّقَ^(٧) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، فحمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكناها غبطةً ، وخرجنا عنها رغبةً ، ولذلك
كنا إذ ارفعت لنا الأهوَّة^(٨) بعد الأهوَّة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ، ثم شرح^(٩) أمر

(١) رجل حديد يكون فى السن والفهم والغضب ، وحد عليه : غضب . (٢) نهس اللحم : أخذه
بمقدم أسنانه ونثفه . (٣) فرس فريسته : دق عنقها . (٤) يشير إلى المثل المشهور « إن للعصا
قرعت لئى الحلم » وقد سبق شرحه فى ص ١٨٤ . (٥) السهمى والسهمى : الباطل والكذب ،
يقال : ذهب فى السهمى أى فى الباطل : وجرى فلان السهمى : أى جرى إلى غير أمر يعرفه .
(٦) تشدر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر والمراد هنا التكبر . (٧) الخلق : البالى
والمراد أنه لا يعود إليه . (٨) الأهوَّة بالضم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجزؤها .
(٩) من الشرح بالتحريك : وهو انشقاق القوس . قوس شريح : فيها شق ، والمراد حدث ونجم .

بين أسرين ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، قولي رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، واختياره له ، ثم ولي أبو بكر لسابقته وفضله ، ثم ولي عمر ، ثم أُجِلت قِدَاحُ نَزْعِنَ من شِعَابِ^(١) جَوْلَةَ سَعَةِ ، فغاز بِحَظِيمِهَا^(٢) أصلها وأعتقها ، فكنا بعض قِدَاحِهَا ، ثم شرح أسرين أمرين فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحماً ، وقرع العظم عظماً ، وعاد الحرام حلالاً ، وأُسكِت كل ذى حِسٍّ عن ضرب مُهْتَدٍ ، عَرَّ كَأَ عَرَّ كَأَ ، وَعَشَفَا عَشْفَا ، وَخَزَا وَنَهَسَا ، حتى طابوا عن حقنا نفساً ، والله ما أعطوه عن هَوَادَةٍ ، ولا رضوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حَقَّنَا غَلِبْنَا عَلَيْهِ ، فجزيناه هذا بهذا ، وهذا في هذا . يَأْهَلُ مَكَّةَ : أَنْفَسَكُمْ أَنْفَسَكُمْ ، وَسَفَهَاءَكُمْ سَفَهَاءَكُمْ ، فَإِنْ مَعِيَ سَوْطًا نَكَالًا ، وَسَيْفًا وَبَالًا^(٣) ، وكلُّ مَنْصُوبٍ عَلَى أَهْلِهِ ، ثم نزل .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٥ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية

تلاحي^(٤) الوليد بن عقبة ، وعمرو بن سعيد بن العاص في مجلس معاوية ، فتكلم الوليد فقال له عمرو : كَذَبْتَ أَوْ كَذَبْتَ^(٥) ، فقال له الوليد : اسكت يا طليق اللسان ، منزوع الحياء ، وبيا الأمم أهل بيته ، فلمعمرى لقد بلغ بك البخل الغاية الشائنة المذلة لأهلها ، فساءت خلائقك لبخلك ، فَنَمَمْتَ الْحَقُوقَ ، وَلَزِمْتَ الْعُقُوقَ ، فأنت غير مشيد البنيان ، ولا رفيع المكان ، فقال له عمرو : والله إن قريشاً لتعلم أنى غير حُلُو المذآقة ، ولا لقيذ

(١) الشباب جمع شعبة بالضم : وهى ما بين الفصين وطرف الفصن . يشير إلى أصحاب الشورى السعة .

(٢) الحظي : ذو الحظوة أى المكانة . (٣) أى سوطاً ذا نكال . وسيفاً ذا وبال .

(٤) تنازع . (٥) كذب الرجل : أعبى بالكذب .

المَلَائِكَةِ^(١) ، وإني لك الشجاع^(٢) في الخلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل ، داهية
النهار ، لا أتبع الأفياء ، ولا أنتهي إلى غير أبي ، ولا يُجْهَلُ حسبي ، حامٍ لحقائق
الدُّمار^(٣) ، غير هَيُوب عند الوعيد ، ولا خائف رِعْدِيد^(٤) ، فلم تُعَيِّرْ بالبخل وقد جُبلت
عليه ، فلمعري لقد أورتك الضرورة لؤمًا ، والبخل فُحْشًا ، ففقطمت رِجْلَكَ ، وجُرُنت
في قضيتك ، وأضعت حق من وِلِيَّتِ أمره ، فلست تُرْجِي للعِظَامِ ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا
تستعِفّ عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحْكَمْ منك التدبير ، فأختم الوليدُ؛ فقال معاوية:
— وساء ذلك — كَفًّا لأبأ لك ، لا يرتفع بك القول إلى مالا نريد ، ثم أنشأ
عمرو يقول :

وَلِيدٌ إِذَا مَا كَفْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الْوَقَارُ عَلَى بَالٍ
وَلَا يَبْدُرُنَ الدَّهْرَ مِنْ فَيْكَ مَنْطِقٌ بَلَا نَظَرَ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالٌ^(٥)
(الأمال : ٢ : ٤٠)

٢١٦ - خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشْقَ ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : إنه لم يَقم أحد من قریش قبلي على هذا المنبر ، إلا زعم أن له الجنة
ونارا ، يُدْخِلُ الجنةَ من أطاعه ، والنارَ من عصاه ، وإني أخبركم أن الجنة والنار
بيد الله ؛ وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم على حُسنِ المُؤاساةِ والعطفيةِ » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٧٦)

(١) اللوك: أهون المفضح أو مضغ صلب . (٢) ما عرض في الخلق من عظم ونحوه .

(٣) ماتجب حمايته . (٤) جبان . (٥) يبدر : يفرط ويسبق .

٢١٧ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك فقال : لقد هممت اليوم يا أخي أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بدس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرتت به فعبثت بها وأصغرتني ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبتت بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقة فرفع رأسه وقال :

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) فقال خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) . فقال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل أمس عليّ فما أقام لسانه لحنًا ، فقال خالد : أفعل الوليد تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال له : اسكت ويحك يا خالد ! فوالله ما تمعدت في العير ولا في النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب العير والنفير غير جددي أبي سفيان صاحب العير ، وجددي عتبة صاحب النفير^(١) ؟ ولكن لو قلت : غنيمات وحبيبات والطائف ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٣٠٢ وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

(١) انظر ص ١٤٧ . (٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص «جد عبد الملك» إلى الطائف - انظر ص ١٠٤ - أقام بها ، فسكان يرعى غنيمات اتخذها يشرب من لبنها ، ويأوى إلى حبيبة «مصغر حيلة كفرصة : وهي السكرمة» وقوله رحم الله عثمان : أي لرده إياه ، وقد أي أبو بكر وعمر أن يرداه .

٢١٨ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(١) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخات عليه الأموال التي جاءت من قبيل الحجاج ، حتى وضعت بين يديه فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا مانع لهذا ، (وأشار إلى خالد) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ^(٢) فاسق ، فأدوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية^(٣)) فأهدى إلى برذونين حطمين^(٤) ، فإن استعملتكم ضيعتكم ، وإن عزلتكم قلم استخف بنا ، وقطع أرحامنا .

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهل رجلان : سامع مطيع مناصح ، وعدو مبغض مكاشح^(٥) ، فأما السامع المطيع المناصح فإننا جزيناه ، ليزداد وداً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضيفه ، وسَلَلْنَا حِقْدَهُ ، وكثرتنا لك المودة في صدور رعيتك ، وإن هذا جَبَى الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال » .

فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالد » .

(العقد الفريد ٢ : ١١٧)

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وعزله عنها سنة ٧٤ وولاه أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه . (٢) لط حقه وألطفه : جحده . (٣) هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها . (٤) فرس حطم ككتف : إذا هزل وأسن فضصف وتهدم . (٥) الكاشح : الذي يضمرك العداوة ، كشح له بالعداوة وكاشحه بمعنى .

٢١٩ - نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلا يشتم رجلا ، وآخر يسمع منه ، فقال للمستمع :

« نَزَّهَ سَمْعُكَ عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَنَاءِ ، كَمَا تَنْزَهُ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّمْعَ شَرِيكَ الْقَائِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرَ إِلَى شَرِّ مَا فِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةٌ جَاهِلٍ فِي فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْدُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَائِلُهَا . » (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢٢٠ - تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ - فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدْخَلَ فِجْلَسَ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَالْأَحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَدِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنَ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا تَمَلِّكَ أُمُورَكَ ، تَمَلِّكَ تَأْدِيبُكُمْ ، فَأَرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْتَقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كَمَا كُرْهْنَا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ . » (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢٢١ - كلام معاوية وقد سقطت ثناياه

وَمَا سَقَطَتْ ثَنِيَّتَا مَعَاوِيَةَ لَفَّ وَجْهُهُ بِعِمَامَةٍ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالَ :

« لَنْ أَبْتَلِيَتْ لَقَدْ ابْتُلِيَ الصَّالِحُونَ قَبْلِي ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَنْ

(١) وجد : غضب .

عُوقِبْتُ لَقَدْ عَوقِبَ الخَاطِئُونَ قَبْلِي ، وَما آمَنَ أن أكونَ مِنْهُم . وَلئن سَقَطَ عُضْوَانُ مِنِّي ، لَمَّا بَقِيَ أَكْثَرُ . وَلو أتَى عَلَي نَفْسِي لَمَّا كانَ لِي عَلَيهِ خِيارُ تَبارِكُ وَتَعالَى ، فَرحِمَ اللهُ عِباداً دَعوا بِالعَافِيَةِ ، فَواللهِ لئن كانَ عَتَبَ عَلَي بَعْضُ خَاصَّتِكُمْ ، لَقَدْ كُنْتُ حَدِيباً^(١) عَلَي عَامَّتِكُمْ .

(البیان والتبیین ٣ : ٢٢١)

٢٢٢ - تقریر عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروی الجاحظ قال :

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديد الأيقظة ، كثير التعاهد لولائه ، فبلغه أن عاملاً من عماله قیل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال : « أقبِلت هدية منذ ولّيتك ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيّتك على أفضل حال » قال : « أجِبْ فيما سألتك عنه ، أقبِلت هدية منذ ولّيتك ؟ » قال : نعم ، قال : لئن كنت قبِلت ولم تعوّض إنك لآثم ، ولئن أنلت مُهديك لامن مالك ، أو استكفيته ما لم يكن يُستكفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوّض المُهدى إليك من مالك ، وقبِلت ما أتهمك به عند من استكفأك ، وبَسَطَ لسان عائبك ، وأطع فيك أهل عملاك لجاهل ، وما فيمن أتى أمراً لم يَحُلْ فيه من دناءة ، أو خيانة ، أو جهل ، مُضْطَنَع ، نَحْيَاهُ عن عمله . »

(البیان والتبیین ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناسَ لبيعته سبع سنين ، وبشاور ، وبمُعلَى الأقراب ، ويُداني الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

فقال لعبد الله بن الزبير : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك^(١) ، إن أخاك من صدّك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعلمت السجاعة^(٢) عند الكبر ، فى دون ما سَجَّعت به على ابن أخيك ما يكفيك » . ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عَلَيْهِ ، فوفد عليه من كل مصر قوم^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حَزَمٌ ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلىّ رشداً من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنياً فى المال ، وَسَطاً فى الحَسَب ، وإن الله سائلٌ كلِّ راجٍ عن رعيته ، فأتق الله ،

(١) ناجيته : ساررتة . (٢) وفى المقدم « السجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد فى كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » . (٣) هكذا ورد فى المقدم الفريد ، وفى مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان ستة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد فى الإمامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفى حياة الحسن بن على رضى الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد توفى الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

وانظر مَنْ تَوَلَّى أُمَّةَ مُحَمَّدٍ فَأَخَذَ مَعَاوِيَةَ بِهِزًا^(١) حَتَّى تَنْفَسَ الصُّعْدَاءُ^(٢) ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ شَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا مُحَمَّدُ : إِنَّكَ أَمْرٌ نَاصِحٌ ، قَلْتُ بِرَأْيِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ إِلَّا ذَاكَ . قَالَ مَعَاوِيَةُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا ابْنِي وَأَبْنَاؤُهُمْ ، فَأَبْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، أَخْرَجَ عَنِّي » .

ثُمَّ دَعَا الضُّحَّاكَ بْنَ قَيْسِ الْفَهْرِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : إِذَا جَلَسْتُ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَفَرَّغْتُ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِي وَكَلَامِي ، فَاسْتَأْذِنِي لِلْقِيَامِ ، فَإِذَا أُذِنْتُ لَكَ فَاحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى . وَاذْكُرْ يَزِيدَ . وَقُلْ فِيهِ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ مِنْ حَسَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ . ثُمَّ ادْعُنِي إِلَى تَوَلِيَّتِهِ مِنْ بَعْدِي . فَأَبْنِي قَدْ رَأَيْتُ وَأُجِّمْتُ عَلَى تَوَلِيَّتِهِ . فَاسْأَلُ اللَّهَ فِي ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ الْخَيْرَةَ^(٣) وَحَسَنَ الْقَضَاءِ . ثُمَّ دَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عُمَانَ النَّتْفَقِيَّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعَدَةَ الْفَزَارِيَّ ، وَثَوْرَ بْنَ مَعْنٍ السَّلَمِيَّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عِصَامِ الْأَشْعَرِيَّ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا إِذَا فَرَّغَ الضُّحَّاكَ ، وَأَنْ يَصْدُقُوا قَوْلَهُ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى يَزِيدَ .

وَجَلَسَ مَعَاوِيَةُ فِي أَحْبَابِهِ ، وَأُذِنَ لِلْوَفُودِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَخَطَبَهُمْ ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِهِ ، وَهُوَ لَاءُ النَّفَرِ فِي الْمَجْلِسِ قَدْ قَعَدُوا لِلْكَلَامِ - قَامَ الضُّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ .

٢٣٣ - خطبة الضحّاك بن قيس الفهري

حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْتَعَ بِهِ ، إِنَّا قَدْ بَلَوْنَا^(٤) الْجَمَاعَةَ وَالْأَلْفَةَ ، فَوَجَدْنَاهَا أَحْسَنَ لِلدَّمَاءِ ، وَأَمَّنَ لِلسُّبُلِ ، وَخَيْرًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالْأَجَلَةِ ، وَلَا خَيْرَ لَنَا أَنْ نُتْرَكَ سُدَى ،

(١) البهر بالفتح : العجب (٢) تنفس طويل . (٣) أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ؛ خارته

على غيره خيرة بكسر الخاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير .

(٤) خبرنا .

والأيام عَوَجٌ^(١) رواجع ، وَالْأَنْفُسُ يُعَدِّي عَلَيْهَا وَيُرَاحُ ، وَاللَّهُ يَقُولُ : (كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندرى ما يختلف به الْعَصْرَانُ^(٢) ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَيِّتٌ ، كَمَا مَاتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَخُلَفَائِهِ ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِكَ الْمَتَاعَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ دَعَاةِ يَزِيدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحُسْنِ مَذْهَبِهِ ، وَقَصْدِ^(٣) سِيرَتِهِ ، وَبُيْنِ نَقِيْبَتِهِ^(٤) ، مَعَ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحُبِّ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَالشَّبَهَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي عَقْلِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَشِمَّتِهِ الْمَرْضِيَّةِ ، مَا دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ فِي أُمُورِنَا ، وَالقَبُولِ بِهِ فِي الْوَالِيَةِ عَلَيْنَا ، فَلْيُؤَلِّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - عَهْدَهُ ، وَلِيَجْعَلْهُ لَنَا مَلْجَأً وَمَقْرَعًا بَعْدَهُ ، نَأْوِي إِلَيْهِ إِنْ كَانَ كَوْنٌ^(٥) ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَا مِنْهُ ، فَاعْزِمْ عَلَى ذَلِكَ ، عَزِمَ اللَّهُ لَكَ فِي رَشْدِكَ ، وَوَفَقَكَ فِي أُمُورِنَا » .

٢٢٤ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ أَهْوَاؤُهُ ، قَدْ أَحْدَوْدَبَتْ عَلَيْنَا سِيَاسَاؤُهُ^(٦) ، وَاقْطَوَطَبَتْ^(٧) عَلَيْنَا أَدْوَاؤُهُ ، وَأَنَاخَتْ عَلَيْنَا أَنْبَاؤُهُ ، وَنَحْنُ نُشِيرُ

(١) بمعنى رواجع جمع عابجة اسم فاعل من عاج إذا رجع : أي أن الأيام تعوج على الإنسان فتسلبه ما أعطى من الحياة ومتع العيش . (٢) العصر : اليوم والليله والعشى إلى احمرار الشمس والغداة .

(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) النقيبة : النفس ، وهي أيضا العقل ، والمشورة ، ونفاذ الرأي ، والطبيعة . (٥) أي إن حدث حدث . (٦) السيساء : منتظم فقار الظهر ، وحمله على سيساء الحق أي على حده ، والعرب تضريه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا
على يابن السيساء محدودب الظهر

يقول : حملناهم على مركب صعب كسيساء الحمار ، أي حملناهم على مالا يثبت على مثله .

(٧) اقطوطب : افعلول من قطب ، وقب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها « اقطوطى » أي قارب في مشيه إسرعا .

عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السداد ، وأنت يا أمير المؤمنين أحسننا نظراً ، وأثبتنا^(١) بصراً ، ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورضينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اغتباطاً^(٢) ، مع ما منحه الله من الشبه بأمر المؤمنين ، والحيّة في المسلمين ، فاعزم على ذلك ، ولا تضق به ذرعاً^(٣) ، فالله تعالى يُقيم به الأود^(٤) ، ويردع به الألد^(٥) ، ويؤمن به السبل ، ويجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر . ثم جلس .

٢٢٥ — خطبة ثور بن معن السلمي

فقام ثور بن معن السلمي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان ، صاحبه مشاغب^(٦) ، وظله ذاهب^(٧) ، مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميّت ، نسأل الله بك المتاع ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدمنا شرفاً ، وأبدأنا عرفاً^(٨) ، وقد دعانا إلى الرضا به ، والقنوع بولايته ، والحرص عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه . فاجمله لنا بعدك خلفاً ، فإنه أوسعنا كنفاً^(٩) ، وأقدمنا سلفاً ، وهو رثق لما فُتق ، وزمام لما شعث^(١٠) ، ونكال لمن فارق وناق ، وسلم لمن واظب . وحافظ للحق . أسأل الله لأمر المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، والتوطن في البلاد ، وصلاح أمر جميع العباد .
 ثم جلس .

(١) لعله « وأثبتنا » . (٢) بسط فلانا فانبسط : سره والافتباط : المرة . (٣) ضاق بالأمر ذرماً : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً . (٤) الاعوجاج . (٥) الألد : الخصم الشحيح الذي لا يرغب إل الحق . (٦) صاحبه يعني به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون ، اسم معمول من الشغب : وهو تهيج الشر . (٧) كناية عن دنو أجله . (٨) المعروف . (٩) الكنف : الظل والجانب . (١٠) شعث الأمر ، كفرح شعثاً : انتشر وتفرق .

٢٢٦ - خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقِضِيَةٍ ، وأهواء منجذمة^(١) ، نحاف حِدَّهَا ، وننتظر حِدَّهَا ، شديدٍ مُنْحَدَرُهَا ، كثيرٍ وَعَرُهَا ، شائخةٍ مَرَّاقِبُهَا^(٢) ، ثابتةٍ مراتبُهَا ، صعبةٍ مرا كِبُهَا ، فالموتُ يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد لا يَخُذُ في الدنيا أحد ، ولا يَبْقَى لِمَا أَمَدَ^(٣) ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، وماخوذ بولايتك ، وأنت أنظر الجماعة ، وأعلى عينًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ لأهل الطاعة ، وقد هُدِيَتْ ليزيدَ في أكلِ الأمور ، وأفضلِهَا رَأْيًا ، وأجْمَعُهَا رِضًا ، فاقطع بيزيدَ قَالَةَ^(٤) الكلام ، وَنَحْوَةَ^(٥) المُبِطَلِ ، وَشَمَّتِ المَنَافِقِ ، وَاسْكَبْتَ^(٦) به الباذخ^(٧) للمادى ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَلَمٌ لَشَمَّتِ ، وَأَسْهَلَ الوَعْثِ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تتراعى بك الظنون . »

٢٢٧ - خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آتاك بخلافته ، واختصاصك بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذا نكايَةٍ لأعدائه ، فأصبحت بأنعمه جَدِلاً ،

(١) جذمه فانجذم : قطعه . (٢) المراتب : جمع مرقب (كجعفر) المكان المشرف ، يقف عليه الرقيب . (٣) الأمد : الغاية والمنتهى . (٤) قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقائل ، والقيل . (٥) الكبر والمظمة . (٦) كبتة : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغيظه ، وأذله . (٧) بذخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ، وشرف باذخ : عال . (٨) وعث الطريق من بابي تمب وقرب : إذا شق على السالك ، فهو وعث (يسكون العين وكسرها) .

وَلَمَّا حَمَلَكُ مُحْتَمِلًا ، يَكشِفُ اللهُ تَعَالَى بِكَ الْعَمَى ^(١) ، وَيَهْدِي بِكَ الْعِدَا ، وَيَزِيدُ
ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُ لِلنَّاسِ بِرِعِيَّتِكَ رَأْفَةً ، وَأَحَقَّهُمْ بِالْخِلَافَةِ بِمَدِّكَ ، قَدْ سَاسَ الْأُمُورَ
وَأَحْكَمْتَهُ الدَّهْرُ ، لَيْسَ بِالصَّغِيرِ الْفَهْمِ ^(٢) ، وَلَا بِالْكَبِيرِ السَّفِيهِ ، قَدْ احْتَجَجْتَ ^(٣) الْمَكَارِمَ
وَارْتَبَجَيْتَ لِحُلِّ الْعِظَامِ ، وَأَشَدَّ النَّاسِ فِي الْعَدُوِّ نَكَايَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ صُنْعًا فِي الْوِلَايَةِ ،
وَأَنْتَ أَغْنَى بِأَمْرِكَ ، وَأَحْفَظَ لَوْصِيَّتِكَ ، وَأَحْرَزَ أَنْفُسَكَ ، أَسْأَلُ اللهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَافِيَةَ
فِي غَيْرِ جَهْدٍ ^(٤) ، وَالنِّعْمَةَ فِي غَيْرِ تَغْيِيرٍ .

٢٢٨ - خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فَقَالَ مَعَاوِيَةَ لِعَمْرُو بْنِ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ : قُمْ يَا أَبَا أُمِيَّةَ ، فَمَقَامُ فَحْمَدِ اللهِ ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ أَمَلْتُ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلْتُ تَأْمَنُونَهُ ، طَوِيلَ الْبَاعِ ،
رَحْبُ الدَّرَاعِ ، إِنْ اسْتَضَقْتُمْ إِلَيَّ حِلْمَهُ وَسِعْمَكُمْ ، وَإِنْ أَحْتَجَجْتُمْ إِلَيَّ رَأْيَهُ أُرْشِدَكُمْ ، وَإِنْ
افْتَقَرْتُمْ إِلَيَّ ذَاتَ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ ، جَذَعٌ ^(٥) قَارِحٌ ^(٦) ، سُوْبِقٌ فَسَبَقَ ، وَمُوجِدٌ فَجَجَدَ ،
وَقُورِعٌ فَفَازَ سَهْمَهُ ، فَهُوَ خَلْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا خَلْفَ مِنْهُ . » فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ :
« اجْلِسْ أَبَا أُمِيَّةَ . فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ . »

قَالَ مَعَاوِيَةُ : « أَوْ كَلِّمَكُمْ قَدْ أَجْمَعُ عَلَى هَذَا رَأْيَهُ ؟ » فَقَالُوا : « كَلَّنَا قَدْ أَجْمَعُ »

(١) العمى هنا : ذهاب بصر القلب . (٢) الفهمي والقه : العيسى ، فهو كفرح فهامة .

(٣) احتجن المال : ضمه واحتواه . (٤) المشقة . (٥) الجذع : الشاب الحدث .

(٦) أي شديد مجرب ، وهو في الأصل وصف للفرس ، قرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه

() وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا - وذلك إذا كان في السنة الثانية -

ثم ثنيا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » - في السنة الثالثة - ثم رابعيا « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » - إذا

سقطت رابعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة - ثم قارحا - إذا سقطت السن التي تلي رابعيته

ونبت مكانها نابه ، وهو قارحه الذي صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ، ولانبات سن ، وذلك

إذا استتم الخامسة ودخل في السادسة) .

رأيه على ما ذكرنا . قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجاب ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٩ - خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنكرِ زمانٍ قد سلف ،
ومعروفِ زمانٍ مُؤتَنَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعمَ الخلف ، فإن تَوَلَّاهُ عهدك ،
فمن غير كِبَرٍ مُفْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضِنٍ ، وقد حَكَبَتِ الدهور ^(٢) ، وجَرَّبَتِ الأمور ،
فَاعْرِفْ من تُسْنِدُ إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ، وَاَعْصِرْ رأى من يأمرك ،
ولا يَقْدِرْ لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظرُ للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ،
مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان
الحسن ^(٣) حيا . »

٢٣٠ - خطبة الضحاك بن قيس

فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق ، مُرُوءَتُهُمْ في أنفسهم
الشقاقُ ، وَأَلْفَتُهُمْ في دينهم الفِرَاقُ ، يَرَوْنَ الحق على أهوائِهِمْ ^(٤) ، كما نَمَا ينظرون

(١) مستأنف . (٢) هكذا في مروج الذهب . وفي الإمامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر اشطره »

وأصله من حلب شطرى الناقة (يفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الخاء) والشطركل
خلفين من أخلائها ، والخلف (بكسر الخاء) لها كالفروع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره يدل
من الدهر منصوب . (٣) هذا وما ورد في كلام الضحاك والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت

في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . (٤) أى على أغراضهم وميولهم .

بأَقْفَانِهِمْ . اختالوا جهلا وبطراً . لا يرقبون من الله راقبةً ، ولا يخافون وبأل عاقبةً ،
اتخذوا إبليسَ لهم ربّاً ، واتخذهم إبليسَ حِزْباً . فن يُقَارِبُوهُ لَأَيْسُرُوهُ ، ومن يَفَارِقُوهُ
لا يَضُرُّهُ . فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم ، وكلامهم في صدورهم ، ما للحسن
وذو الحسن في سلطان الله الذي استخلفَ به معاوية في أرضه ؟ هيهات لانتورث
الخلافة عن كلالته . ولا يحجب غيرُ الذِّكْرِ العَصْبَةِ . فوطنوا أنفسكم بأهل العراق
على المناجحة لإمامكم . وكانبِ نبيكم^(١) وصهره^(٢) ، يسلم لكم العاجلُ ، وترجوا
من الآجل .

٢٣١ - خطبة الأحننف بن قيس

ثم قام الأحننف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : إنا قد فررنا^(٣) عنك قريشاً ، فوجدناك أكرمها زنداً ،
وأشدّها عقداً ، وأوقاها عهداً ، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة^(٤) ، ولم تظهر عليها
قمصاً^(٥) ، ولكنك أعطيت الحسن بن عليّ من عهد الله ما قد علمت ، ليكون له الأمر
من بعدك ، فإن تَفِ فانت أهلُ الوفاء ، وإن تغدير^(٦) تعلم والله أن وراء الحسن خيولاً
جياداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفاً حداداً ، إن تدنُّ له شِبْرًا من غدر ، تجدُّ وراءه باعاً
من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا علينا وحسناً
منذ أحبوها ، وما نزل عليهم في ذلك خبر من السماء ، وإن السيوف التي شهِرُوها عليك
مع عليّ يوم صفين لعلّى عواتقهم ، والقلوب التي أبغضوك بها ، لبين جوائحهم ، وإيم الله
إن الحسن لأحبُّ إلى أهل العراق من عليّ » .

(١) وكان معاوية من كتاب الوحي . (٢) وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج
النبي عليه الصلاة والسلام . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .
(٤) فتح البلد عنوة : أي قهراً . (٥) مات قمصاً : أصابته ضربة أو رمية فات مكانه .
(٦) غدره وغدر به كنصر وضرب وسمع .

٢٣٢ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف ،
لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون
لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاها ليحل الرعية ،
فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حِلماً وعلماً ، وأوسعنا
كفئاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت به سبيل المذاهب ، فلا يصرفنك
عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ، ممن هو شاسع^(١) عاص ، ينوص^(٢)
للفتنة كل مناص ، لسانه ملتوي ، وفي صدره دلاء دوي ، إن قال فشره قائل ، وإن
سكت فداء غايل^(٣) ، قد عرفنا من هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبية للتوفيق ،
والتكليف للتفريق ، فاجل بيعته عنا العمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تجد عنه
إذ هُديت له ، ولا تنبش عنه إذ وقفت له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا
وعليك . أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنه » .

٢٣٣ - خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

« أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخَلاناً ، بهم يستعد ، وإياهم يستعين
وعلَى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أو جفوا^(٤) وإن استغنى عنهم أرجفوا^(٥) ،

(١) من شمع المنزل كنع : بعد . (٢) ناص مناص : تحرك . (٣) من غاله : أى أهلكه .

(٤) أسرعوا ، وجف البعير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أمدهته ، قال تعالى :

« فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رُكَّابٍ » أى ما أعلمهم .

(٥) أرجف القوم : خاضوا في أخبار الفتن ونحوها ، قال تعالى : « وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(١) الْفِتْنَ بِالْفُجُورِ ، وَيَشْتَقُونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عِيَابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوَّأَ
عُرْوَةَ أَمْرِ حَنَفِيًّا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلَثِكَ بِمُنْتَهِيْنَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا
مَتَّعْظِينَ ، حَتَّى تَصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٢) خَزْيٍ وَبَيْلٍ ، وَتَحُلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٣) أَمْرِ جَلِيلٍ ،
تَجْتَسِ^(٤) أَصُولَهُمْ كَأَجْتِثَاثِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأَوْلَى لِأَوْلَاكَ ثُمَّ أَوْلَى ، فَإِنَّا قَدْ قَدَّمْنَا
وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النَّذْرُ^(٥) .

٢٣٤ - خطبة يزيد بن المنقع

ثم قام يزيد بن المنقع ، فقال :

« أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية - ، فإن هلك فهذا - وأشار إلى
يزيد - ، فمن أبي فهذا - وأشار إلى سيفه » ، فقال معاوية : اجاس فإنك
سيد الخطباء .

٢٣٥ - خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : أنت أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلايته ، ومدخله
وخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضا ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم

(١) في الأصل « يلحقون » وهو تحريف ، وصوابه : « يلحقون » من ألحق الناقة والنخلة .

(٢) جمع صاعقة : وهي الموت وكل عذاب مهلك . وأرض وبيلة : وخيمة المرتع .

(٣) جمع قارعة ، وهي الداهية الفاجئة . قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ

بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً » . (٤) تقطع ، والفقع بالفتح ويكسر : البيضاء الرخوة من السمكة .

(٥) النذر : الإنذار . قال تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي » أي إنذارى . وفي الإمامة

والسياسة عقب هذه الخطبة : « فدعا معاوية الضحاك فولاه للكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة » .

منه غير ذلك ، فلا تزوذه الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم مَنْ هُما ، وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إلى البيعة « اللهم إني أعوذ بك من شر معاوية » فقال له معاوية : « تعوذ من شر نفسك ، فإنه أشد عليك وبايع » فقال : « إني أبايع وأنا كاره للبيعة » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : « فَمَسَىٰ أَنْ تَكْفُرَ هُوَ شَيْئًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقيه الناس ، فلما استقر في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٦ - خطبة معاوية

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني قد كبر سني ، ووهن عظمي ، وقرب أجلي ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيت لسكم رضا ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فرُدُّوا على أمير المؤمنين خيراً ، يرحمكم الله » .

٢٣٧ - خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الحمد لله الذي أَلْهَمْنَا أَنْ نَحْمَدَهُ ، وَاسْتَوْجِبَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ عَلَى آلَائِهِ ، وَحُسْنَ بِلَائِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَنْصِتْنَا . وَقَدْ فَسَمِعْنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، اخْتَارَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرِسَالَتِهِ ، وَاخْتَارَهُ لَوْحِيهِ ، وَشَرَّفَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، فَأَشْرَفَ النَّاسَ مِنْ تَشَرَّفَ بِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِالْأَمْرِ أَخَصَّهُمْ بِهِ ، وَإِنَّمَا عَلَى الْأُمَّةِ التَّسْلِيمُ لِنَبِيِّهَا إِذْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهَا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا اخْتَارَ مُحَمَّدًا يَعْلَمُهُ ، وَهُوَ الْعَالِمُ الْخَبِيرُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ . »

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومُنْتَهَاهُ ، نَحْمَدُهُ عَلَى إِلهَامِنَا حَمْدَهُ ، وَنَرْغِبُ إِلَيْهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدًا صَدَدًا^(١) ، لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ هَذِهِ أَخْلَافَةٌ إِنْ أَخَذَ فِيهَا بِالْقُرْآنِ : فَدَّ «أَوْلُو الْأَرْحَامِ بِمَعْضِهِمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» وَإِنْ أَخَذَ فِيهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَأَوْلُو رَسُولِ اللَّهِ ، وَإِنْ أَخَذَ بِسُنَّةِ الشَّيْخِينَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَأَوْلَى النَّاسِ أَفْضَلُ وَأَكْلُ وَأَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ آلِ الرَّسُولِ ؟ وَإِيْمُ اللَّهِ لَوْ وُلُوهُ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ ، لَوْضَعُوا الْأَمْرَ مَوْضِعَهُ ، لِحَقِّهِ وَصِدْقِهِ ، وَلَا يُطِيعُ اللَّهُ ، وَعُصِيَ الشَّيْطَانُ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِي الْأُمَّةِ سِيفَانُ ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مَعَاوِيَةَ ، فَإِنَّكَ قَدْ صَرْتَ رَاعِيًا وَنَحْنُ رَعِيَةٌ ، فَانظُرْ لِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ مَسْمُومٌ عَنْهَا غَدًا ،

(١) الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج : أي يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وأما ما ذكرت من ابني عمي ، وتركك أن تُحْضِرَهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقل أودع ، وأستغفر الله لي ولكم .

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بما أثرها السننية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء ، وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلي خلف حسنة وحسيناه وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك . »

٢٤٠ - خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ، ولا قيصرية ، ولا كسروية ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصة ، لمن كان لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، ممن كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قريش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يُغني عنك من الله شيئاً .

٢٤١ - خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقلتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قارلتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الناسُ أبا بكر وعمر ، من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمرَ منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله » ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئا من صلاتهم وأعطيتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله (سنة ٥١) إلا يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب ببيعته إلى الآفاق ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليه بذلك ، وأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبي من ذلك وأبته قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنتك ، فأرني رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد وثى المدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مُعاضبا في أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

(١) قاول : فاعل من القول ، كجاءت وخاطب وكالم . (٢) أعطيات : جمع عطية ، وهو جمع عطاء .

٢٤٢ - خطبة مروان بن الحكم

« إن الله عظيمٌ حَظْرُهُ ، لا يُقَدِّرُ ^(١) قَدِيرٌ قَدْرَهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا ، جعلهم
لدعائهم دينه أوتاداً . هم رُقَبَاؤُهُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَخَلَفَاؤُهُ عَلَى الْعِبَادِ ، أَسْفَرَ ^(٢) بِهِم الظلمَ ،
وَأَلَّفَ بِهِم الدِّينَ ، وَشَدَّدَ بِهِم الْيَقِينَ ، وَوَضَعَ بِهِم مِنْ اسْتِكْبَارِ ،
فَسَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ خَلْفَانِنَا ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي سَالِفِ زَمَانِنَا ، وَكُنَّا نَكُونُ لَهُمْ عَلَى
الطَّاعَةِ إِخْوَانًا ، وَعَلَى مَنْ خَالَفَ عَنْهَا أَعْوَانًا ، يُشَدُّ بِنَا الْعَصْدُ ، وَيُقَامُ بِنَا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ
فِي الْقَضِيَّةِ ، وَنُسْتَأْمَرُ ^(٣) فِي أَمْرِ الرَّعِيَّةِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ^(٤) ، ذَاتِ
وَجْهِهِ مُسْتَدِيرَةٍ ، تَفْتَحُ بِأَزْمَةِ الضَّلَالِ ، وَتُحْلِسُ ^(٥) بِأَسْوَأِ الرَّحَالِ ، يُؤْكَلُ جَزُورُهَا ^(٦) ،
وَتَمْتَقُّ أَحْلَابُهَا ^(٧) ، فَالْنَا لَانِسْتَأْمَرَ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْمُ اللهُ لَوْلَا
مَهْدُ مَوْكِدَةٍ ، وَمَوَائِقُ مَعْتَدَةٍ ^(٨) ، لَأَقْتُ أَوْدَ وَلِيَّيْهَا ، فَأَقِمِ الْأَمْرَ يَا بْنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَاعْدِلْ
عَنْ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نُظْرَاءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَآءَ .
فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بحلمه ، وأخذ بيد مروان ،
ثم قال :

- (١) قدره من باب نصر وضرب وقدره تقديرًا: عظمه، قال تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»
أي ما عظموه حق تعظيمه . (٢) سفر الصبح وأسفر: أضاء وأشرق ، أو هو متعد من سفرت الحرب
أي ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالمعنى كشف بهم الظلم . (٣) الاستئثار: المشاورة .
(٤) في الأصل «مستخيرة» أي مستخير صاحبها ، من استخار الله في أمره: طلب أن يجعل له فيه الخير ،
وأرى أنها «مستحيرة» بالخاء: أي مستحير صاحبها أي متحير ، من استحار: إذا نظر إلى الشيء ، ففتش عليه
ولم يمتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد «ذات وجوه مستديرة» أي مستعلقة مهمة ليست مستقيمة .
(٥) جلس البعير كضربه : فشاء بجلس (بكسر الخاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة «وفى
الأصل «وتجلس بأسوأ الرجال» بيمين وهو تصحيف . (٦) الجزور: البعير ، أو خاص بالناقة
المجزورة . (٧) امتق الفصيل ماقى الضرع شربه كله، والأحلاب جمع حلب (بفتح الحاء) وهو اللبن المحلوب.
(٨) اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والعهد : إذا شده .

٢٤٣ - خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعل في الكرم مني تحمداً ^(١) ، والعزيم مني والداً ، اخترت من قُرُومٍ ^(٢) قادة ، ثم استللت سيّد سادة ، فأنت ابن يبايع الكرم ، فمَرَّ حَيًّا بك وأهلاً من ابن عم ، ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نمت ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلوله ^(٣) صمويتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ ^(٤) جسيمها ، ويركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته في كل شديدة وعضده ، والثاني بعد ولي عهده ، فقد وليتكم قومك ، وأعظمت في الخراج سهمك ، وأنا مجيزٌ وفدك ، ومحسنٌ رفدك ^(٥) ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك ^(٦) . »

٢٤٤ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروي أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
« إن أمير المؤمنين قد كبر سِنه ، ودقَّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى ، فيدع الناس كالغنم لاراعي لها ، وقد أحب أن يُعلم علماً ، ويقم إماماً » ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ، ليفعل ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب إليه أن سمَّ يزيد ،

(١) المختد: الأصل . (٢) جمع قرم بالفتح : وهو السيد . (٣) هكذا في الأصل ، وفي كتب اللغة : « الذل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصموية ، ذل فهو ذلول ، يكون في الإنسان والذابة . »
(٤) طأطأ رأسه : خفضه فتطأطأ . (٥) الرشد : العطاء والصلة . (٦) قال المسعودي :
« وجعله ولي عهد يزيد : وردة إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاهها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمران بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة . »

فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد ، وخطبهم فخصمهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروان ، وكذب معاوية معك ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بني عدي رضي دينه وأمانته ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تتحدثوا علينا سنة الروم ، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل ، فقال مروان : « أيها الناس : إن هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْرُ أَفٍّ لَكَا أْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

(١) أخرج : أبعث ، قال صاحب الأمل : « سمعت ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت : الابن الصديق يقول هذا ؟ استروني فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسبه » ، وقال المفسرون في هذه الآية : « والمراد (بالذي قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : نعمت عبد سوء : عاق اولديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأنف بهما ، وقال : ابعثوا إلى جدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألهما عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . وعن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس لبزود ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبناؤكم ؟ فقال مروان : يأبها الناس هو الذي قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْرُ . . . الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اه . (وقولها فضض كجبل ويروى كمتق وخراب أي قطعة منها) .

وجاء في السيرة الخلبية (١ : ٢ : ٣) : « من الواقدي ، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرف صوته ، فقال : « ائذنوا له لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن منكم - وقليل ما هم - ذوو مكر وخديعة ، يعطون الدنيا ، وما لهم في الآخرة من خلاق » ، وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى إليه بمروان لما ولد ، فقال : « هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون بن الملعون » وعن جبير بن مطعم : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الحكم بن أبي العاص ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويل لأمتي بما في صلب هذا » .

« يابن الزرقاء^(١) ، أفينا تناول القرآن ؟ » وتسلم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير ،
وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك .
قال ابن قتيبة : فقدم معاوية المدينة حاجاً ، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله
ابن عباس فحضرا ، وابتدأ معاوية فقال :

٢٤٥ - خطبة معاوية

« أما بعد : فالحمد لله وليّ النعم ، ومُنزل النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، المتعالي عما
يقول الملحّدون عُلوّاً كبيراً ، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوثُ إلى الجن والإنس كافةً ،
ليُنذِرهم بقرآن : « لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ،
فَأَدَّى عَنْ اللَّهِ ، وَصَدَعَ^(٢) بأمره ، وصبر على الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ،
وأعزّ أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمرُ الله وهم كارهون ، ففضى صلوات الله عليه ،
وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سُخِّر له ، زهادةً واختياراً لله ، وأنفقةً
واقتراراً على الصبر ، وبقيماً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم
خلفه رجالان محفوظان ، وثالثٌ مشكوك ، وبين ذلك خووضٌ طالما عالجناه ، مشاهدةً

وجاء في أسد الغابة في ترجمته : « ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، في هجائه لعبد الرحمن

ابن الحكم ، فقال :

إِنَّ اللَّعِينِ أَبُوكَ فَاوْمَ عِظَامِهِ
إِنْ تَرَمَ تَرَمَ مَخْلُجًا مَجْنُونًا

وقد روى في لعنة ونفيه أحاديث كثيرة لاجابة إلى ذكرها ، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله

عليه وسلم ، مع حلمه وإغضائه على ما يكره ، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم ، وجاء في الفخرى ص ١٠٨

« ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص ، ولعنة من في صلبه ، وضعفها قوم » .

(١) في الفخرى ص ١٠٨ « وكان من أراد ذم مروان وعييه يقول له يابن الزرقاء » قالوا : وكانت

الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية ، فلذلك كانوا يذمون بها .

(٢) قوله تعالى : « فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ » أي شق جماعاتهم ، بالتوحيد أو اجهر بالقرآن ، أو أظهر

أو احكم بالحق وافصل بالأمر ، أو اقصد بما تؤمر ، أو افرق به بين الحق والباطل .

وَمَكَافَئَةً، وَمَعَايِنَةً وَسَمَاعًا، وَمَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَعْلَمَانِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ مَا سَبَقْتُمْ إِلَيْهِ وَإِلَى تَجْوِيزِهِ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ مَا أَحْوَلُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الرَّعِيَةِ، مِنْ سَدِّ الْحَلَلِ، وَلَمْ يَصْدَعْ بُولَابَةَ يَزِيدَ، بِمَا أَيْقَظَ الْعَيْنَ، وَأَخَذَ الْقِعْلَ، هَذَا مَعْنَى فِي يَزِيدَ، وَفِيكَامَا فَضْلُ الْقَرَابَةِ، وَحِظْوَةُ الْعَسَلِ، وَكَالَ الرُّوءَةِ، وَقَدْ أَصَبْتُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ يَزِيدَ عَلَى الْمُنَظَرَةِ وَالْمُقَابَلَةِ، مَا أَعْيَانِي مِثْلُهُ عِنْدَكُمَا، وَعِنْدَ غَيْرِكُمَا، مَعَ عَلَيْهِ بِالسَّنَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالْحِلْمِ الَّذِي يَرْجَحُ بِالصَّمِّ^(١) الصَّلَابِ، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ الرَّسُولَ الْحَفِظَ بِبَعْضَةِ الرِّسَالَةِ، قَدَّمَ عَلَى الصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ، وَمَنْ دُونَهُمَا مِنْ أَكْبَارِ الصَّحَابَةِ، وَأَوَائِلِ الْمُهَاجِرِينَ، يَوْمَ غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ^(٢)، مَنْ لَمْ يَقَارِبِ التَّوَمَ، وَلَمْ يَمَانِدْهُمْ^(٣)، بِرَبِّيَّةٍ فِي قَرَابَةِ مَوْصُولَةٍ، وَلَا سُنَّةٍ مَذْكُورَةٍ، فَقَادَهُمُ الرَّجُلَ بِأَمْرِهِ، وَجَمَعَ بِهِمْ صَلَاتَهُمْ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ فَيْئَهُمْ، وَقَالَ وَلَمْ يُقَلِّ مَعَهُ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَلَا بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَإِنَا وَأَنْتُمْ شَعْبًا نَفَعٌ وَجِدٌّ، وَمَا زِلْتُمْ أَرْجُو الْإِنْصَافَ فِي اجْتِمَاعِكُمَا، فَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ إِلَّا بِفَضْلِ قَوْلِكُمَا، فَرُدًّا عَلَى ذِي رَحِمٍ مُسْتَعْتَبٍ، مَا يَحْمَدُ بِهِ الْبَصِيرَةَ فِي عِنَابِكُمَا، وَأَسْتَفْقِرُ اللَّهُ لِي وَلِكُمَا .

فَتَيْسَّرُ ابْنُ عَبَّاسٍ لِلْكَلَامِ، وَنَصَبَ يَدَهُ لِلْمُخَاطَبَةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الْحُسَيْنِ وَقَالَ : عَلَى رِسْلِكَ ، فَأَنَا الْمُرَادُ ، وَنَصِيبِي فِي النَّهْمَةِ أَوْفَرُ ، فَأَمْسِكْ ابْنَ عَبَّاسِ ، فَهَذَا الْحُسَيْنِ :

(١) الصم جمع أصم : وهو الحجر الصلب المصمت . (٢) غزوة ذات السلاسل ، وهي وراه وادي القرى من أرض بني عذرة : غزاها سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض جذام ، يقال له السلسل-وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل - خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أبا عبيدة ابن الجراح في المهاجرين الأولين ، فبهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تختلفا ، فخرج أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مددا لي ، قال أبو عبيدة : لا ، ولكنني على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه - وكان أبو عبيدة رجلا لينا سهلا ، هينا عليه أمر الدنيا - فقال له عمرو : بل أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتني أطمعتك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوتك . فصل عمرو بالناس . (٣) المعاندة : المفارقة ، أي ولم يمتز عليهم برتبة .

٢٤٦ - خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤدِّيَ القائلُ - وإن أظنَبَ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءا ، قد فهمتُ ما ألبستَ^(١) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إيجازِ الصفة ، والتكثُّبِ عن استبلاغِ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ! فضح الصبحُ فحمة الدُّحى ، وَهَرَّتْ^(٢) الشمسُ أنوارَ الشُّرُجِ ، ولقد فضلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجهقتَ ، ومنعتَ حتى بخلتَ ، وَجَرَّتْ حتى جاوزتَ ، ما بذلتَ لذي حقٍّ مِنْ أُمَّمٍ حقهُ بنصيبٍ ، حتى أخذَ الشيطانُ حظه الأوفرَ ، ونصيبه الأكلَ ، وفهمتَ ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناسَ في يزيد ، كأنك تصِفُ محجوباً ، أو تفتتُ غائباً ، أو تُخبِرُ عما كان مما احتويتهُ بعلمٍ خاصٍّ ، وقد دَلَّ يزيدُ من نفسه على موقعِ رأيه ، فخذ ليزيدَ فيما أَخَذَ به من استقرائهِ^(٣) الكلابَ للمهارشة^(٤) عند التجارش ، والحمامَ السُّبُقَ لأترايهِنَّ ، وَالْقَيْنَاتِ^(٥) ذواتِ المعازِفِ ، وضروبِ الملامى ، تجذهُ ناصراً ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناكَ أن تلتقى الله بِوزرِ هذا الخلقِ بأكثر مما أنت لاقية ، فوالله ما برحتَ تقدِّمُ باطلا في جورٍ ، وَحَقِّقاً في ظلمٍ ، حتى ملأتَ الأستقيَّةَ ، وما بينك وبين الموتِ إلا عَضَّةٌ ، فَتَقْدِمُ على عملٍ محفوظٍ . في يومٍ مشهودٍ ، ولاتِ حينٍ مناصٍ ، ورأيتُكَ عَرَضتَ بنا بعد هذا الأمرِ ، وَمَنَعْتَنَا عن آبائنا تَرُائِئاً ، ولقد - لعمرُ الله - أوردنا الرسولَ عليه الصلاة والسلام

(١) ألبسه : غطاه . (٢) يقال بهر القمر كنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسر جمع سراج : وهو المصباح . (٣) استقرأه الأشياء : تتبع أفرادها . (٤) المهارشة : تحريش بعضها على بعض . (٥) جمع قينة : وهى الجارية المغنية أو أعم ، والمعازف : الآلات التى يضرب بها كالعود ، جمع معزف كمنبر .

ولادة ، وجئت لنا بما حَجَّجْتُمْ بِهِ الْقَائِمَ عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَأَذْعَنَ لِلْحُجَّةِ بِذَلِكَ ، وَرَدَّهُ الْإِيمَانَ إِلَى النِّصْفِ ، فَرَكِبْتُمُ الْأَعْلِيلَ ، وَفَعَلْتُمُ الْأَفَاعِيلَ ، وَقَفْتُمْ كَأَن يَكُونُ ، حَتَّى أَتَاكَ الْأَمْرُ يَا مَعَاوِيَةَ ، مِنْ طَرِيقٍ كَأَن قَصَدَهَا لِنَعِيرِكَ ، فَهَنَّاكَ ^(١) ، فَاعْتَبَرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ ، وَذَكَرْتَ قِيَادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمِ بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَأْمِيرَهُ لَهُ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَالْعَمْرُوبُ بْنُ الْعَاصِ يَوْمئِذٍ فَضِيلَةً ، بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ وَبِيعْتَهُ لَهُ وَمَا صَارَ لِعَمْرِ وَيَوْمئِذٍ حَتَّى أَنْفَ الْقَوْمِ إِمْرَتَهُ ، وَكَرِهُوا تَقْدِيمَهُ وَعَدَّوْا عَلَيْهِ أَفْعَالَهُ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا جَرَمَ ^(٢) مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، لَا يَعْمَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ غَيْرِي » . فَكَيْفَ يُحْتَجَّجُ بِالْمَنْسُوحِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ ، فِي أَوْكَادِ الْأَحْوَالِ ، وَأَوْلَاهَا بِالْمُجْتَمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوَابِ ؟ أَمْ كَيْفَ صَاحَبَتْ بِصَاحِبٍ تَابِعًا ، وَحَوْلَاكَ مَنْ لَا يَوْمَ مَنْ فِي صَحْبَتِهِ ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِي دِينِهِ وَقَرَابَتِهِ ، وَتَتَخَطَّاهُ إِلَى مُسْرَفٍ مَفْتُونٍ ؟ تَرِيدُ أَنْ تُتَلَبَّسَ النَّاسَ شُبُهَةً ، يَسْتَعِدُّ بِهَا الْبَاقِيَ فِي دُنْيَاهُ ، وَتَشْتَقِي بِهَا فِي آخِرَتِكَ ، إِنْ هَذَا هُوَ الْخُلْسَرَانُ الْمُبِينُ ، وَأَسْتَعْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

فَنظَرَ مَعَاوِيَةَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا بَنَ عَبَّاسٍ ، وَلِمَا عِنْدَكَ أَذْهَى وَأَمْرًا ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِعَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّهَا لَدَّرِيَّةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَحَدُ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ ^(٣) ، وَمَنِ الْبَيْتِ الْمُطَهَّرِ ، فَالَهُ عَمَّا تَرِيدُ ، فَإِنَّ لَكَ فِي النَّاسِ مَقْنَعًا ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ : أَعُوذُ ^(٤) الْحَلِيمِ التَّحَلُّمِ ، وَخَيْرُهُ التَّحَلُّمُ عَنِ الْأَهْلِ . انصرفا في حفظ الله .

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا .

(١) مهسل عن هنا ، يقال هنأه الطعام : إذا ساغ ولذ ، أي فهنيئنا لك ما نلت من الخلافة .

(٢) لا جرم : قال للفراء « هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فحرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا تراهم يقولون : « لا جرم لآتينك » . (٣) انظر ص ٣٢ . (٤) أعوذ : أنفع ، والعائدة : المنفعة .

٢٤٧ - خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

« يا عبد الله بن عمر : قد كنتَ تحدّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس في عنقك بيعةُ جماعةٍ ، وأنَّ لك الدنيا وما فيها . وإنِّي أحذرك أن تشقَّ عَصَا المسلمين ، وتسى في فريقٍ مثلهم ^(١) ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء ، وليس للعباد خيرةٌ من أمرهم ، وقد وَكَّدَ الناسُ بيعتهم في أعناقهم . وأعطوا طي ذلك عهدهم موافقتهم » . ثم سكت .

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معاوية ، لقد كان قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يرَوا في أبنائهم ما رأيتَ في ابنك ، فلم يُجابوا في هذا الأمر أحدًا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيثُ علموهم ، وأنت تحدّثني أن أشقَّ عصا المسلمين ، وأفرق ملامهم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناسُ ، فسأدخلُ في صالح ما تدخل فيه أمة محمد » .

فقال معاوية : يرحمك الله ، ليس عندك خلاف ، ثم قال معاوية لعبد الرحمن ابن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر ، فقال له عبد الرحمن : إنك والله لو ددنا أن نكلك إلى الله فيما جسرت عليه من أمر يزيد ، والذي نفسى بيده لتجعلنَّها شورى ، أو لأعيدنَّها جذعةً ، ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف رداءه ، ثم قال : هل رسلك

(١) اللأ : الجماعة .

اللهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليكم منهم ، ثم قال لابن الزبير نحو ما قاله لابن عمر ، ثم قال له : أنت ثعلب رَوَّاع ، كلما خرجت من جُحْر ابجَحْرَتَ^(١) في آخر ، أنت ألبت^(٢) هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير : أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرايت إن باعناه أيكما نُطِيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ، إن كنت ملأت الخلافة فاخرج منها ، وبايع ليزيد ، فنحن نبايعه ، فكفر كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، وأكأني بك قد تحببُت في الحباله . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادي في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٩ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال : « يا أهل المدينة ، لقد هممتُ ببيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مدرة^(٣) إلا بعثت إليها ببيعته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلت : بيضته^(٤) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لباعته له . »

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأماً ونفساً ! فقال معاوية « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله ! فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خيرٌ منه أما ، فلمعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لسكان نساء قريش أفضلهن . فكيف وهي ابنة رسول الله صلى

(١) أى دخلت ، جحر الضب كنع : دخل الجحر ، وجحر فلان الضب : أدخله فيه ، فانجحر .

(٢) التأييب : التحريف والإفساد . (٣) المدرة : المدينة . (٤) جماعته وأصله .

الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها؟ فأمكن لعمر الله خير من أمه^(١). وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله، ففضى لأبيسه على أبيك». فقال الحسين: «حَسْبُكَ جَهْلُكَ». آتت العاجل على الآجل». فقال معاوية: «وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك». فقال الحسين: «هذا هو الإفك والزور! يزيدُ شاربُ الخمر. ومشتريُ اللهو خيرٌ مني!» فقال معاوية: «مهلاً عن شتم ابن عمك. فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتُمك»، ثم التفت معاوية إلى الناس. وقال:

«أيها الناس: قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، وكأنت بيعته بيعة هُدًى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد، لما وقع الناس فيه من الاختلاف. ونظراً لهم بعين الإنصاف».

* * *

وروى من طريق آخر: أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها، استقبله أهلها، فيهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر، فسبّه وقال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً»؛ فلما دخل الحسين عليه قال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً، بدنة^(٢) يترقرق دمه والله مهر يقه»؛ فلما دخل ابن الزبير قال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً، ضبّ تلمعة^(٣)، مدخل رأسه تحت ذنبه»؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال: «لا مرحباً بك ولا أهلاً، وسبّه»، فقال:

(١) وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية. (٢) البدنة: من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدي إلى مكة، للذكر والأنثى. (٣) التلمعة: ما ارتقع من الأرض وما انهبط منها.

« إنى لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ، ولما هو شرّ منها » فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرّهط معتمرين ، فلما كان وقت الحجّ خرج معاوية حاجبًا ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لعله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحبًا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحبًا بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحبًا يا ابن حوّارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحبًا يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرّبوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أطفاه^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحْسِنُ إِذْنَهُمْ وشفاعتهم وحلهم على الدواب ، وخرج حتى أتى مكة ، فقضى حجه ، ولما أراد الشخوص أمر بأنقاله فقدمت ، وأمر بالمنبر فقرّب من الكعبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا ، وقال بعضهم لبعض : من يكلمه ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات ، فأنت صاحبنا . قال : على أن تعطوني عهد الله أن لا أقول شيئًا إلا تابعتمونى عليه . قالوا : لك ذلك ، فأخذ عهدهم رجالا رجالا ، فدخلوا عليه ، فرحبّ بهم ، وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيئونى ، فسكتوا ، فقال : أجيئونى ، فسكتوا ، فقال : لابن الزبير : هات فأنت صاحبهم قال :

٢٥٠ — خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ لَكَ رَغْبَةٌ ، وَفِيهَا خِيَارٌ ؛ إِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْضَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ أَحَدًا ، فَرَأَى

(١) الألفاظ : جمع لطفة بالتحريك ، وهى الهدية .

المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلا ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقاتل مقالة ، فأياكم أن تترضوا عليّ حتى أتمها ، فإن صدقت فعليّ صدق ، وإن كذبت فعليّ كذبي ، وأقسم بالله لئن ردّ عليّ رجل منكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة برد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٥١ - خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نُبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ،

(١) العوار : مثلثة : العيب .

وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا
ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلم لا نبايع ، فلما
دُعيتم وأرضيتم بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟
قالوا : خفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ،
والأمال ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمال ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، ١ : ٩٥ ،
والبيان والتبيين ١ : ١٦٣ - ١٦٤) *

تهنئة وتعزية

٢٥٢ - خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفي معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخل عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك في العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيماً ، وأعطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رزيت فقد فقدت خليفة الله ، ومُنحتَ خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووُهِبتَ جزيلاً ، إذ قضى معاوية نَحْبَهُ ، فغفر الله ذنبه ، ووُلِّيتَ الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله موارد السرور ، ورفقك لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيدُ فقد فارقتَ ذائقةً واشكر حبياءَ الذي بالملك أصفاً^(١)
لا رزءَ أصبح في الأقوام نعلمه كما رزيتَ ، ولا عُنْبِي كعقباء كما
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهمُ والله يرعاه كما
وفي معاويةَ الباقي إذا خلفُ إذا نُعِيتَ ، ولا نسمعُ بمنعاً كما^(٢)

« وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية ، فوجَّهه

الناس ، كما روى من غير وجه » .

(زهر الآداب : ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب : ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل : ١ : ١٦ ، والعقد الفريد

: ٢ : ١٤١ - ٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب : ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين : ٢ : ٦٦) .

(١) أصفاه : آخره . (٢) هو أبو إيلي معاوية بن يزيد .

٢٥٣ - خطبة عطاء بن أبي صيفي الثقفي

وروى للمسعودي أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صَيْفِيّ ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله ، وَمُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نحبّه ، ففغر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب^(١) عند الله أعظم الرزية ، وأحمدَه كَلَى أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،

وصبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٤ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رُزئت خير الآباء وُسُميت خير الأسماء ، وَمُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قریش مفعوجةً يبعُد ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، وَالْعُقْبَى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد المُلحدون عَوْقها
عنك فيأبى الله إلا سَوْقها إليك ، حتى قَدَدوك طَوْقها

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

(١) احتسب به أجرا عند الله : اعتمده ينوى به وجه الله (واحتسب ابنه إذا مات كبيرا ، فإن مات

صغيرا قيل افتطرطه) .

٢٥٥ - خطبة غيلان بن مسلمة الثقفى

وروى الجاحظ : أنه لما توفى عبد الملك ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم

لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفى ، فسلم عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئت خير الآباء ، وسميت خير الأسماء ، وأعطيت

أفضل الأشياء ، فمظم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل^(١) الأجر ،

وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبد الملك^(٢) بغير القضية ، وأنزله

بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)

(١) النافلة في الصلاة وغيرها : الزيادة . (٢) أى قضى على عبد الملك باسقاط الجار .

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٦ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زيادًا فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها ضابطًا صالحًا ، وجبّي خراجها وحمّاه ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من عمالاته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده^(١) ، فغضب زياد غضبًا شديدًا ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجبُ من ابنِ آ كِلَّةِ الأ كِبَادِ^(٢) ، وقائلةِ أسدِ الله ، ومُظهِرِ الخِلافِ ، ومُسرِّ النَّفاقِ ، ورئيسِ الأحزابِ ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إليّ يرُعدُ ويُبْرِقُ^(٣) »

(١) وما ورد في كتابه إليه قوله : « أس عبد ، واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية ، وإذا لثامك كتابي هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأمرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمك حقت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سمي ، وأقسم قسما مبرورا أن لا أوق بك إلا في زمارة ، تمشى حافيا من أرض فارس إلى الشام ، حق أقيمك في السرق ، وأبيحك عبدا ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه . » (٢) هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بمعنى طعيمة فأنت حر . (٣) رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

عن سحابة جَبَلٍ^(١) لا ماء فيها ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَصِيرُهَا الرِّيحُ قَرَعًا^(٢) ، وَالَّذِي يَدُلُّنِي عَلَى
ضَعْفِهِ تَهْدُدُهُ قَبْلَ الْقُدْرَةِ ، أَفَنُ إِشْفَاقٍ عَلَى تَنْذِيرٍ وَتَعْذِيرٍ ؟ كَلَّا ، وَلَكِنْ ذَهَبَ إِلَى غَيْرِ
مَذْهَبٍ ، وَقَمَعَ^(٣) لِمَنْ رَوَى بَيْنَ صَوَاعِقِ تِهَامَةَ^(٤) ، كَيْفَ أَرْهَبُهُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ ابْنُ
بَنَتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَبْنُ ابْنِ عَمِّهِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؟
وَاللَّهُ لَوْ أُذِنَ لِي فِيهِ أَوْ نَدَبِنِي إِلَيْهِ ، لَأُرِيَنَّهُ الْكُؤُوبَ نَهَارًا ، وَلَا سَعِطَنَهُ^(٥) مَاءَ الْخُرْدِ
دُونَهُ ، السِّكِّامُ الْيَوْمَ ، وَالْجَمْعُ غَدًا ، وَالْمَشُورَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ « ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٧ - خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة^(١) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ،
وأوفد إليه المغيرة بن شعبه بكتاب يتلطّف به فيه ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه

- (١) الجفل : السحاب هراق مائه ومضى . (٢) القرع : قطع من السحاب رقيقة .
(٣) القمعة : صوت الرعد ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ٤ ومنه « مايقمق له بالشانن »
وسياق تفسيره في خطبة الحجاج . (٤) روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، ولعله (روى)
وذكروا أنه لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت
للسواعق ، ففرغ الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فيهم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا يهولنكم هذا
فإني أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربي ، فلو ركبتنا عظيما لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامة
لم تزل الصواعق تنزل بها » . (٥) سعطه الدواء كتمه ونصره وأسعطه إياه : أدخله في أنفه .
(٦) ونص كتابه إليه : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتك كالغريق
يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعا في الحياة ، إنما يكفر التعم ويستدعي النعم
من حاد الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا . فأما سبك لي فلولا حلم يهاني عنك ، وخوف أن أدعى سفها
لاثرت لك مخازي لا يغسلها الماء . وأما تعبيرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة . وأما زعمك أنك
تختطفني بأضعف ريش وتتناولني بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يفزعه صغير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله
خروف ؟ فامض الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فلست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجهد إلا فيما يسوءك ،
وستعلم أينما الخاضع لصاحبه ، الظالم إليه والسلام » .

أبي سفيان^(١) ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله بحبله ، ولا يقطع رَحِمَهُ ، فترثت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكَّرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يُذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وِصْفَيْنِ ما يُذيف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرئٍ بسلامة دينه ، وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أحمدَ العاقبتين العافية ، وسأعلُّ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغيبته ، فقد جدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه^(٢) ، فأعطاها معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق .
(شرح ابن أبي الحديد م : ٤ : ٦٩)

(١) وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وفيه يقول : « وحملك سوء ظنك بي ، وبفضك لي على أن عقت قرابتي ، وقطعت رحمتي ، وبتت نسبي وحرمتي ، كأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ! » وفي آخره يقول : « فإن أحببت جانبي ووثقت بي ، فإمرة بإمرة ، وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لاعلى ولا لى والسلام » .

(٢) وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فستزح في قلبي مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قتت يوم قرأت كتابك مقاما يعيا به الخطيب المدرسة ، فتركت من حضر ، لأهل ورد ، ولا صدد ، كالمحترين بهمه ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

٢٥٨ — خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زيادا معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقَاة^(١) التي تحت مرقاته ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد عَرَفْتُ نَسَبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَادٍ ، فَن كَانَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ فَلْيَقُمْ بِهَا » ، فقام ناس ، فَشَهِدُوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أَقْرَبَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ^(٢) ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مَعَاوِيَةَ وَمَنَاشِدَتُهُ ، قَامَ زِيَادٌ وَأَنصَتَ النَّاسُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) المِرْقَاة بفتح الميم وتكسر : الدرجة . (٢) فقام أبو هريرة السلولي — وكان خازنا في الجاهلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان : قدم علينا بالطائف ، فأتاني ، فاشترت له لحما ونخرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبا هريرة ، أصب لي بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفته شرفه وجوده وقد أمرني أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يجيء الآن عبيد بنغمة — وكان راعيا — فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبي سفيان فقلت لم أجد إلا جارية الحرث بن كلدة سمية ، فقال : ائتي بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا هريرة ، إنما بهتت شاهدا ، ولم تبعت شاهدا ، فقال أبو هريرة : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألث أن خرج علي يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا هريرة لولا استرخاء من ثديها ، وذفر في إبطنها — والذفر بالتحريك ويسكن : الثفن ، والذفر بالتحريك : كل ريح ذكية من طيب أو نتن أو يئس برائحة الإبطن المنتنة — وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندي للحارث بن كلدة — وكان طبيبا يعالجه — فولدت له على فراشة نافعا ، ثم ولدت أبا بكره ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريتك بغيا ، فانتفى من أبي بكره ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا في إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثلها ، وهو غلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعلى عليه السلام ، وعمرو ابن العاص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام أو كان قرشيا لساق العرب بهصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله =

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوله ، ولا علم لي بآخِره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذي رفع مِنَّا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيَعوا ، فأما عبيدٌ فإنما هو والد مبرور ، أو ربيبٌ ^(١) مشكور » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ،
ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل ١٨٩ ص)

٢٥٩ - خطبته حين ولي البصرة (وهي البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » واليا معاوية بن أبي سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والنسق بالبصرة كثير فاش ظاهر ، فخطب خطبةً بتراء لم يحمد الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعمًا فأهملنا شكرًا » أما بعدُ : فإن الجهالة الجاهلَاء ^(٢) ، والضلالة العمياء ، والنبي الموفى بأهله على النار ، ما فيه سهواؤكم ، ويشتمل عليه حملأؤكم ^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرهوا كتاب الله ، ولم تسمعوا

= إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت في رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قال : أخاف هذا العير الجالس أن يحرق على إهابي .

ومن كتاب لعل عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديمته باستلحاقه : « وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلقته من حديث النفس ، ونزعة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الحكمة ، ولم تنزل في نفسه حتى ادعاه معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، قال الطبري : « وفي سنة ٤٤ هـ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل » . (١) الربيب هنا : زوج الأم . (٢) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، ومثله : وتد واتد ، وهمج هامج ، وإيلة ليلاء ، ويوم أيوم (أي شديد ، أو آخر يوم في الشهر) . (٣) عقلاؤكم .

ما أعدَّ اللهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن
 السَّرْمَدِيِّ^(١) الذي لا يزول ، أتكونون كمن طَرَفَتْ^(٢) عينيه الدنيا ، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ
 الشهوات ، واختارَ الفأنية على الباقية ، ولاتذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَثَ الذي
 لم تُنْسَبُوا إليه ، مِنْ تَرَكْتُمْ كِسْمَ الضَّعِيفِ يُقَهَّرُ ويؤخذ ماله ، هذه المواخير^(٣) المنصوبة ،
 والضعيفة المسلوقة في النهار المُبْصِرِ ، والمددُ غيرُ قليل ، ألم يكن منكم نُهَّاءٌ ، تمنع الغُوءَاةَ^(٤)
 عن دَلَجِ^(٥) الليل ، وغارة النهار ؟ قرَّبتهم القَرَابَةِ ، وباعدتم الدين ! تعذرون بغير العذر ،
 وتُعْضُونَ عَلَى المَحْتَلِسِ ، كلُّ امرئٍ منكم يَدُبُّ^(٦) عن سفيهه ، صَنِيعَ من لا يخاف
 عاقبةً ولا يرجو مَعَادًا ، ما أنتم بالْحُلَمَاءِ ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تَرَوْنَ
 من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرْمَ^(٧) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كُنُوسًا
 في مكائسِ الرِّيَبِ^(٨) ، حرامٌ على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هَدْمًا وإحراقًا .
 إنِّي رأيت آخِرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف ،

- (١) الدائم . (٢) طرف عينه : أصابها بشيء فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه
 على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده . (٣) جمع ماخور : وهو بيت الريبة معرب
 أو عربي من مخرت السفينة لتردد الناس إليه . (٤) جمع ناه ، وغوأة جمع غاو .
 (٥) السير من أول الليل ، وقد أدلجوا ، فإن ساروا من آخره فادلجوا بالتشديد .
 (٦) يدفع . (٧) جمع حرمة ، وهي مالا يحل انتهاكه . روى الشعبي قال : « لما خطب زياد
 خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد
 مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتیان الفساق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فإن أجابك
 أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع ! » . (٨) كنوس جمع كانس : أي مستقر كتمود وجلوس جمع قاعد
 وجالس ، وأصله من كنس الظبي كضرب : دخل في كذاسه (ككتاب) وهو مستتره من للشجر ، وجمع
 كانس أيضا على كنس (كرمح) ومنه الجوارى الكنس (وهي الخنفس) وهي الكواكب السيارة ، أو النجوم
 الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها تكنس في المغيب كالظباء في الكنس
 (ككتب) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتختفي نهارا (وخنوسها أنها تغيب كما يخنس الشيطان ؛ إذ ذكر
 الله عز وجل) ومكائس الريب : مكائنها المستتره جمع مكنس كجلس .

وشدة في غير عُنْف ، وإني أُقسِم بالله لَأَخَذَنَّ الْوَلِيَّ^(١) بِالْمَوْتَى ، وَالْمُقِيمَ بِالظَّاعِنِ ، وَالْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، وَالْمَطِيْعَ بِالْعَاصِي ، وَالصَّحِيْحَ مِنْكُمْ فِي نَفْسِهِ بِالسَّقِيمِ ، حَتَّى يَبْلُغَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ ، فَيَقُولُ : « أُنْجِ سَمْدٌ قَدْ هَلَكَ سَمِيْدٌ^(٢) » أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتُكُمْ^(٣) ، إِنْ كَذَبَ الْمُنْبِرَ بِلِقَائِهِ^(٤) مَشْهُورَةٌ ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَيَّ بِكَذْبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَمِصَّتِي^(٥) ، فَإِذَا سَمِعْتُمُوهَا مِنْي فَاعْتَمِرُوهَا^(٦) فِيَّ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا ، مَنْ نَقِبَ مِنْكُمْ عَلَيْهِ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ^(٧) فَيَأْتِي وَدَلَجَ اللَّيْلَ ، فَإِنِّي لَا أُوتِي بِمُدْجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ فِي ذَلِكَ بِمَقْدَارِ مَا يَأْتِي الْخَبِرُ الْكُوفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ^(٨) ، وَإِلَايَ وَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ^(٩) ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ ، وَقَدْ أَحَدْتُمْ أَحَدَانًا لَمْ تَكُنْ ، وَقَدْ أَحَدْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةً ، فَمَنْ غَرَّقَ قَوْمًا غَرَّقْنَا ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقْنَا ، وَمَنْ نَقَبَ

(١) الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد . (٢) سمء وسعيد هما ابنا ضبة بن أدّ خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سمء فردها وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سمء أم سعيد ؟ .
(٣) من البلق بالتحريك : وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين (والتحجيل : بياض في قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتمييزها عما سواها ببلقها . (٤) في الطبري « قال الشعبي : فوالله ماتملقنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شرا إلا أنفذه » . (٥) عدوها من عيوني ، واعتزته : طعن عليه .
(٦) في الطبري : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرى السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تقلق عليها بابها ، وصامن الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه » .
(٧) في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأهمل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وهاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر المشاء حتى يكون آخر من يصل ، ثم يصل ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أهمل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ الخريبة (كجنيبة موضع بالبصرة يسمى البصرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ليلة أعرابيا ، فأتى به زيادا ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وغشيتني الليل فاضطررها إلى موضع ، فأنت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . (٨) قولهم : بالفلان ، والغرض مناصرة العصبية .

بِتَنَا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ حَيًّا فِيهِ ، فَكَفُّوا عَنِّي أَيْدِيكُمْ وَالسُّنُكُم ،
أَكْفَفْ عَنْكُمْ يَدِي وَلِسَانِي ، وَلَا تَطْهَرُ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيَّةً بَخْلَافٍ ^(١) مَا عَلَيْهِ عَامَّتْكُمْ
إِلَّا ضَرَبْتُ عُقُقَهُ ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ ^(٢) ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرًا أَذْنِي ^(٣)
وَتَحْتِ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ
عَنْ إِسَاءَتِهِ ، إِي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السُّلَّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ
أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ ^(٤) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ،
وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرُبُّ مُبْتَلِئٍ سَيُؤْتِيهِ ، وَمَسْرُورٍ بِقَدُومِنَا سَيَبْتَلِسُ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَادَةٌ ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي
أَعْطَانَا ، وَنَدُّودُكُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا ^(٥) ، فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ،
وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا
قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصُرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِّبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ وَلَوْ أَنَّنِي طَارِقًا
بَلِيلًا ، وَلَا حَابِسًا عَطَاءً وَلَا رِزْقًا عَنْ إِبَانِهِ ^(٦) ، وَلَا مُجْمَرًا ^(٧) لَكُمْ بَعْمًا ، فَادْعُوا اللَّهَ
بِالصَّلَاحِ لِأَعْمَتِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمْ الْمُؤَدَّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهْفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى
يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضَبِهِمْ ، فَيَشْتَدُّ لَذَلِكَ غَيْظُكُمْ ، وَيَطُولَ لَهُ
حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُذْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا
لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمِينَ كَلَّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفِذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى

(١) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . (٢) جمع إحنة : وهى الحقد والضغينة .

(٣) أى خلف أذى ، وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك . (٤) أى يجاهرني بالعداوة .

(٥) ملكنا . والقيء : ما كان شمساً فينسخه الظل ، والخراج ، أى نذفع عنكم بظل الله ونعمته التي

وهيئنا ، أو نذفع عنكم بما صار في أيدينا من أموال الخراج . (٦) وقته وموعده . (٧) جمر الجند :

حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم .

أذلاله^(١) ، وإيمُ الله إن لي فيكم لصرْفِي كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرَعَايَ .

فقام إليه عبد الله بن الأهم فقال : « أشهدُ أيها الأمير لقد أوتيتَ الحكمةَ وفضلَ الخطابِ » ، فقال له : « كذبتَ ذلكَ نبيُّ الله داودَ صلوات الله عليه » ، فقام الأحنف ابن قيس ، فقال : « إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُثنيَ حتى نَبْتليَ » فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مرْداس^(٢) ابن أديّة وهو يهْمِس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وأنت تزعْم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى والمقبل بالمُدبر ، فسمعهما زياد ، فقال : « إنا لا نبلاغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
٤ م : ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وذيل الأمالي ١٨٨)

٢٦٠ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المشيرة بن شعبة أمير الكوفة سنة ٥٥ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ له الكوفة والبصرة^(٣) ، فاستخلفَ كلَّ البصرة ، وشخصَ إلى الكوفة فأتاها ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا الأمر أتاني وأنا بالبصرة ، فأردت أن أشخصَ إليكم في ألفين من مُشرطة

(١) أي وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق : محبته ، وأمور الله جارية على أذلالها أي مجاريها .

(٢) وهو من رؤساء الخوارج . (٣) وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

البصرة ، ثم ذكرتُ أنكم أهل حق ، وأن حقَّكم طالما دَفَعَ الباطل ، فأنتيتكم في أهل بيتي ، فالحمد لله الذي رَفَعَ مني ما وضع الناس ، وحَفِظَ مني ما ضيَعُوا ، حتى فرغ من الخطبة^(١) .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٢١)

٢٦١ - خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضا قال :

« فَجِئِمَتِ الكوفة والبصرة لزيد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ثم صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جَرَّبْنَا وجرَّبْنَا ، وسُنَّنا وسَأَسْنَا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلحُ آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة ميرثها بعلانيتها ، وغيب أهلها بشاهدم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لا يُصَلِّحهم إلا ابنٌ في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبرُ من كذبة إمامٍ على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرَّظهم ، وذكر قتلته ولعنهم . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٢ - خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زيد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرِيث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْر بن عديٍّ يجتمع إليه شيعة عليّ ، ويظهرون له من معاوية والبراءة منه ، وأنهم

(١) قال الطبري : فحصب على المنبر ، (أى رى بالحصباء وهى الحصى) فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقوان لأدرى من جليسي ، ثم أمر بكرسى فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يخلفون بالله مامنا من حصبك ، فن حلف خلاه ، ومن لم يخلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان .

حَصَبُوا عمرو بن الحريث ، فَشَخَّصَ إِلَى الكوفة ، حتى دخلها ، فَأَتَى القصر ، ثم خرج فصعد المنبر ، وعليه قباه سُندُس ، ومُطْرَف خَزْرٌ أخضر ، قد فَرَّقَ شعره ، وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنَّ غَيْبَ البنى والنبيِّ وَخَيْمٍ ، إِنَّ هَوْلَاءَ جَمَّوْا^(١) فَأَثِرُوا ، وَأَمِنُونِي فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وإيمُ الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ، وقال : ما أنا بشيء إن لم أمنع بآحة^(٢) الكوفة من حُجْر ، وأدعه نكالا لِمَنْ بعهده ، وَيَلُ أُمَّكَ يا حجر ، سَقَطَ العشاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ^(٣) . » (تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٦٣ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجمته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه . » (البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ : شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٧٤)

٢٦٤ - خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس : لا يمتكم سواه ما تعلمون منا أن تنفعوا بأحسن ما تسمعون منا ، فإن الشاعر يقول :

(١) من جم الماء جموما : كثير واجتمع . (٢) الباحة : الساحة . (٣) هو مثل : وأصله أن رجلا خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله . يضرب في طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى التلف .

اعمل بقولى وإن قصرتُ فى عملى ينفعك قولى ولا يضرُك تقصيرى

٢٦٥ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُبيد أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان وصية زيادٍ بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبُّر معانيها وهى :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا ، عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين مُحسنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسيءٍ بخذلان الله إياه ، والله النعمةُ على المحسن ، والحجةُ على المسيء ، فما أولى من نمت عليه النعمةُ فى نفسه ورأى العبرة فى غيره بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعا الله ، فيعطى ما عليه منها ، ولا يتكثُر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزةُ ، قبل أن تصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقديرون على توبة ، وليس لكم منها أوبة ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم . »

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادٌ أحق به منه .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٦ - ما كان يقوله لمن ولاه عملا

وكان زياد إذا ولى رجلا عملا قال له :

« خذ عهدك ، وسِرِّ إلى عملك ، واعلم أنك مصروفٌ رأس سَنَتِكَ ، وأنتك تصير إلى أربع خِلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتُك من معرتنا أمانتُك ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرَكَ

وَتَقَلْنَا غُرْمَكَ ، وَإِنْ جَمَعْتَ عَلَيْنَا الْجُرْمِينَ ، جَمَعْنَا عَلَيْكَ الْمَضْرَبَيْنِ ، وَإِنْ وَجَدْنَاكَ أَمِينًا قَوِيًّا ، زِدْنَا فِي عَمَلِكَ ، وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ ، وَكَثَرْنَا مَالَكَ ، وَأَوْطَأْنَا عَيْبِكَ .

(الأمال : ٢ : ٨٢)

٢٦٧ — خطبة الضحّاك بن قيس الفهري بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحّاك بن قيس الفهري على منبر الكوفة - وقد كان بلغه أن قومًا من أهلها يشتمون عثمان ويبرءون منه ، فقال :

« بلغني أنّ رجالًا منكم ضلّالًا يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ، أمّا والذي ليس له نِدٌّ ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعن فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدوني ضعيف السّورة^(٢) ، ولا كليل الشفرة^(٣) ، أمّا إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم^(٤) : فكنت أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثعلبية

(١) ولاء معاوية الكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بإيمه أهل دمشق على أن يصل بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ، ويمتعه من إظهار ذلك أن بني أمية كانوا بحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحّاك وقتل منتصف ذي الحجة سنة ٦٤ هـ .
(٢) سورة السلطان : سطوته واعتدائه . (٣) الشفرة : حد السيف ، وكليل : فير قاطع .
(٤) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دعاه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلا فأغر عليها ، فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحّاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومر بالثعلبية فأغار على مسالح على وأخذ أمتهم ، ومضى حتى انتهى إلى الققطانة ، فأق عمرو ابن عيسى بن مسعود - وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود - وكان في خيل لعل ، وأمامه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ناسا من أصحابه ، فلما بلغ ذلك عليا سرح حجر بن عدى الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل مغذا في أثر الضحّاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقه ، فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحّاك تسعة عشر رجلا ، وقتل من أصحاب حجر رجلا ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحّاك وأصحابه . فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثرا - شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ - .

ومن شاطئ الفرات ، أعاقب من شئت ، وأعفو نعمن شئت ، لقد ذعرت المخدرات
في خدورهن ، وإن كانت المرأة ليبيكي ابنها فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمي ،
فاتقوا الله يا أهل العراق ، أنا الضحاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو
ابن عميس .

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعرفنا
والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بغيري تدمر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً ^(١) ! »
ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أول ما قدم ؟ وإيم الله لأذكرته أبغض
مواطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خزي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان
ذلك اليوم بأخرة ^(٢) - بكلام ثقيل - ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٨ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحب
شروطه - حتى صعد المنبر ، وأكفان معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمود العرب ، وحدث العرب ، قطع الله عز وجل به الفتنة ،
وملكه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألا إنه قدم مات ، فهذه أكفانه ، فنحن
مُدْرِجوه فيها ومُدْخِلوه قبره ، ومُحَلُّون بينه وبين عمله ، ثم هو في البرزخ ^(٣) إلى
يوم القيامة ، فن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى ^(٤) . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

(١) هذا المقول تهكم به كما ترى . (٢) يقال : جاء أخرة وبأخرة بالتحريك : أي آخر كل شيء .

(٣) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) وفي العقد « فن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

٢٦٩ — خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

« يا أهل الكوفة : إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضبيع والثعلب ، أتيا الضبَّ في جُحره ، فقالا : أبا الحِسل^(٢) . قال : أجبتكما . قالا : جئناك نختم . قال : في بيته يؤتى الحكم . قالت الضبيع : فتحت عيني . قال : ففعل النساء فعلت . قالت : فلططتُ تمرًا . قال : حلوا اجتنبت . قالت : فاخطفها ثُمالة^(٣) . قال : لنفسه بغي الخير . قالت : فلطمته لطمًا . قال : حقًا قضيت . قالت : فلطمني أخرى . قال : كان حرًا فانتصر . قالت : فاقض الآن بيننا . قال : حدِّث حديثين امرأة ، فإن لم تفهم فأربعة^(٤) . » (العقد الفريد ١ : ٢٦٩ — ٢ : ١٥٨ ، ومجمع الأمثال للميداني ٢ : ١٣)

(١) ولي الكوفة وحص معاوية ويزيد ، وكان هواه متهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلى بيعة عبدالله بن الزبير بالشام ، وكان أول من خانف من أمراء الأجناد — وكان واليا على حص — وانضم إلى الضحاك بن قيس الفهري ، أمده بجيش من أهل حص عليه شرحبيل بن ذي الكلاع ونشبت الحرب بين الضحاك وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل كما قدمنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج عن حص هاربا ليلا ومعه امرأته وولده وثقله ، فسار ليلته جماء متحيرا لا يدري أين يأخذ ، فانبه خالد بن عدى الكلاعي فيمن خف معه من أهل حص ، فلحقه وقتله ويعث برأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ . (٢) أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفي مجمع الأمثال أن المتخاصمين : الأرنب والثعلب . (٣) ثُمالة : امم الثعلب الذكر والأنثى . (٤) وقد ذهبت أقوال الضب كلها أمثالا . قال الميداني في شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أي زد » وأراد بالحدِيثين حديثا واحدا تكرر مرتين ، فكأنك حدثتها بحديثين . والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة ، وقال أبو سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة فالمربعة (والمربعة ككنسة : العصا) وروى ، فإربع « أمر من ربع كفتح » أي كف ، تضرب في سوء السمع والإجابة .

٢٧٠ - خطبة عميد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عُبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدَّى منه بخَلوة ، لِيَسْبُرَ من رأيه ما كَرِهَ أَنْ يُشْرِكَ في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع الطُّلاب ، واشتغال الخاصَّة ، وافتراق العامَّة ، وهو يوم معاوية الذي كان يَخْلُو فيه بنفسه ، ففطن معاوية لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مَرْوان بن الحكم وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فلما أخذوا مجالسهم أذن له ، فسلم ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم . ثم قال :

« صَرِيحُ الْعُقُوقِ مُكَاتَمَةُ الْأَدْتِنِينَ ، لِأَخِيرِ فِي اخْتِصَاصٍ وَإِنْ وَفَرَ ، أَحَدُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى الْإِلْأَاءِ ^(٢) ، وَأَسْتَهْدِيهِ مِنْ عَمِّي مُجْهِدٍ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ ^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُنْقِذُ بِالْأَمِينِ الصَّادِقِ مِنْ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ ^(٤) ، وَمَنْ بَدَّ غَارٍ ^(٥) ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الزَّكِيِّ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ الْهَدْيِ ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَا ظَنُّ قَرَعٍ ^(٦) ، وَقَدَّعَ ^(٧) صَدَّعَ ، حَتَّى طَمَسَ السَّحِيقَ ^(٨) ، وَبَيْسَ الرَّفِيقَ ، وَدَبَّ الْوُشَاةَ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكَلَّمَهُمْ مُسْتَحْقِرٍ ^(٩) »

(١) النعم . (٢) الشدة . (٣) أرصدت له : أعددت .

(٤) الشفا : حرف كل شيء ، والجرف كعنتى وقفل : ما تجرفته السيول وأكلته من الأرض ، وهار الجرف : انصدع ولم يسقط فهو هار كقناص ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور .

(٥) اليد : التعب ، والغاري : الملازم الشامل ، من غرا السمن قلبه لئق به وغطاه .

(٦) فرع بين القوم وفرق بمعنى واحد : أى أن هذا الظن فرق بيننا وبينك فجافيتنا .

(٧) هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن قلع وهى التى تناسب المقام . قذعه قذعا (بالسكون)

رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه ، والقذع محرقة : الخنا والفحش والقدح ، وصدع : شقق وفرق : أى أن مارمانا

به الوشاة لديك من سوء القول فرق بيننا وبينك . (٨) البعيد . (٩) فى الأصل هكذا بمعنى محتقر ،

أى محتقر لنا لمعاداته إيانا ، وأنه لايبالى بمعادتنا لما نابنا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « محتقرا للعداوة »

أى متوثب مستوفز أو « مسحقرا للعداوة » من اسحققر : إذا مضى مصرعا .

للعداوة ، وقد قاصَّ الآزرَةَ (١) ، وشمَّرَ عن عِطَافِهِ (٢) ليقول : مَضَى زِيَادٌ بِمَا اسْتَلْحِقَ
 بِهِ ، وَدَلَّ عَلَى الْأُنَاةِ (٣) مِنْ مُسْتَلْحِقِهِ ، فَلَبِثَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَلِمَ فِي دَعَتِهِ (٤) ، وَأَسْلَمَ (٥)
 زِيَادًا فِي ضَيْعَتِهِ ، فَكَانَ تَرْبٌ (٦) عَامَّةً ، وَأَحَدَ رَعِيَّتِهِ ، فَلَا تَشْخَصُ (٧) إِلَيْهِ عَيْنُ نَاطِرٍ ،
 وَلَا لِإِصْبَعٍ مُشِيرٍ ، وَلَا تَنْدَاقٍ (٨) عَلَيْهِ السُّنُّ كَلِمَتَهُ حَيًّا ، وَنَبَشَتَهُ مَيْتًا ؛ فَإِنْ تَسَكَّنَ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَابِيَتَ زِيَادًا بِأَوَّلِ رُفَاتٍ ، وَدَعَا عَوَةَ أَمْوَاتٍ ، فَقَدْ حَابَاكَ زِيَادٌ بِجِدِّ هَاصُورٍ ،
 وَعَزَمَ جَسُورٍ ، حَتَّى لَانَتْ شِكَاؤُ الشَّرِيسِ ، وَذَلَّتْ صَعْبَةُ الْأَشُوسِ (٩) ، وَبَدَّلَ لَكَ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تَأْخُذُ بِهِمَا الْمَيْعُ ، وَتَهْتَهُرُ بِهِمَا الْبَدِيعُ ، حَتَّى مَضَى وَاللَّهِ
 يَغْفِرُ لَهُ ، فَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ بِحَقِّ أَنْزَلِهِ مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فَإِنْ لَنَا بَعْدَهُ مَا كَانَ لَهُ ، بِدَالَةِ
 الرَّحِمِ ، وَقِرَابَةِ الْحَلِيمِ ، فَمَا لَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَمَشِي الضَّرَاءَ (١٠) ، وَنُسْتَفُّ النُّصَارَ (١١) ؟
 وَلَاكَ مِنْ خَيْرِنَا أَكْلُهُ ، وَعَلَيْكَ مِنْ حُوبِنَا (١٢) أَنْقَلُهُ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقَوْمُ ، وَمَا سَاءَ فِي قُرْبِهِمْ
 لِيُقْرَءُوا حَقًّا ، وَبَرْدًا وَبَاطِلًا ، فَإِنْ لَلْحَقِّ مَنَارًا وَاضِحًا . وَسَبِيلًا قَصْدًا (١٣) . فَقُلْ يَا أَمِيرَ

- (١) الآزرَة والأزر بضمين : جمع إزار ، وهو الملحف . (٢) العطاف : الرداء ، وجمعه عطف
 بضمين ، وأعطفه ، وكذا المعطف بالكسر ، وهو مثل إزار ، ومئزر ، ولحاف ، وملحف .
 (٣) في الأصل « الأنية » وأراه محرفا عن « الأناة » وهي الحلم . (٤) الدعة : الخفض .
 (٥) أسلمه : خذله ، أى فليته ترك زيادا ضائع النسب مغفورا ولم يستلحقه .
 (٦) الترب : من ولد مملك : أى فكان تربا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تربا لك فلا يقدر له قدر .
 (٧) أى فلا ترتفع . (٨) اندلق السيل : اندفع ، والسيف انسل بلا سل ، أو شق جفنه فخرج منه ،
 وكلمته : جرحته وآذته . (٩) وصف من الشوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تعظيما .
 (١٠) الضراء : الشجر الملتف في الوادى ، يقال توأرى الصيد منه فى ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا
 مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . (١١) اشتف ما فى الإناء : شربه كله ، والنصار : الذهب
 أو الفضة ، والمراد : نمنع منه ، ولا نمك من أخذه ، أى يحال بيننا وبين الولاية .
 (١٢) الحوب بضم الحاء وفتحها : الإنم ، أى عليك من آثامنا التى ارتكبتها فى سبيل تأييد
 سلطانك أنقلها . وفى بعض النسخ : « من جوابنا » أى من جوابنا حين يسألنا المولى عما أتينا من أخذ الناس
 بالمسء والإرهاق لتمكين ملكك (١٣) القصد : استقامة الطريق .

المؤمنين بأى أمر يك شئت ، فما نأزر^(١) إلى غير جُحرِنَا ، ولا نستكثر بغير حَقَّنَا ،
وأستغفر الله لى ولكم .

٢٧١ - ردّ معاوية على ابن زياد

فنظر معاوية فى وجوه القوم كالمتعجب ، فتصنفهم بِلَحْظِهِ رجلا رجلا وهو مبتسم ،
ثم اتجه تِلْقَاءَهُ ، وعقد حُبُوتَهُ^(٢) ، وحَمَرَ عن يده ، وجعل يُوحىُ بها ، ثم قال معاوية :
« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكلُّ خير منه . وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكل
شئ خاضعٌ له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، دَلَّ على نفسه بما بَانَ عن عجزِ الخلق أن
يأتوا بمثله ؛ فهو خاتمُ النبيين ، ومُصَدِّقُ المرسلين ، وحجَّةُ رب العالمين ، صلوات الله
عليه وبركاته ؛ أما بعد : فربُّ خيرٍ مستور ، وشرٌّ مذكور ، وما هو إلا السَّهمُ الأخببُ
لمن طار به ، والحظُّ المرغِبُ لمن فاز به ، فيهما التفاضلُ وفيهما التغبانُ ، وقد صَفَقَتْ^(٣)
يداي فى أبيك صَفَقَةً ذى الخَلَّةِ من رِواضِ الفُضْلانِ ، عامِلَ اصطناعى^(٤) له بالكُفْرِ
لِمَا أوليته ، فأرमितُ به إلا اتصل^(٥) ، ولا انتضيتهُ^(٦) إلا غُلِقَ جَفْنُهُ ، ولزَّتْ^(٧)
لَسَعَتُهُ ، ولا قُلْتُ إلا عانَدَ ، ولا قُتُّ إلا قعد ، حتى اختَرَمَهُ^(٨) الموت ، وقد أوقع
مِخْتَرَهُ^(٩) ، ودَلَّ على حِقْدِهِ ، وقد كنت رأيتُ فى أبيك رأياً حَصَرَهُ الخَطَلُ ، والتبس
به الزَّلَلُ ، فأخذ منى بحِظِّ القُفلةِ ، وما أبرئى نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ،

(١) من أرزت الحية : أى لاذت بجحرها ورجعت إليه . (٢) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع
بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة ، وحمر : كشف . (٣) صفق له بالبيع ،
وصفق يده ، وعلى يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . والفصلان جمع فصيل :
وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه ، والخلة : الحاجة . (٤) اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه إياه .
(٥) انتصل السهم : سقط نصله . (٦) انتضى السيف : استله ، والجفن : غمد السيف .
(٧) لزت : طمنه . (٨) اختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وأوقع به : أهلكه .
(٩) مختره : طمنه . (٨) أهلكه .

فما بَرِحَتْ هَمَاتٌ^(١) أَيْبِكَ تَحْطَبُ فِي حَيْلِ الْقَطِيعَةِ ، حَتَّى انْتَكَشَ^(٢) الْمُبْرَمَ ، وَأَنْحَلَ^(٣) عَقْدَ الْوَدَادِ ، فَيَا لَهَا تَوْبَةٌ تُوْتَنَفُ^(٤) مِنْ حَوْبَةِ أَوْرَثَتْ نَدْمًا ، أَسْمَعَ بِهَا الْمَاهِتِفُ ، وَشَاعَتْ لِلشَّامِتِ ، فَلْيَهْنَأْ^(٥) الْوَائِثِمَ مَا بِهِ احْتَقَرَ ، وَأَرَاكَ تَمَحَّدَ مِنْ أَيْبِكَ جِدًّا وَجُسُورًا^(٦) هُمًّا أَوْفِيًّا بِهِ عَلَى شَرَفِ الْيَقْحَمِ^(٧) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةَ ، فَذَعَمَهُمَا فَقَدْ أَذْكَرْتَنَا مِنْهُ مَا زَهَدْنَا فِيكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِهِمَا مَشِيَتَ الضَّرَاءُ ، وَاشْتَفَفَتِ النَّضَارُ ، فَادْهَبْ ، إِلَيْكَ ، فَأَنْتَ نَجْلُ الدَّغَلِ^(٨) ، وَنَثْرُ النَّقْلِ^(٩) ، وَالْأَجْرُ شَرٌّ^(١٠) .

٢٧٢ — مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يا أمير المؤمنين إن للشاهد غيرَ حكم الغائب ، وقد حضرَكَ زياد ، وله مواطنٌ معدودةٌ بخير ، لا يُفْسِدُهَا التَّظَنُّ^(١) ، ولا تَغْيِرُهَا التُّهْمُ ، وأهلوه أهلوك التحقوا بك ، وتوسَّطُوا شَأْنَكَ ، فَسَافَرْتَ بِهِ الرُّكْبَانُ ، وَسَمِعْتَ بِهِ أَهْلَ الْبُلْدَانِ ، حَتَّى اعْتَقَدَهُ الْجَاهِلُ ، وَشَكَ فِيهِ الْعَالِمُ ، فَلَا تَتَحَجَّرَ^(٢) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدْ اتَّسَعَ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . »

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هذا وَفَدَّ^(٣) نفسه ببيعته ، وطعن في إمرته ، يعلم ذلك كما أعلمه ، يا لَرَجَالٍ مِنْ آلِ أَبِي سَفِيَانَ ! لَقَدْ حَكَمُوا وَبَدَّ^(٤)مُ يَزِيدُ وَحَدَّهُ ،

(١) أعماله وسيئاته جمع هنة . (٢) انحل وانتقض . (٣) توتنف : تستأنف ، والحوية : الإثم والذنب . (٤) من هتأء الطعام : أى ساغ ولذ ، والوائثم فاعل من الوشم ، وشم يده : إذا غرزاها بإبرة ثم ذر عليها النياج ، والمراد به هنا المعادى - والوشيمة : العداوة - أى فهيننا لأعدائه الذين حقروه ونالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قبل « ولا تندلق عليه السن كلمته حيا ، ونبشته ميتا » . (٥) الجسور : الجسارة . (٦) تقحمت به دابته : نذت به وربما طوحت به فى وهدة أو وقصت به ، والقحمة كفرقة : الورطة والمهلكة ، والمراد التعرض للهلاك . (٧) اللخل والفساد . (٨) نغل الأديم نفلا : فسد فى الدباغ ، والجرح فسد . (٩) التظنى : إعمال الظن ، وأصله التظنن . (١٠) أى فلا تضيق . تحجر عليه : ضيق ، وتحجر ماوسعه الله : حرمه وضيقه ، وفى الحديث : « ائمتد تحجرت واسما » أى ضيقت ماوسعه الله ، وفى الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . (١١) فى الأصل « وفد » ولعله وفد ، يقال وفده ، أى غلبه وسكنه . (١٢) فاقهم .

ثم نظر إلى عبيد الله ، فقال : يا بن أخى ، إني لأعرفُ بك من أبيك ، وكأنى بك في غزوة لا يخطؤها^(١) السامح ، فالزم ابن عمك ، فإن لِمَا قال حقاً ، فخرجوا ولزم عبيد الله يزيدَ يَرِدُ مجلسه ، وَيَطَأُ عَقْبَهُ أياماً ، حتى رَمَى به معاوية إلى البصرة والياً عليها^(٢) .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

٢٧٣ - وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته^(٣)

روى الطَّبْرِيُّ قال :

لما كان المَهْلَبُ بن أبي صُفْرَةَ بَزَاغُولَ من رَوَّ الرُّوْذِ (من خُرَّاسَانِ) أصابته الشَّوْصَةُ^(٤) (وقوم يقولون الشُّوكَةُ^(٥)) فدعا حَبِيبِيًّا ومن حضره من ولده ، ودعا بِسَهْمٍ فَحَزِمَتْ ، وقال : أترَوْنكم كاسِرِيهَا مجتمعةً ؟ قالوا : لا . قال : أترَوْنكم كاسِرِيهَا متفرقةً ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وِصْلَةَ الرَّحِمِ ، فإن صلة الرحم تُنْسِي^(٦) في الأجل ، وتُثْرِي المال ، وتُكْثِرُ العَدَدَ ، وأنها كم عن القطيمة ، فإن القطيمة تُعْقِبُ النارَ ، وتُورِثُ الذَّلَّةَ والْقِلَّةَ ، تَبَادَلُوا وَتَوَاصَلُوا تَحَابُّوا ، وأجمعوا أمرَكم ولا تختلفوا ، وتَبَارَكُوا تجتمع أموركم ، إن بَنِي الأُمِّ يختلفون ، فكيف بِنِي العَلَاتِ^(٧) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فيكم أفضل من قولكم ، فإنى أحب الرجل أن يكون لعمَلِهِ فضلٌ على لسانه ، وأنفقوا الجواب ، وزَلَّةُ اللسان ، فإن الرجل تَزَلُّ قدمه فينتمش من زَلَّتْهُ ، ويزل لسانه فيمَلِكُ ، اغرِفوا لمن يَغشَاكم حَقَّهُ ، فكفى بِمُؤَدُّو

(١) في الأصل « لا يخطؤها » وأراه « لا يخطوها » . (٢) قال الطبري : « ولي معاوية عبيدالله ابن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » . (٣) سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الخوارج وما يتصل بها » وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلدان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاه بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها والياً عليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل والياً عليها حتى أدركته الوفاة هناك .
(٤) الشوصة بالفتح وقد تضم أنشين : وجع في البطن . (٥) الشوكة : حمرة تملو الجسد .
(٦) تؤخر وتطيل . (٧) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

الرجل ورَاحِهِ إِلَيْكُمْ تَذَكِّرَةٌ لَهُ ، وآثَرُوا الْجُودَ عَلَى الْبُخْلِ ، وَأَحْبَبُوا الْعَرَبَ ، وَاصْطَنَعُوا الْعَرَبَ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْعَرَبِ تَعِدُّهُ الْعِدَّةَ فَيَمُوتُ دُونَكَ ، فَكَيْفَ الصَّنِيعَةُ عِنْدَهُ ؟ وَعَلَيْكُمْ فِي الْحَرْبِ بِالْأَنَاةِ وَالْمَكِيدَةِ ، فَإِنَّهَا أَنْفَعُ فِي الْحَرْبِ مِنَ الشَّجَاعَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْإِقْتَاءُ نَزَلَ الْقَضَاءُ ، فَإِنَّ أَخْذَ رَجُلٍ بِالْحَزْمِ فَظَهَرَ عَلَى عَدُوِّهِ ، قِيلَ : أَتَى الْأَمْرَ مِنْ وَجْهِهِ ، ثُمَّ ظَفَرَ فَحُمِدَ ، وَإِنْ لَمْ يَظْفَرْ بَعْدَ الْأَنَاةِ ، قِيلَ : مَا فَرَّطَ وَلَا ضَمَّعَ ، وَلَكِنَّ الْقَضَاءُ غَالِبٌ ، وَعَلَيْكُمْ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَتَعَلِيمِ السُّنَنِ وَأَدَبِ الصَّالِحِينَ . وَإِيَّاكُمْ وَالْخِيفَةَ وَكَثْرَةَ الْكَلَامِ فِي مَجَالِسِكُمْ ، وَقَدْ اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ يَزِيدَ ، وَجَعَلْتُ حَبِيبًا عَلَى الْجَنْدِ ، حَتَّى يَقْدَمَ بِهِمْ عَلَى يَزِيدَ ، فَلَا تَخَالَفُوا يَزِيدَ » فَقَالَ لَهُ الْمَفْضَلُ : لَوْ لَمْ تُقَدِّمَهُ لَقَدَّمْنَا .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٨)

* * *

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يَا بُنَيَّ ، اسْتَعْقِلِ الْحَاجِبَ ، وَاسْتَظْهِرِ الْكَاتِبَ ، فَإِنَّ حَاجِبَ الرَّجُلِ وَجْهَهُ ، وَكَاتِبَهُ لِسَانَهُ » ، وَكَانَ يَقُولُ لِبَنِيهِ : « يَا بُنَيَّ أَحْسَنُ ثِيَابِكُمْ مَا كَانَ عَلَى غَيْرِكُمْ » . وَمِنْ كَلِمَاتِهِ الْمَأَثُورَةِ قَوْلُهُ : « الْحَيَاةُ خَيْرٌ مِنَ الْمَوْتِ ، وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَلَوْ أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ لَأَحْبَبْتُ أَنْ تَكُونَ لِي أُذُنٌ أَسْمَعُ بِهَا مَا يُقَالُ فِيَّ غَدًا إِذَا مِتُّ » ، وَقَوْلُهُ : « عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي الْعَبِيدَ بِمَالِهِ وَلَا يَشْتَرِي الْأَخْرَارَ بِإِفْضَالِهِ » .

(وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العيون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٤ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قَتَلَ الحجاجُ عبد الله بن الزبير، ارتجَّت مكة بالبكاء، فصعد المنبر، فقال:

«ألا إن ابن الزبير كان من أخبار^(١) هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلق طاعة الله، واستمكن بحرم الله، ولو كان شياً مانعاً للأصاة، لمنع آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجته منها بنخيطيته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة».

(سرح العيون ص ١٢٢ وتاريخ ابن صاكر ٤ : ٥٠)

٢٧٥ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلماً، فخط الأمام عنه ثم قال:

«مَوْجُ ليلِ التطم، وانجلي بضوءِ صُبْحِهِ، ياهل الحجاز، كيف رأيتموني؟ ألم أكشف ظلمةَ الجوز، وطخية^(٢) الباطل بنور الحق؟ والله لقد وطئكم الحجاج وطاة مُشْفِق، وعطفة رَحِم، ووصل قرابة، فإياكم أن تزلوا عن سَنَنِ أقتناكم عليه،

(١) جمع حبر: يفتح الحاء وكسرهما، وهو العالم أو الصالح. (٢) الطخية: الظلمة، ويثلاث.

فأقطع عنكم ما وصلته لكم ، بالصارمِ البتار ، وأقيم من أودكم ما يقيم المنقفُ
من أود^(١) القنّاءِ بالنار « ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عصّت به الحربُ عضّها وإن شمرت عن ساقها الحربُ شمرّا
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

٢٧٦ - خطبته حين ولي العراق^(٢) (سنة ٧٥ هـ)

حدثت عبد الملك بن عمير اللبثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ،
يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آت ، فقال : هذا الحجاج
قد قدّم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِراً بِعِمَامَةٍ قد غطّى بها أكثر وجهه
مقلداً سيفاً ، متنكباً^(٣) قوساً ، يؤم المذبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فكث
ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا
على العراق ! حتى قال عمير بن ضار بن البرجمي : ألا أحضبه لكم ؟ فقالوا : أمنل حتى
ننظر^(٤) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ اللثام عن فيه ، ونهض ، فقال :

« أنا ابنُ جَلالٍ وطلّاعُ الثنايا متى أضع العِمَامَةَ تعرفوني^(٥) »

(٢) مقوم الرماح ، والأود : الاعوجاج .

(٣) ويرى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكباً على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجاءه
حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : على بالناس ، فحسبوه وأحسبوه خوارج فهموا به .
(٤) تنكب قوسه : ألقاهاعل منكبه . (٥) قال ابن نباتة « فلما سمعوا هذه الخطبة - وكان بعضهم

قد أخذ حصى أراد أن يمحسه به - تساقط من أيديهم حزناً وربعاً » . (٥) البيت لسحيم بن وثيل
الرياحي ، قاله الحجاج متمثلاً ، وقوله « أنا ابن جلال » أي الواضح الأمر المنكشفه ؛ وقيل ابن جلال الصبيح ،
لأنه يجلو الظلمة . وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم ، أي أنا الظاهر الذي لا يخفى وكل أحد يعرفني ، ولم ينون جلالاً
لأنه أراد الفعل ، فحكي على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللّهِ مَا زِدُّ بِنَامَ صَاحِبُهُ وَلَا مُحَاطِ اللَّيَانِ جَانِبُهُ

وتقديره أنا ابن الذي يقال له جلال الأمور وكشفها . وقال بعضهم : ابن جلال - وابن أجل - رجل =

ثم قال: يَأْهَلُ السَّكُوفَةَ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَجْمَلُ الشَّرِّ بِجَمَلِهِ، وَأَحْذُوهُ بِنَعْلِهِ، وَأَجْزِيهِ بِمِثْلِهِ، وَإِنِّي لَأَرَى أَبْصَارًا طَامِحَةً، وَأَعْنَاقًا مَطَاوِلَةً، وَرِءُوسًا قَدْ أَيْنَمَتَتْ وَحَانَ قَطَافُهَا، وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الصَّمَامِ وَاللَّحَى تَتَرَقَّرُ، ثُمَّ قَالَ:

هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ
لَيْسَ بِرَاعِي لِإِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهَرٍ وَضَمٍ^(١)
ثُمَّ قَالَ: قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِمَعْصَلِيَّ أَرْوَعَ خَرَجٍ مِنَ الدَّوَى
مَهْأَجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيَّ^(٢)

ثم قال: قد شمّرت عن ساقها فشُدُّوا وَجَدَّتِ الحَرْبُ بِكُمْ فِجْدُوا
وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّ عُرْدُ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ^(٣)

= بعينه، قال في اللسان: « وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع في الغارات من ثنية الجبل على أهلها » والثنايا جمع ثنية: وهي الطريق في الجبل، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا في ارتفاعها وصعوبتها، والعمامة: المغفر والبيضة قال ثعلب: العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم. (١) الشعر لرويشد بن رميض العنبري والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطم، والحطمة: الراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض، فلا يبقى من السير شيئا، وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحق قتيلا: « أحق من راعي ضأن ثمانين » قال الجاحظ في البيان والتبيين ١: ١٣٩ « فأما استحماق رعاة الغنم في الجملة فكيف يكون ذلك صوابا؟ وقد رعى الغنم عدة من جملة الأنبياء عليهم السلام » والوضم: كل ما قطع عليه اللحم.

(٢) المعصلي: الشديد القوى، والأروع: الذكي، أو من يعجبك بشجاعته، والدو والدوية والدواوية ويخفف: الفلاة المتسعة التي تسمع لها دويا بالليل « وإنما ذلك الدوى: من أخفاف الإبل، تنفسح أصواتها فيها، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيف الجن » أي خراج من كل غمام شديدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأعرابي بطبيعته غر ساذج ليس في تجرئته كأهل المدن.

وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة:

« إني لست أتأويا أعلم، ولا بدويا أفهم ».

(٣) جد به الأمر: اشتد، وعرد: أي شديد، والبكر: الفقى من الإبل، ولا بد من كذا: أي لا يحيد عنه.

إني والله بأهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، مَا يُقْفَعُ
 لِي بِالشَّنَانِ ^(١) ، وَلَا يُعْمَزُ جَانِبِي كَتَمَازِ التَّيْنِ ، وَلَقَدْ فُرِرْتُ ^(٢) عَنْ ذِكَاةٍ ، وَقَفَّسْتُ
 عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرَيْتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقُضْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - نَثَرَ
 كِفَانَتَهُ ^(٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَمَجَّجَمٌ ^(٤) عِيدَانِهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرًا عُدُودًا ، وَأَصْلَبَهَا مَكْسِرًا ^(٥)
 فَمَا كَمِ بِي ، لِأَنْكُم طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ ^(٦) فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ
 سُنَنَ الْغَيِّ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَلْحُوَنَّكُمْ ^(٧) أَحْوَجَ الْعَصَا ، وَلَا تُقْرَعُكُمْ قَرْعَ الْمَرْوَةِ ^(٨) ،
 وَلَا عُصْبَتِكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ ^(٩) ، وَلَا تُضْرِبُكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لِكَأْهِلِ
 قَرْيَةٍ كَانَتْ أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَّرَتْ
 بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ
 لَا أَعِدُّ إِلَّا وَقِيَتَ ، وَلَا أُمْمَ إِلَّا أَمْضِيَتْ ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا قَرِيْتُ ^(١١) ، فَإِيَايَ وَهَذِهِ
 الشُّفَعَاءُ ، وَالزَّرَافَاتِ ^(١٢) وَالْجَمَاعَاتِ ، وَقَالَ وَقِيلًا ^(١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟

- (١) القمقمة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع : مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله . (٢) فر الدابة : نتج حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه . (٣) الكنانة : جمعة السهام . وفي رواية : « كب كنانته » أي قلبها . (٤) عجم العود : عضة يعرف صلابته من خوره . (٥) وفي رواية « وأصلها عمودا » . (٦) أوضع أيضا : أسرع في سيره كوضع . (٧) لحا العصا : قنر ، وفي رواية : « لحو العود » . (٨) المرو : حجارة بيض براقه تورى النار . (٩) السلمة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ في البيان والتبيين « لأن الأشجار تمصب أقصانها ، ثم تحيط بالعصى اسقوط الورق وهشيم العيدان » (٣ : ٢١) . (١٠) قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهى تضرب عند الحرب ، وعند الخلط ، وعند الحوض أشد الضرب » وقال الحارث بن صخر :
 بضرب يزيل الهام عن سككاته كما زيد عن ماء الحياض الغرائب
 (١١) أخلق : أقدر ، وفريت : قطعت . (١٢) الشفعاء جمع شفيح ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان فيشفعون في أصحاب الجرائم ، فهاهم عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاى وضما : الجماعة من الناس . (١٣) القول في الخير ، والقال ، والقيل ، والقالة في الشر .

أما والله لَتَسْتَقِيمُنَّ على طريق الحق ، أو لَأَدْعَنَّ لكل رجل منكم شُغْلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعْطِيَاتِكُمْ^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٢) ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سَفَكَتُ دمه ، وأَهَبْتُ^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل للمبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ،
وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار ٢ م : ص ٢٤٤ ،
ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التصحيح ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ،
وسرح العيون ١١٦ ، وتاريخ ابن عساكر ٤ : ٥٣) .

٢٧٧ - خطبته وقد سمع تكبيراً في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فسَمِعَ تكبيراً في السوق ، فَرَاعَهُ ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« يا أهلَ العراق ، يا أهلَ الشقاق والنفاق ، ومساوئِ الأخلاق ، وَبَنِي اللّٰكِيْمَةِ^(٤) ،
وعبيدَ القَصَا ، وأولادَ الإماء ، والْفَقْعَ بالقرقر^(٥) ، إني سمعت تكبيراً لا يراد الله به ،
وإنما يراد به الشيطان^(٦) ، ألا إنها عَجَاجَةٌ تحتها قَصْفٌ^(٧) ، وإنما مَثَلِي ومثلكم ما قال
عمرو بن بَرِّاق الهمدانيّ :

وكنْتُ إذا قومٌ غزَوْنِي غزَوْتُهُمْ فهل أنا في ذَايَا لَهُمْدَانَ ظالمٌ !

(١) أعطيات جمع عطية ، وهي جمع عطاء . (٢) قائد الجيوش الذي حارب الخوارج الأزارقة ،
وفل شوكتهم ، وسيأتى . (٣) جعلته نهباً يغار عليه .

(٤) اللثيمة . (٥) القرقر : أرض مطمئنة ليثة ، والفقع ويكمر : البيضاء الرخوة من
الكناة ، ويقال للذليل : هو أذل من فقح بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتنأه ؛ أو لأنه يوطأ بالأرجل .

(٦) وفي رواية : « إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد الله به في الترغيب ، ولكنه التكبير
الذي يراد به الترهيب » . (٧) العجاج : الغبار ، والقصف : شدة الريح .

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حميّاً تجتنبك المظالم
أما والله لا تفرغ عصاً عصاً إلا جعلتها كأمس الدابر^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ،
وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

٢٧٨ - خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعدهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داوؤه ، فمندى دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلى أن أعجله ،
ومن ثقل عليه رأسه ، وضمتُ عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره . قصرتُ عليه باقيه ،
إن للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فن ستمت سريرته ، صحت عقوبته ، ومن وضعه
ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسمه العافية ، لم تضيقُ عنه الهلكة ، ومن سبقته بإدرةٍ فيه ،
سبق بدنه بسفكِ دمه ، إني أنذركُ ثم لا أنظر^(٢) ، وأحذركُ ثم لا أعذر ، وأنوعد
ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق^(٣) ولأنكم ، ومن استرخى لبيبه^(٤) ، ساء أدبه ، إن
الحزم والعزم سلباني سوطي^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فقامه في يدي ، ونجاده^(٦) في عنقي ،
وذبابه^(٧) قِلادة لمن عصاني ، والله لا أمرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ وشرح العيون ١٢٢)

(١) وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يربع رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر
موضع قدمه ، فأقم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقمة تكون نكالا لما قبأها ، وأدبا لما بعدها » -
يربع (كيمع) يقف وينتظر ، والظلع (كشمس) : الغمز في المشي ، ويقال : اربع على ظلمك ، أى إنك
ضعيف ، فانت عما لاتطيقه . (٢) أنظره : أهله . (٣) الترنيق : الضعف في الأمر (وفي البدن والبصريات).
(٤) اللبب : ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئثار الرجل ، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية .
(٥) هكذا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكتنا في وسطى » والأول أصح ، أى أنه رأى من
الحزم والعزم : المبالغة في استعمال الشدة والقوة في التأديب ، فطرح السوط ، واستبدل به ما هو أشد
منه وهو السيف . (٦) التجاد : علاقة السيف . (٧) ذباب السيف : حده .

٢٧٩ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والمصعب ،
والمساميع والأطراف ، والأعضاء^(٢) والشغاف^(٣) ، ثم أفضى إلى المخاخ^(٤) والأصماغ ،
ثم ارتفع فمشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشركم خلافاً ، اتخذتموه
دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، وموأمراً^(٥) تستشيرونه ، فكيف تنفعم تجربة ،
أو تمظكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو ينفصمكم بيان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز^(٦) ؟

(١) وقعة دير الجماجم: هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث . وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده فأصيبوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى رتبيل بن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحاربتة ، فسار إليه وامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، فينتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصف رأيه ويأمره بالوغول في أرضهم وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فجثا الحجاج على ركبتيه وانتضى نحو شهر من سيفه ، واستعد للقاء الموت كريمة فقيوت بذلك قلوب جنده واستبسلوا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم هزيمة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ؛ فسمع رتبيل بمقدمه فأنزله عنده وأكرمه فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يبعث إليه باين الأشعث ويتوعده إن لم يفعل ، فأراد رتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن أتى نفسه من فوق قصر ، فأت فاحتر رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . (٢) في المقدم الفريد (والأعضاء) . (٣) الشغاف : غلاف القلب أو حبه . (٤) رواية نهاية الأرب « المخاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ ومخخة (كمنية) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ؛ فتروها (الأصماغ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر «الأصماغ» بهذا للنص، والذي في كتب اللغة : «الصماغ من الأذن : الخرق الباطن الذي يفضى إلى الرأس جمعه أصمخة وصماخ ، ومثل الصاخ الأصموخ كمصفور ، وجمعه أصامبخ ، فصواب الكلمة «الصماخ» أو «الأصامبخ» . (٥) أمره في كذا مؤامرة : شاوره . (٦) يشير إلى وقعة «تستر»

حيث رُفِّمَ المكر، وسعيتم بالقدْر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يَحْدُلُ دينه
وَحِلَافته، وأنا أرميكم بطرفي، وأنتم تَسَلُّونَ لِيُوَادُّ^(١)، وتمهزمون سِرَاعاً؟ ثم يوم
الزَّأوية، وما يوم الزَّأوية! بها كان فَشَلُكم وتنازُعُكم وتخاذلكم، وَبَرَآةُ الله منكم،
وَنُكُوصُ وِلْيَتِكُمْ عنكم، إذ وَلَّيْتُمْ كَالإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها، التنازع إلى
أعطانها^(٢)، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يَلُوى^(٣) الشَّيْخَ عَلَى بَنِيهِ، حتى عَضَّكُمْ^(٤)
السلاح، وَقَصَمْتُمْ الرِّمَاحَ، ثم يوم دَيْرِ الْجِجَامِ، وما يوم دَيْرِ الْجِجَامِ! بها كانت
المعارك والملاحم^(٥)، بضربِ بُرَيْلِ الْمَهَامِ^(٦)، عن مَقِيلِهِ^(٧)، وَيُدْهِلُ الْخَلِيلَ عَنِ خَلِيلِهِ،
بأهل العراق، وَالْكَفَّرَاتِ بَعْدَ الْفَجَّرَاتِ، وَالْفَدَّرَاتِ بَعْدَ الْخَلَّتَرَاتِ^(٨)، وَالزَّوَاتِ^(٩)
بعد النزوات، إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى ثَعُورِكُمْ غَلَّامًا^(١٠) وَخُنْتُمْ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ، وَإِنْ
خَفْتُمْ نَافَقْتُمْ، لا تذكرون حَسَنَةً، ولا تشكرون نِعْمَةً، هل استخفكم ناكث،
أو استغفواكم غار، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم^(١١) خالغ، إلتبعمتموه وآويتموه،
ونصرتموه وزكيتموه؟ يأهل العراق، هل شَفَبَ شَاغِبٌ، أو نَعَبَ نَاعِبٌ، أو زفر
زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يأهل العراق: ألم تنهكم المواظ، ألم تَزَجُرْكُمْ
الوقائع؟» .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال: «يأهل الشام، إنما أنا لكم
كالظلم^(١٢) الرامح عن فراخه، يَنْفِي عَنْهَا الْمَدْرَ^(١٣)، ويباعد عنها الحجر، وَيُكِيهَا

(١) أي يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لواءاً وملاوذة . (٢) أعطان جمع عطن كسبب : مبرك الإبل
حول الحوض كالعطن ، ونوازع : أي مشتاقة . (٣) لايلوى على أحد ؛ أي لايقف ولا ينتظر .
(٤) في نهاية الأرب « عظكم » بالظاء : عظه الحرب كفضته بالضاد .
(٥) جمع ملحمة وهي الوقعة العظيمة القتل . (٦) جمع هامة ، وهي الرأس .
(٧) موضعه ، أي الأعناق ، قال الشاعر :

بضرب بالسيوف رهوس قوم أزلنا هامهن عن المقييل

(٨) جمع خترة ، والختر كشمس : القدر والحديمة أو أقبح القدر . (٩) جمع نزوة ، من نزا
نزوانا : أي وثب . (١٠) غل كغصر غلولا : خان . (١١) استعضده : سأله أن يعضده .
(١٢) ذكر النعام ، والرامح : أي المدافع ، من رمحه : أي طعنه بالرمح . (١٣) قطع الطين اليابس .

من المطر، ويحميها من الضباب^(١)، ويجرُسها من الدَّثَابِ، يأهل الشام؛ أنتم الجنة والرِّداء، وأنتم العُدَّة والحذاء .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وروج الذهب ٢ : ١٣٥ - وتاريخ ابن عساکر ٤ : ٥٥) .

٢٨٠ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلَقَّحُ بالنجوى^(٢) ، وتُنتج بالشكوى ، وتخصد بالسيف ؛ أما والله إن أبغضتموني لاتضروني ، وإن أحببتموني لاتنعموني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ، زعمتم أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفاحت ، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لاتعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجِكُمْ أَطِيبُ مِنَ الْمَسْكِ ، وَلَا بِنَاؤُكُمْ آأَسُّ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلْدِ ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي دُنْيَانَ :

إذا حاولتَ في أسد فجورا فإني لستُ منك ولستَ مني

مُمُ دِرْعِي الَّتِي اسْتَلَّامْتُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ النَّسَارِ وَمَنْ يَجِي^(٣)

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِأَعْيَادِنَا

الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

٢٨١ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبَةٌ^(٤) ، وقال :

(١) جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرياء . (٢) النجوى : المسارة . (٣) استلام : ليس

للأمة ، وهي الدرع ، النسار : ماء لبني عامر له يوم ، والمجن : الترس . (٤) ثواب .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ؛ أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(١) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيمة ومصر لكان لي حلالا .

« عذيري ^(٢) من أهل هذه الحَمِيرَاء ، يرى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٣) ، والله لأجعلهم كالرَّسَمِ ^(٤) الدَّائِرِ ، وكالأمس الغابر ، عذيري من عبد هُدَيْلٍ يقرأ القرآن كأنه رَجَزَ الأعراب ، أما والله لو أدركته لضربت عنقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٥) - ، عذيري من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » كان والله - فيما علمت - عبداً حَسُوداً بخيلاً » .
(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ والعقد الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٨٢ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُونَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليته كفانا مَثُونَةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكُم لا يتعلمون ، وشراكم لا يتوبون ؟ مالي أراكم تحرصون على ما كُفِّيم ، وتضيعون ما به أمرتم ؟ إن العلم يوشك أن يُرْفَع ، وَرَفَعَهُ ذهابُ العلماء ؛ ألا وإني أعلم بشراكم من البَيْطَارِ بالفرس ، الذين لا يقرءون القرآن إلا هَجْرًا ^(٦) ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ^(٧) ؛ ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها البرُّ والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخر ، يحكم فيها ملك قادر

(١) وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في غيره » والشعب بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ؛ والطريق في الجبل . (٢) العذير : العاذر والنصير ؛ والحال التي تحاولها تعذر عليها . (٣) وفي مروج الذهب : يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله » . (٤) الرسم : الأثر ، أو بقيته . والدائر : الدارس المحو . (٥) هو من بني هذيل . (٦) أي هجرا له وتركها ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه . (٧) الدبر من كل شيء : عقبه ومؤخره ، أي ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .

أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنْ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ، وَاعْمَلُوا أَنْكُمْ مُلَاقُوهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِنْ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِحَدَايِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنْ الشَّرُّ كُلُّهُ بِحَدَايِهِ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِنْ مَنْ يَمْعَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَمْعَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وَاسْتَغْفِرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ^(١) .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٣ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنِّي لَمْ أَجِدْ دَوَاءً أَدْوَى لِدَائِكُمْ ، مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبِعُوثِ ، لَوْلَا طَيْبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ ، وَفَرَحَةُ الْقَفَلِ ^(٢) ، فَإِنَّهَا تُعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَاكُمْ إِلَّا كَارِهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَنَا وَاللَّهِ لَرُؤْيَتِكُمْ أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيذِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ نَفْسِي مَقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ حَسْنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٨٤ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَرَوُونَ عَن نَّبِيِّكُمْ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُؤْبِقَهُ الْجَوْرُ » . وَإِيْمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أُحْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ مَغْلُولًا ، مِنْ أَنْ أُحْشَرَ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » .

(المقد الفريد ٣ : ١٧)

(١) وذكر صاحب المقد أيضا هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ » إِلَى آخِرِهِ

وَعَزَاهَا إِلَى شَدَادِ بْنِ أَوْسِ الطَّائِي . انظر المقد الفريد ٢ : ١٥٨ . (٢) الرجوع .

٢٨٥ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَمَلَّيْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان الشهيد المظلوم ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازل^(١) الذي جر بته الأمور ، وأحكمته التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن ، والمروءة الظاهرة ، واللين لأهل الحق ، والوَطء لأهل الزيغ ، فكان راجعاً من الولاة المهديين الراشدين ، فاختر الله له ما عنده ، وألحقه بهم ، ووعده إلى شبهه في العقل والمروءة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته ، فاسمعوا له وأطيعوه .

أيها الناس ، إياكم والزيغ ، فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله ، ورأيتم سيرتي فيكم ، وعرفت خلافكم وطيبكم ، على معرفتي بكم ، ولو علمت أن أحداً أقوى عليكم مني ، أو أعرف بكم ما وليتكم ؛ فإياي وإياكم ، من تسلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غمّاً »
ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨٦ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :
« يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله

(١) الرجل الكامل في تجرته .

صلى الله عليه وسلم في الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبَل من مُحْسِنِهِمْ،
وأن يُجَاوَزَ عن مُسِيئِهِمْ، وإني أمرته ألا يقبلَ من محسنكم، ولا يتجاوزَ عن مسيئكم؛
ألا وإنكم ستقولون بعدى مَقَالَةً ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم
ستقولون بعدى : لا أحسنَ الله له الصَّحَابَةَ ، ألا وإني مُعَجَّلٌ لكم الإجابة : لا أحسن
الله الخِلافةَ عليكم « ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ،
ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٧ - خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشى
أتاه بريد من اليمن ب وفاة محمد أخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج
وهيض^(١) جناحُه ، فخرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معى في الحياة
الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُ الله ليوشِكُنَّ الباقي منى ومنكم
أن يَفْتَنى ، والجديدُ أن يبلى ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تُدَالَ^(٢) الأرض منى
كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا
من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا
هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ^(٣) » ثم تمثل بهذين البيتين :

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور . (٢) أداله الله منه : نصره عليه .

(٣) الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعثات الموتى بانبعثات الجيش إذا نفخ في البوق ،
وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالنضم : التمر قبل إرطابه) أى نفخ في صور الموتى الأرواح .
وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع جدث كسبب وهو القبر ، ونسل كضرب
ونصر : أسرع .

عَزَائِي نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سَرُورَ النَّفْسِ فِيهَا هُنَالِكَ
(المقد الفريد ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٨ - خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل للعراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نَزَغَ^(١) الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فه؟ وهل يرجو الحجاج الخيرَ إلا بعد الموت؟ والله ما يسرني ألا أموتَ ، وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رَضِيََ بالتخليد إلا لأهون خَلَقِهِ عليه إبليس ، قال : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ، ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُدْكَ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما عسى أن يكون أيها الرجل؟ وكلكم ذلك الرجل ، كأني والله بكل حيٍّ منكم ميتاً ، وبكل رَطْبٍ يابساً ، وَنُقِلَ في ثياب أ كفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً ، في ذراع عرضاً ، وأكلت الأرض لحمه ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول » ، ثم نزل .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢)

ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

(١) نَزَغَ : أفسد وأغرى .

خطبه الوعظية

- ٢٨٩ -

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ مَنْقُوصٍ ، وعملٍ محفوظٍ ، رَبُّ دَائِبٍ مُضِيعٍ ، وساعٍ لغيرِهِ ، والموتُ في أعناقكم ، والنارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم ، فكان ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكان الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترَوْنَه فإنه ذاهب ، هذه شمسٌ عادٍ وثمودٍ وقرونٍ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على التَّبَابِعة والأكاسير ، وخزائنها السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصراطُ منصوب ، وجهنم تزفر^(١) وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، في روضةٍ يُخَبِّرون^(٢) ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآياتِ رَبِّهم لم يخزوا عليها ضمًا وعمياناً . »

فكان الحسن البصرى رحمه الله يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يَرَقِي عَتَبَاتِ المذبر ، فيمتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ويخالفه في فعله . »

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

(١) زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . (٢) أحبره : سره . والخبور : السرور .

وقال مالك بن دينار: غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمَذْبَحِ ، فَصَعِدَ الْحِجَابُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمْرٌوَ حَاسَبَ نَفْسَهُ ، أَمْرٌوَ رَاقِبَ رَبَّهُ ، أَمْرٌوَ زَوَّارٌ ^(١) عَمَلُهُ ، أَمْرٌوَ فَسَّكَرٌ فِيمَا يَقْرَؤُهُ غَدَاً فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أَمْرٌوَ كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ أَمِيرًا ، وَعِنْدَ هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمْرٌوَ أَخَذَ بِعِمْقَانِ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِحِطَّامٍ جَلَّهُ ، فَإِنِ قَادَهُ إِلَى حَقِّ تَبِعِهِ ، وَإِنِ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهَ ، إِنِنَّا وَاللَّهِ مَا خَلَقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المقدم الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

أيها الناس ، أقدِّعُوا ^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ ^(٣) شَيْءَ إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأَعْصَى ^(٤) شَيْءَ إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَسْرَأَ جَمَلٍ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا فَقَادَهَا بِخِطَائِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَطَّقَهَا بِزِمَامِهَا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنِ تَحَارِمِ اللَّهِ ، أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(٥) .

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٥٠ ، وشرح العميون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكمال ١ : ١٩)

(١) زوره : حسنه . (٢) قدمه كتمه وأقدعه : كفه وكبحه . (٣) وفي عيون الأخبار : « أيها الناس ، احفظوا فروجكم ، وخذوا الأنفس بضميرها ، فإنها أسوك شيء وأسوك : أضعف ، من سلك الرجل سواكاً : سار سيراً ضعيفاً . (٤) وفي رواية « وأعطى شيء » وهو تحريف . (٥) قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن علي عليه السلام » .

وخطب فقال :

« اللهم أرني الفعْيَ غيًّا فأجتنبه ، وأرني الهدى هُدًى فأتبعه ، ولا تكِلني إلى نفسي ، فأضِلُّ ضلالاً بعيداً ، والله ما أحبُّ أن ماضى من الدنيا لي بعمامتي هذه ، ولما بقي منها أشبهُ بما مضى من الماء بالماء . »

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد

١ م : ١٥٠ ، وشرح العمون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إنَّ امرأ أنت عليه ساعةٌ من عمره ، لم يذُكر فيها ربه ، ويستغفر ربه من ذنبه ، ويفكر في معاده ، لجديراً أن يطول حزنه ، ويتضاعف أسفه ، إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ، فلا يُغفرنكم شاهد^(١) الدنيا ، عن غائب الآخرة ، واقهر وا طول الأمل ، بقصر الأجل^(٢) . »

(شرح ابن الحديد ١ م : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتبيين :

٢ : ٩٩ ، شرح العمون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) أي حاضرهما . (٢) قال الشمسي : سمعت الحجاج يقول بكلام ماسبقه إليه أحد ، سمعته يقول : « إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الثقفى عن عمه قال : سمعت الحسن البصرى يقول : لقد وقفتى كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقذك؟ قال : نعم ، سمعته على هذه الأعراد يقول : « إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لخرى أن تطول عليها حسرتة . »

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٨٩٦ هـ)

٢٩٤ - خطبته بحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طُخَارِسْتَانَ »

قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج^(١) سنة ٨٦ هـ ، فلما تهيأ لغزو أخرون وشومان - وها من بلاد طُخَارِسْتَانَ^(٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد فقال :

« إن الله أحلَّكم هذا المَحَلَّ ليعزَّ دينه ، ويدبَّ بكم عن الحُرُمات ، ويزيد بكم المال استفاضةً ، والعدوَّ وقتاً^(٣) ووعد نبيَّه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديثٍ صادق ، وكتاب ناطق ، فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسنَ الثواب ، وأعظمَ الذخر عنده ، فقال : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَخْمَصُهُ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، ثم أخبر عن قُتْلٍ في سبيله أنه حتى مرزوق ، فقال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ، وخوانزمر ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٨٩٦ هـ . (٢) ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء . (٣) وقه : قهره وأذله . (٤) مجاعة .

قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) ففَتَجَزَّوْا مَوْعِدَ رَبِّكُمْ ،
وَوَطَّنُوا أُنْفُسَكُمْ عَلَى أَقْصَىٰ آثَرٍ ، وَأَمْضَىٰ أَلْمِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُؤَيَّنَّتِي .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٥ - خطبته وقد تهيأ لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وصار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب

الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه تمكن ، وهذه السغد
شاغرة^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا صالحنا عليه
طرخون ، وصنعوا به ما بلفسكم ، وقال الله تعالى : (قَنَنْكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى
نَفْسِهِ) ، فسيروا على بركة الله ، فإنى أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير^(٣)
وقريظة^(٤) ، وقال الله تعالى : (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

(١) وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهى بين نهري سيحون
وجيحون ، وكانت قصبها سمرقند ، وهى بالسین ، وربما قيلت بالصاد » وأتاه طرخون ملك السغد ، وسأه
الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قتيبة إلى ما طلب وصالحه ، ثم نقضوا عهودهم . (٢) شجر الكلب
كنع : رفع إحدى رجليه ليبول . (٣) بنو النضير : حى من يهود خيبر ، وكان بينهم وبين رسول
الله صلى الله عليه وسلم عهد يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفوا بها حسدا منهم وبغيا ، فبينما رسول الله
صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه فى ديارهم ، إذا انتزع جماعة منهم على قتله بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ،
فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلاد ، لما تقدم منهم من الغدر ،
فهيثوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المنافقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة
والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير فى حصونهم ، وظنوا أنها مانعهم من الله ؛ فحاصرهم ست ليال ؛ ثم أمر بقطع نخيلهم
كى يسلموا ، فقتل الله فى قلوبهم الرعب ؛ فسألوه أن يجلبهم ويكف عن دماهم ؛ وأن لهم ما حملت الإبل من
أموالهم إلا آلة الحرب ففعل ؛ وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ؛ لئلا يسكنها المسلمون .

(٤) كان يهود بنى قريظة يساكنون المسلمين فى المدينة ؛ فانتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصد جموع

الأحزاب - فى غزوة الخندق - ونقضوا عهودهم معهم ؛ وذلك أن حيسى بن أخطب سيد بنى النضير الذين =

٢٩٦ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأنى قتيبة السغد فحصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة^(١) « إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كنتم أضعفَ وأذلَّ ، فهما كان عندكم من قوة فابذُلوها ، فجمعوا جمعهم ، وولّوا عليهم ابناً لخاقان^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يبيتوا عسكر قتيبة ، ونمى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوّكم قد رأوا بلاءً^(٣) الله عندكم ، وتأبيده إياكم في مُزاحفتكم ومُكاثرتكم^(٤) ، كلّ ذلك يُفاجِبُكم^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحتالوا غيرتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد

= أجلوا من ديارهم ؛ توجه إلى كعب بن أسد القرظي ؛ فحسن له نقض المهد ؛ ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ؛ فاشتد وجل المسلمين ؛ وزلوا زلزالاً شديداً ؛ وأرسل الله على الأعداء ريحا باردة في ليلة مظلمة وجنودا لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ؛ وكفى الله المؤمنين شر الأحزاب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بحصونهم ؛ وحاصره المسلمون نحسباً وعشرين ليلة ؛ فلما ضاقوا بالحصار ذرعا ؛ طلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير ؛ من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكه ففعلوا ؛ فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ؛ وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ماقد علمت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ؛ وكانوا حلفاء الخزرج ؛ فنزلوا على حكه ؛ فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فوجههم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحا من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من يأتي به ؛ فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ؛ وتقسم الأموال ؛ وتسبى النساء والذاري ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد ؛ ثم أمر بتنفيذ الحكم ؛ فنفذ فيهم . (١) الشاش وفرغانة ؛ كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين . (٢) خاقان ؛ اسم لكل ملك من ملوك الترك ؛ وقد خقنوه على أنفسهم ؛ أى رأسوه (بالتشديد) . (٣) أى نعمته . (٤) كاثروهم فكثروهم ؛ غالبوهم فغلبوهم . (٥) أى ينصرم عليهم ؛ ويظفركم بهم . (٦) جمع دهاقان بكسر الهمزة ؛ زعيم فلاحى للعجم ، ورئيس الإقليم . مغرب .

فَضَلَّكُمْ اللهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلَوْا^(١) لِلَّهِ بِلَاءً حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ عَنْ أَحْسَابِكُمْ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٧ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعهم فقال للناس :
« إني قد جمعتكم من عين التَّمَرِ^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَمْتُ الْأَخَ إِلَى أُخِيهِ ،
وَالوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فِيمَتِّكُمْ ، وَأَجْرِيَتْ عَلَيْكُمْ أُعْطِيَاتِكُمْ غَيْرَ مُكَدَّرَةٍ
وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَيْتُمْ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كُمْ أُمِّيَّةٌ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ :
إِنَّ خَرَجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبِئَتِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦) فَدَوَّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ
سِنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَمِى طَاعَةٌ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ؛ لَمْ يَجِبْ فَيْئًا ، وَلَمْ يَنْكَأْ^(٨) عِدْوًا ،
ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ فُلُوحُ تَبَارَى إِلَيْهِ النَّسَاءَ ، وَإِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ
هَبْنَقَةُ الْقَيْسِيِّ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فَغَضِبَ ، فَقَالَ :

(١) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبليت عنده بلاء حسنًا ، وأبلاه الله بلاء حسنًا ، وأبليت
معروفًا . والمعنى : فاصدقوا القتال ، وقدموا معروفًا تبغون به ثواب الله . (٢) وسبب ذلك أن الوليد
ابن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبد العزيز ولي عهده ، ودس في ذلك إلى القواد والشعراء ، فبايعه على خلع
سليمان الحجاج وقتيبة ، ثم مات الوليد وقام سليمان بن عبد الملك ، فخافه قتيبة وخشى أن يولى سليمان يزيد
ابن المهلب خراسان . (٣) بلد على الفرات قرب الكوفة . (٤) هو أمية بن عبد الله بن خالد
ابن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان عاملًا عليها لعبد الملك بن مروان حتى كانت سنة ٧٨
فنزله وجمع سلطانه للحجاج فبعت المهلب إليها . (٥) في الأصل « لا يقيم » وهو تحريف أو « لا يقيم
مطبخي . (٦) أبو سعيد : كنية المهلب بن أبي صفرة . (٧) من دومت الكلاب : أى امتعت
في المسير : وفي رواية أخرى « فدوخ بكم البلاد » وستأني . (٨) نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح .
(٩) هو يزيد بن ثروان هبنقة ذو الودعات ، ويكنى أبا نافع أحد بني قيس بن ثعلبة . يضرب به المثل
في الحمق فيقال : « أحق من هبنقة » وله نوادر في الحمق . منها أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وغزف
وهو ذو لحية طويلة ، فسئل في ذلك ، فقال : لأعرف بها نفسي ، ولثلاث أضل ، فبات ذات ليلة ، وأخذ أخوه =

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرْتُمْ ، وَاللَّهُ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى عَنَزٍ مَا كَسَرْتُمْ قَرْنَهَا ، يَا أَهْلَ السَّفَلَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أَوْبَاشَ ^(١) الصَّدَقَةَ ، جَمَعْتُمْ كَمَا تَجْمَعُ إِبِلَ الصَّدَقَةِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ ، يَا أَهْلَ النَّفْخِ ^(٣) وَالْكَذْبِ وَالْبَخْلِ ، يَا أَيُّ يَوْمَيْكُمْ تَفَخَرُونَ : يَوْمَ حَرَبِكُمْ ، أَمْ يَوْمَ سَلِكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعَزُّ مِنْكُمْ يَا أَصْحَابَ مُسَيْلِمَةَ . يَا بَنِي ذَمِيمٍ ، وَلَا أَقُولُ نَمِيمٍ . يَا أَهْلَ الْخَوَرِ ^(٤) وَالْقَصْفِ ^(٥) وَالْقَدْرِ ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ الْقَدْرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانَ ^(٦) » يَا أَصْحَابَ سَجَاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ الْقُسَاةَ ، تَبَدَلْتُمْ بِأَبْرِ النَّخْلِ ^(٨) أَعِنَّةَ الْخَيْلِ ، يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَلْتُمْ بِقُلُوسِ ^(٩) السَّفِينِ ، أَعِنَّةَ الْخَيْلِ وَالْحَصْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْأَعْرَابِ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُنَاسَةَ الْمِصْرِينَ ، جَمَعْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ ^(١١) ،

= قِلادته فتقلدها ، فلما أصبح ، ورأى القلادة في عنق أخيه ، قال يا أحمى : أنت أنا فن أنا؟ ومنها : أنه ضل له بعير ، فجعل ينادى : من وجد بعيري فهو له ، فقيل له فلم تنشده ؟ قال : فأين حلاوة الوجدان ؟ ومنها : أنه اختصمت الطفاوة وبنو راسب في رجل ادعاه هؤلاء وهؤلاء ، ثم قالوا : رضينا بأواك من يطلع علينا ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم هبنقة ، فقصوا عليه قصتهم ، فقال : الحسك عندي في ذلك أن يذهب به إلى نهر البصرة ، فيلقى فيه ، فإن كان راسبيا رسب فيه ، وإن كان طفاويا طفا ، فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين .

وقول تقيية : « إنما خليفتم هبنقة » ذلك لأن هبنقة كان يحسن إلى الدمان من إبله ، فبرعها في المشب وينحى المهازِيل ، فقيل له : ويحك ! ماتصنع ؟ فقال : إنما أكرم ما أكرم الله ، وأهين ما أهان الله ، وكذلك كان سليمان يعطى الأغنياء ، ولا يعطى الفقراء ويقول : « أصلح ما أصلح الله ، وأفسد ما أفسد الله » - انظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٢٦ - . (١) الأوباش : السفلة ، جمع وبش كسبب . (٢) الطريق والجهة . (٣) الفخر والكبر . (٤) الضعف . (٥) الهو .

(٦) كيسان : علم للقدر . (٧) هي سجاح بنت الحارث ادعت النبوة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجزيرة في بني تغلب . (٨) أبر النخل أبراً : أصلحه . (٩) القلوس جمع قلس كشمس : وهو جبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرها من قلوب سفن البحر . (١٠) جمع حصان .

ومنابت القليل^(١) ، تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان^(٢) ، حتى إذا جمعتمكم كما يجتمع قزع الخريف^(٣) قاتم : كيت وكيت ، أما والله إني لأبن أبيه^(٤) وأخو أخيه ، أما والله لأعصبنكم عصب السامة ، إن حول الصليان الزمزمة^(٥) ، بأهل خراسان ، هل تدرّون من وليّكم ؟ وليكم يزيد بن ثروان ، كأني بأمر مزجاء^(٦) ، وحكمهم قد جاءكم ، فغلبكم على فيثكم وأطالكم ، إن هاهنا ناراً ، ارموها أرم معكم ، ارموا غرضكم الأفصى ، قد استخيف عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشام أب مكفور ، حتى متى ينبطح أهل الشام بأفنيّتكم وظلال دياركم ؟ يأهل خراسان انسبوني تجدونى عراقى الأم ، عراقى الأب ، عراقى الموليد ، عراقى الهوى والرأي والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما ترّون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سبيلكم ، فالظعينة^(٧) تخرج من مرو إلى بلخ بغير جوار ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسلّوه الشكر والمزيد . ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطاب هذا نصها :

(١) ثبت له حب أسود حسن الثم . (٢) هى جزيرة في الخليج الفارسى بين عمان والبحرين .
(٣) القزع : كل شيء يكون قطعاً متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزع) وخرقت الثمار أخرفها كنعصر : اجتنبتها ، والتمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا على رضى الله عنه « كما يجتمع قزع الخريف » .
(٤) أى ابن أبى . (٥) الصليان : نبت من أفضل المرعى يختل (يجز) للخليل التى لانفارق الحى ، والزمزمة : صوت خفى لا يكاد يفهم ، يعنى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت المنجوس عند أكلهم - يتراطنون على الأكل ، وهم صموت لا يستعملون لسانا ، ولا شفة ، لكنته صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض - وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرامه. والمعنى في المثل : أن ماتسمع من الأصوات والجلب ، لطلب ما يؤكل ويتمتع به . قال الميدانى : وروى « حول الصليان الزمزمة » الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت عابديها . (٦) هو مزجاء للمطى أى كثير الإزجاء لها ، زجاها وأزجاها : ساقها ودفنها : والمراد أنه قاس ظلوم . (٧) الظعينة : المرأة مادامت في الهودج .

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ،
ثم قال :

« أتدرون من تبايعون ؟ إنما تبايعون يزيد بن ثروان - يعني هبنة القيسي -
كأني بأمر مزجاء ، وحكم قد أتاكم ، يحكم في أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم^(١)
ثم قال : الأعراب وما الأعراب ؟ لعنة الله على الأعراب ، جمعتم كما يجمع قرع الخريف^(٢)
من منابت الشَّيح والقيصوم ، ومنابت القنقل ، وجزيرة ابن كاوان ، تركبون البقر ،
وتأكلون الهبيد^(٣) ، غملتكم على الخليل ، وألبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد ،
وأفاء بكم النىء » قالوا : سرنا بأمرك . قال : غرُّوا غيرى .

(المعقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠١)

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل العراق ، ألسنتُ أعلم الناس بكم ؟ أما هذا الخي من أهل العالية ، فنعم
الصدقة ، وأما هذا الخي من بكر بن وائل فعليجة^(٤) بظراءه ، لا تجمع رجلها ، وأما هذا
الخي عبد القيس فما ضرب العير بذنبيه ، وأما هذا الخي من الأزد ، فملوج^(٥) خلق الله
وأناطه^(٦) ، وإني لله لو ملكتُ أمر الناس لَنَقَشْتُ أيديهم ، وأما هذا الخي من تميم ،
فإنهم كانوا يسمون العدر في الجاهلية كيسان » .

(المعقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) أشار جمع بشر : وهو جمع بشرة ، وهي ظاهر الجلد . (٢) في المعقد الفريد : « كما يجمع
قرع الخريف » وفي البيان والتبيين والطبرى « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا . (٣) الخنظل .
(٤) مؤنث الطلج : وهو حمار الوحش السمين القوى . وأمه بظراء : طويلة البظر كشمس ، وهو ما بين
شفرى للرحم . (٥) جمع طلج (بالكسر) وهو الرجل من كفار المعجم . (٦) جيل من الناس
كانوا ينزلون سواد العراق ثم استعمل في أخلط الناس وعوامهم .

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل خراسان ، قد جرتُم الولاية قبلي ، أنا كم أمية ، فسكان كاسمِه أمية الرَّأيِ ، وأمية الدين ، فكتب إلى خليفته : إن خراج خراسان وسجستان ، لو كان في مطبخه لم يكفه ، ثم أنا كم بعده أبو سعيد ، فدوخ بكم البلاد ، لا تدرُونَ أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته ، ثم لم يجب فيثما ، ولم ينكأ عدواً ، ثم أنا كم بنوه بعده ، مثل أطباء^(١) السكلية ، منهم ابن الرَّحمة^(٢) ، حصان يضرب في عانته^(٣) ، ولقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد ، وأمن لكم السُّبل ، حتى إن الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند في غير جوار » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) جمع طبي كقفل . والطبي : لذات الخلف والظلف كالثدي للمرأة . (٢) يريد به يزيد

ابن المهلب . (٣) العانة : الأتان ، والقطع من حر الوخس ، والمراد بها النساء .

٣٠١ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَحَرَجَتْ خَارِجَةً بِخَرَّاسَانَ ، فَقِيلَ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوْ وَجَّهْتَ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي سُودٍ^(١) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعٌ رَجُلًا عَظِيمَ السَّكْبَرِ ، فِي أُنْفِهِ خُنْزُرٌ وَأَنَةٌ^(٢) ، وَفِي رَأْسِهِ نَعْرَةٌ^(٣) - وَإِنَّمَا أُنْفُهُ فِي أَسْلُوبٍ^(٤) ، وَمَنْ عَظَّمَ كِبْرَهُ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمَنْ أَعْجَبَ بِرَأْيِهِ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيًّا ، وَلَمْ يُؤَامِرْ^(٥) نَصِيحًا . وَمَنْ تَفَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّجَ^(٦) بِالْأَنْفَرَادِ ، وَفَخَّرَ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ بَعِيدًا ، وَمَنِ الْخِلْدَانُ قَرِيبًا ، وَالخَطَأُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، خَيْرٌ مِنَ الصَّوَابِ مَعَ الْفُرْقَةِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ لَا تَخْطِئُ ، وَالْفُرْقَةُ لَا تُصِيبُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عَدُوِّهِ حَقَّرَهُ ، وَإِذَا حَقَّرَهُ تَهَانُونَ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ تَهَانُونَ بِخَصْمِهِ ، وَوَثِقَ بِفَضْلِ قُوَّتِهِ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ ، وَمَنْ قَلَّ أَحْتِرَاسُهُ كَثُرَ عِثَارُهُ ، وَمَا رَأَيْتَ عَظِيمَ السَّكْبَرِ صَاحِبَ حَرْبٍ ، إِلَّا كَانَ مَنْكُوبًا ، فَلَا وَاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ عَدُوُّهُ عِنْدَهُ ، وَخَصْمُهُ فِيمَا تَغْلِبُ

- (١) هو وكيع بن أبي سود التميمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى ، وأبلى في القتال بلاء محموداً - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - ويؤلاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .
 (٢) الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : السكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .
 (٣) النعرة : الخيلاء والسكبر . (٤) الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبراً ، قاله الراجز :

أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاه في الجيوب

(وهو في معنى المثل المشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجيوب كصبور : الأرض ، والأستاه جمع سته كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بشينة :

وما أنس ملاً شياً لأنس قولها (وقد قربت نضوى) أمصرتي؟

أي من الأشياء ، وقول قطري بن الفجاءة :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجننا صدور الخليل نحو تميم

أي على الماء . (٥) الكنى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . (٦) تبجج به : افتخر وتباهى .

عليه ، أسمع من فرَس ، وأبصر من عُقاب ، وأهدى من قَطَاة ، وأحذر من عَقَعْق (١) ،
وأشد إقداماً من الأسد ، وأوثب من الفَهْد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ،
وأغدر من ذئب ، وأسخى من لافِظَة (٢) ، وأشح من صبي ، وأجمع من ذَرَة (٣) ،
وأحرس من كلب ، وأصبر من ضَب ، فإن النفس تسمح من العناية على قدر الحاجة ،
وتتحفظ على قدر الخوف ، وتطلبُ على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السبب .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

ومن كلماته البليغة قوله حين قدِم خراسان :

« من كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم (٤) فلينذبه ، وإن كان في فيه
فليلفظه ، وإن كان في صدره فلينفثه » فصحب الناس من حسن ما فصل وقسم .
(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

(١) الععق : نوع من الغربان ، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب ، يشبه صوته العين
والقاف - ولذا سمى ععقا - وقيل لأنه يثق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع الغربان يفعل ذلك - وقد
ضربوا به المثل في الحذر ، فقالوا : « أحذر من ععق » - انظر جمهرة الأمثال - كما قالوا : « أحذر من
غراب » وقالوا أيضاً : « الأص من ععق » لأن في طبيعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلي - وقالوا : « أحمق
من ععق » لأنه كالنميمة التي تضيع بيضها وأفراخها ، وتشتغل ببيض غيرها ، وإياها عنى هدية بقوله :

كتاركة يبيضها بالدرء وملبسة يبيض أخرى جناحا

انظر حياة الحيوان الكبرى للمعري ٢ : ٢٠٩ ، وجمع الأمثال .

(٢) رواه الميداني : « أسمع من لافظة » وقال : قد اختلفوا فيها ، فقال بعضهم : هي العنز التي تشل
للحلب - أشلى دابته : أراها المخلاة لتأتيه ، وأشلاها : دعاها للحلب - فتجىء لافظة بجرتها فرحا بالحلب .
وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ماني بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي النديك ، لأنه يأخذ الحبة بمقاربه
فلا يأكلها ، ولكن يلقها إلى الدجاجة ، والهاء فيها للمبالغة هاهنا ، وقال بعضهم : هي الرحى لأنها تلفظ
ما تطحته أي تقلد ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالدرة ، قال الشاعر :

تجود فتجزل قبل السؤال وكفك أسمع من لافظة

(٣) الذر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زيادا جمع لم (أي لأهل المراق)

كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعا كما تجمع في قريتها للذر .

(٤) وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمالهم

فأخرجوهم ، وغلب كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وغلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه =

٣٠٢ - خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير - وكان والياً عليها من قبيل الوليد بن عبد الملك - طمّح بصره إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلَاهُ طارق بن زياد على جيش جُلّه من البربر سنة ٩٢ هـ فمَبر بهم البحر ، وَنَمَى خبره إلى لُدْرِيْق ملك القوط ، فأقبل لِحَارِبته بجيش جرّار ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده لِقَلَّتْهُمْ ، فأحرق السفن التي أفلَّتْهُمْ ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورجبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفر؟ المحرّم من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق^(١) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مادب^(٢) اللّثم ، وقد استقبلكم عدوكم بحيشه ، وأسلحته وأفواته مؤفورة ، وأنتم لا وزر^(٣) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن أمتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا السكم أمراً ، ذهبت ربحكم ، وتعوّضت القلوب من رغبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة^(٤) هذا الطاغية ، فقد ألت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن ، إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بمنجوة^(٥) ،

= عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - يدعو إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يعطيه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يقاتل بجزير بن ورفاء الصريمي بأبر شهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، فكذب عبد الملك إلى بكير بمهده على خراسان ، ووعده ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجاباه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم نخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر ، فترك بجزيراً وأقبل إلى مرو ، فاتبعه بجزير فلحقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المعركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ . (١) أي الصدق في القتال ، والصدق : الشدة ، يقال صدقه القتال . (٢) جمع مأدبة بالفتح والضم : وهي طعام صنع لدعوة أو عرس . (٣) لاملجأ .

(٤) أي مبارزته . (٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

ولا حملتكم على خطاةٍ أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ ، أرباباً^(١) فيها بنفسى ، واعلموا
أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلاً ، استمتعتم بالأزفةِ الألدِّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم
عن نفسى ، فيما حظكم فيه أوفرُ من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرةُ من الحورِ^(٢) الحسانِ ، من بنات اليونانِ ،
الرافلاتِ^(٣) فى الدرِّ والمرجانِ ، والحللِ المنسوجةِ بالعقيقانِ^(٤) ، المقصُوراتِ^(٥)
فى قصور الملوك ذوى التيجانِ ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال
عزباناً^(٦) ، ورَضِيكم ملوك هذه الجزيرة أصهاراً^(٧) وأختاناً^(٨) ، ثقةً منه بارتياحكم
للطمانِ ، وإسماحكم^(٩) بمجاللة الأبطال والأفرسانِ ، ليكونَ حظُّه منكم ثوابَ الله على
إعلاءِ كلمتهِ ، وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة ، وليكونَ مَفْنَمُها خالصاً لكم من دونه ، ومن
دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند مُلتقى الجمعين ، حاملٌ
بنفسى على طاعةِ القومِ لِدَرِيْقٍ ، فقاتله إن شاء الله ، فاحلوا معى ، فإن هلكت بعده ،
فقد كُفَيْتُم أمره ، وإن يعوزكم بطلٌ عاقلٌ تُسندُون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل
وصولى إليه ، فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحلوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المَهْمَ من فتح
هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخَذَّلون .

(نفع الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأيمان ٢ : ١٣٥)

(١) رباً بنفسه : ملا بها وارتفع ، أى أتحنى عن مشاركتكم . (٢) جمع حوراء ، من الحور
بالتحريك : وهو شدة سواد العين وبياضها . (٣) رفقت : جرت ذيلها وتبخرت ، أو خطرت يديها .
(٤) الذهب . (٥) المخدرات : المخبوءات (٦) جمع عزيب . والعزيب والعزب والأعزب :
من لازوجة له . (٧) جمع صهر : كحمل ، وهو زوج بنت الرجل وزوج أخته . (٨) جمع
نختن كسبب ، وهو الصهر ، أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ . (٩) سمح وأسمح : جاد وكرم .

٣٠٣ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قتيبة هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُنُوَّ لَدْرِيقِ ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ،
وَرَغَبِهِمْ فِي الشَّهَادَةِ ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي آمَالِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أَيْنَ الْمَقَرُّ ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَاللَّهِ
إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ ، فَإِنَّهُمَا لَا يُغْلِبَانِ ، وَهُمَا جَنْدَانِ مَنْصُورَانِ ، وَلَا تَضُرُّهُمَا قِلَّةٌ ،
وَلَا تَنْفَعُ مَعَ الْخَوَرِ وَالسَّكْسَلِ وَاللَّفْشَلِ وَالْإِخْتِلَافِ وَالْعُجْبِ كَثْرَةٌ ، أَيُّهَا النَّاسُ :
مَا فَعَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فَأَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، إِنْ حَمَلْتُ فَأَحْمِلُوا ، وَإِنْ وَقَفْتُ فَاقْفُوا ، ثُمَّ كُونُوا كَهَيْئَةِ
رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي الْقِتَالِ ، أَلَا وَإِنِّي عَامِدٌ إِلَى طَاغِيَتِهِمْ ، بِحَيْثُ لَا أَتَهَيَّبُهُ حَتَّى أَخَالِطَهُ ،
وَأُقْتَلَ دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتُ فَلَا تَهِنُوا^(١) وَلَا تَحْزَنُوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الدُّبْرَ أَعْدُوَكُمْ ، فَيَبِيدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ . وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا
بِالدَّنِيَّةِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِيمَا يُجَلُّ لَكُمْ مِنَ السَّكْرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمَهِينَةِ
وَالدَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَغَلَّوْا^(٢) (وَاللَّهِ مَعَكُمْ وَمُعِيذُكُمْ)
تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءِ الْحَدِيثِ غَدَاً بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا نَدَا حَامِلٌ
حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَأَحْمِلُوا بِحِمْلَتِي . »

(الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٣٠٤ - خطبة عثمان بن حيان المري بالمدينة

وولى الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب
على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إنا وجدناكم أهل غشٍّ لأُمير المؤمنين ، في قديم الدهر وحديثه ،

(١) فلا تضعفوا . (٢) إن تغلبوا وتهزموا .

وقد ضوى^(١) إليكم من يزيدكم خبالاً : أهل العراق ، هم أهل الشقاق والنفاق ، هم والله هُشُّ النفاق ، وبَيْضَتُهُ التي تَفَلَّتْ عنه ، والله ما جَرَّبَتْ عِرَاقِيًّا قَطُّ إلا وجدتُ أفضلهم عبد نفسه ، الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول ، وما هم لهم بِشِيعَةٍ ، وإنما لَأَعْدَاءِ لهم وغيرهم ، واسكن لِمَا يريد الله من سَنَكِ دِمَائِهِمْ ، فإنني والله لا أوتى بأحدٍ آوى أحداً منهم أو أكرَاهَ منزِلاً ، أو أنزله ، إلا هدمت منزله ، وأنزلت به ما هو أهله^(٢) .

ثم إن البلدان لَمَّا مَصَّرَهَا عمر بن الخطاب ، وهو مجتهد على ما يصلح رعيته ، جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيره : الشامُ أَحَبُّ إليك أم العراق ؟ فيقول : الشامُ أَحَبُّ إِلَيَّ .

إني رأيت العراق ذاءً عُضَالًا ، وبها فَرَّخَ الشيطان ، والله لقد أَعْضَلُوا بِي^(٣) ، وإني لَأَرَانِي سَأَفَرُّهُمْ فِي الْبُلْدَانِ ، ثم أقول : لو فرقتم لَأَفْسَدُوا مِنْ دَخَلُوا عَلَيْهِ بِجَدَلٍ وَحِجَاجٍ ، وكيف ؟ وَلِمَ ؟ وسرعنًا وَجِيفٍ^(٤) فِي الْفِتْنَةِ ، فَإِذَا خَبِرُوا عِنْدَ السُّيُوفِ ، لَمْ يُخْبِرْ مِنْهُمْ طَائِلٌ^(٥) ، لَمْ يَصْلُحُوا عَلَى عَمَانَ ، فَلَتِي مِنْهُمُ الْأَمْرَيْنِ^(٦) ، وَكَانُوا أَوَّلَ النَّاسِ فَتَقَ هَذَا الْفَتَقَ الْعَظِيمَ ، وَنَقَضُوا عُرَا الْإِسْلَامِ عُرُوَّةَ عُرُوَّةٍ ، وَأَنْفَلُوا^(٧) الْبُلْدَانَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِكُلِّ مَا أَفْعَلُ بِهِمْ لَمَّا أَعْرِفُ مِنْ رَأْيِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ ، ثُمَّ وَلِيَهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ ، فَدَايَجَمَهُمْ^(٨) فَلَمْ يَصْلِحُوا عَلَيْهِ ، وَوَلِيَهُمْ رَجُلَ النَّاسِ^(٩) جَلْدًا ،

(١) ضوى كرمى : انغمس ولبأ ، والخبال : الفساد . (٢) ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق ، تاجراً ولا غير تاجر ، وأمر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وطاقهم ، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف . (٣) عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضاً . (٤) وجف يجف وجيفا : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل . (٥) الطائل والطائلة والطول : الفضل والقدرة . (٦) الأمران : الفقر والحرم ، وهو كناية عن اشتداد الأمر . (٧) أفسدوا ، من نقل الأديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأنفله : أفسده . (٨) المداجمة مثل المداجمة وداجمه عليه : وافقه . (٩) يريد الحجاج بن يوسف .

فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَقَامُوا لَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ
خَبَّرَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ .

أيها الناس : إنا والله ما رأينا شعاراً قَطُّ مثل الأمن ، ولا رأينا حليماً^(١) قط شرّاً
من الخوف ، فالزموا الطاعة ، فإن عندي بأهل المدينة خبيرة من الخلاف ، والله ما أنتم
بأصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وَعَصُوا عَلَى النُّوَاجِذِ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ
فِي مَجَالِسِكُمْ مِنْ يَسْمَعُ فَيُبَلِّغُنِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي فُضُولِ كَلَامٍ غَيْرِهِ أَلْزَمُ لَكُمْ ، فَدَعَا
عَمِيبَ الْوَلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئًا شَيْئًا حَتَّى تَكُونَ الْفِتْنَةُ ، وَإِنَّ الْفِتْنَةَ مِنْ
الْبَلَاءِ ، وَالْفِتْنُ تَذْهَبُ بِالدِّينِ وَبِالْمَالِ وَالْوَالِدِ . «
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٥ - وصية يزيد بن المهلب لابنه محمد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

وَمَا وَلِيَّ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ خُرَّاسَانَ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَتَحَ جُرْجَانَ^(٢)
وَطَبْرَسْتَانَ^(٣) (سنة ٩٨) ، وَقَدْ أَوْصَى ابْنَهُ مُحَمَّدًا حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى جُرْجَانَ ،
فَقَالَ :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَاظْطَرُّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْبَيْنِ ، فَكُنْ
لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ .

فَرِشٌ وَأَصْطَنِعُ عِنْدَ الدِّينِ بِهِمْ تَرْجِي^(٤)

وَاظْطَرُّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ رِبِيعَةَ ، فَإِنَّهُمْ شِيَعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فَاقْضِ حَقَّوْقَهُمْ ، وَانْظُرْ هَذَا

(١) المجلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد: ما رأينا مركبا شرا من
الخوف ، وفلان جلس من أحلاس البيت : الذي لا يبرح البيت . (٢) في الجنوب الشرق من بحر قزوين .
(٣) جنوبي بحر قزوين . (٤) رايش السهم يريشه : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه
وسفاه وكساء وأصلح حاله ونفمه ، واصطنع عنده صنيفة : اتخذها ، والبيت لأبي ذؤاد الإيادي .

الحَيِّ من تَمِيمٍ ، فامطَرُهم^(١) ، ولا تُزَوِّه^(٢) لهم ، ولا تُذَنِّبهم فيطمَعُوا ، ولا تُقْصِبهم فيَقْطَعُوا ، وانظر هذا الحَيِّ من قيس ، فإنهم أكفأ قومك في الجاهلية ، وَمُنَاصِفُوم المنابرَ في الإسلام ، ورضام منك البِشْرُ .

يا بني : إن لأبيك صنائعَ فلا تُفسِدْها ، فإنه كفى بالمرءَ نقصاً أن يَهْدِمَ ما بَنَى أبوه ، وإياك والدماءَ فإنها لا بَقِيَّةَ معها ، وإياك وشمَّ الأعراض ، فإن الحرَّ لا يُرْضِيه عن عِرْضه عِوَضٌ ، وإياك وضربَ الأَبْشارِ ، فإنه عارٌ باقٍ ، وَوِثْرٌ مطلوبٌ ، واستعملْ على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزِلْ إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يَمْنَعُكَ من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه ، احمل الناس على أحسن أدبك يَكْفُوكَ أنفسهم ، وإذا كتبتَ كتاباً فأكثرِ النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يَفْقَهُ عني وعنك ، فإن كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سيره ، وأستودعك الله ، فلا بدَّ للودَّع أن يسكت ، وللمشيِّع أن يرجع ، وما عَفَّ من المنطق ، وقلَّ من الخَطِيئَةِ أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سَلَّكَ هذا السَلَّكُ المحمود .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

(١) مطرهم السماء : أصابهم بالمطر ، ومطرهم بخير : أصابهم وما مطر منه خيراً — وبخبر .. :

أي ما أصابه منه خير .

(٢) اللزوه : السكر والتيه ، زهى كفى ، وكدها قليلة .

٣٠٦ — نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه

وقال عمر بن هبيرة^(١) يؤدّب بعض بنيه :

« لا تكوّن أول مُشير ، وإياك والهوى والرأى الفطير^(٢) ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تُشر على مستبدّ ، ولا على وَغد ، ولا على متلّون ، ولا على لجّوج ، وخَفِ الله في موافقة هوى المستشير ، فإن التماس موافقة لؤم ، وسوء الاستماع منه خيانة » .

وقال : « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن ساء خلقه قلّ صديقه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

(١) هو عمر بن هبيرة الفزاري ، وكان عاملا على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولى العراق (وأضيفت إليه خراسان) يزيد بن عبد الملك . (٢) كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير — والمعجم الفطير : ضد الحمير : أى الذى لم يختمر — « وكان عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج يقول : نعوذ بالله من الرأى الدبرى — والدبرى بالتحريك وتسكن الباء : الذى يعرض من بعد وقوع الشيء — ولا تقل دبرى بضمين فإنه من لحن المحدثين » .

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ٥١٢٦ هـ)

٣٠٧ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنَ الْبِلَادِ أَنْ يَضَعَهَا بِهَا بَيْتَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حِجَّهَ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَمَا لَكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أُوْتِيَ بِأَحَدٍ يَطْعَنُ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبْتَهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنْ اللَّهُ جَمَلَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلِّمُوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَاهُ إِلَّا إِمْرًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَقْدَمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيَقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِنْ تَمَلُّونَ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنَزَلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنَزَلَهُ ، فَانظُرُوا مَنْ تُنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ » .

وَسَمِعَ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ

(١) ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولي العراقين في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه نصرانية ، قالوا وكان يقيم في دينه ، وهو من خطباء العرب المعدودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ٥١٢٦ هـ .

لم نَقِرْ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حَرَمَ الله وَأَمْنَهُ مخالف للجماعة
زار^(١) عليهم .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

٣٠٨ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غلوه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيهما أعظم ؟ أخليفة الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم
تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربه ، فسقاه ماعاً أجاباً ، واستسقاه
الخليفة فسقاه عذبا فُرَاتاً^(٢) » يعني بئراً حفرها الوليد بن عبد الملك بالشَّيْطَيْنِ : ثَنِيَّة
طَوِي ، وثنية الحُجُون^(٣) ، فكان يُنقل ماؤها ، فيوضع في حَوْضٍ من أَدَمٍ إلى جنب
زمزم ، ليعرف فضله على زمزم »

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح للعيون ص ٢٠٥ والأغاني ١٩ : ٦٠)

٣٠٩ - خطبته بمكة في الحجاج

وَصَعِدَ خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج - فحمد طاعته ،
وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، بأمره
فيه بِشَمِّ الحجاج وتَنَمُّرِ عيوبه ، وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كان مَدَسَكاً من الملائكة ، وكان يُظهِر من طاعة الله ما كانت
الملائكة تَرى له به فَضْلاً ، وكان الله قد عَلِم من غِشِّه وَخُبَيْثِهِ ما خَفِيَ على ملائكته ،

(١) زرى عليه : عابه . (٢) ماء أجاج : ملح مر ، والفرات : الماء العذب جدا .

(٣) ذو طوى مثلث الطاء وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة . وفي شرح

العيون أنه قال : « قد جئتكم بماء العاذبة ، لاتشبه ماء أم الحنابس » يعني زمزم .

فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدمَ ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلعنوه ، وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين ، فلعنه ، فآلَعَنُوهُ لعنه اللهُ « ثم نزل .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣١٠ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسط ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس ، نأفِسُوا في المكارم ، وسارِعُوا إلى المآثم ، وأَشْتَرُوا الحمدَ بالجد ، ولا تَكْسِبُوا بِالْمَطْلِ دَمًا ، ولا تَعْتَدُوا بالمعروف ما لم تَعَجِّلُوهُ ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شُكْرَها ، فاللهُ أحسنُ لها جزاءً ، وأجزلُ عليها عطاءً . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمةٌ من الله عليكم ، فلا تَمَلُّوا النعمَ فتحوّلوا نِعْمًا . واعلموا أن أفضل المال ما أكَسَبَ أجرا ، وأورثَ ذِكْرًا ، ولو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حَسَنًا جميلًا يَسُرُّ الناظرين ، ولو رأيتم البخل رجلاً رأيتموه مُشَوِّهاً قبيحاً تنفِرُ عنه القلوبُ ، وَتُغْضِي عنه الأبصار .

أيها الناس ، إن أجودَ الناس مَنْ أعطى مَنْ لا يَزُجُوهُ ، وأعظم الناس عَفْوًا مَنْ عفا عن قُدْرَةٍ ، وأوصل الناس مَنْ وصل مَنْ قَطَعَهُ ، ومن لم يَطْبَحْ حرثه ، لم يَزَكْ (١) نبتُه ، والأصول عن مَعَارِسِهَا تنمو ، وبأصولها تَسْمُو . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وإيكم . » (صبح الأضنى ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح العيون ص ٢٥٥)

٣١١ - خطبة له يوم عيد

حصب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كُنتَ كَذَلِكَ مَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ ارْتَأَيْتَ أَنْ تَخْلُقَ الْخَلْقَ ، فِإِذَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِكَ ؟ وَالْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مِنْ دَرَكِكَ ، مِنْ صُنُوفِ أَفْوَاجِهِ ^(١) ، وَأَفْرَادِهِ وَأَزْوَاجِهِ ، كَيْفَ أَدْمَجْتَ ^(٢) قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْبَعُوضَةِ ، إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، مِنْ الْأَشْبَاحِ ، الَّتِي امْتَزَجَتْ بِالْأَرْوَاحِ . »

(عيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٦)

٣١٢ - قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدو به لفظه ، وبلاغة منطقته ، فبينما هو يخاطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :

« سَبِحَانَ مَنْ الْجَرَادَةُ مِنْ خَلْقِهِ ، أَدْمِجَ قَوَائِمَهَا ، وَطَوَّعَهَا جَنَاحَهَا ، وَوَوَّشَى ^(٣) جِلْدَهَا ، وَسَلَّطَهَا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا . »

(عيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣١٣ - خطبة يوسف بن عمر الثقفي ^(٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عباد الله ، فسكم من مؤمل أملأ لا يبئنه ، وجامع مالا لا يأكله ، ومانع عما سوف يتركه ، ولعله من باطل جمعه ، ومن حق منعه ، أصابه حرأما ، وأورثه

(١) جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . (٢) من أدمج الحبل : أحكم فتل في رقة .

(٣) نقش ونغم وزين . (٤) هو ابن عم الحجاج ، وولاه هشام بن عبد الملك بين سنة ١٠٦ هـ

م وولاه العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

عَدُوًّا ، فَاحْتَمَلَ إِصْرَهُ (١) ، وَبَاءَ بِوِزْرِهِ ، وَوَرَدَ عَلَى رَبِّهِ آسِفًا لَاهِفًا ، قَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

٣١٤ - خطبة يوسف بن عمر

ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة فصعد
المنبر فقال :

« يَا أَهْلَ الْمَدْرَةِ الْحَبِيئَةِ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا تَقَرَّنَ بِي الصَّعْبَةُ ، وَلَا يَقَعَّمَعُ لِي الشَّنَانُ ، وَلَا
أَخَوْفُ بِالذَّنْبِ ، هَيْهَاتُ ! حُبَيْتُ بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ .

أَبْشِرُوا يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ بِالصَّغَارِ وَالْهُوَانِ ، لَا عِطَاءَ لَكُمْ مَعْدَنَا وَلَا رِزْقَ ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ
أَنْ أَخْرَبَ بِلَادَكُمْ وَدُورَكُمْ ، وَأَحْرَمَكُمُ أَمْوَالَكُمْ ، أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ مَنْبَرِي إِلَّا أَسْمَعْتُكُمْ
مَا تَكْرَهُونَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ بَنِي وَخْلَافٍ ، مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِلَّا
حَكِيمٌ بَنُ شَرِيكَ الْحَارِجِيِّ ، وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِيمَكُمُ ، وَلَوْ أِذْنًا لَقَتَلْتُ
مِقَاتِلَكُمْ وَسَبَيْتُ ذُرَارِيَكُمْ » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٢٧٨)

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣١٥ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلعهم ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحصروهم وأخافوهم ، وجه إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة الرّبيّ ، وبنى إليهم خيراً مقدّمه عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعونني على الموت ، وإلا فلا حاجة في بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غضباً لدينكم ، فأبئوا إلى الله بلاءً حسناً ، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ، ويحلّ بكم رضوانه ، واستعدّوا بأحسن عدتكم ، وتأهبوا بأكل أهبتكم ، فقد أخبرت بأن القوم نزلوا بذي خشب^(١) ومعهم مروان بن الحكم ، والله إن شاء مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) . »

(١) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . (٢) وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية من المدينة ، وحلفوهم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن لقوا جيش يزيد ليردوهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ،
تصدّقهم اللّقاء ، والله ما صدّق قوم قطّ إلا نصّروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :
« اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألبأنا ظهورنا » ثم نزل .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٦ - خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة
وسراجمة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت
خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقتل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلم
الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهدأ القتالُ قتال قومٍ يريدون أن يذفعوا به عن دينهم ؟ وأن
يُعزّوا به نصرَ إمامهم ؟ قبيحَ الله قتالكم منذُ اليوم ، ما أوجعته لقلبي ، وأغيطه لنفسى !
أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرموا القطاء ، وأن تُجمروا في أقاصي الثغور ، شدّوا مع
هذه الراية ، ترخّ^(٢) الله وجوهكم إن لم تعتّبوا^(٣) . » (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٧ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دنوا منه ، وأخذ مسلم
يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها

(١) الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . (٢) ترخ ترخا كفرح فرحا : حزن ،

وترحه تبرحاً : أحزنه . (٣) أعتبه : أعطاه العتبي (كقربى) وهى الرضسا ، أى إن لم ترضوني
بصدقكم القتال .

عَدَدًا ، ولا أوسعها بَلَدًا ، ولم يَخْصُصْكُمْ اللهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ النِّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أُمَّتِكُمْ ، إِلا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هُوَ لَاءِ الْقَوْمِ وَأَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرُوا ، فَغَيَّرَ اللهُ بِهِمْ ، فَمِمَّا (١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كَفَّمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمُ اللهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُنِيلُكُمْ مِنَ النِّصْرِ وَالْفُلُجِ (٢) . « (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٨ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت راياتهم ، فقال : « يا هؤلاء : إن عدوكم قد أصابوا وَجَهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْكُمْ ، أَمَّا لَكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْمَجْرَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبِّكُمْ أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَفَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ مَيْتَةٌ هُوَ مَيْتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مَنَ مَيْتَةٌ بِأَفْضَلَ مِنْ مَيْتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللهُ إِلَيْكُمْ ، فَاغْتَنِمُوهَا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلِمًا أَرْدَتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا . »

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقيل ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم المدينة (٣) وكانت وقعة الحرّة في ذى الحجة سنة ٦٣ هـ . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

(١) تم على الأمر وتمم عليه كضرب : أى استمر عليه . (٢) الفلج : الظفر والنصر .

(٣) انظر ص ١٩٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٩ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه

قام عبيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة ، انسيبوني ، فوالله ما مهاجرٌ أبي إلا إليكم ، وما مولدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وليتكم وما أحصى ديوانُ مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ، ولقد أحصى اليومَ ديوانُ مقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصى ديوانُ عمالكم إلا تسعين ألفاً ، واقد أحصى اليومَ مائةً وأربعين ألفاً^(١) ، وما تركتُ لكم ذا ظنة^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سجنكم هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد توفّي وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليومَ أكثرُ الناسِ عدداً ، وأعرضه فناءً ، وأغناه عن الناس ، وأوسمه بلاداً ، فاختراروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، يُجاهد عدوكم ، وَيُنصِفُ مظلومكم من ظالمكم ، وَيَكْفُ سُفهاءكم ، وَيَجِي لَكُمْ فَيْتُكُمْ ، وَيَقْسِمُهُ فيما بينكم ، فأنا أول راضٍ من رَضِيتموه وتابِع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كفتم على جدِ بِلتكم^(٣) »

(١) وفي البيان والتبيين : « والله لقد وليكم أبي ومقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً ، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناسِ بلاداً ، وأكثره جنوداً وأبعد مقاداً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ . » (٢) الظنة : الهمة . (٣) الجديلة : الطريقة ، يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أي على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

حتى تُعْطُوا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجةً ، وما يستغنى
الناس عنكم .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مقالتك أيها الأمير ، وإنا والله ما نعلم
أحداً أقوى عليها منك ، فهلمّ فلننبأيك ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا
لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا
بسّط يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يسحون أكتفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون :
ظن ابن مرّجانة أنا نولّيه أمرنا في الفرقة ! وأقام عبيد الله أميراً غير كثير ، حتى جعل
سلطانه يضعف ، ويأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الرأي فيردّ عليه ، ويأمر بحبس
الخطيئ فيجالح بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣٢٠ - خطبة أخرى له

وبلغه أن سلّمة بن ذؤيب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فنودي : الصلاة
جامعةً ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يقصّ أول أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم
إلى من يرتضونه ، فيبايعه معهم ، وقال : « وإنكم أبئتم غيري ، وإنه بلغني أنكم مسختم
أكتفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإني أمر بالأمر فلا يُنفذ ، ويردّ على
رأبي ، وتحوّل القبائل بين أعوانى وطلبتي ^(١) ، ثم هذا سلّمة بن ذؤيب يدعو إلى الخلاف
عليكم ، إرادة أن يُفرّق جماعتكم ، ويضرب بعضكم حياة بعض بالسيف .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً نحن نأتيك بسلمة ، فأتوه فإذا جمعه قد كُف
وإذا الفتق قد اتسع على الراتق ، وامتنع عليهم ، فقعوا عن ابن زياد فلم يأتوه .

(١) طلبتك : ما طلبته .

وروى أنه قال في خطبته : « يا أهل البصرة ، والله لقد لبسنا الخنز^(١) وأئمننا^(٢) واللذين من الثياب ، حتى لقد أجمنا^(٣) ذلك ، وأجمته جلودنا ، فما بنا إلى أن نُعقِرَ الحديدَ ؟ يا أهل البصرة ، والله لو اجتمعتم على ذنبٍ غيرِ لئِكَسِرُوه ما كسرتموه » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠)

٣٢١ - خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهلُ البصرة عبيدَ الله بن زياد - وكان خليفته على الكوفة عمرو ابن حُرَيْث - بعث وافردين من قبله إلى الكوفة: عمرو بن مِسمع ، وسعد بن القرحاء^(٣) التميمي ، ليعلم أهل الكوفة ما صنع أهلُ البصرة ، ويسألانهم البيعة لابن زياد ، حتى يصطليح الناس ، فجمع الناسَ عمرو بن حريث ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذين الرجلين قد أتياكم من قبل أميركم ، يدعوانكم إلى أمر يجمع الله به كلتكم ، ويصليح به ذاتَ بينكم ، فاسمعوا منهما ، واقبلوا عنهما ، فإنهما برُشدٍ ما أتياكم » .

٣٢٢ - خطبة عمرو بن مسمع

فقام عمرو بن مِسمع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر أهل البصرة ، واجتماع رأيهم على تأمير عبيد الله بن زياد ، حتى يرى الناس رأيهم ، فيمن يولون عليهم وقال :

« قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم ، فيكونَ أميرنا وأمركم واحداً ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرة من الكوفة » .

(١) التينة : برد يبنى . (٢) أجمه : أراحه ، وأصله من أجم الفرس : ركبته فلم يركبه ففقه من تعبته ، والجمام بالفتح : الراحة . (٣) القرحاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

وقام ابن القرحاء ، فتكلم نحوًا من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني
فحصَّهما أول الناس ، ثم حصَّهما الناس بعدُ ، ثم قال : أيمن نبايع لابن مرَّجانه ؟
لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة
يخلعونه ، وأنتم تُؤثِّونُه وتبايعونه ؟ فوثب به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي
فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خِفارة رجال من الأزدي وبكر بن وائل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣٣٣ - خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابنُ زياد مسعودَ بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس :
لا نولى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ،
وبينا هو على المنبر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي
إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرَّحوا ، وطردوه عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم :
تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ،
فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت
مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ،
فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دماننا
ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا
بيئة أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن
لكم بيعة ، فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم
تريدوا ذلك ، فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فاتاهم الأحنف
ابن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزدي : أنتم جِيرتُنَّا في الدار ، وإخوتنا عند القتال ، وقد أتيناكم

في رحالكم ، لإطفاء حَشِيدَتِكُمْ^(١) ، وَسَلَّ سَخِيمَتِكُمْ^(٢) ، وَلِكُمْ الْحُكْمُ مُرْسَلًا^(٣) ،
فَقُولُوا ، عَلَى أَحْلَامِنَا وَأَمْوَالِنَا ، فَإِنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُنَا^(٤) ذَهَابُ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِنَا كَانَ فِيهِ
صِلَاحٌ بَيْنِنَا » ، فَقَالُوا : أَتَدُونَ صَاحِبِنَا عَشْرَ دِيَّاتٍ ؟ قَالَ : هِيَ لَكُمْ ، فَانصَرَفَ النَّاسُ
وَاصْطَلَحُوا^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وها هي ذى :

قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يا معشر الأزدِ وَرَبِيعَةَ ، أَنْتُمْ إِخْوَانُنَا فِي الدِّينِ
وَشُرَكَائُنَا فِي الصَّوْمِ ، وَأَشِقَائُنَا فِي النَّسَبِ ، وَجِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَبِدُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ،
وَاللَّهِ لَأَزُدُ الْبَصْرَةَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَلَأَزُدُ الْكُوفَةَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ
الشَّامِ ، فَإِنْ اسْتَشْرَفَ شَفَانُكُمْ^(٦) ، وَأَبَى حَسَدُ صُدُورِكُمْ ، فِي أَمْوَالِنَا ، وَسَعَةِ
أَحْلَامِنَا ، لَنَا وَلَكُمْ سَعَةٌ . »

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٧)

(١) أى ناركم الموقدة . من حش النار ، أوقدها ، فهي فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد في كتب
اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة الكلال) . (٢) للسخيمة : الحقد .
(٣) أى مطلقا كما تشاءون . (٤) تعاضمه : عظم عليه . (٥) واجتمع أهل البصرة على
أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصل بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهرا
ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو بية - فصلى بهم شهرين ، ثم قدم
عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكثت شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة
المعروف بالقياس ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنيهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم عامر
ابن مسعود القرشي ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل ابن الزبير كما تقدم .
(٦) استشرف : انتصب ، أى زاد واستحکم ، والشنان : البغض والكراهية .

٣٣٤ - خطبة روح بن زنباع الجذامى بالمدينة^(١)

لما نَمَى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نُمَيْر - وهو على حرب ابن الزبير

(١) هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة المري ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرّة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت بمسلم في الطريق ، وولى أمر الجيش الحصين بن نمير - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان بن مالك ابن بجدل الكلبي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو والأردن فوثب نائل بن قيس الجذامى على روح ، فأخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبرى ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغاني ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان بن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من أشرف الشام ووجوههم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز لارتضى بذلك ، هل لسكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر ؟ فقال : استخبروا الله ، فأثرو عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا ، فجاؤا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبروا الله ، وأساؤه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعلها ، فقال له روح بن زنباع : إن معى أربعمائة من جذام ، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غدا ، ومر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد : صدقت صدقت ! فينظن الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده

لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بلبل ! فبايعوا مروان بن الحكم اه. ومن أجل ذلك كان روح أثيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن قباتة في سرح العميون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتمهذ قواعدها ؛ وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس =

بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلام بالحرّة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها ، صعد رُوْح بن زِنْبَاع الجُدَامِيّ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان في ذلك الجيش - فقال :

« يا أهل المدينة : ما هذا الإيعاد^(٢) الذي توعدُوننا ؟ إنا والله مادعونكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْن »^(٣) ولا إلى رجل من « أَنْخَم » أو « جُدَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيِّ من قريش - يعني بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فإيأنا توعدُون ؟ أما والله إنا لأبناء الطعْن والطَّاعُون ، وَفَضَّلَاتُ المَوْتِ وَالْمَنُون ، فاشتم^(٤) ، ومضى القوم إلى الشام .
(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

= فأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فاذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررَت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال وزير السفاح . (١) يصيحون .
(٢) يقال : وعده خيرا وبه ، ووعده شرا وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَدَسَ الْمَاصِرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا فى الخير وعد وفى الشر أوعد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف فى الشر خاصة ، فقالوا أوعدته بالسجن ونحوه . (٣) أصله بنو القين كما قالوا : بلحارث فى بنى الحارث ، وبلعنبر فى بنى العنبر . قال المبرد فى الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يميزون معه حذف النون التى فى قولك (بنو) لقرب يخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجم » أى بنى الهجم كزبير . (٤) وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدهو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفى آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتكم وأطعتم من الموعظة والفائدة ماشتم . »

٣٣٥ - خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأي على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زِنْبَاع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَّمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحبِ أمةٍ محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لأَبْنُ الزبيرِ : حَوَارِيٌّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَبْنُ أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيقِ ذات النُّطَاقَيْنِ ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفَتين : يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ امرأةٍ محمد صلى الله عليه وسلم المنافق ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كان مروان ممن يَشْعَبُ ^(١) ذلك الصَّدْعَ ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ^(٢) ، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشِبُّوا ^(٣) الصغير - يعني بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية - .

فأجمع رأي الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٨٠ .)

سعيد بن العاص من بعد خالد .

(١) يصلح . (٢) يرم تسور الثوار عليه داره وقتلوه . (٣) يقتضروه حتى يشب .

٣٣٦ — خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، وَوَلِيَّ الحِجَاجِ العِراقِ ، بلغ ذلك أهلَ العِراقِ ، فقام الغَضْبَانُ بنُ القَبْعَثَرِيِّ الشَّيْبَانِيَّ بِالمَسْجِدِ الجَامِعِ بِالسَّكُوفَةِ خَطِيبًا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ العِراقِ ، وَيَا أَهْلَ السَّكُوفَةِ ، إِنْ عَبدَ المَلِكُ قَدِ وَلَّى عَلَيْكُمْ مِنْ لا يَقبَلُ مِنْ مُحْسِنِكُمْ ، وَلا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئَتِكُمْ ، الظُّلُومَ العَشُومَ ^(١) الحِجَاجَ ، أَلَا وَإِنْ لَكُمِ مِنْ عَبدِ المَلِكِ مَنزَلَةٌ ، بِمَا كانَ مِنْكُمْ مِنْ خِذْلانٍ مُضْعَبٍ ^(٢) وَقَتِيلِهِ ، فَاعْتَرِضُوا هَذَا الخَلِيفَةَ فِي الطَّرِيقِ فَاقْتُلُوهُ ، فَإِنَّ ذَلكَ لا يَبْعُدُ مِنْكُمْ خَلْعًا ، فَإِنَّهُ مَتَى يَعلُ على مَتْنٍ مِنْبَرِكُمْ ، وَصَدَرَ سَرِيرِكُمْ ، وَقَاعَةٌ قَصَرِكُمْ ، ثُمَّ قَتَلْتُمُوهُ عَدُوَّ خَلْعًا ، فَأُطِيعُونِي وَتَعَدُّوا بِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَتَعَشَى بِكُمْ » .

فقال له أهل الكوفة : « جَبِنتَ يَا غَضْبَانُ » بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا منكراً غيرناه « قال : ستملئون ، فلما قدم الحجاج الكوفة بدمته مقاتله ، فأمر به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

(١) الظلوم . (٢) وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ماعنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبده الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقتله ، فاهو إلا أن التفتوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وبقي مصعب في شردمة قليلة ، فجاءه عبيد الله ابن ظبيان - وكان مع مصعب - فقال : أين الناس أيها الأمير؟ فقال : قد غدرتم يأهل العراق ! فرجع عبيد الله السيف ليضرب مصعبا ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعبا بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجدا ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من فتاك العرب - ما زدمت على شيء قط فدى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيت به رأس مصعب فخر ساجدا ، أن لا أكون ضربت عنقه ، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

٣٢٧ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وقدم مُطَرِّفُ بن المغيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس : إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم ، وأمرني بالحكم
بالحق ، والعدل في السيرة ، فإن عملتُ بما أمرني به ، فأنا أسعد الناس ، وإن لم أفعل
فنفسي أوبقتُ ، وحظُّ نفسي ضيعتُ ، ألا إني جالس لـكم العصرين فإرفعوا إليَّ
حوائبكم ، وأشيروا عليَّ بما يصلحكم ويصلح بلادكم ، فإنني لن آلوكم خيرا ما استطعت »
ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٥٩)

٣٢٨ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وفي سنة ٧٧ هـ خرج المطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن
مروان - وكان الحجاج قد استعمله على المدائن - وجمع إليه رءوس أصحابه فذكر الله
بما هو أهله وصلى على رسوله ثم قال لهم :
« أما بعد - فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزل
علينا (وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَمَآوَنُوا عَلَى الْإِنْتِمَارِ وَالتَّمَدُّونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ) وإني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ،
فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني ، فإن له الأسوة وحسن الصحبة ،
ومن أبي فليذهب حيث شاء ، فإنني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد
أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرنا
كان هذا الأمر شوري بين المسلمين ، يرتضون لأنفسهم من أحبوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٦٢)

٣٢٩ - خطبة سعيد بن المجالد

خرج الجزل بن سعيد في طلب الخوارج الشيببية وأقبل حتى انتهى إلى النهروان فأدركوه فلزمه عسكريه وخذق عليه، وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكري أهل الكوفة أميراً فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتكم عليكم أميركم ، أنتم في طلب هذه الأعراب العجف منذ شهرين وهم قد خربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم حاذرون في جوف هذه الخنادق لا تزايدونها ، إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلداً سوى بلدكم ، اخرجوا على اسم الله إليهم » فخرج وأخرج الناس معه .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٩)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُتَيْبِلِ مَلِكِ التُّرْكِ^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سَجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمَها وخطبهم فقال :

٣٣٠ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَدِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني نَفَرَكُم ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم ، وأباد خياركم ، فأياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيُحِلَّ بنفسه العُقُوبَةَ ، اخرجوا إلى مُسَكِرِكُمْ فمسكروا به مع الناس » . (تاريخ الطبري ٨ : ٤)

* * *

٣٣١ - خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُتَيْبِلِ أرضاً عظيمة ، وملاً يديه من الغنائم والأسلاب ، حبس الناس عن الوُغُولِ في أرضه ، وقال : نكفتي بما أصدبناه العام من بلادهم ، حتى نجببها ونعرفها ويحترى المسلمون على طرقها ، ثم تقاطى في العام المقبل ما ورائها ، ثم لم نزل

(١) انظر ص ٢٩٣ .

ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج بذلك . فورد عليه كتاب الحجاج بضمف رأيه ، ويأمره بالوغول في أرضهم ، ويهدده بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم محب ، ولكم - في كل ما يحيط بكم نفعه - ناظر ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي ، أستشرت فيه ذوى أحلامكم ، وأولي التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأياً . ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم ، أمضى إذا مضيتم ، وآبى إذا أبيتم . »

فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٢ - خطبة عامر بن واثلة الكنانى

فقام عامر بن واثلة الكنانى - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً -

فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فإن الحجاج وأهله ما يرى بكم إلا مارأى القائل الأول ، إذ قال لأخيه :

« احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك . » . إن الحجاج والله ما يبالي

أن يُخاطر بكم ، فيقتحمكم بلاداً كثيرة اللهب^(١) والأصوب^(٢) ، فإن ظفرتم فغنمتم

(١) اللهب جمع لهب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب

الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . (٢) جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير

في الجبل أصيق من الذهب وأوسع من الشعب .

أكل البلاد ، وحاز المال ، وكان ذلك زيادةً في سلطانه ، وإنا ظفِرِ عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنهم ، ولا يُبقي عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا عبد الرحمن ، فإني أشهدكم أني أولُ خالع .
فنادى الناس من كلِّ جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدو الله .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٣ - خطبة عبد المؤمن بن شُبث بن رُبِيعٍ

وقام عبد المؤمن بن شُبث بن رُبِيعٍ التميمي ثانياً ، فقال :
« عِبَادَ اللَّهِ ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلادَ بلادَكم ما بَقِيتُمْ ، وَجَرَّكُمْ تَجْمِيرَ فِرْعَوْنَ الْجَنُودِ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَرَّ الْبِعُوثَ ، وَلَنْ تَعَايِنُوا الْأَحِبَّةَ فِيمَا أَرَى أَوْ يَمُوتَ أَكْثَرُكُمْ ، بَايَعُوا أَمِيرَكُمْ ، وَانصَرَفُوا إِلَى عَدُوِّكُمْ ، قَانَفُوهُ عَنِ بِلَادِكُمْ ، فَوُتِبَ النَّاسُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَبَايَعُوهُ .
(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٤ - خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ عَدُوِّكُمْ إِلَّا كَمَا يَبْقَى مِنْ ذَنْبِ الْوَزْغَةِ^(٢) تَضْرِبُ بِهِ عَمِيقًا وَشِمَالًا ، فَمَا تَلَبْتَ إِلَّا أَنْ تَمُوتَ^(٣) . »

(البيان والتبيين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

(١) موضع بالبصرة . (٢) الوزغة : سام أبرص ، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .
(٣) قال الجاحظ : فر به رجل من بني قشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحراس ويمدهم الأضاليل ، ويمتدحهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو المحسن دون القشيري .

٣٣٥ — خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجحاج ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل الثغور والمسالح^(١) بدير الجحاج والقراء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب الجحاج ، جهم عليه بغضهم وكرهيتهم له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق تزعم الجحاج عنهم ، وأن يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق شاء ، يكون عليه والياً مادام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرضاً ذلك على أهل العراق ، فقالوا : نرجع المشيئة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائداً ، ولا رأس قوم ، ولا فارس إلا أمناه .

حمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتم أسراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصةً ، ولا آمن أن يكون على ذى الرأي غداً حسرةً ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية ، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم ، وأنتم أعزاء أقوياء ، والقوم لسكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فلا والله لا زلت عليهم أجرياء ، ولا زلت عندكم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم . »

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهللكم ، فأصبحوا في الأزل^(٢) والضعف والجماعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسمر الرفيع ، والمادة القريبة لا والله لا نقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥)

(١) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر . (٢) الضيق والشدة .

٣٣٦ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(١) من خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأشركي الجاهل ،
 أتى فيهم بالشعبي مؤثماً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج
 في أشركي الجاهل أن يعرضهم على السيف ، فن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا
 فيحلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر
 لقيتني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي ! لما بين دفتيك من العلم ،
 وليس اليوم بيوم شفاعة . قلت له : فما الخرج ؟ قال : بؤ^(٢) للأمير بالشرك والنفاق على
 نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيتني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما
 دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن أتب علينا مع ابن الأشعث ؟ اشهد على
 نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٣) ، وأجذب بنا الجناب ،
 وأستحسنا^(٤) الخوف ، واكتحلنا السمهر ، وضايق المسلك ، وخبطينا فتنة لم نكن
 فيها بررة أتقيا ، ولا فجرة أفويا » قال : صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا
 قويتم ، خلوا سبيل الشيخ .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢) .

٣٣٧ - أيوب بن القرية والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القرية^(٥) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين خلع
 الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له ، أتعومن خطيبا ، ولتخلعن عبد الملك ،

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب ، وهو بطن من همدان)
 وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم ، توفي سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبى جلولا .

(٢) ارجع . (٣) نبا منزله به : لم يوافق . (٤) أي لم يفارقنا .

(٥) هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقرية جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة .

والتسبب الحجاج ، أو لأضر بن عتقك ، قال : أيها الأمير ، إنما أنا رسول ! قال : هو ما أقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك ، وشتم الحجاج ، وأقام هنالك ، فلما انصرف ابن الأشعث مهزوماً ، كتب الحجاج إلى عماله بالرعي وإضهان وما يليهما ، يأمرهم ألا يعمروهم أحد من قبل ابن الأشعث إلا بعثوا به أسيراً إليه ، وأخذ ابن القرية فيمن أخذ .

فلما أدخل على الحجاج ، قال : أخبرني عما أسألك ؟ قال : سئني عما شئت ، قال : أخبرني عن أهل العراق ، قال : أعلم الناس بحق وباطل ، قال : فأهل الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأعجزهم فيها ، قال : فأهل الشام ، قال : أطوع الناس لخلفائهم ، قال : فأهل مصر ، قال : عبيد لمن غلب ، قال : فأهل البحرين ، قال : نبط^(١) استعربوا ، قال : فأهل عمان ، قال : عرب استنبطوا ، قال : فأهل الموصل ، قال : أشجع فرسان ، وأقيل للأقران ، قال : فأهل اليمن ، قال : أهل سمع وطاعة ، ولزوم للجماعة ، قال : فأهل اليمامة ، قال : أهل جفاء ، واختلاف أهواء ، وأصبر عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأس شديد ، وشر عتيد ، وريف^(٢) كبير ، وقرى يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال : ساني ، قال : قرين ، قال : أعظمها أخلافاً ، وأكرمها مقاماً ، قال : فبنو عامر بن صعصعة ، قال : أطولها رماحاً ، وأكرمها أصحاباً ، قال : فبنو سليم ، قال : أعظمها مجالس ، وأكرمها محابس^(٣) ، قال : فنقيف ، قال : أكرمها جدوداً ، وأكثرها وفوداً ، قال : فبنو زبيد ، قال : أزمها للرايات ، وأدرأها للثبات^(٤) ، قال : فقضاة ، قال : أعظمها أخطاراً ، وأكرمها نجاراً^(٥) ، وأبعدها آثاراً ، قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاماً ، وأحسنها إسلاماً ، وأكرمها أتيماً ، قال : فميم ، قال : أظهرها جلدًا ، وأثراها عدداً ،

(١) النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق . (٢) الريف : أرض فيها زرع وخصب .

(٣) المحابس : جمع محبس كقعد ، وهو الشجاعة . (٤) الثرات جمع ترة : وهي النار .

(٥) النجار : الأصل .

قال : فَبَكَر بن وائل ، قال : أثبتّها صفوفا ، وأحدّها سيوفا ، قال : فعبد القَيْس ، قال :
 أسبقها إلى الغايات ، وأصبرها تحت الرّايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عَدَد وَجَلَد ،
 وَعُسْر وَنَكَد ، قال : فَلَخَم ، قال : مُلُوك ، وفيهم نُوك^(١) ، قال : فَجُذام ، قال :
 يُوَقِدُون الحرب وَيَسْعَرُونها^(٢) ، وَيُلْقِحُونها ثم يَمْرُونها^(٣) ، قال : فبنو الحارث قال :
 رُعاةٌ للقديم ، ومُحَمّاة عن الحَرِيم ، قال : فَمَك ، قال : لُيُوثُ جَاهِدَة ، في قلوبِ فاسدة ،
 قال : فَتَغْلِب ، قال : يَصْدُقُون - إذا لَقُوا - ضَرَبًا ، وَيَسْعَرُونَ للأعداء حربًا ، قال :
 ففَسَّان ، قال : أكرمُ العربِ أحسابا ، وأثبتّها أنسابا ، قال : فأى العرب في الجاهلية
 كانت أَمْنَع من أن تُضامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل رَهْوَة^(٤) لا يُسْتَطَاع ارتقاؤها ،
 وَهَضْبَة لا يَرَامُ انتزاعها^(٥) ، في بلدة حَمَى الله ذِمّارها ، ومنع جارها ، قال : فأخبرني عن
 مآثر العرب في الجاهلية ، قال : كانت العرب تقول : حَيَّرَ أرباب المَلِك ، وَكِنْدَة لُباب
 الملوك ، وَمَذْحِج أهل الطَّعْمان ، وَهَمْدان أحلاس^(٦) الخليل ، والأزد آساد الناس ، قال :
 فأخبرني عن الأَرْضِين ، قال : ساني ، قال : الهند ، قال : بحرها دُر ، وجبلها ياقوت ،
 وشجرها عُود ، وورقها عِطْر ، وأهلها طَعْم ، كَقَطِيع الحمام^(٧) ، قال : فَخُرَّاسان ، قال :
 ماؤها جامد ، وعدوها جاحد ، قال : فَعَمّان ، قال : حَرّها شديد ، وصيدها عَتِيد ، قال :
 فالبحرين ، قال : كُنْأَسَة بين المِصرين ، قال : فاليمن ، قال : أصل العرب ، وأهل
 البُيُوتات وَالْحَسَب ، قال : فسكّة ، قال : رجالها علماء جُفَاءة ، ونساؤها كِسَاءة عُرَاة ،
 قال : فالمدينة ، قال : رَسَخ العلم فيها ، وظهر منها ، قال : فالبصرة ، قال : شتاؤها جَلِيد ،

(١) النوك بالضم والفتح : الحق . (٢) سر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها .

(٣) مري الناقة كرى : مسح ضرعها لتدر . (٤) الرهوة : المسكان المرتفع (والمنخفض

أيضا ، ضد) . (٥) أي اعتلاؤها نزا نزوا ونزوانا : ثوب ، وانترى : افعل من النزوء ، وفي حديث

وائل بن حجر : « إن هذا انترى على أرضي فأخذها » . (٦) كناية عن إدامتهم ركوبها .

(٧) الطغام : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقطع بالكسر : اسم مقاطع من الشيء ، ويقال : ثوب

قطع وأقطاع أي مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع .

وحرها شديد ، وماؤها مِلْح ، وحرها صُلْح ، قال : فالكوفة ، قال : ارتفعت عن حرّ البحر ، وَسَقَلَتْ عن بَرْد الشَّام ، فطاب ليلها ، وكثُر خيرها ، قال : فواسط ، قال : جَنَّة ، بين حَمَاة وَكَنَّة ، قال : وما حَمَاتُهَا وَكَنَّتُهَا^(١) ؟ قال : البصرة والكوفة يَحْسُدَانِهَا ، وما ضَرَّهَا ، وَدَجَلَةُ وَالزَّاب^(٢) يتجار يان بإفَاضة الخير عليها ، قال : فالشَّام ، قال : عَرُوس ، بين نسوة جُلُوس ، قال : تَكَلِّمَتِكَ أُمَّكَ يابن القِرْبِيَّة ، لولا اتِّبَاعَكَ لِأهل العراق ! وقد كنت أنهلك عنهم أن تتبعهم ، فتأخذ من نفاقهم ، ثم دعا بالسيف ، وأومأ إلى السِّيف أن أُمْسِك ، فقال ابن القِرْبِيَّة : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن رَكِبٌ وَوُقُوف ، يَكُنَّ مَثَلًا بَعْدِي ، قال : هَات ، قال : لِكُلِّ جَوَاد كَبُوءة ، وَلِكُلِّ صَارِمِ نَبُوءة ، وَلِكُلِّ حَلِيمِ هَفُوءة ، قال الحجاج : ليس هذا وقت المزاح ، يا غلام أَوْجِب جَرَحَهُ ، فَضْرِبْ عُنُقَهُ .

وقيل لأنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقت العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة اللحم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجْب ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المَنَّ عند البَلَاء^(٣) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البنى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الْفَتْرَةُ ، قال : فما آفة الذَّهْنِ ؟ قال : حديث النفس ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : الْعُدْمُ ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفَةَ لِمَنْ كَرَّمَ حَسْبُهُ ، وطاب نسبه ، وزكا فرعه ، قال : امتلأت شِقَاقًا ، وأظهرت فِتْنًا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلا ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

* * *

(١) الكفة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهران يصبان في دجلة .

(٣) الإبلاء : الإتمام والإحسان بلوت الرجل ، وأبليت عنده إبلاء حسنا ، وأبلاء الله إبلاء حسنا .

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القرية ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن ركبٌ وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : أخرج مما قلت ، قال : « أفعلُ ، أما الدنيا فإلٌ حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، وأما الآخرة فميزانٌ عادل ، ومشهدٌ ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان هلَى اعترفتُ وإن كان لي اغترفتُ^(١) » قال : أما لي فاعترفُ بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقرني عترتي وأسفني ربي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة^(٢) ؟ قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسن القائل برستيمآباد : تَدَوُّوا الجدى قبل أن يتعشاكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرسِي فاضرب عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى نسمع من كلامه ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٣٧)

٣٣٨ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر : فالعاقلُ : الدّينُ شريعته والحلمُ طبيعته ، والرأى الحسنُ سجيته ، إن سُئِلَ أجاب ، وإن نطقَ أصاب ، وإن سمع العلمَ وعى ، وإن حدثَ روى ؛ وأما الأحمق : فإن تكلمَ عجل ، وإن حدثَ وهل^(٥) ، وإن استنزلَ عن رأيه نزل ، فإن حُجِلَ على القبيح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدثته شأنك ، وإن وثقت به لم برّعك ، وإن استكتمتم لم يكتم ، وإن علمَ لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ، وإن فقه لم يفقه .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

(١) أي وأعطيت الناس منه . (٢) وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والهبوة : الغيرة . (٣) يضطرب . (٤) وروى أبو الفرج الأصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العتق صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بنى عامر » انظر الأغاني ج ١ ص ١٦٣ . (٥) ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٩ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب^(١)

لما فرّ يزيد بن المهلب من سجن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد ابن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقسم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فدأوك ، لا تُخزِر^(٢) ذمة أبي ، وأنت أحقّ من مَنعها ،

(١) وخبر ذلك أن الحجاج كان وفد على عبد الملك ، فر في منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل السكتب عالم ، فدعا به وسأله : أتعلم مالئ ، من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زبيرية الهوى ، ويخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رى بنشابة ، فتبّت نصلها في ساقه ، فهو لا يمسه شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى تغمز شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقتها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الخيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهرّبوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفّعه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . (٢) خضر به كضرب ، وأخفّره : نقض عهدده وغدره .

ولا تقطع منا رجاء من رجاء السلامة في جوارنا ، لمكاننا منك ، ولا تُذِلَّ
من رجاء العز في الانقطاع إلينا لعزتنا بك «
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

٣٤٠ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتسكلم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلنسنا ناسيه ،
ومن يكفر فلنسنا كافرينه ، وقد كان من بلاننا أهل البيت في طاعتكم ، والطمع
في أعين أعدائكم ، في المواطن العظام ، في المشارق والمغرب ، ما إن المنة علينا
فيها عظيمة . »

فأمنه الوليد وكف عنه .
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٤١ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ،
ودخل على الخليفة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من خمس ماأناء الله على المسلمين ، بعد أن صار إلى كل
ذي حق حقه من النه والغنيمة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال
له كاتبه المغيرة بن أبي قررة : لا تكتب بتسمية مال ، فإنك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره فأمرك بحمله ،
وإما سحت نفسه لك به فسوغك فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأن بك قد استفرقت
ماصميت ، ولم يقع منه موقعا ، ويبي المال الذي سميت مخلدا عندهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بعده =

« إن الله يا أمير المؤمنين صنَّع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تَحِيْسِ هذا الشيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه ، فَصَالِحِنِي على ما إياه تسأل » فقال عمر : لآ ، إلآ أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بَيْدَةٌ فخذ بها ، وإن لم تسكن بَيْدَةً فَصَدِّقْ مقالة يزيد ، وإلا فاستجلفه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أخذَه بجميع المال .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٢٢)

= أخذك به ، وإن ولى من يتعامل عليك لم يرض منك بأضعافه ؛ فلا تمض كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله القدوم ، فقتافه بما أحببت مشافهة وتقصر ، فإنك إن تقصر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) - وكان عمر ييغض يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم - دعا يزيد وسأله عن تلك الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الخمول بنشر الذكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله ، وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسعنى تركها ، ولم يزل يزيد فى محبسه ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أختى الحجاج بن يوسف ، عند يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوليد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله أنن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ، ايقطن منه طابقا (بفتح الباء وكسرهما أى حضوا) فخشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك وخلق ابن المهلب بالبصرة ، فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدى بن أرطاة الفزارى) فحبسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومسلمة ابن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب فى أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

٣٤٢ - خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك

ومسلة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فخرّضهم ورجبهم في القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غيبتهم إلا الطعن في عيونهم ، والضرب بالمشرقية^(١) على هامهم ثم قل : إنه قد ذكر لي أن هذه الجراداة الصفراء - يعني مسلة بن عبد الملك - وعافر ناقة ثمود^(٢) - يعني العباس بن الوليد - (وكان العباس أزرق^(٣) أحمر ، كانت أمه رؤمية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه ، حتى كلفته فيه ، فأفرّه على نسبه ، فبلغني أنه ليس ههما إلا التماسي في الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلا أنا ، ما برحت العرصة^(٤) حتى تكون لي أولهم » ، قالوا : نخاف أن تعنينا^(٥)

(١) المشرقية : سيوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنومن الريف ، والهامة : جمع هامة ، وهي الرأس . (٢) هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَيَنْتَجِحُ لِسَكْمِ غِلْمَانٍ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْظِمُ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد :

لا غلط ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في الشؤم ، فيقال :

« أشأم من أحمر عاد » لأن الله أهلك بفعله ثمود ، وذلك أنهم قالوا لنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان :

يا صالح إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، وصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَازْتَبْتُهُمْ وَاصْطَبِرْ) . فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية ؛

ثم قال لهم : (هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ

فِيأخذكم عذاب يومٍ عظيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) .

(والشرب : النسيب من الماء) . (٣) أي أزرق العينين . (٤) العرصة : كل بقعة بين

للأور واسعة ليس فيها بناء . (٥) عناء : أتعبه .

كما عَنَّانا عبد الرحمن بن محمد^(١) ، قال : إن عبد الرحمن فَضِّحَ الذَّمَّارَ^(٢) وَفَضَحَ حَسْبَهُ ،
وَهَلْ كَانَ يَعْدُو أَجْلَهُ ؟ ، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٤٣ - خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض ، وها كها :

عن خالد بن صفوان قال : حَطَبْنَا يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ بِوَأَسِطِ ، حَمْدَ اللَّهِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي أَسْمَعُ قَوْلَ الرَّعَاعِ ، قَدْ جَاءَ الْعَبَّاسُ ، قَدْ جَاءَ مَسْلَمَةٌ ، قَدْ جَاءَ
أَهْلَ الشَّامِ ! وَمَا أَهْلُ الشَّامِ إِلَّا تِسْعَةُ أَسْيَافٍ ، مِنْهَا سَبْعَةٌ مَعِيَ ، وَائْتَانِ عَلِيٌّ ، وَمَا مَسْلَمَةٌ
إِلَّا جَرَادَةٌ صَفْرَاءُ ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَنَسْطُوسُ^(٣) بْنُ نَسْطُوسٍ ، أَنْتَا كُمْ فِي بَرَابِرَةٍ
وَصَقَالِبَةٍ^(٤) وَجَرَامِقَةٍ وَجَرَّاجَةٍ^(٥) ، وَأَقْبَاطٌ وَأَنْبَاطٌ^(٦) ، وَأَخْلَاطٌ مِنَ النَّاسِ ؛ إِنَّمَا أَقْبَلُ
إِلَيْكُمْ الْفَلَاحُونَ وَالْأَوْبَاشُ كَأَشْلَاءٍ^(٧) الْإِحْمِ ، وَاللَّهُ مَا أَتَمُّوا قَطُّ حَدًّا كَحَدِّكُمْ . وَلَا حَدِيدًا
كَحَدِيدِكُمْ ، أَعِيرُونِي سَوَاعِدَ كُمْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ تَصْفِقُونَ بِهَا خِرَاطِيمَهُمْ^(٨) ، فَإِنَّمَا هِيَ خُدُودٌ
أَوْ رَوْحَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . »

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر . (٢) مايلزمك حفظه وحايته .
(٣) هو في العقد ، ومروج الذهب بالياء ، وفي البيان والتبيين بالنون ، وليس من ألفاظ العربية ،
وأقول : هو إما علم رومى ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ كانت أمه رومية ، أو محرف عن
« نسطورى بن نسطورى » أى نصرانى نسطورى من النساطرة إحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس
صاحب المذهب ، وكان أسقفًا بالقسطنطينية . توفي حول سنة ٤٥٠ م . (٤) البرابرة : جبل بالمغرب ؛
والصقالبة : جبل بلادهم تتاخم بلاد الخزر « شمالى بحر الخزر ، وهو بحر قزوين » أى جنوبى روسيا .
(٥) الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل الإسلام ، والجراجمة : قوم من العجم بالجزيرة ،
أو نبط الشام . (٦) أنباط : جمع نبط كجبل وقد تقدم . (٧) أشلاء : جمع شلو كحمل ، وهو العضو
وكل مسلوخ أكل منه شيء ، وبقيت منه بقية . (٨) صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم : جمع خرطوم ،
وهو الأنف .

٣٤٤ - خطبة أخرى له

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل السَّبِقِ وَالسَّابِقِ ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشام في أفواههم لِقَمَّةٌ دَسِيمَةٌ ، قد رَتَبَتْ^(١) لها الأشداقُ ، وقادوا لها على ساقٍ ، وهم غيرُ تاركِها لكم بِالْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ ، فَاَلْبَسُوا لهم جُلُودَ الثُّمُورِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٣٤٥ - خطبة الحسن البصرى يثبِّط الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ، ويسرّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصرى يُثَبِّطُ الناس عنه ، وكان يقول في تلك الأيام :

« أيها الناس : الزموا رجالكم ، وكفُّوا أيديكم ، واتَّقُوا اللهَ مَولَاكم ، ولا يَقْتُلْ بعضُكم بعضاً على دُنْيَا زَائِلَةٍ ، وطمعٍ فيها يسير ، ليس لأهلها ببق ، وليس الله عنهم فيما كتبوا براصٍ ، إنه لم يكن فتنةٌ إلاَّ كان أكثر أهلها اخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التَّيْبِ وَأَخْلِيَاءَ ، وليس يسلم منها إلاَّ الجَهِولُ الخَفِيُّ ، والمعروفُ التَّقِيُّ ، فمن كان منكم خَفِيًّا فَلْيَتَزَمِ الحَقَّ ، وليحسب نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكما والله بمعرفة الله إياه بالخير شَرَفًا ، وتكفي له به من الدنيا خَلْفًا ؛ ومن كان منكم معروفًا شَرِيفًا ، فتك ما يتنافس فيه نُظْرَاؤُهُ من الدنيا - إِرَادَةَ اللهِ بِذَلِكَ - فواهاً لهذا ، ما أَسْعَدَهُ وَأَرْشَدَهُ ، وَأَعْظَمَ أَجْرَهُ ، وَأَهْدَى سَبِيلَهُ ! فهذا غدا - يعني يوم القيامة - القَرِيرُ عَيْنًا ، الكَرِيمُ عِنْدَ اللهِ مَآبًا » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٣)

(١) رتبت: أى ثبتت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . (٢) أى تنكروا لهم ، واستعدوا لمناضلتهم .

٣٤٦ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد
ثم قال لهم :

« قد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرأى - ولم يُسمَّه - يثبط الناس ، والله لو أن
جاره نَزَعَ من خُصِّ داره قَصَبَةً ، أَظَلَّ يَرُغِفُ^(١) أَنْفَهُ ، أَيْنُكِرُ عَلَيْنَا ، وَتَلِي أَهْل
مِصْرِنَا ، أَنْ نَطْلُبَ خَيْرِنَا ، وَأَنْ نُنْكَرَ مَظْلِمَتِنَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَيْكُنَّ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَعَنْ
جَمْعِهِ إِلَيْنَا سُقَاطُ الْأَبْلَةِ^(٢) ، وَعُلُوجُ فُرَاتِ الْبِصْرَةِ ، قَوْمًا لَيْسُوا مِنْ أَنْفُسِنَا ، وَلَا يَمُنُّ
جَرَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ مِنْ أَحَدٍ مِنَّا ، أَوْ لَا نُحْيِيَنَّ عَلَيْهِ مَبْرَدًا خَشِينًا . »

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : وَاللَّهِ مَا أَكْرَهُ أَنْ يُكْرِمَنِي اللَّهُ بِهَوَاهِ ، فَقَالَ نَاسٌ
مِنْ أَصْحَابِهِ : لَوْ أَرَادَكَ ثُمَّ شِئْتَ لِمَعْنَاكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ خَالَفْتُمْ إِذْنًا إِلَى مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ ،
أَمْرُكُمْ أَلَّا يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مَعَ غَيْرِي ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا دُونِي ؟
فَبَلَغَ ذَلِكَ مَرْوَانَ بْنَ الْمُهَلَّبِ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ وَأَخَافَهُمْ ، وَطَلَبَهُمْ حَتَّى تَفَرَّقُوا ، وَلَمْ يَدْعُ
الْحَسَنُ كَلَامَهُ ذَلِكَ ، وَكَفَّ عَنْهُ مَرْوَانُ .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

(١) رَغِفَ : خرج من أنفه الدم . (٢) جمع ساقط : وهو الشيء في حسبه ونفسه ، والأبلة :

موضع بالبصرة .

خطب الأحنف بن قيس التيمي^(١)

٣٤٧ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام عليّ ، كرم الله وجهه ، وقعة صفين ، فلما استقرّ الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكركم يوم صفين إلا كانت حَزَاوَةً^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » .

فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم تَرُدُّ الأمور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوارحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن مددت بشبر من غدْر ، لمددنا باعاً من ختر^(٣) ، ولئن شئت المستصفين كدّر قلوبنا بصفو حملك » ، قال معاوية : فإني أفعل .

ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : يا أمير المؤمنين : من هذا الذي يتهدّد ويتوعد ؟ قال : هذا الذي إذا غضب ، غضب انضبه مائة ألف من بني تميم ، لا يدرون فيم غضب .

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٣٠ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) هو أبو بجر الضحاك بن قيس سيد بني تميم ، والمضروب به المثل في الحلم ، وهو من سادات التابعين ؛ أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ؛ وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما ؛ وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ؛ ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ؛ وبقى إلى زمن مصعب بن الزبير ؛ فخرج معه إلى الكوفة ؛ فمات بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ؛ لأنه كان أحنف الرجل - مائلها - يطاء على وحشها) . (٢) الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه .

(٣) الباع : قدر مد اليدين ، والحتر : أقبح العذر .

٣٤٨ - الأحنف ومعاوية أيضا

جلس معاوية يوما ، وعنده وجوه الناس وفيهم الأحنف ، فدخل رجل من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخرَ كلامه أن لعنَ علياً رضي الله عنه ، فأطرق الناس وتكلم الأحنف ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هذا القاتلَ ما قال آناً ، لو علم أن رضاك في لعن المرسلين ل لعنهم ، فاتقِ الله ، ودع علياً ، فقد آتَى الله ، وأُفرد في حُفرتِه ، وَخَلَا بعمله ، وكان والله - ما علمنا - المبرزَ بِسِفِّهِ ^(١) ، الطاهرَ في خُلُقِه ، الميمونَ النَّقِيْبَةَ ^(٢) العظيمَ المصيبة . »

قال معاوية : « يا أحنف ، لقد أغضيتَ العينَ على القذَى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وإيَّم الله لَتَصْعَدَنَّ المنبرَ فَلَتَلْمَعَنَّه طائِماً أو كارهاً » فقال الأحنف : « إن تُعْفِنِي فهو خير ، وإن تجبرني على ذلك ، فوالله لا تجرى به شفتاي » ، فقال معاوية : قم فاصعد . قال : « أما والله لا نُصَفِّنَكَ في القول والنعل » ، قال معاوية : وما أنت قائلٌ إن أنصفتني ؟ » ، قال : « أضعدُ فأحمد الله ، وأثنى عليه وأصلى على نبيه ، ثم أقول : « أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعنَ علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا وافتتلا ، وادَّعى كل واحد أنه مَبغِيٌّ عليه وعلى فِئته ، فإذا دعوتُ فأمنوا رحِمَكُم الله ! » ثم أقول : اللهم لعن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغِيَّ منهما على صاحبه ، وَالْفِئَةَ الباغية على المَبغِيِّ عليها ، اللهم العنهم لعناً كبيراً ، آمنوا ، رحِمَكُم الله » ، يامعاوية لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفاً ، ولو كان فيه ذهابُ نفسي . فقال معاوية : « إذن نُعْفِيكَ يا أبا بحر » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والمعقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) الشق : الجانب ، ورواية المعقد « المبرز سيفه » وبرز تبريزا : فاق أصحابه فضلاً أو شجاعة .

(٢) النقية : النفس .

٣٤٩ - قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجاباً به ، فقال :
يا أبا بجر ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ،
وتمرّ قلوبنا ، وقرّةُ أعيننا^(١) ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ،
فكن لهم أرضاً ذليلة ، وسماءَ ظليلة ، إن سألك فاعطهم ، وإن استعجبوك فاعجبهم^(٢) ،
لا تمنعهم رفقك^(٣) ، فيمّلوا قُربك ، ويكرهوا حيانك ، ويسنبطوا وفانك » .
فقال : لله درك يا أبا بجر ! هم كما وصفت .
(الأمال ٢ : ٤٣)

٣٥٠ - شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير يكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ،
إن كانوا حُبِسُوا في باطل ، فالحقُّ يُخرِجهم ، وإن كانوا حُبِسُوا في حق ، فالعفو
يسعهم » ، فخلّاهم^(٤) .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٥١ - نصيحته لقومه

وقال بجزاسان : « يا بني تميم تحابوا تجتمع كلمتكم ، وتبأذلوا تعتدل أموركم ،
وابدءوا بجهاد بطونكم وفرّوجكم ، يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا^(٥) يسلم لكم
جihadكم » .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

(١) تمرت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه . (٢) استعجبه :
طلب إليه العتبي (أى الرضا) وأعجبه : أعطاه العتبي . (٣) الرشد : العطاء . (٤) وفق وفيات
الأميان لابن خلسكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول لشعبي كالم به عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراق .
(٥) أى لا تخونوا .

٣٥٢ - خطبته في قوم كانوا عنده

وحدّث رجل من بنى تميم قال : حضرت مجلس الأحنف بن قيس ، وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الكرم يمنع الحرم ^(١) ، ما أقرب النعمة من أهل البغي ، لا خير في لذة تعقب ندما ، لن يهلك من قصد ^(٢) ، ولن يفتقر من زهد ، رب هزل قد عاد جدياً ، من أمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، دعوا المزاح ، فإنه يؤرث ^(٣) الضغائن ، وخير القول ما صدقه الفعل ، احتملوا لمن أدل ^(٤) عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم . أطع أخاك وإن عصاك ، وصله وإن جفاك ، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك ، وإياكم ومشاورة النساء ، واعلم أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالدمم ، ما أبيض القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ^(٥) ، والعداوة بعد الود ! لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى التبذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مشواك ^(٦) ، فأنفق في حق ، ولا تكونن خازناً لغيرك ، وإذا كان الغدر في الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد عجز ، اعرف الحق لمن عرفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل تمديل صلة العاقل . »

(الأمل : ٢ : ٢٢)

(١) الحرم: جمع حرمة بالضم ، وهي مالا يحل انتهاكه . (٢) القصدوا: الاقتصاد : ضد الإفراط .

(٣) التآريث : إيقاد النار . (٤) تدلل . (٥) اللطف : اسم من اللطف بالضم .

(٦) آخرتك .

٣٥٣ - كلمات حكيمة للأخف

قال : في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعْتَبِر : ما دخلت بين اثنين قَطُّ حتى يُدْخِلَانِي بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم أَدْعَ إليه ، وما حَلَّتْ حَبُوتِي^(١) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى الْمَحْمُودَةِ بِلا مَرْزِيَّةٍ^(٢) ؟ الخلق السَّجِيح^(٣) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأذوِّ الداء ؟ الخلقُ الدنيءُ ، واللسانُ البذيءُ » ، وقال : « ماخان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن » . وقال : « ما ادخرتِ الآباء للأبناء ، ولا أبقتِ الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عُرِفَ به » . وسمع رجلاً يقول : ما أبالي أمدحتُ أم ذممت . فقال له : « لقد استرحت من حيث تُعيب الكرام » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء ، فإنى لأبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه ، وإن المرءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتميه » . وكان يقول : إذا عجب الناس من حلمه : « إنى لأجد ما تجدون ولكنى صبور » . وكان يقول : « وجدت الحلم أنصرلى من الرجال » . وقال : « الكذوب لاحيلة له ، والحسود لا راحة له ، والبخیل لا مروءة له ، والمألل لا وفاء له ، ولا يسود سبى الأخلاق ، ومن المرءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم ذلك ويتجمل » . وقال : « أربع من كنن فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بمخصلة منهن كان من صالحى قومه : دين يرشده ، أو عقل يسدده ، أو حسب يصونه ، أو حيال يقنائه^(٤) » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، وموافق يُبغضه ، وكافر يجاهده ،

(١) احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة بالفتح ويضم .

(٢) رزاه مرزئة : أصاب منه خبراً ، والشئ ناقصه : أى دون أن تفرموا فى سبيلها مالا .

(٣) اللين السهل . (٤) قى الحياء كرضى ورمى : لزمه كأقنى .

وشيطان يَفْتِنُهُ ؛ وأربع ايس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهم حلال ، وأخ في الله «
 وقال : « لَأَنْ أَدْعَى مِنْ بَعِيدٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْصَى مِنْ قَرِيبٍ » . وكان يقول :
 « إِيَّاكَ وَصَدْرَ الْجُلُوسِ ، وَإِنْ صَدَّرَكَ صَاحِبُهُ ، فَإِنَّهُ مَجْلِسٌ قُلْعَةٌ ^(١) » . وقال : « مَنْ لَمْ
 يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِمَاتٍ » . وقال : « رَبُّ غَيْظٍ تَجْرَعُهُ مَخَافَةٌ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ » . وقال :
 « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ طَالَ صَمْتُهُ كَثُرَتْ سَلَامَتُهُ » . وقال : « ثَلَاثٌ
 لَا أُنَاةَ فِيهِنَّ عِنْدِي » . قيل : « وَمَا هُنَّ يَا أَبَا بَجْرٍ ؟ » . قال : « الْمِبَادِرَةُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ،
 وَالْمُخْرَاجُ مِنْكَ ، وَأَنْ تَنْكِيحَ الْكُفَّاءَ أَيْمَانَكَ ^(٢) » . وكان يقول : « لَأَنْفَى تَحَكُّكَ
 فِي نَاحِيَةِ بَيْتِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَيْمٍ رَدَدْتُ عَنْهَا كُفْمًا » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، ومجمع الأمثال للميداني ١ : ١٤٨ ؛ والأمال

١ : ٢٣٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

٣٥٤ - صفة بنت هشام المنقرية ثوبن الأحنف

وروي أنه لما سُحِلَتْ حِنَاةُ الْأَحْنَفِ ، وَدُلِّيَ فِي قَبْرِهِ ، أَقْبَلَتْ ابْنَةَ عَمِّهِ صَفِيَّةَ بِنْتَ
 هِشَامِ الْمُنْقَرِيَّةِ عَلَى نَجِيبٍ لَهَا مُخْتَصِرَةٌ ^(٣) ، فَوَقَفَتْ عَلَى قَبْرِهِ ، فَقَالَتْ :
 « لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ مَجْنُنٍ فِي جَنِّينٍ ^(٤) ، وَمُدْرَجٍ ^(٥) فِي كَفِّنٍ ! إِنْ لَمْ يَلَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !

(١) مجلس قلعة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرة بعد مرة . (٢) الأيم : من لازوج ، لها بكرا
 أو ثيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطأ ؛ وما بعد منهن من الأكفاه ، إلا بذهن
 للسفلة والغوغاء » . (٣) النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ؛ واختصر : أمسك المختصرة
 « والمختصرة ككسنة : عصا يمسكها الخليل يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسكه .
 وفي رواية الجاحظ : « وقامت فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة
 فقالت . . . » ؛ وفي رواية أبي علي القالي : « جاءت امرأة من قومه من بني منقر عليها قبول من النساء ؛
 فوقفت على قبره فقالت . . . » — والقبول بالفتح ويضم : الحسن — . (٤) من أجنه : إذا ستره ؛
 والجنن : جمع جنة كقبة ، وهي الوقاية ؛ والجنن كسبب : القبر والسكنن . (٥) مطوى .

نسأل الله الذي جَمَعَنَا بِمَوْتِكَ ، وابتلانا بِفَقْدِكَ ، أن يُوسِعَ لك في قبرك ، وأن يَغْفِرَ
لك يوم حَشْرِكَ ، وأن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلَكَ ، ودليلَ الرشادِ دليلَكَ ، ثم أَقبلتَ
بوجهها على الناس ، فقالت : « مَعْتَمِرَ النَّاسِ ، إن أولياءَ الله في بلاده ، تُهَوِّدُ على عبادِهِ ،
وإننا قائلون حَقًّا ، وَمُتَمَنِّونَ صِدْقًا ، وهو أهلُ الحَسَنِ النَّعْمَاءِ ، وطَيِّبِ الدَّعَاءِ ؛ أما والذي
كنتَ من أَجلِهِ في عِدَّةٍ ، ومن المِنْضَمَارِ^(١) إلى غَايَةِ ، ومن الحَيَاةِ إلى نَهَايَةِ ، الذي رَفَعَ
عَمَلَكَ ، عند انقضاء أَجَلِكَ ، لقد عِشْتَ حَمِيدًا مَوْدُودًا ، ولقد مُتَّ فَقِيدًا سَعِيدًا ، وإن
كنتَ لَعَظِيمِ السَّلْمِ ، فَاضِلِ الحِلْمِ ، صَحِيحِ الأَدِيمِ^(٢) ، مَنِيعِ الحَرِيمِ ، وَارِي الزَّنَادِ ،
رَفِيعِ العِمَادِ ، وإن كنتَ في المحافلِ لَشَرِيفًا ، وعلى الأَرَامِلِ لَعَطُوفًا ، وفي العَشِيرَةِ
مُسَوِّدًا ، وإلى الخلفاءِ مَوْفِدًا ، ولقد كانوا لَقَوْلِكَ مُسْتَمِعِينَ ، ولرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ » .
ثم انصرفت . (ذيل الأمالِ ص ٢٨ ، وبلاغات النساءِ ص ٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

(١) في الأمالِ : « ومن الضمان » ؛ وفي بلاغات النساءِ : « ومن الضمان » وأرى أن صوابه « ومن

المضمار » لقوله بعد : « إلى غاية » (٢) الأديم : الجلد ؛ والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٥٥ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عبادة قَطَوَانِيَّة^(١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةُ^(٢) صوف وشملة^(٣) ، فلما أمثلا بين يدي معاوية افتحمتهما^(٤) عينه ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العبادة لانكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأومأ إليه لجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مه ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، أهل البصرة عدد يسير ، وعَظْمُ كَسِيرٍ ، مع تقايُع من المَحُول^(٥) ، واتصال من الذُحُول^(٦) ، فالمُكْتَبِرُ فيها قد أطرق ، والمَقْلَقُ قد أملق ، وبلغ منه المَخْنَقُ ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقير ، ويَجْبُرَ الكَسِيرَ ، ويسهّلَ العَسِيرَ ، ويصفح عن الذُحُولِ ، وَيُدَاوِيَ المَحُولِ ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويُرْزِلَ اللأواء^(٧) ، وإن السيدَ مَنْ يعم ولا يُحْصَى ، ومن يدعو الجفلى^(٨) ولا يدعو النقرى ، إن أحسن إليه شكر ،

(١) نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . (٢) المدرعة : ثوب ولا يسكون إلا من صوف . (٣) الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به . (٤) ازدرتهما . (٥) جمع محل كشمس : وهو القحط والجذب . (٦) جمع ذحل كشمس أيضاً : وهو الثأر . (٧) الشدة . (٨) الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة .

وإن أرسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عهاداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بجر ، ثم تلا : (وَلَقَدْ عَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١)) .
(زهر الآداب ١ : ٥٧)

٣٥٦ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قدم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ، فقال : إن أمير المؤمنين يهزم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف :

« لولا عزيمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافقة ^(٢) دفت ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، ونائبة نبتت ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره » ، فقال : حسبك يا أبا بجر فقد كفييت الغائب والشاهد .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ، فقال زياد :

٣٥٧ - خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أشخصت إليك أقواماً الرغبة ، وأقعدت عنك آخرين العذر ، فقد جعل الله تعالى في سعة فضلك ما يُجبرُّ به المتخلف ، ويكافأ به الشاخص » .

(١) أى فى معناه وفجواه . (٢) الدافقة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت علينا من بنى فلان دافة ، والدافقة أيضاً : قوم من الأهراب يريدون المصر ، والدافقة : الجيش يدفون نحو العدو أى يدبون .

٣٥٨ - خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَّ حَبَابًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَنْ فَرَّقْتُ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُمْ الرَّحِمَ ، إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيَخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ بِأَنْ تَخْتَارَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّأَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تُدْنِسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ . »

٣٥٩ - خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعَدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيَا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَمْ تَتَّبِعْ آثَارَكَ فَيُنَا ، فَتَسْتَمْتِعُ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمُدَّاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبِيلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطَى إِلَّا وَشِيحَهُ وَتُفْرَسُ إِلَّا فِي مَفَا بَيْهَا النَّخْلُ ^(٢)»

(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٦٠ - وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دغفل ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغْفَلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي نِزَارٍ : رَيْبَعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُضَرٌّ بِنِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قَالَ مَعَاوِيَةُ : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قَالَ :

(١) الجزيل : العاقل الأصيل الرأي . (٢) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين

تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لأنه منبتها ، والشويج : شجر الرماح جمع وشيجة . (٣) هو دغفل

ابن حنظلة النسابة من بني شيبان .

بنو النَّضْر بن كِنانة ، كانوا أكثر العرب أَمْجَادًا ، وأَرْفَعَهُمْ عَمَادًا وأَعْظَمَهُمْ رَمَادًا .
قال : فأىُّ بنى كِنانة كان بَعْدَهُمْ أَعْزَّ ؟ قال : بنو مالك بن كِنانة ، كانوا يَمْلُؤُونَ من
سَامَاهُمْ ، وَيَكْفُؤُونَ من نَأْوَاهُمْ ، وَيَصْدُقُونَ من عَادَاهُمْ . قال : فَنَ بَعْدَهُمْ ؟ قال :
بنو الحُرث بن عبد مَناة بن كِنانة ، كانوا أَعْزَّ بَنِيهِ وَأَمْنَهُمْ ، وأَجُودَهُمْ وَأَنْفَعَهُمْ . قال :
ثمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ ؟ قال : بنو بكر بن عبد مَناة ، كان بِأَسْهُمٍ مَرهُوبًا ، وَعَدُوهِمْ مَنْكُوبًا ،
وَنَارِهِمْ مَطْلُوبًا . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مَناة بن كِنانة ، وعن مَرْثَةَ وَعَاصِرِ
ابنِ عبد مَناة . قال : كانوا أَشْرَافًا كَرَامًا ، وليسَ للِقَوْمِ أَكْفَاءٌ ولا نُظْرَاءُ . قال :
فأخبرني عن بنى أَسَدٍ ؟ قال : كانوا يُطْعِمُونَ السَّدِيفَ^(١) ، وَيُكْرِمُونَ الضِّيَوفَ ،
وَيَضْرِبُونَ في الزُّحُوفِ^(٢) ، قال : فأخبرني عن هُدَيْلٍ ، قال : كانوا قَلِيلًا أَكْيَاسَ^(٣) ،
أهل مَنَعَةٍ وبَاسٍ ، يَنْتَصِفُونَ من النَّاسِ ، قال : فأخبرني عن بنى ضَبَّةٍ ؟ قال : كانوا
جَمْرَةً من جَمَرَاتِ العرب الأَرْبِيعِ^(٤) ، لا يُصْطَلَى بِنَارِهِمْ ، ولا يُفَاتُونَ بِنَارِهِمْ ، قال :
فأخبرني عن مُزَيْنَةَ ، قال : كانوا في الجاهلية أهل مَنَعَةٍ ، وفي الإسلام أهل دَعَاة . قال :
فأخبرني عن تَمِيمٍ ، قال : كانوا أَعْزَّ العرب قَدِيمًا ، وأَكْثَرُهَا عَظِيمًا ، وَأَمْنُهُمَا حَرِيمًا ،
قال : فأخبرني عن قَيْسٍ ، قال : كانوا لا يَفْرَحُونَ إِذَا أُدِيلُوا^(٥) ، ولا يَجْزَعُونَ إِذَا ابْتُلُوا ،
ولا يَبْتَخَلُونَ إِذَا سُئِلُوا ، قال : فأخبرني عن أَشْرَافِهِمْ في الجاهلية ، قال : غَطَفَانُ بنِ سَعْدٍ
وعَاصِرُ بنِ صَمْعَةَ وَسَلِيمُ بنِ مَنصُورٍ ؛ فَأَمَّا غَطَفَانُ كَرَامًا سَادَةً ، وللخَيْبِيسِ^(٦)

(١) شحم السنام . (٢) مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .

(٣) جمع كيس : وهو المائل . (٤) قال صاحب المقد : « جمرات العرب ، هم

بنو نمير بن عامر بن صعصعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو عيس

ابن يغيث ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تجمعت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير :

التجميع ، ومنه قيل : جمرة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تجمروا المسلمين فتفتنوا ، وتفتنوا

نساءهم ، يعني لتجمعهم في المغازي . الخ - المقد ٢ : ٥٧ . (٥) أداله الله من عدوه : نصره عليه .

(٦) الخميس : الجيش . سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ،

قادة ، وعن البيض ذادة^(١) ؛ وأما بنو عاصم فكثير سادتهم ، مخشية سطورهم ،
ظاهرة نجدتهم ؛ وأما بنو سليم فكانوا يدركون النار ، ويمنعون الجار ، ويعظمون^(٢)
النار ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن وائل واصدقني ، قال : كانوا أهل عز قاهر ،
وشرف ظاهر ، ومجد فاخر ، قال : فأخبرني عن إخوانهم تغلب ، قال : كانوا أسودا
ثرهبا ، وسامما^(٣) لا تقرب ، وأبطلا لا تكذب ، قال : فأخبرني كم أدبوا عليكم
في قتلكم كليليا ؟ قال : أربعين سنة ، لاننتصف منهم في موطن نلقاهم فيه ، حتى كان
يوم التحاليق ، يوم الحرث بن عباد بعد قتلة ابنه بجير ، وكان أرسله في الصلح بين القوم
فقتله مهلهل ، وقال : بؤ بشنع^(٤) نعل كليب ، فقال الغلام : إن رضيت بهذا بنو بكر
رضيت ، فبلغ الحرث ، فقال : نعم القتل قتيلا إن أصاح الله به بين بكر وتغلب وباء
بكليب ، فقيل له : إنما قال مهلهل ما قال (الكلمة^(٥)) ، فتشمر الحرث للحرب ،
وأمرنا بخلق ره وسنا أجمعين ، وهو يوم التحاليق ، وله خبر طويل ، وقال :

قربا مربط النعامة منى لقيحت حرب وائل عن حبال^(٦)
لم أكن من جناتها - علم الأله - وإني بجرها اليوم صالي
قربا مربط النعامة منى إن بيع الكرام بالشنع غالي

فأدبنا عليهم يومئذ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فمن ذهب يذكر
ذلك اليوم ؟ قال : الحرث بن عباد ، أسر مهلهلا في ذلك اليوم ، وقال له : دأني على
مهلهل بن ربيعة ، قال : مالي إن دللتك عليه ؟ قال : أطلقك ، قال : على الوفاء ؟ قال :
نعم ، قال له : أنا مهلهل ، قال : ويحك ! دأني على كفاء كريم ، قال : امرؤ القيس^(٧)

(١) البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها .

(٢) كناية عن الكرم . (٣) جمع سم مثلث السين . (٤) الشنع : سير يشد به النعل .

(٥) هي قوله (بؤ بشنع نعل كليب) . (٦) النعامة : اسم فرسه ، ولقيحت الناقة : قبلت اللقاح

وحالت حبالا : لم تفلح سنة ، أو سنتين ، أو سنوات . (٧) هو امرؤ القيس بن أبان التغلبي .

وأشار بيده إليه عن قُرْب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كلاهما صَبْرَتْ وَأَبْنَتْ لِحْسُنِ بِلَاؤِهَا ، إلا ما كان من ابني لُجَيْمِ : حَذِيفَةَ وَعِجْلَ ، وَيَشْكُرُ ابن بكر ، فَإِنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكِ بْنِ ضُبَيْعَةَ جَدَّ طَرَفَةَ بْنَ الْعَبِيدِ ، هَجَامَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فقال :

إِنَّ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارْسًا وَاحِدًا^(١)
وَيَشْكُرُ الْعَامَ عَلَى خَيْرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ لَهُمْ حَامِدًا^(٢)
وقال فيهم أيضًا :

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَاخُوا^(٣)
إِنَّا وَإِخْوَتَنَا غَدًا كَثَمُودَ حِجْرٍ يَوْمَ طَاحُوا^(٤)
بِالْمَشْرِقِيَّةِ لَا نَفَ رَ وَلَا نَبَاحُ وَلَنْ تَبَاحُوا^(٥)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ^(٦)
فقال معاوية : أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطبةً بأخبار العرب .

(ذيل الأمل ٢٦)

(١) الإرفاد : الإعانة والإعطاء . (٢) الخمر : الغدر أو أقيحه . (٣) أراهط : جمع الجمع لرهط . (٤) الحجر : واد بين المدينة والشام : مساكن ثمود قوم صالح . (٥) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية . وفي ذيل الأمل « ولا نباح ولن نباحوا » بالنون وقد أصلحته « ولن تباحوا » بالثاء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، أى ولن تباحوا يا قوم مادمننا لكم حاة ، وقال مصحح الأمل : « ولن نباحوا » كذا في الأصل ، وأمل هنا تحريفًا ، ووجه الكلام « كمن يباح » . (٦) قولهم لا براح كقولهم لا ريب ، ويجوز رفعه فتكون لا بمنزلة ليس .

٣٦١ - دغفل وجماعة من الأنصار

ووقف جماعة من الأنصار على دغفل بعد ما كف ، فسلموا عليه ، فقال :
مَنْ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : سَادَةُ الْبَيْنِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا الْعَمِيمِ ،
كِنْدَةَ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَأَنْتُمْ الطَّوَالُ قَصَبًا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ، بَنُو عَبْدِ الْمَدَّانِ ؟ »
قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّحُوفِ ، وَأَخْرُقُهَا لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ،
رَهْطُ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قِرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا
فِنَاءً ، وَأَشْدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ،
وَالْمَطْعِمُونَ فِي الْمَحَلِّ ^(٢) ، وَالْقَاتِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْآنصَارُ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ .
(الأمل : ٢ : ٢٨٧)

٣٦٢ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فِيهِمْ
أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسَخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، وَأَحْلَمُ النَّاسِ ،
وَأَحْضَرُ مِمْ جَوَابًا .

قَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي قَرِيشٍ ،
قَالَ : لَا ، قَالُوا : فِي حَيْبٍ وَمَلُوكِهَا ، قَالَ : لَا ، قَالُوا : فِي مَضَرَ ، قَالَ : لَا ، قَالَ مَضَقَلَةَ
ابْنِ رُقَيْبَةَ الْعَبْدِيِّ : فَهِيَ إِذَنْ فِي رِبِيعَةَ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ
هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : نَعَمْ .
أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمُ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) قرى الضيف كرى قرى بالكسر ، والقصر : وقرأ بالفتح والمد : أضافه .

(٢) الجهل : الجذب والشدة .

فَقَطَعَتْ سَاقَهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا فِي جَدْلِهِ ^(١) عَنِ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ جَنَّا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَرَّ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيمُ ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادِي ^(٢) هَذَا ، وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعِي إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي أَنْحِي بِهَا كُرَاعِي ^(٣)

وَأَمَّا أَسْحَى النَّاسِ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ سُوَارٍ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةَ عَلَى السَّنَدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، اعْتَلَّ بِمِضِّ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَهَى حَبِيبًا ^(٤) ، فَعَمِلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، فَسُمِّيَ مُطْعِمَ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشْرِ بْنِ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتْ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدِمَ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرَّذَّةِ دِينَارٌ أَوْ دَرَمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَيَّ مِثْلَاهُ » فَسَاخَلَنَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَعْمَةَ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : مَرَّحِبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةَ ، مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَيَّ خَيْرِ أَمِيرٍ يَبْرَأُ كَبِيرِكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرِكُمْ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَوَلَدَ أَبِي سَفِيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَى صَعْمَةَ فَقَامَ :

فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهي الأرض . (٢) الوساد : المتكأ ، والمخذة كالبرسادة ويثلث . (٣) لا تراعى : لا تفرغى ، والكراع : جماعة الخيل . (٤) الخبيص : نقي الدقيق يخلط بالعمل ، والخبيصة : أخص منه ، وخبيص الحلواء كضرب ، وخبيصها : بالتشديد خلطها وعملها .

« أما قولك يا معاوية : إنا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمري ، ما الأرضُ تقدّسَ
الناسَ ، ولا يقدّسُ الناسَ إلا أعمالهم ، وأما قولك : منها المنشر ، وإليها المخشّر ،
فلعمري ، ما ينفع قريئها ، ولا يضرُّ بعُذها مؤمننا ، وأما قولك : لو أن الناسَ كلهم ولدُ
أبي سفيان لكانوا حلماً عقلاء ، فقد ولدتم خيرٌ من أبي سفيان آدمُ صلوات الله عليه ،
فمنهم الحلِيم والسفيه ، والجاهل والعالم . »

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القيسِ قدِموا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقاتهم
وفيهم الأشج^(١) ، ففرقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول عطاء فرقة في أصحابه ،
ثم قال : يا أشجُ ادنُ مني ، فدنا منه ، فقال : « إن فيك خلتين يجبهما الله : الأناة ،
والحلم » وكفى برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً ، ويقال : إن الأشج لم يَغضب قط^(٢) .
(المقد الفريد ٢ : ٥٦)

٣٦٣ - وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عُتْبَةَ بن أبي سفيان ، قال :
عَمِمَت النساءُ أن يَلِدْنَ مثل عمِّي ! شهدته يوماً ، وقد قدِمَت عليه وفود العرب ،
فقضَى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :
« جزاكم الله يا معشرَ العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم إليهم في الحرب ،
وتقديمكم لهم في السِّلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثّر عليكم غيركم
منهم حازمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لئيم ، شجرةٌ قامت على ساق ،
فتفرّغ أعلاها ، واجتمع أصلها ، عَضَدَ اللهُ مَنْ عَضَدَهَا ، فيالها كَلَّةٌ لو اجتمعت ! وأيد
لو ائتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » .
(المقد الفريد ٢ : ٤١)

(١) هو عبد الله بن عوف الأشج .

(٢) هذا المقال يزيد على العنوان الذي عنوانته به ، وقد أردت من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

٣٦٤ — وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزل أهرُ ذوائب^(٢) الرِّحال إليك ، إذ لم أجد مَمُولًا إلا عليك ، أمطى الليل بعد النهار ، وأميم^(٣) المَجَاهِلَ بالآثار ، يقودني إليك أمل ، وتسوقني بلوى ، والمجتهد يُعذّر ، وإذ بلغتكَ فَقَطَنِي^(٤) » ، فقال معاوية : أَحْطُطُ عن راحلتك رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزل أستدِلُّ بالمعروف عليك ، وأمطى النهار إليك ، فإذا ألوى^(٥) بي الليل ، فقَبَضَ البصرَ ، وعَفَى الأثرَ ، أقام بدني ، وسافر أملِي ، والنفس تلوم ، والاجتهاد يَعْذِرُ ، وإذ بلغتكَ فَقَطَنِي » .

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائفة^(٦) ، فهلك هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزُرارة : أتاني اليوم نَعْيُ سيد شباب العرب ، قال زُرارة : يا أمير المؤمنين هو ابني أو ابنك ؟ قال : بل ابنك ، قال : للموت ما تَلِدُ الوالدة .

(المقدم الفرید ١ : ١١٨ ، وصحيح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والأمال ١ : ٢٠١)

(١) في صحيح الأعشى « عبد العزى » وفي الأمال : « قال رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

(٢) جمع ذؤابة : وهي الجملة المطلقة على آخرة الرحل ، وفي صحيح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

(٣) وصمه بسمه : علمه بعلامته . (٤) فحسبى . (٥) المراد جن على ، وأحدقت في ظلمته ،

يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به المنقاه : طارت به ، وألوى بما في الإناء : استأثر به .

(٦) الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يفتنون صيفا لمكان البرد والتلج .

٣٦٥ - وفود زيد بن مَنِيَّة على معاوية

قدم زيد بن مَنِيَّة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يَعْلَى بن مَنِيَّة ^(١) صاحب
جمل عائشة ، ومتولّى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبي سفيان
قد تزوج ابنة يعلى بن مَنِيَّة) ، فلما دخل على معاوية شكّا إليه ديناً لزمه ، فقال : يا كعبُ
أعطه ثلاثين ألفاً ، فلما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : الخلق
بصهرك ، (يعنى عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر) فقدم عليه مصر ، فقال :
« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتآلفَ ، ألبسَ أزديةَ الليل مرةً ،
وأخوضُ في لُججِ السّراب ^(٢) أخرى ، مُوقراً ^(٣) من حُسنِ الظن بك ، وهارباً من
دهرٍ فطَمَ ^(٤) ، ودينٍ لزم ^(٥) ، بعد غنى جدّنا به أنوفَ الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك
مَهْرَباً ، وعليك مَعْوِلاً » ، فقال عتبة : « سرحباً بك وأهلاً ، إن الدهر أعاركم غنى ،
وخاطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منا مالا ضيقة ^(٦) معه ، وأنا
واضع يدي ويدك بيد الله » ، فأعطاه سبعين ألفاً كما أعطاه معاوية .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

(١) في صبح الأعشى والعقد «منبه» بالياء وهو تصحيف والصواب «منية» وهو اسم أمه ، واسم أبيه أمية ،
واللتصحیح من تاريخ الكامل لابن الأثير. وكان يعمل عاملاً لعثمان رضى الله عنه على اليمن ، فلما ولى على رضى الله عنه
الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعمل إلى مكة ومعه مال كثير ، وانضم إلى السيدة
عائشة رضى الله عنها في قتال على في وقعة الجمل . (٢) المراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .
(٣) محملاً من الوقر بالكسر: وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة إيقاراً .
(٤) يروى بالفاء والقاف ، فطمه وقطمه : قطعه ، وضبط في صبح الأعشى بالقاف ، وبالطاء
المكسورة وصف من قطم كفرح : اشتمى اللحم أو غيره . (٥) وفي صبح الأعشى : « ودين أزم »
وأزم كضرب وفرح : عض بالفم كله شديداً . (٦) الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

٣٦٦ - وفود ضرار بن حمزة الصدائى على معاوية

دخل ضرار بن حمزة الصدائى^(١) (وكان من خواص على كرم الله وجهه) على معاوية وافداً ، فقال له : يا ضرار ، صف لى علياً ، قال : أعفنى يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفنّه ، قال : « أما إذ لا بدّ من وصفه ، فكان والله بعيد المدى^(٢) ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجّر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله عزيز العبرة ، طويل الفكرة ، يُقلّب كفه ، ويخاطب نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يُجيبنا إذا سألناه ، ويُنبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقُربِه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لهظمه ، يُعظم أهل الدين ، ويحبّ المساكين ؛ لا يطعم القويّ فى باطله ، ولا يبيس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيتَه فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدره^(٣) ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى نحرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تملل السليم^(٤) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرّى غيرى ، ألى تعرّضتِ ، أم إلى تشوّقتِ ؟ هيهات هيهات ا قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فممرّك قصير ، وخطرك^(٥) حقير ، آه من قلة الزّاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! » فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبِحَ واحدها فى حجرها .

(الأمالي ٢ : ١٤٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن

أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

(١) صداء كغراب : حى باليمن . (٢) الغاية . (٣) السدول : جمع سدل بالضم والسكر ، وهو الستر . (٤) السليم : الملدوغ ، وسعى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى اليبداء مفازة : تفاؤلاً بالفوز . (٥) الخطر : القدر .

الوافدات على معاوية

٣٦٧ - وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وَقَدَّتْ سَوْدَةَ بِنْتَ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْتَرِ الْهَمْدَانِيَّةَ ، عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ فَأْذِنَ لَهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَلَّمَتْ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ الْأَشْتَرِ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ الْقَائِلَةُ لِأَخِيكَ يَوْمَ صَفَيْنَ ؟ :

شَمَّرْتُ كَفَيْلَ أَبِيكَ يَا بِنْتَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْنِ وَمُلَّتَقَى الْأَقْرَانَ
وَأَنْصُرُ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدُ لِهِنْدٍ وَابْنِهَا سَهْوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخُو النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلِمَ الْهَدَى وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ
فَقَدَّ الْجِيُوشَ وَسِرَّ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدَّمَا بِأَبِيضَ صَارِمٍ وَسِنَانَ^(١)

قَالَتْ : إِي وَاللَّهِ ، مَا مِثْلِي مِنْ رَغَبٍ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ اعْتَذَرُ بِالْكَذْبِ ، قَالَ لَهَا :
فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : حُبُّ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَرَى
عَلَيْكَ مِنْ أَثَرِ عَلِيٍّ شَيْئًا ، قَالَتْ : أَنْشُدْكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِعَادَةَ مَا مَضَى ، وَتَذْكَارَ
مَا قَدْ نَسِيَ ، قَالَ : هِيَهَاتَ ! مَا مِثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وَمَا لَقِيتُ مِنْ أَحَدٍ مَا لَقِيتُ
مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِيكَ ، قَالَتْ : صَدَقَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ أَخِي حَفِيًّا الْمَقَامِ ،
ذَلِيلَ الْمَسْكَنِ ، وَلَسْكَنَ كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِيَهُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارًا^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفي بلاغات النساء : « فقه الختوف وسر أمام لوائه » .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقتِ ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأسُ وَبِتَرَ الذَّنْبِ ، وبالله
 أسأل أمير المؤمنين إغفائي مما استعقبتُ منه ، قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتك ،
 قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّداً ، ولأموهم مُتَقَلِّداً ، واللهُ سألتُك
 عن أمرنا وما افترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ
 سُلْطَانِكَ ، فيحصدُنا حِصَادَ السَّنْبُلِ ، وبدوسنا دِياسَ^(١) البقر ، وَيَسُومُنَا^(٢) الخسيسة ،
 وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرطاة^(٣) قَدِمَ بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعةُ
 لكان فينا عِزَّةً وَمَنَعَةً ، فإِما عزلتَه عِنا فـشـكرناك ، وإِما لا فـعـرفناك ، فقال معاوية :
 إِيَّايَ تَهْدِدِينِ بِقَوْمِكَ ؟ والله لقد هممت أن أُحِلِّكَ على قَتَبِ^(٤) أشرس فأردك إليه ،
 يُنْفِذُ فِيكَ حَكْمَهُ ، فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
 قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ نَمْنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك
 حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيتته يوماً فى رجل ولاءَ صَدَقَاتِنَا ، فكان بيننا وبينه
 ما بين الغثِ^(٥) والسمين ، فوجدته قائماً يُصَلِّي ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال برأفةٍ

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . (٢) يكلفنا . (٣) هو بسرين أُرطاة ،
 وقيل ابن أبى أُرطاة ، وكان معاوية فى أيام على سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار
 إلى المدينة ، ففعل بها أفعالاً شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب
 عبيد الله فزها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقم ابنى عبيد الله وهما صغيران بين يدى أمهما عائشة بنت عبد الممدان ؛
 فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحسن بنىي اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
 يا من أحسن بنىي اللذين هما سمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم مختطف
 يا من أحسن بنىي اللذين هما مخ العظام ؛ فخى اليوم مزدحف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجازة

أو الأشرس : الحشن الغليظ . (٥) الغث : المهزول .

وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنى لم أمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَ تَكْمُ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْتُوا ^(٢) فِي الْأَرْضِ مُسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ .»

فأخذته منه والله ما خزمه بخزّام ، ولا ختمه بختّام ^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألى خاصة ، أم لقوى عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللّوم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قوى ، قال : هيهات ! لمظكم ^(٤) ابن أبي طالب الجرّارة على السلطان فبطيئا ما تفتطمون ، وغرّ كم قوله :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامٍ

وقوله :

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُمْلَقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ ^(٥)

كَأَلْهِنْدُؤَانِي لَمْ تُفَلِّلْ مَضَارِبُهُ وَجَهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَابٍ ^(٦)

اكتبوا لها ولقومها . (المقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

(١) القسط : العدل . (٢) عشا يمثر عشوا : أفسد . (٣) الخزام جمع خزامة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزامة النمل : سير وقيق يخزم بين الشراكين . الختام : الطين يتحم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع على الطينة) . (٤) التلمظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فمه بعد الأكل ، يتتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقى في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لظ فلانا (بالتشديد) لماظ : أى شيئا يتلمظه ، ولظنه من حقه شيئا : أعطاه (والعامة تبدل الظاء ضادا) . (٥) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٦) سيف هندوانى بكسر الهاء ، ويجوز ضمها إتباعا لئلا لدال منسرب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيبا إذا خفق .

٣٦٨ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاما من بني ليث في جناية جناها ، فأنته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت خَيْشَمَةَ^(١) للمذحِجِيَّة ، فكلمته في الغلام فأغظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانسبت فعرفها ، فقال لها : مَرَحِبًا بك يا بنت خَيْشَمَةَ ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتُك نَشْتَمِينَا^(٢) وَتَحْضِين عَلَيْنَا عدونا ؟ قالت : إن ابني عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهُون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى النَّاسِ باتِّباع ما سنَّ آباؤهُ لأنت ، قال : صدقتِ ، نحن كذلك ، فكيف قولك ؟

عَزَبَ الرَّفَادُ ، فَمَقَلْتِي لَا تَرَفُدُ وَاللَّيْلُ يُصَدِّرُ بِالْمُومِ وَيُورِدُ^(٣)
 يَا آلَ مَذْحِجٍ ، لَا مُقَامَ ، فَشَمِّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لِيَّالٍ أَحَدًا يَقْصِدُ
 هَذَا عَلَى كَلْمٍ لَلْإِلَّهِ تَحْفُهُ وَسَطَّ السَّمَاءِ مِنَ السَّكْوَاكِبِ أَسْعُدُ^(٤)
 خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِيكُم بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
 مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ
 قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خالقاً بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الحسين فلم تزلْ بالحق تُعْرِفْ هَادِيًا مَهْدِيًا
 فاذهب ، عليك صلاة ربك مادعتْ فوقَ الغصونِ حَمَامَةٌ قَمْرِيًا^(٥)

(١) في صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : وتحريره : ما ذكرنا . (٢) وفي بلاغات النساء : « تشنين قربي » أي تبغضين . (٣) عزب : بعد . (٤) سعود النجوم هشرة : سعدي بلغ (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ، وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهمام كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مضر . وهذه الستة ليست من المنازل . (٥) ضرب من الحمام والجمع قارى .

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفيّاً
واليوم لا خلفٌ يومئذٍ بعده هيهات تأملُ بعده إنسياً
قالت : يا أمير المؤمنين لسانُ نطقٍ ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننناه ،
لحظُّك الأوفر ، والله ما أورتك الشنآن^(١) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحِض
مقاتلهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ، ومن المؤمنين
حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله ما مثلك من مدح
بيأطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله
على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك قال : بمن ؟ قالت : من مروان
ابن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حلك ،
وكريم عفوك ، قال : وإيهما يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل
ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى^(٢) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبذرك^(٣) بالمدينة تبذرك من لا يريد منها البراح ،
لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كَيْتَ وَكَيْتَ ، فألقمته أحسن من الحجر ، وألقمته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو
أولى بالعفو منه ، فأنتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه مُعدياً^(٤) ،
قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت :
يا أمير المؤمنين ، وأنى لي بالرجعة ، وقد نفذ زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها براحة
موطأة ، وخمسة آلاف درهم .

(المقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

(١) البغض . (٢) تريد أنهما بإعلان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . (٣) تبذرك
به : أقام . (٤) أعداد عليه : نصره ، وأعانه ، وقواه .

٣٦٩ - وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ،
فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسننت ، وعشى^(١) بعصرها ، وضعفت قوتها ، ترعش
بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فردّ عايباً معاوية السلام ، وقال : كيف أنت
يا حالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غيرك الدهر ، قالت : كذلك هو
ذو غير^(٢) ، من عاش كبير ، ومن مات قبير ، قال عمرو بن العاص : هي والله القائلة
يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فأحتقر من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفيناً
قد كنتُ أذخره ليوم كربيه فاليوم أبرزه الزمانُ مصوناً
قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أرى ابنَ هذيلٍ للخلافة مالكا هيهات ، ذاك - وإن أراد - بعيدُ
مَنَّتكُ نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيدُ
قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فاللهُ آخرُ مدتي فتطاوت حتى رأيت من الزمان عجائبها
في كلِّ يومٍ للزمانِ خطوبهم بين الجميع لآل أحمد عابها

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ،
فقصُرَ نَجْجِنِي^(٣) ، وكثُرَ عَجْجِي ، وَعَشِيَّ بَصْرِي ، وَأَنَا وَاللَّهِ قَائِلَةٌ مَا قَالُوا ، لَا أَدْفَعُ ذَلِكَ
بتكذيب ، وما خفي عليك مني أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خيرَ في العيش بعد

(١) ضعف . (٢) ذو أحداث . (٣) تناوبتي وتداولتني ، والمجبن : للعصا المطوقة الرأس .

أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس بمنعنا ذلك من برِّك ، اذكرى حاجتك ،
قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلدّها .

(المقد الفريد ١ : ١٣٠/ ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

٣٧٠ - وفود أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها
معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنتِ بعدنا ؟ فقالت : « يا بن أخي ،
لقد كفرت يدّ النعمة ، وأسأت لابن عمك الصُّحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت
غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم
بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعسّ الله منكم الجُدود^(١) ، وأضرع^(٢) منكم
الخدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا
صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوليتم علينا من بعده - وتحتجّون بقرابتكم من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنو إسرائيل
في آل فرعون ، وكان عليّ بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلّم بمنزلة
هرون من موسى^(٣) ، ففايدنا الجنة ، وغايتم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، وأقصرى من قولك ، وغضى

(١) جمع جد : وهو الحظ . (٢) أذل ، وفي بلاغات النساء « وأصر » . (٣) ورواية
بلاغات النساء : « فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، وفضيباً وقدرًا ، حق قبض الله نبيه صلى
الله عليه وسلم ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عنه الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم
موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا
بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَا بَنِي أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْا نِي ، وَكَادُوا يَقْتُلُوْا نِي »
ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وصر .

من طرفك، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يا ابن الآخفاء ^(١) النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اربح على ظلمك ، واغن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الأبواب من حسبها ، ولا كريم منصّبها ، ولقد ادعاك خمسة ^(٢) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أثنائي ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فلحقت به ، ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبد عاهر ^(٣) ، فأتم بهم فإنك بهم أشبه .

فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، سأخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلاب أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه في زُرقة عينيك ، وُحْمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ^(٤) ، ولقد رأيت الحكم ما ^(٥) القامة ، ظاهر الإمة ^(٦) ، سببط ^(٧) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب ^(٨) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك ، وإن أمك للقائلة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :
 نحن جزينناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سمر ^(٩)
 ما كان عن عتبة لي من صبر أبي وعمي وأخي وصهري ^(١٠)

(١) رجل ألحن وأمة الخناء : لم يختن ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون يادني الأصل ، أو يانيم الأم ، والنايفة أم عمرو ، وقد تقدمت - انظر ص ٢٥ . (٢) وفي بلاغات النساء « ستة » . (٣) فاجر . (٤) الدمامة : القبح . (٥) مندها . (٦) الإمة بالسكرو يضم : الشأن والتممة والميثة . (٧) طويلة . (٨) الأتان : الحمارة ، والمقرب التي قرب ولادها فيكون بطنها كبيراً . (٩) السمر بالفتح مصدر سمر الحرب : أي أوقدها ، وبالضم : الجنون . (١٠) قتلوا أربعمهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قيل اشترك في قتله هل ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب - وعمها شيبة بن ربيعة - قتله حمزة - وأخوها الوليد بن عتبة - قتله علي - وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان - وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعلي ، وزيد بن حارثة - .

شَفَيْتَ (وَخَشِيْتُ) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي (١)
فَشُكْرُ وَخَشِيٍّ عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرِمَّ أُعْظَمِي فِي قَبْرِي (٢)

فأجبتها :

يَابْنَتِ جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكُفْرِ خَزَيْتِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْمَاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ (٣)
بِكُلِّ قَطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حَمَزَةَ لَيْثِي ، وَعَلِيٍّ صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمرو : وَيَلَسْكَ ! إِنَّمَا عَضَّتْهَا لَهَا ، وَأَسْمَعْتَانِي مَا أَكْرَهُ ،
ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ اقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ ، وَدَعِي عَنكَ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ ، قَالَتْ :
تَأْمُرُ لِي بِأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، وَأَلْفِي دِينَارٍ ، قَالَ : مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَرَّخَارَةً (٤) فِي أَرْضِ خَوَّارَةَ (٥) ، تَكُونُ لَوْلَدِ الْحَارِثِ بْنِ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : نَعِمُ الْمَوْضِعُ وَضَعْتَهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : أَرْوِّجُ بِهَا
فَتَيَانَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مِنْ أَكْفَانِهِمْ ، قَالَ : نَعِمُ الْمَوْضِعُ وَضَعْتَهَا ، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ ؟
قَالَتْ : أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى عُسْرِ الْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، قَالَ : نَعِمُ الْمَوْضِعُ
وَضَعْتَهَا ، هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ (٦) ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عَلِيٌّ مَا أَمَرَ لَكَ بِهَا ،
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، إِنْ عَلِيًّا أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَأَخَذَ بِهِ ، وَأَنْتِ ضَمِيعَتِ
أَمَانَتِكَ ، وَخُنْتُ اللَّهَ فِي مَالِهِ ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ
الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا وَبَيْنَهَا ، فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا ، وَدَعَا نَا (أَيَّ عَلِيٍّ) إِلَى أَخْذِ حَقِّنَا ، الَّذِي فَرَضَ

(١) وحشي : غلام جبیر بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . (٢) رم العظم كضرب وأرم : بل فهو رميم .

(٣) الزهر : الحسان البيض الوجوه . (٤) الخرخار : الماء الجاري ، أي عين ماء جارية .

(٥) المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوار اللنان ، أي سهل المعطف ، كثير الجرى .

(٦) يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعم بفتحهم ، ونعمى ونعمای ونعام ونعم بضمهم ، ونعمة

ونعام بكسرهما : أي أفضل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

الله لَنَا فَشَدَّ بِحَرْبِكَ عَنْ أُمُورٍ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّاهُ بِهِ ،
 إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّهَا ، وَلَا نَرَى أَحَدًا شَيْءٌ غَيْرَ حَقِّهَا ، أَتَذَكِّرُنَا عَلِيًّا ؟ فَضَّ اللهُ فَالِكَ (١) ،
 وَأَجْهَدُ بِلَاءِكَ ، ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبَ عَلِيًّا ، فَأَمْرُهَا بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ
 لَهَا : يَا عَمَّةُ : أَنْفِقِي هَذِهِ فِيمَا تُحِبِّينَ ، فَإِذَا احْتَجَجْتَ فَأَكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ صَفَدَكَ (٢)
 وَمَعُونَتِكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ . (المقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٧١ - أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة
 دروع (٣) (بُرُودٍ) تَسْحَبُهَا ذُرَاعًا ، قَدْ لَانَتْ (٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوْرًا كَالْمَنْسَفِ ،
 فَسَلَّمَتْ وَجَلَسَتْ ، فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلْدٍ ، وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ،
 قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارَمَا ذَا رَوْتَقِي عَضِبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْحَوَارِ (٥)
 أَسْرَجَ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسْمَرًا لِلحَرْبِ غَيْرَ مُعَرِّدٍ لِإِفْرَارِ (٦)
 أَحِبَّ الْإِمَامَ وَذُبَّ نَحْتِ لَوَائِهِ وَالْتَقِ الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بِتَّارِ
 يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : « عَفَا اللهُ عَنْمَا سَلَفَ ،
 وَمَنْ عَادَ قَبِلْتَقِيمُ اللهُ مِنْهُ » قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولكنه

(١) تدعو عليه: أي نثر الله أسنانك . (٢) الصفد: العطاء . (٣) درع المرأة: قيصها
 (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر . (٤) اللوث: عصب العمامة ، والكور: لوث العمامة
 وإدارتها ، والمنسف: ما ينفض به الحب ، شيء طويل منصوب الصدر أعلاه مرتفع . (٥) العضب:
 السيف القاطع ، والحوار من خار: إذا ضعف وكل . (٦) عرد تعريدا ، وعرد كسيع: هرب .

اخْتَرِمَ^(١) منك ، قالت : أجل ، واللهِ إني لعلی بئينة من ربي ، وَهَدَى من أسرى ، قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أَنَسَيْتُهُ ، قال بعض جلسائه : هو والله حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة فدحت ، فليس مُصَابِهَا بالخائل^(٢)
الشمس كاسفةً لفقْدِ إمامنا خير الخلائق والإمام العادل
ياخيرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ وَمَنْ مَشَى فوق الترابِ لِخَيْفٍ أو ناعِلِ
حاشا النبي لقد هددت قُوءاًنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فقال معاوية : فانك الله ! فما تركت مقالا لقائل ، اذ كرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ، وقامت فقأرت ، فقالت : تَمَسَّ شَانِي عَلى^(٤) ، فقال : زَعَمْتِ أَنْ لَا ، قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال : إذا ضيعتُ اللحم فن يحفظه ؟

(صبح الأمل : ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٧٢ - دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَجَّ معاوية سَنَةً من سِيْذِهِ ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون^(٥) ، يقال لها دَارِمِيَّةُ الْحَجُونِيَّةُ ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فحى بها ، فقال : ما حالك يا بنة حام ؟ فقالت : لست لحام إن عبتني ، إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثم من بنى أبيك ، قال : مددت ، أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك : علام أحببت علياً وأبغضتني ، وواليتيه وعاديتني ؟ قالت : أو تُغْفِني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أنفك ،

(١) هلك . (٢) المتحول : المتغير . (٣) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرورة .

(٤) أى مبنضه . (٥) الحجون : جبل بمحلة مكة .

قالت : « أما إذ أبيت فإني أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتك^(١) ما ليس لك بحق ؛ وواليتُ علياً على ما عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء^(٢) ، وعلى حبة المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك في القضاء ، وحكك بالهوى »

قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثديك ، ورَبَّتْ عَجِيْرَتُكَ ، قالت : يا هذا بهند^(٣) والله كان يُضْرَبُ اللُّثْلُ في ذلك لآني ، قال معاوية : يا هذه اربعي^(٤) ، فإننا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدها ، وإذا عظم ثديها تَرَوَّى^(٥) رضيعها وإذا عظمت عَجِيْرَتُهَا رَزُنَ مجاسها ، فرجعت وسكنت ، فقال لها : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيتهُ ، قال : فكيف رأيتهُ ؟ قالت : رأيتهُ والله لم يفتنهُ الملكُ الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيتُ الطَّسْتُ من الصدأ ، قال . صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال . نعم ، قالت . تعطينى مائة ناقة حراء فيها فحلها وراعياها ، قل : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحبي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبى طالب ؟ قالت : ما ولا كصداء^(٦) ،

(١) الطلبة : الطلب . (٢) تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

(٣) هى أمه هند بنت عتبة . (٤) ربيع : وقف وانتظر وتحبس . (٥) ارتوى .

(٦) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . وروى عن ابنة هانىء بن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارعة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : ما استحسننت من لقيط ؟ قالت : كل أمورهِ حسن ، ولستنى أحذرك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد ابتنى بي ، فرجع إلى ، وبقيصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمنى ضمة ، وشمئى شمة ، فليتئى متئمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ما ولا كصداء .

وَمَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(١) ، وَفَتَى وَلَا كَاللَّيْلِ^(٢) ، سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ دُونَهُ ، فَأَنْشَأَ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحَلْمِ مِنْكَ عَلَيْهِمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤَمِّلُ لِلْحَلْمِ
خَذِيئَهَا هَنِيئًا ، وَإِذَا كَرَى فَعَلَ مَا جِدَّ جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعِدَاوَةِ بِالسَّلْمِ
ثُمَّ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ عَلَيَّ حَيًّا مَا أَعْطَاكَ مِنْهَا شَيْئًا ، قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ
وَلَا وَبَرَّةٍ وَاحِدَةً مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

(المقد الفرید ١ : ١٣٢ وصبح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغت النساء ص ٦٧)

٣٧٣ — شداد بن أوس ومعاوية

وأمر معاوية شداد بن أوس الطائي أن يتنقص عليًا ، فقام فقال :
« الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى آثرًا من
رضا خلقه ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه يمضى آخرهم ، أيها الناس : إن الآخرة
وعدو صادق ، يحكم فيها ملك قادر ، وإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البرء
والفاجر ، وإن السامع المطيع لله لأحبة عليه ، وإن السامع العاصي لله لأحبة له .
وإن الله إذا أراد بالعباد صلاحًا عمل عليهم صلحاؤهم ، وقضى بينهم فقهاؤهم ، وملاك
المال سُمحاؤهم ، وإذا أراد بهم شرًا ، عمل عليهم سفهاؤهم ، وقضى فيهم جهلاؤهم ،

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، وأوله
من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند
بنت عتبة بن ربيعة ؛ ففرجت عنها وهي تنشدهم مرثى في أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟
قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأشديني بعض ما قلت ؛ فأنشدها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان
ثم أنشدتها مرثى به أخاها صخرًا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس بن حجر الكندي
وكان مفركًا (بفتح الراء تبغضه النساء) فقال لها : ابن أنا من زوجك الأول ؟ فقالت : مرعى ولا كالسعدان .
(٢) قاله متم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة تصرب للشئ يفضل على أقرانه

وملك المالَ مُبْخَلَاؤُهُمْ ، وَإِنْ مِنْ صَلَاحِ الْوَلَاةِ أَنْ يَصْلُحَ قَرْنَاؤُهَا ، وَنَصَحَ لَكَ يَا مَعَاوِيَةَ مَنْ أَسْخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مِنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قال : « إن كان من مالك الذي تعهدت بجمعه تخافة تبعته ، فأصبتَه حلالا ، وأنفقته إفضالا ، فنعمم ، وإن كان مما شاركك فيه المسلمون ، فأحتججته^(١) دونهم ، فأصبتَه افترافا ، وأنفقته إسرافا ، فإن الله يقول في كتابه : « إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

* * *

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أفضل ، أم عليّ ؟ وأينا أحبُّ إليك ؟ » ، فقال : « عليٌّ أقدمُ هجرةً ، وأكثرُ مع رسول الله إلى الخير سابقاً ، وأشجعُ منك قلباً ، وأسلمُ منك نفساً ، وأما الحب ، فقد مضى تليّ ، فأنت اليوم عند الناس أرجى منه » .

(ميون الأخبار ٢ م : ص ٢١١)

٣٧٤ - معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كان أجملَ قومك ، حين ملكوا عليهم امرأة » ، فقال : « بل قومك أجمل ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، وأراهم البيئات : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » ، ألا قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا لَهُ ! » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٣٧٥ - حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد المदान

سأل معاوية بعد الاستقامة^(١) عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد المदान فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسى ، قال : ما تقول فى مراد ؟ قال : مذكرُ الأوتار ، وحمأة الدمار ، ومخزروا الخطار^(٢) ، قال : فما تقول فى النخع ؟ قال : مانعُ السرب^(٣) ، ومُسِيرُ الحرب ، وكاشفُ الكرب ، قال : وما تقول فى بنى الحرث ؟ ابن كعب ؟ قال : فَرَّاجُ الأَسْكَك ، وفُرْسَانُ العِرَاك ، وَلِزَازُ الضَّكَاك ، تَرَكَ^(٤) تَرَكَ ، قال : فما تقول فى سعد العشيرة ؟ قال : مانعُ الضَّيْم ، وبَانُو الرِّيم ، وشافُو النِّيم^(٥) ، قال : ما تقول فى جُعْفَى ؟ قال : فُرْسَانُ الصَّبَاح^(٦) ، ومُعْلُو الرِّمَاح ، ومُبَارِزُو الرِّيَاح ، قال : ما تقول فى بنى زبيد قال : كُفَاةُ أنجَاد^(٧) ، سادات أنجاد ، وقُرْعُودُ الذِّيَاد^(٨) صُبْرٌ عند الطَّراد ، قال : ما تقول فى جَنب ؟ قال : كُفَاةُ يَمْنَعُونَ عن الحريم ، وَيَفْرِجُونَ عن الكَطِيم^(٩) ، قال : فما تقول فى صُدَاء ؟ قال : سِمَامُ الأَهْدَاء ،

(١) أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . (٢) جمع وتر : وهو الثَّار ؛ والذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته ؛ والخطار : جمع خطر بالتحريك ، وهو السبق يتراهن عليه . (٣) السرب : مارعى من المال . (٤) الأَسْكَك : الزحام ؛ ومثلها الضككاك ؛ ولززه كرده : شده وألصقه والمزاز ككتاب : خشبة يلز بها الباب ؛ وفلان لزاز المعظام : أى يلز بها ويقرن ليذالها ومنه قول لبيد :

إننا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جسامها

وترك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتنظيم ، أى دِعْ هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم فى أسمى

مكان . (٥) الريم : الدرجة والفضل والزيادة ، والنيم : العطش . (٦) الغارة .

(٧) ضببط فى الأمال بفتح الزاى ، وهو خطأ ، زبيد كزبير : بطن من مذحج ، رهط عمرو بن معديكرب

وكأمير : بلد باليمن ، وكما جمع كى : وهو الشجاع أو لابس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشمهم وكتف ورجل :

الشجاع الماضى فيما يعجز غيره . (٨) قر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والذيادة والذود : الذفع .

(٩) الكطيم والمكظوم : المكروب .

وَمَسَاعِيرُ الْهَيْجَاءِ^(١) ، قال : فما تقول في رَهَاء ؟ قال : يُنَهْنِهون^(٢) عادية الفوارس ،
وَيَرِدُونَ الْمَوْتَ وَرَدَّ الْخَوَامِسِ^(٣) قال : أنت أعلم بقومك .

(الأمالي ١ : ١٦٠)

٣٧٦ - حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجدك ،
وما صنع بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لداتي^(٤)
وأوهي عمادي ، وشيب سوادى ، وأسرع في تلامي^(٥) ، ولقد عشتُ زمناً أصبى
الكعاب^(٦) ، وأسرت الأحاب ، وأجيد الضراب^(٧) ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ،
وأنشأ يقول :

غَبَرْتُ زَمَانًا يَرَهَبُ الْقَرْنَ جَانِبِي كَأَنِّي شَدِيمٌ بَاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ^(٨)
يَخَافُ عَدُوِّي صَوْلَتِي وَبِهَابِي وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ
وَتَضْبِي الْكِعَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي كَأَنِّي غَضْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ نَاضِرُ^(٩)
فَبَانَ شَبَابِي وَاعْتَرَنِي رَثِيَّةٌ كَأَنِّي قَنَاةٌ أَطْرَتْهَا الْمَاطِرُ^(١٠)
أَدِبٌ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي لَدَى الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ^(١١)
وَقَصْرُ الْفَتَى شَيْبٌ وَمَوْتُ كِلَاهِمَا لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ
وَكَيْفَ يَلْدُ الْعَنْشُ مَنْ لَيْسَ زَانِلًا رَهِينَ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ

(١) الهيجاء : الحرب ، وهو مسمر حرب (كدرهم) أي موقد نارها . (٢) يكفون .

(٣) الخمس بالكسر : أن ترعى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهي إبل خوامس .

(٤) اللدة : من ولد مملوك . (٥) التلاد : المال القديم .

(٦) كعب ثلثي الجارية : نهد ، وهي كاعب وكعاب . (٧) ضرب الفحل ضراباً : نكح .

(٨) القرن : كفؤك في الشجاعة أو عام . والشتم : الأسد العابس ، والخدر : أجمة الأسد . ومنه

أسد خادر . (٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (١٠) الرثية : وجع المفاصل واليدين

والرجلين . والاطر والتأطير : عطف الشيء ، وتأطر الرمح : تثنى واعوج . (١١) القرم : الفحل .

فقال معاوية: أحسنت القول! واعلم أن لها مصادر، فنسأل الله أن يجعلنا من المصادرين بخير، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يُصدرنا عنها وهو راضٍ.
(الأمال ٢ : ٩٤)

٣٧٧ - حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري: بأى شيء سُدَّتْ قومك يا عرابة؟
قال: أخبرك يا معاوية بأنى كذبت لهم كما كان حاتم لقومه. قال: وكيف كان؟
فأنشدته:

وأصبحتُ في أمرِ العشيرةِ كلِّها كذبي الحِلْمُ يُرَضَى ما يقولُ ويُعرفُ
وذاك لأننى لأعادي مَرَّاتِهِمْ ولا عن أخى ضَرَّاتِهِمْ أتُنكِّفُ^(١)
وإني لأعطي سائلي، ولرَّيِّمًا أكَفُّ ما لا أستطيع فأُكَلِّفُ
وإني لمذمومٌ إذا قيل: حاتم نبا نبوةً، إن الكريم يُعَنِّفُ
ووالله إني لأعفو عن سفيهم، وأحلمُ عن جاهلهم، وأسى في حوائجهم، وأعطي
سائلهم، فمن فعل فعلى فهو مثلى، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل منى،
ومن قَصَّرَ عن فعلى فأنا خير منه، فقال معاوية: لقد صدق الشماخ حيث
يقول فيك:

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رُفِيت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمن
(الأمال ١ : ٢٧٧)

(١) أى امتنع منه وآنف.

٣٧٨ - سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واضطنمك ، حتى بلأعك باصطناعه إياك اللدى الذى لا يُجَارى ، والغاية التى لاتُسَامى ، فما جازيت أبى بالآئنه ، حتى قدّمتَ هذا طلىّ ، وجعلت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يا بن أخى من تواتر الآئكم علىّ ، وتظاهر نغمائكم لدىّ ، فقد كان ذلك ، ووجب علىّ المسكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شفيت حَزَازَاتُ الصدور ، ونجّمت تلك الأمور ، ولستُ لنفسى باللأئم فى التشمير ، ولا الزّارى^(١) عليها فى التفسير ، وذكرت أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ، أكرمَ كريماً وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رجّاه ، وذكرت أن أمك خير من أمه ، فلعمرى إن امرأة من قریش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرت أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن القُوطة^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : « مه يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدالّة عليك ، واستعقبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأجمل له فى ردك ، وأجمل على نفسك وواه خُراسان بشفاعتى ، وأعفه بما يظهر به مؤزوثه » ، فولاه معاوية خُراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٩ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجفَ به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم على ذلك ثم تمائل^(١) ، وهم في إرجافهم ، حمل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرأفاً من مرأق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أتى الحوادثُ من خيلك مثلَ جندلة الراجم^(٢)

صُلِباً إذا خار الرجا لُ أبلٍ ممتنع الشكائم^(٣)

قد رامني الأعداءُ قبلك فامتنعتُ من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أتى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وحِلماً راجحاً ، وِكلاً ومرعى لأوليائك ، وسماً ناقعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقبل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمت أنه كبير وضعف ، والله لقد غمزني غمزة كاد يحطمني ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضواً مني .
(زهر الآداب ١ : ٥٧ والأمل ٢ : ٣١٥)

٣٨٠ - روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلَى معاوية رَوْحَ بنِ زِنْبَاعٍ ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ فِي جُنَايَةٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِالْقَدُومِ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَمْرٌ بِضَرْبِهِ بِالسِّيَاطِ ، فَلَمَّا أَوْقِمَ لِيُضْرَبَ قَالَ : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بِنَيْتِهِ ، أَوْ أَنْ تَضَعَ مِنِّي خَسِيْسَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا أَوْ تُشِمَّتْ بِي عَدَاؤُ أَنْتَ

(١) تمائل الليل : قارب البره . (٢) الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

(٣) الأبل : الممتنع ، والألد : الجدل ، والشكائم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة

وقوم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لاينقاد .

وَقْتِهِ ^(١) ، وَأَسَأْتُكَ بِاللَّهِ إِلَّا أَتَى حَلْمُكَ وَعَفْوُكَ دُونَ إِفْسَادِ صِنَائِمِكَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ :
« إِذَا اللَّهُ سَتَى عَقْدُ أَمْرٍ تَيْسَّرًا » خَلُّوا سَبِيلَهُ .

(الأمال : ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٨١ - مَخَاصِمَةُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ بَدِيِّ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ

جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعَاءَهُ ، وَحِجْرِي فِنَاءَهُ ، وَتَدْنِي سِقَاءَهُ ^(٢) ، أَكَلُوهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَيْ فِصَالَهُ ^(٤) ، وَكَمَلْتُ خِصَالَهُ ، وَاسْتَوَكَمْتُ ^(٥) أَوْصَالَهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرَهًا ^(٦) ، فَأَدِنِي ^(٧) أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدَرَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) » .

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنَحُهُ حِلْمِي ، وَأَهْمِيهِ حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكَمَ فَتْلُهُ » .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفَاءً ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتُهُ شَهْوَةً ، وَوَضَعْتُهُ كَرَهًا » .

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْدُدْ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلَدَهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِهَ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ سَجْمِكَ أَوْ قَالَ : « إِنَّهَا امْرَأَةٌ عَاقِلَةٌ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، فَادْفَعْ ابْنَهَا إِلَيْهَا ، فَأَخْلِقْ أَنْ تُحْسِنَ أَدَبَهُ » .
(الأمال : ٢ : ١٤ ، وأمال السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

(١) وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كَيْتَهُ » . (٢) السقاء : جلد السمخلة يكون للماء واللبن . (٣) أرماءه . (٤) فطامه . (٥) اشتدت ومنتت . (٦) الإياء والمشقة بالفتح والضم ، أو بالفتح : ما أكرهك غيرك عليه ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه . (٧) آداءه على قتلان : آداءه وأعانه . (٨) الإكراه . (٩) الخلف : الخفيف .

٣٨٢ - صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :

قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سفيان ، وأقر بهم مجلسا ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فبينما هو ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قريش وأشرف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورقيبا على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطرُ ، وَ يُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وَنُوَاف بك الأهواء ، وَيَأْمَن بك الخائف ، وَيُرَدَع بك الجانف^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة في غير تعبير ، والعافية من غير تعذير^(٢) . قد ألجأني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق عليّ فيه المنهجُ ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عارَه^(٣) ، كما خشيت إظهاره ، فليُنصِفني أمير المؤمنين من الخصم ، فإني أعوذ بمقوته^(٤) من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتدُّ على الحرائر ، ذوات البعول الأجاثر^(٥) ، فقال لها معاوية : ومن بملك هذا الذي تصفين من أمره المنكر ، ومن فعله المشهر^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا الأسود : ما تقول هذه المرأة ؟ فقال أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضا ، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقصا ؛ أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق ، وأنا نخبير أمير المؤمنين عنه بالصدق ، والله يا أمير المؤمنين ما طلقها عن ريبسة

(١) المائل : الجائر . (٢) أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعديرا : إذا قصر ولم يجتهد

(أو من غير تشويه ، من عذر الشيء : لطمه بالمدرعة كفرحة) . (٣) تسكنى بذلك من طلاقها .

(٤) المقوة : ماحول الدار . (٥) البعول والبعوات : جمع بعول وهو الزوج ، والأجاثر : جمع

أجرور ، أفعل تفضيل من جار . (٦) شهره كمنه ، وشهره بالتشديد : أظهره في شنة .

ظهرت ، ولا لأى هفوة حضرت ، ولكنى كرهت شمائلها ، فقطعتُ عنى حبايلها ، فقال معاوية : وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إنك مهيجها على بجواب عتيد^(١) ، ولسان شديد ، فقال معاوية : لا بد لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها ، فقال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، إنها كثيرة الصخب ، دائمة الذرب^(٢) » ، مهيبة للأهل ، مؤذبة للبعل ، مُسيئة إلى الجار ، مُظهرة للعار ، إن رأيت خيرا كتمته ، وإن رأيت شرا أذاعته » ، فقالت : « والله لولا مكانُ أمير المؤمنين ، وحضورُ من حضره من المسلمين ، لرددتُ عليك بوادِر كلامك ، بنوافذ أقرعُ بها كلَّ سهامك^(٣) » ، وإن كان لا يحملُ بالمرأة الحرّة أن تشتمَ بَعلا ، ولأن تُظهر لأحدٍ جهلا » ، فقال معاوية : عزمتُ عليك لما أُجبتُه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، ما علمتُه إلا سئولا جهولا ، مُلحًا بخيلا^(٤) » ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن سكت فذو دغائل^(٥) ، ليث حين يأمن ، وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يُضاف^(٦) ، إن ذكر الجود انقمع^(٧) ، لما يعرف من قصر ريشائه^(٨) ، ولو لم آباؤه ، ضيقه جائع ، وجاره ضائع ، لا يحفظ جاراً ولا يحصى ذماراً ، ولا يُدرك ناراً ، أكرم الناس عليه من أهانه ، وأهونهم عليه من أكرمه » ، فقال معاوية : سبحان الله لما أتاني به هذه المرأة من السجع ! فقال

(١) حاضر مهياً . (٢) الصخب : شدة الصوت ، والذرب : حدة اللسان وبذاءته .

(٣) البوادر : جمع بادرة ، وهى ما يبدو من حدثك فى الغضب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بجمع نافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع . (٤) وكان أبو الأسود معروفاً بالبخل . ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء حلم ، غير أنك بخيل » فقال : « وماخير ظرف لا يمسك مافيه ؟ » وسلم عليه أعرابي يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال له : أتأذن فى الدخول ؟ قال : وراك أوسع لك ، قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قال : أطعمنى ، قال : هيالى أحق منك ، قال : مارأيت ألكم منك ! قال : نسيت نفسك . « أمالى المرتضى ١ : ٢١٤ » .

(٥) دغائل : جمع دغيلة كسفيئة . والدغيلة والدغل بالتحريك : دخل فى الأمر مفسد .

(٦) ضافه يضيفه : زل عليه ضيفاً . (٧) انقمع : دخل البيت مستخفياً .

(٨) الرشاء فى الأصل : الحبل .

أبو الأسود : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومن أكثر كلاماً من مطلقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَاحًا^(١) فتعالى أفضل بيذك وبينه بالقضاء .

فلما كان الرواح جاءت معها ابنتها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينتزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تُعْجِلِ المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابني منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دعها تفل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حمله خفاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعت كرهاً ، إن بطني لو عاوه ، وإن ندي سقاؤه ، وإن حجري أفناؤه ، فقال معاوية : سبحان الله لما تأتين به ! فقال أبو الأسود : إنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها ، فقال معاوية : إنها قد غلبتك في الكلام ، فتكلفت لها أبياتاً لملك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مَرَحَبًا بِالتى تجورُ علينا ثم سهلاً بالحامل المحمول
أغلفتَ بابها على^٢ وقالت : إن خير النساء ذات البُمولِ
شملتَ نفسها على فراغًا هل سمعتم بالفارغ المشفولِ ؟

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصواب وبالحقِّ كمن جار عن منار السبيلِ
كان ندي سقاؤه حين يضحى ثم حجري ففناؤه بالأصيلِ
لست أبعي وواحدى بابن حربٍ بدلاً ما علمته والخليلِ^(٢)

فأجابها معاوية :

ليس من غداه حيناً صغيراً وسقاه من نديه بخذولِ

(١) أى إذا كان الوقت رواحاً ، والرواح : العشى . (٢) أى أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد

هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَبِيهِ بِالوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ (١)
أُمُّهُ مَا حَفَّتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَى بِحِمْلِ هَذَا الضَّمِيلِ (٢)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٨٣ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قَدِمَ الأحنف في وجوه أهل البصرة ، إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم أبو حاضر الأَسِيدِيَّ - وكان خطيبًا جميلًا - فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت فوالله لو دِدْتُ أَنْ لِي بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ الدِّينَارَ بِالدَّرْهَمِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ لَدَا وَلَكَ مَثَلًا ، أَفْتِيَاذُنُ فِي ذِكْرِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « مَثَلْنَا وَمَثَلُكَ وَمِثْلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلُ الأَعَشِيِّ حَيْثُ يَقُولُ :

عَلَّقْتُمَهَا عَرَضًا وَعَلَّقْتَ رَجُلًا غَيْرِي وَعَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ (٣)

أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَحْبَبْتَ أَهْلَ الشَّامِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدُ الْمَلِكِ

ابن مروان » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

٣٨٤ — كلام خطيب الأزد بين يدي عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خُطْبَاءً مِنَ الأَحْمَاسِ (٤) إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَتَكَلَّمُوا ، فَلَمَّا

انتهى الكلام إلى خطيب الأزد ، قام فقال :

قَدْ عَلِمْتَ الْعَرَبُ أَنَّنَا حَيٌّ فِعَالٌ ، وَلَسْنَا بِحَيٍّ مَقَالٌ ، وَأَنَا نَجْزِي بِفِعْلَانَا عِنْدَ أَحْسَنِ

(١) الرحم: الرحمة والرفقة والتطف . (٢) في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ،

إذ يخل وزن البيت . (٣) علق فلان امرأة (بالبناء للمجهول مشددا) : أحبها . (٤) الحمس كقفل : الأمكنة الصلبة جمع أحس ، ولقب به قريش ، وكنانة ، وجديلة ، ومن تابعهم في الجاهلية اتحمسهم في دينهم ، أو لانتجائهم بالحمساء وهي الكمية ، وأحماش العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون .

قولهم ، إن السيوف لتعرف أكَفْنَا ، وإن الموت لَيْسَتْ مَعَذِبُ أرواحنا ، وقد علمتُ الحربُ
الرَّبُون ، أَنَا نَقْرَعُ جِجَاحَهَا ، وَنَحْلِبُ صَرَاحَهَا^(١) « ثم جلس^(٢) .
(الأمال ٢ : ٢٥٩)

٣٨٥ - سؤال عبد الملك للعجاج وما أجاب به

ودخل العجاج^(٣) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاجُ : بلغني أنك لا تقدر
على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدَّرَ على تشييد الأبنية ، أمكنه إخرابُ
الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزًّا يمنعنا من أن نُظَلَمَ ، وإن لنا
حِلْمًا يمنعنا من أن نُظَلَمَ ، فَمَلَّامَ الهِجَاءِ ؟ فقال : لَكَلِمَاتِكَ أشعرُ من شعركِ ! فأنتى لك
عِزٌّ يمنعك من أن تُظَلَمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، قال : فما الحِلْمُ الذي
يمنعك من أن تُظَلَمَ ؟ قال : الأدب المُسْتَطَرَفُ ، والطبع التَّالِدُ ، قال : يا عجاج لقد
أصبحتَ حكيمًا . قال : وما يمنعني وأنا نجبي^(٤) أمير المؤمنين ؟ « .
(الأمال ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٨٦ - وفود العجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

لما ولي العجاج بن يوسف الحرَّمَيْنِ بعد قتله ابنُ الزبير ، استخَصَّ إبراهيم بن محمد
ابن طلحة ، فقرَّبه وعظم منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج إلى عبد الملك بن
مروان ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يقصِّر له في برِّ وإعظام ، حتى حضر به عبد الملك ، فلما

(١) الصرى : بقية البن . (٢) وفي رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء زارند معاوية ، فذهبت في الخطب
كل مذهب ، قام صبرة بن شيان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حي فقال ، ولستا حي مقال ، ونحن نبلغ
بفعلنا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروي المبرد في الكامل هذا القول من صبرة
أيضا - انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ - ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيان من الأزد - انظر الجزء
الأول ص ٤٣٦ . (٣) هو العجاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور ، مات سنة ٩٠ هـ . (٤) مسار .

دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام ، إلا أن قال له : « قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ الْحِجَازِ ، لَمْ أَدْعُ لَهُ بِهَا نَظِيرًا فِي الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبْوَةِ ، وَمَا بَلَوْتُ مِنْهُ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ الْمُوَازَرَةِ . وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، وَقَدْ أَحْضَرْتَهُ بِأَبْكَ ، لِيَسْتَهْلَ عَلَيْهِ إِذْنَكَ ، وَتَعْرِفَ لَهُ مَا عَرَفْتَنِي . » . قَالَ : أَذْكَرْتَنَا رَحِمًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غَلَامُ : إِذْنِي لِإِبْرَاهِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَدْنَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ طَلْحَةَ ، إِنْ أَبَا مُحَمَّدٍ (الْحِجَاجِ) ذَكَرْنَا مَا لَمْ نَعْرِفْكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوَجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبْوَةِ ، وَمَا بَلَآهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحَسَنِ الْمُوَازَرَةِ ، فَلَا تَدْعَنَّ حَاجَةً فِي خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَعَامَّتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَوَّلَ الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقَّ مَا قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آدَاءً ، وَلَكَ فِيهِ وَجْهَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيحَةٌ ، وَعِنْدِي نَصِيحَةٌ لَا أَجِدُ بُدًّا مِنْ ذِكْرِهَا ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا وَأَنَا خَالٍ ، فَأَخْلِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَرِدُ عَلَيْكَ نَصِيحَتِي ، قَالَ : أَدُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، دُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : لِلْحِجَاجِ قَمِ- ، فَلَمَّا خَطَرُفَ ^(١) السُّتْرَ أَقْبَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : يَا بَنَ طَلْحَةَ قُلْ نَصِيحَتِكَ ، قَالَ : بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ عَاهَدْتُ إِلَى الْحِجَاجِ فِي تَقَطُّرُسِهِ وَتَعَجُّرُفِهِ ، وَبُعْدِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَقُرْبِهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَوَائِيهِ الْحَرَمِينَ ، وَهَذَا مَا هَا وَبِهِمَا مَنْ بِيَهُمَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالْمَوَالِي الْأَخْيَارِ ، بِسُوءِهِمُ الْخُسْفَ ^(٢) وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِغَيْرِ السُّنَّةِ ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْ سَفْكَ دِمَائِهِمْ ، وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ حُرْمَتِهِمْ ، وَيَطْوُمُ بِطَنَامِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَرَعَاعِ لَأَرْوِيَةَ لَهُمْ فِي إِقَامَةِ حَقِّ ، وَلَا فِي إِزَاحَةِ بَاطِلِ ، ثُمَّ تَظُنُّ أَنْ ذَلِكَ يَنْجِيكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فَكَيْفَ بِكَ إِذَا جَانَاكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدًّا لِلْخُصُومَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَنْ تَنْجُو هُنَاكَ إِلَّا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لَكَ

(١) المراد أرسى ، من خطرف جلد المرأة : إذا استرخى . (٢) يولهم اللذ .

النجاة ، فارتفع على نفسك أو دَع ، وكان عبد الملك مُتَكَبِّراً ، فاستوى جالساً ، وقال :
كذبتَ وَمِنْتِ (١) فيما جئت به ! واقد ظن بك الحجاج ظناً لم نجد فيه فيك ، وقد يُظَنُّ
الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المأسئ الحاسد ! قال : فقامت والله ما أبصر شيئاً ، فلما خطر
الستر لحقني لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج ، وأذن للحجاج ، فدخل
فلبث مَلِيئاً ، ولا أشكُ أنهما في أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى
الستر ، إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتنقنى ، وقَبِل ما بين عينيَّ ، وقال : أما إذا جرى الله
المتواخين خيراً بفضل توأصلهما ، فجزاك الله عنى أفضلَ الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك
لأرفعنَّ ناظرَيك ، ولأُعلِنَنَّ كَمَبِك ، ولأُتبعنَّ الرجالَ غبارَ قدمَيك ، قال : فقلت
فى نفسى إنه ليسخر لى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ،
ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شاركك أحد فى نصيحتك ؟
فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يداً عندى من الحجاج ، ولو كنت محايياً أحداً
بدينى لكان هو ، ولكنى آثرْتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد
الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته
عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتنى له عنهما استقلالاً
لهما ، ووليته المراقين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدْحَضُها إلا منله ، وإنما قلت له ذلك
ليؤدى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج
وأكرمى أضعاف إكرامه . (العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح العيون ص ١١٩)

(١) مان مينا : كلب .

٣٨٧ - قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجماجم ، وقدم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المِصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده ، إذ نذاكروا البلدان ؛ فقال محمد بن ابن عُمَيْر بن عَطَّارِد : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وغمَّها^(١) ، وسفَّات عن الشام ووبَّأها ، وجاورها الفُراتُ ، فعذب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صفوان الأهمشي : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم برِّيَّةً ، وأسرعُ منهم في السَّرِيَّة^(٢) ، وأكثرُ منهم قَنَدًا^(٣) ، وعاجًا ، وساجًا^(٤) ، وناسًا^(٥) ، ماؤنا صفو ، وخيرُنا عفو ، لا يخرج من عندنا إلا قائدٌ وسائقٌ وناعقٌ^(٦) » ، فقال الحجاج : « أصلح الله أمير المؤمنين ! إني بالبلدين خبير ، وقد وطَّئتهما جميعاً » ، فقال له : قل فأنت عندنا مُصدِّق ، فقال : « أمَّا البصرة فمَجُوزٌ شَبَطَاءٌ ، دَفْرَاءٌ ، بَحْرَاءٌ ، أوتيتُ من كل حَلِيٍّ وزينة ؛ وأما الكوفة ، فشابةٌ حسناء جميلة ، لاحتلَّى لها ولازينة » .
فقال عبد الملك : فضلت الكوفة على البصرة . (مروج الذهب ٢ : ١٤٨)

وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان^(٧) - وسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : « نحن مَنَابِتُنَا قَصَبٌ ، وأهبارنا عَجَبٌ ، وسماؤنا رُطَبٌ^(٨) ، وأرضنا ذهب » .

(١) الغمق : ركوب الندى الأرض ، أرض غمقة كفرحة : ذات ندى وثقل ، أو قرية من المياه ، وفي الأصل : « وعمتها » وهو تصحيف (٢) السرية : من خمسة أنفص إلى ثلاثمائة ، أو أربعمائة ، والمراد في النهوض للقتال . (٣) القند : عسل قصب السكر . (٤) الساج : خشب أسود رزين يجلب من الهند ، ولا تكاد الأرض تلبيه ، وهو يشبه الآبنوس . (٥) في الأصل : « وبأسا » بالباء ، وأراه بالنون . (٦) يريد بالسائق : الأمير ، وبالناعق : الخطيب . (٧) أى يصف البصرة ، وكذا ما بعده . (٨) السماء : كل ما علاك ، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة ، « مشان كسحاب : قرية قريبة منها » ، وأن التمر لكثرتة ووفرتة يظلمهم .

وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سرية ، وأعظم منكم تجرية ^(١) ، وأكثر منكم ذرية ، وأغذى منكم برية » .
وقال أبو بكر الهذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً ، وطاجاً ، وديباجاً ، وخرابجاً ، ونهراً عجاجاً ^(٢) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٨٨ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسير ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بمد الاستحقاق وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلِّك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : فكيف رضام عنه ؟ قال : وسيمهم بالفضل ، وأقنهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجِدِّنا فنقطع فيهم ، وياقوننا بجِدِّهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجد ؟ قال : فما حال قطري ؟ قال : كادنا بيمض ما كدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُماة السرح ^(٣) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يُعرَف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل روأت ^(٤) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

(١) تجر كنصر تجرا وتجارة : تجر ، وأرى أن « تجرية » مصدر صناعي لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم رأطول باءاً من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة ثغر على الخليج للفارس ، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق . (٢) المعجاج : الصياح من كل ذي صوت . (٣) السرح في الأصل : المال السام . (٤) روا في الأمر : نظر فيه وتمعبه ، ولم يجعل بجواب .

٣٨٩ - وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقرى - ومعه مرة بن تليد الأزدى - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة، وقتل أميرهم عبد ربّه الصغير، فلما دخلا عليه بدر كعب فأنشده قصيدته التى مطلعها :

يَا حَفْصُ: إِنِّي عَدَايَ عِنْدَكَ السَّفَرُ . وَقَدْ سَرَيْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ

فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له: أخبرنى عن بنى المهلب، قال: «الْمَغِيرَةُ فَارِسُهُمْ وَسَيْدُهُمْ، نَارُ ذَا كَيْةٍ^(١)، وَصَعْدَةُ^(٢) عَالِيَةٌ، وَكَفَى بِيَزِيدَ فَارِسًا شَجَاعًا، لَيْثُ غَابٍ، وَبِحَرِّ جَمِّ عُبَابٍ، وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيصَةٌ، لَيْثُ الْمَفَارِ^(٣)، وَحَامِي الدَّمَارِ، وَلَا يَسْتَحْيِي الشُّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ، فَكَيْفَ لَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ الْحَاضِرِ، وَالْأَسَدُ الْخَادِرُ؟ وَعَبْدُ الْمَلِكِ سَمٌّ نَاقِعٌ، وَسَيْفٌ قَاطِعٌ، وَحَبِيبُ الْمَوْتِ الزُّعَاقُ، إِنَّمَا هُوَ طَوْدٌ شَامِخٌ، وَفَخْرٌ بَاذِخٌ^(٤)، وَأَبُو عَيْبِنَةَ الْبَطَلِ الْهَمَامُ، وَالسَّيْفُ الْحَسَامُ، وَكَفَاكٌ بِالْمَفْضَلِ نَجْدَةٌ، لَيْثٌ هَدَّارٌ، وَبِحَرِّ مَوَّارٍ^(٥)، وَمُحَمَّدٌ لَيْثٌ غَابٍ، وَحُسَامٌ ضِرَابٌ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانُوا فِيكُمْ؟ قَالَ: كَانُوا حُمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا، فَإِذَا أَلْيَلُوا^(٦) قَفَّرَ سَانَ الْبِيَاتِ، قَالَ: فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ؟ قَالَ: كَانُوا كَالْحَلْقَةِ الْمَقْرَعَةِ: لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفُهَا، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ لَكُمْ الْمَهْلَبُ وَكُنْتُمْ لَهُ؟ قَالَ: كَانَ لَنَا مِنْهُ شَفَقَةٌ الْوَالِدِ، وَهُوَ مَنَّا بَرُّ الْوَالِدِ، قَالَ: فَكَيْفَ جَمَاعَةُ النَّاسِ؟ قَالَ: حَلَى أَحْسَنَ حَالٍ، أَدْرَكُوا مَا رَجَوْا، وَأَمِنُوا مِمَّا خَافُوا، وَأَرْضَاهُمُ الْعَدْلُ، وَأَغْنَاهُمُ النَّفْلُ^(٧)، قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوُّكُمْ؟ قَالَ: كُنَّا إِذَا أَخَذْنَا عَفْوَنَا، وَإِذَا أَحَدُوا يَبْسُتْنَا مِنْهُمْ،

(١) ذكت النار: اشتد لهاها. (٢) الصعدة: القناة المستوية تبتت كذلك. (٣) أغار على

للعدو إغارة ومغارا. (٤) الطود: الجبل، وباذخ: مال. (٥) مار: ماج واضطرب.

(٦) أليوا وألأوا: دخلوا فى الليل. (٧) الغنيمة والهبة.

وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، قال : كيف أفلتكم قطري ؟ قال : كدناه بيمض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال : كان الحدّ عندنا آثر من القلّ^(١) ، قال : أكنتَ أعددتَ لى هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيثُ وجهك ، وأسر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأرفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل المبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغاني ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٠٥ ، وزهر

الآداب ٣ : ٩٣)

٣٩٠ - سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سُلَيْك بن سُلْكَة^(٢) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزّني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ؛ فإن سمعت خطأ أو زللاً فدوتك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصى عاصٍ من عُرُض العشيّة ، فحلّقتُ على اسمي ، وهُدِمتُ داري ، وحرّمتُ عطائي ، قال : هيات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَرَبِّمَا تُعَدِي الصِّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ^(٣)
وَأَرْبَبٌ مَأْخُوذٌ بِذَنْبِ عَشِيرِهِ وَنَجْمًا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ

(١) القوم المنهزمون . (٢) هو غير سليك بن سلكة الذي ضرب به المثل في العذر ، فقيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلي ، (وهو سليك بن عمرو التيمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صعاليك العرب ووصوهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك ابن السلكة ، والشنفرى ، وتابط شرا ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية : عنزة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه منحصرم قد ولى في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في سرح العيون « وهو جاهلي قديم » - انظر ترجمته في سرح العيون ص ٨٠ والأغاني ١٨ : ١٣٣ - . (٣) في الأصل « جانيك من يجني عليك وقد » على أن العروض حذاء كالمضرب وهو صحيح ، ولكنني رأيت العروض في البيت الذي يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمساكلة بين العروضين .

قال أصلح الله الأمير، سمعتُ الله قال غير هذا، قال: وما ذاك؟ قال: قال: «
بأئبها العزيب: إن له أبا شيخاً كبيراً، فخذ أحدنا مكانه، إنا نراك من المخسبين»
قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا أظالمون.»

قال الحجاج: عليّ بيزيد بن أبي مسلم^(١)، فأتي به فمَثَلَ بين يديه، فقال:
فكك لهذا عن اسمه، واصكك^(٢) له بعبائه، وابن له منزله، وصر مناديا ينادي
في الناس، صدق الله، وكذب الشاعر.

(العقد الفريد ٣ : ٦)

٣٩١ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق. وتنفّم مذهبهم، وتسخط طريقتهم، فقال له
جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسنّاً - : «أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك،
على أنهم ما شئتوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لِدَاتِ نَفْسِكَ، فدع ما يبدهم منك،
إلى ما يقرّبهم إليك، والتمس العافية ممن دونك، تُعْطَهَا مِنْ فَوْقِكَ، وليمكن إبقاءك
بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك. قال الحجاج: «إني والله ما أرى أن أرد»
بني اللّكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف»، فقال «أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف
ذهب الخيَارُ»، فقال الحجاج: «الخيَارُ يومئذ لله»، قال: «أجل»، ولكن
لا تدرى لمن يجمله الله»، فغضب الحجاج وقال: «يا هتاه^(٣) إنك من محارب»،
فقال جامع:

وللحرَبِ سُمِّيْنَا، وَكَانَ مُحَارِبًا إِذَا مَا الْقِنَا أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَحْمَرًا

(١) كاتب الحجاج. (٢) صكك له كقتل: كتب له صكاً، وهو الكتاب الذي يكتب في المعاملات: (الشيك).

(٣) هن: كلمة يكتن بها عن اسم الإنسان، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح باسمه قلت: ياهن أقيل،

وفد تزد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة، فيقال ياهناه أقيل، أي يافلان، وهذه أهاء تصير تاء

في الوصل، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتسكمر لاجتماع الساكنين.

فقال الحجاج: « والله لَهَمَمْتُ أَنْ أَخْلَعُ لِسَانَكَ ، فَأَضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ » ، فقال جامع : « إِنْ صَدَّقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ ، وَإِنْ غَشَشْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ ، فَفَضَّبُ الْأَمِيرُ أَهْوَنَ عَلَيْنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ » قَالَ : أَجَلٌ ؛ وَسَكَنَ ، وَشُغِلَ الْحِجَاجُ بِبَعْضِ الْأَمْرِ ، فَاَنْسَلَ جَامِعٌ ، فَمَرَّ بَيْنَ صَفُوفِ خَيْلِ الشَّامِ ، حَتَّى جَاوَزَ إِلَى خَيْلِ أَهْلِ الْعِرَاقِ - وَكَانَ الْحِجَاجُ لَا يَخْطِطُهُمْ فَأَبْصَرَ كَبْكَبَةً^(١) فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ بَكْرِ الْعِرَاقِ ، وَتَمِيمِ الْعِرَاقِ ، وَأَزْدِ الْعِرَاقِ ، وَفَيْسِ الْعِرَاقِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَثَرُوا بِأَبْوَابِهِ ، وَبَلَّغَهُمْ خُرُوجَهُ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا عِنْدَكَ ؟ دَافِعَ اللَّهُ لَنَا عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : وَيَسَّحِكُكُمْ أَعْمُوهُ بِالْخَلْعِ كَمَا يَفْعَمُّكُمْ بِالْعِدَاوَةِ ، وَدَعُّوا التَّمَادِيَّ مَا عَادَاكُمْ ، فَإِذَا ظَفِرْتُمْ بِهِ تَرَاجَعْتُمْ وَتَمَاقَيْتُمْ ، أَيُّهَا التَّمِيمِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ الْأَزْدِيِّ ، وَأَيُّهَا الْقَيْسِيُّ : هُوَ أَعْدَى لَكَ مِنَ التَّغْلِبِيِّ ، وَهَلْ ظَفِرَ بَيْنَ نَاوَاهِ مِنْكُمْ إِلَّا بَيْنَ بَقِيٍّ مَعَهُ مِنْكُمْ ؟ » وَهَرَبَ جَامِعٌ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَجَارَ بَنِي قُرَظٍ مِنَ الْحَارِثِ .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والمقدّم الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،
وعيون الأخبار ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٩٢ - ليلي الأخيلية والحجاج

بَنُ مَوْلَى لَعْنَبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي قَالَ :

كُنْتُ أَدْخُلُ مَعَ عَنبَسَةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي إِذَا دَخَلَ عَلَى الْحِجَاجِ ، فَدَخَلَ يَوْمًا ، فَدَخَلْتُ إِلَيْهِمَا ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْحِجَاجِ أَحَدٌ إِلَّا عَنبَسَةُ ، فَأَقْعَدَنِي ، فَخِيءَ الْحِجَاجُ بِطَبَقٍ فِيهِ رُطْبٌ ، فَأَخَذَ الْخَادِمُ مِنْهُ شَيْئًا فَجَاءَنِي بِهِ ، ثُمَّ جِيءَ بِطَبَقٍ آخَرَ ، حَتَّى كَثُرَتْ الْأَطْبَاقُ ، وَجَعَلَ لَا يَأْتُونِ بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَنِي مِنْهُ بِشَيْءٍ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ مَا بَيْنَ يَدَيَّ أَكْثَرُ مِمَّا عِنْدَهُمَا ، ثُمَّ جَاءَ الْحَاجِبُ فَقَالَ : امْرَأَةٌ بِالْبَابِ ، فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : أَدْخِلِيهَا . فَدَخَلَتْ ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْحِجَاجُ طَاطَأَ رَأْسَهُ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ ذَقْنَتْهُ قَدْ أَصَابَ الْأَرْضَ ، فَجَاءَتْ حَتَّى قَعَدَتْ

(١) الككبكية : الجماعة .

بين يديه ، فنظرتُ فإذا امرأة قد أسدت ، حسنة الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي
 كئيلي الأخيالية ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا بلي ، ما أتى بك ؟
 فقالت : « إخلافُ النجوم ^(١) ، وقلةُ الغيوم ، وكَلْبُ البرد ^(٢) ، وشدة الجهد ،
 وكنت لنا بعد الله الرّفد ^(٣) » فقال لها : صفي لنا الفجاج ^(٤) ، فقالت : « الفججاج مُعْبَرَةٌ
 والأرض مُقْشَعْرَةٌ ، والمبْرَك ^(٥) مُعْتَلٌ ، وذو العيال مُخْتَلٌ ^(٦) ، والمالِكُ للقل ^(٧) ،
 والناس مُسْتِنْتُونَ ^(٨) ، رحمة الله يزجون ، أصابتنا سنونٌ مجحفةٌ مُبْلِطَةٌ ^(٩) ، لم تدع لنا
 هُبَمًا ولا رُبَمًا ^(١٠) ، ولا عافطةً ولا نافطةً ^(١١) ، أذهبت الأموال ، ومزقت الرجال ،
 وأهلك العيال » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير قولاً ، قال : هاتي ، فأشأت تقول :

أَحْجَّاجٌ لَا يُقَالُ سِلَاحُكَ ، إِنَّمَا السَّمَانِيَا بِكَفِّ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاهَا ^(١٢)
 أَحْجَّاجٌ لَا تُعْطَى الْعَصَاةَ مُنَافِمٌ وَلَا اللَّهُ يُعْطَى الْعَصَاةَ مُنَاهَا
 إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِمَا فَشَفَاهَا
 شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي يَبِهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
 سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشُرْبِ سِجَالِهِ دِمَاءُ رِجَالٍ حَيْثُ مَالٌ حَشَاهَا ^(١٣)

(١) أي أخلفت النجوم التي يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . (٢) كلب البرد : شدته ، وأصل
 الكلب : السمار (بالضم) الذي يصيب الكلاب والذئاب . (٣) الرّفد (بالفتح) : المعونة ، مصدر
 وفده كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والصلة . (٤) الفججاج جمع فجع : بالفتح ، وهو
 الطريق الواسع بين جبلين . (٥) أرادت به الإبل الباركة فيه . (٦) مختل : محتاج من الخلة
 بالفتح وهي الحاجة . (٧) للقل : أي هالك من أجل القلة . (٨) أي مقحطون ، والسنة : القحط .
 (٩) مجحفة : قاشرة ، ومبلاة : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض المساء ، والحجارة التي تفرش
 في الدار ، وأبطل الرجل فهو مبطل : إذا لزق بالأرض . (١٠) الهبع : الفصيل ينتج في الصيف
 (في آخر الشتاء) والريع : الفصيل ينتج في الربيع (وهو أول التاج) . (١١) العافطة : الضائنة
 (النجفة) ، من العطف ، وهو الضرط ، عطف كضرب : ضرطت ، فهي عافطة ، والعطف أيضا : نثير
 للضأن ، نثير بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة المنز ، من النفط ، نفطت المنز كضرب نثرت بأنفها ،
 أو عطست ، فهي نافطة ، أو لأنها تنفط ببولها أي تدفمه دفعا ، أو النافطة إتياع للعافطة ، أو العافطة الأمة
 للرعاية ، والنافطة الشاة . (١٢) السلاح مذكر ويؤنث كما في هذا البيت . (١٣) السجال : جمع
 سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة .

إذا سَمِعَ الحِجَّاجُ رِزًّا كَتَيْبَةً أَعَدَّ لها قبل النزولِ قِراها (١)
 أَعَدَّ لها مَسْمُومَةٌ فارسيَّةٌ بأيدي رجالٍ يَحْلِبُونَ صِراها (٢)
 فما وَلَدَ الأَبْكارُ والعُونُ مِثْلَهُ بِبَحْرِ ولا أرضٍ يَجِفُّ نِراها (٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صِفتي شاعر
 مُذ دخلتُ العراقَ غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إني لأَعِدُّ للأمرِ
 عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حَبُّبِكَ ! قالت : إني قد قلتُ أكثرَ
 من هذا . قال : حَسْبِكَ وَنَحْمِكَ ! حَسْبِكَ ، ثم قال : يا غلام اذهب إلى فلان فقل له :
 اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار
 الحِجَّام ، فالتفت إليه ، فقالت : نَسِكَتْكَ أَمَك ! أما سمعتَ ما قال ؟ إنما أمرُك أن تقطع
 لسانى بالصِّلَّة ، فبعث إليه يستثنيته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمَّ بقطع لسانه ، وقال :
 ارزُدْها ، فلما دخلت عليه ، قالت : كاد وأمانةِ الله يقطع مقولى ! ثم أنشأت تقول :

حِجَّاجُ أنت الذى ما فوقه أحدٌ إلا الخليفةُ والسففر الصمدُ (٤)

حِجَّاجُ أنت شهابُ الحرب إن لقيت وأنت للناس نورٌ فى الدُّجى يَقْدُ (٥)

ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ،
 إلا أننا لم نَرَ قطُّ أفصحَ لساناً ، ولا أحسنَ محاورَةً ، ولا أملحَ وجهاً ، ولا أَرصَنَ شعراً
 منها ، فقال : هذه لبلى الأخيلية ، التى ماتت توبةً الخفاجى من حُبِّها ، ثم التفت إليها
 فقال : أُنشِدِينا يا لبلى بعضَ ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذى يقول :

وهل تَبْكِينِ لِبلى إذا مِتُّ قبلها ؟ وقام على قبرى النساءِ التوايحُ ؟

(١) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (٢) الصرى : بقية اللبن . (٣) العون جمع عوان .

كسحاب ، وهى التى كان لها زوج . (٤) الصمد : الذى يصمد أى يقصد فى قضاء الحوائج .

(٥) لقيت : أصله من لقمحت الناقة أى قبلت اللقاح ، والشهاب : شملة من نار ساطعة ، ويقند يتوقد .

كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها
وأغبط من ليلي بما لا أناله
ولو أن ليلي الأخيلىة سلمت
ولدت تسليم البشاشة أو زقا
وجاد لها دمع من العين سافح^(١)
بلى ، كل ماقرت به العين طامح
على ، ودوني جندل و صفاح^(٢)
إليها صددي من جانب القبر صا^(٣)

فقال : زيدنا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حامة بطن الواديين ترنمي
أبيني لنا ، لا زال ريشك ناعما
وكنفت إذا ما زرت ليلي تبرقت
وقد رابني منها صدود رأيت
وأشرف بالقور اليفاع لعلني
يقول رجال : لا يصيرك نأها
بلى ، قد يصير العين أن تكثر البكا
وقد زعمت ليلي بأني فاجر
سقاك من العر الغوادي مطيرها^(٤)
ولا زلت في خضراء غص نصيرها
فقد رآني منها الفداة سفورها
وإعراضها عن حاجتي وبسورها^(٥)
أرى نار ليلي أو يراني بصيرها^(٦)
بلى ، كل ماشف النفوس بصيرها
ويمنع منها نومه وسرورها
لنفسى تقاها ، أو عليها فجورها

فقال الحجاج : يا ليلي ، ما الذي رآه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان
يُلم بي كثيراً ، فأرسل إلى يوماً : إني آتيك ، وفطن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتاني
سقرت عن وجهي ، فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درك !

(١) سافح : منصب . (٢) الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراض .

(٣) زقا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الأعراب أن

روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فتصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثار به ، وهذا
مثل يراد به تحريض ولي القتيل على طلب دمه ، فجعله جهلة الأعراب حقيقة . (٤) الغوادي : جمع غادية ،

وهي السحابة تنشأ غدوة . (٥) بسر كدخل : عبس وكلع . (٦) القور : جمع قارة ، وهي الجبيل

النصير ، المنقطع عن الجبال ، واليفاع : التل .

هل رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ فقالت: لا والله الذي أسأله أن يصلحك، إنه قال مرة
قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر، فأنشأت أقول:

وذي حاجة قلنا له لا تبخ بها فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل
فلا والله الذي أسأله أن يصلحك، مارأيت منه شيئاً، حتى فرق الموت بيني وبينه،
قال: ثم مه؟ قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له، فأوصى ابن عم له، إذا أتيت
الحاضر من بنى عبادة فناد بأعلى صوتك:
عفا الله عنها، هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها؟
وأنا أقول:

وعنه عفا ربّي وأحسن حاله فعزت علينا حاجة لا ينالها
قال: ثم مه؟ قالت: ثم لم يلبث أن مات، فأتانا نعيه، فقال: أنشدنا بعض
مرائك فيه، فأنشدت:

لتبك العذاري من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر^(١)
قال لها: فأنشدينا، فأنشدته:

كان فتى الفتيان توبة لم يفتح قلائص يفحصن الحصى بالكرراكر^(٢)
فلما فرغت من القصيدة، قال مخصن الفقمسي: - وكان من جلساء الحجاج -

(١) الشئون: جمع شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين. وكتب مصحح الأمالى قال: « قوله المتحدر
كذا في النسخ، وكتب بهامش بعضها لعله المتحادر بالألف قبل الدال، لتستقيم القافية، وفي هامش بعض
النسخ بعد البيت الآتي:

فتى لا تحطاه الرفاق ولا يرى لقدر عيالادون جار مجاور» اه

(٢) القلائص جمع قلوص كصبور، وهي الناقة الشابة، أو الباقية على السير، يفحصن: يقلبن،
من فحص المطر التراب تلبه، وفحص القطا التراب: اتخذ فيه أفحوصا وهو مجشمه، والكرراكر: جمع كركرة
بالسكر، وهي زور البعير.

من الذي تقول هذه هذا فيه؟ فوالله إني لأظنها كاذبة، فنظرت إليه، ثم قالت: أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبة لاسرَّه أن لا تكون في داره عذراء إلا هي حاملٌ منه، فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غيبًا، ثم قال لها: سئني يا ليلى تُعطيني، قالت: أعط، فذلك أعطى فأحسن، قال: لك عشرون، قالت: زد فذلك زاد فأجمل، قال: لك أربعون، قالت: زد، فذلك زاد فأكمل، قال: لك ثمانون، قالت: زد، فذلك زاد فتمم، قال: لك مائة، واعلم أنها غم، قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جوداً، وأجود مجدداً، وأوزى زنداً، من أن تجعلها غماً، قال: فها هي؟ ويحك يا ليلى؟ قالت: مائة من الإبل برُعائها، فأمر لها بها، ثم قال: ألك حاجة بعدها؟ قالت: تدفع إلى الناقة الجمدي، قال: قد فعلت، وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ الناقة ذلك، فخرج هاربا عائداً بعبد الملك، فاتبعته إلى الشام، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فمات بقومس^(١)، ويقال بمحلوان.

(الأمال ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٣٩٣ الغضبان بن القبعثري والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية، عشراً من النجائب، وعشراً من قعد النكاح، وعشراً من ذوات الأحلام، فلما نظر إلى الكتاب لم يدر ما وصفه من الجوارى، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه، فقال له بعضهم: أصلح الله الأمير، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويتاً، فله معرفة أهل البدو، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو، ثم شرب الشراب، فله بداه أهل الشراب، قال: وأين هذا؟ قيل: في حبسك، قال: ومن هو؟ قيل للغضبان الشيباني، فأحضر

(١) قومس: صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل.

فلما تَمَلَّ بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتعدون بي قبل أن أتمشى بهم^(١) ؟
 قال : أصلح الله الأمير : ما نَفَعَتْ مَنْ قَالَهَا ، ولا ضُرَّتْ مَنْ قِيلَتْ فِيهِ ، قال : إن
 أمير المؤمنين كتب إليّ كتاباً لم أذُرِ ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقْرَأُ عليّ ،
 فقرأ عليه ، فقال : هذا بيِّن ، قال : وما هو ؟ قال : « أَمَّا النَّجِيْبَةُ مِنَ النِّسَاءِ : فَالَّتِي
 عَظُمَتْ هَامَتُهَا ، وَطَالَ عُنُقُهَا ، وَبَعُدَ مَا بَيْنَ مَنْكَبَيْهَا وَتَدْبِيهَا ، وَاتَّسَعَتْ رَاحَتُهَا ،
 وَتَخَنَّتْ رُكْبَتُهَا ، فَهَذِهِ إِذَا جَاءَتْ بِالْوَلَدِ جَاءَتْ بِهِ كَاللَّيْثِ ؛ وَأَمَّا قَعْدُ النِّكَاحِ ، فَهِيَ
 ذَوَاتُ الْأَعْجَازِ ، مُنْكَسِرَاتُ التُّدِيِّ ، كَثِيرَاتُ اللَّحْمِ يَقْرُبُ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ ،
 فَأُولَئِكَ بِشْرِينَ الْقَرَمِ^(٢) وَبُرُوزِ الظَّمَانِ ؛ وَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَحْلَامِ ، فَبِنَاتُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ
 إِلَى الْأَرْبَعِينَ^(٣) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة
 النُّقْبَةُ^(٤) ، الْحَدِيدَةُ الرَّكْبِيَّةُ ، السَّرْبِيعَةُ الْوَثْبَةُ ، الْوَاسِطَةُ^(٥) فِي نِسَاءِ الْحَيِّ ، الَّتِي إِذَا
 غَضِبَتْ غَضِبَ لَهَا مَائَةٌ ، وَإِذَا سَمِعَتْ كَلِمَةً قَالَتْ لَا وَاللَّهِ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى أُقْرِئَهَا قَرَارَهَا ،
 الَّتِي فِي بَطْنِهَا جَارِيَةٌ ، وَيَتْبَعُهَا جَارِيَةٌ ، وَفِي حَجْرِهَا جَارِيَةٌ ، قَالَ الْحِجَّاجُ : عَلَى هَذِهِ
 لَعْنَةُ اللَّهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَيَحْكُ ، فَأَخْبَرَنِي بِحَيْرِ النِّسَاءِ ، قَالَ : خَيْرُهُنَّ الْقَرِيبَةُ الْقَامَةُ مِنَ السَّمَاءِ
 الْكَثِيرَةُ الْأَخْذِ مِنَ الْأَرْضِ ، الْوَدُودُ الْوُدُودُ ، الَّتِي فِي بَطْنِهَا غِلَامٌ ، وَفِي حَجْرِهَا غِلَامٌ ،
 وَيَتْبَعُهَا غِلَامٌ ، قَالَ : وَيَحْكُ فَأَخْبَرَنِي بِشَرِّ الرِّجَالِ ، قَالَ : شَرُّهُمُ السَّنُوطُ الرَّبُوطُ^(٦) ،
 الْحُمُودُ فِي حَرَمِ الْحَيِّ ، الَّذِي إِذَا سَقَطَ لِأَحَدَاهُنَّ دَلْوٌ فِي بئرٍ انْحَطَّ عَلَيْهِ حَتَّى يُخْرِجَهُ ،

(١) انظر خطبته في ص ٢٣٧ . (٢) القرم محرّكة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق

إلى الحبيب . (٣) هنا سطر أسقطناه ؛ فليُنظره في الأصل من شاء . (٤) الوجه .

(٥) وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم . (٦) السنوط : الذي لا شعر في وجهه

ألبنة « الكوسج » كجمفر ، وفي الأصل « السبوط » بالباء ، ولم أجده في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها من
 هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه « مسبط » ومعناه على هذا : الكسمل المتقاعد عن السعي ،
 والرَبُوطُ ، يريد به الملازم لبيته الذي لا يخرج منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه .

فهن زينه الخير ، ويقلن عاقى الله فلاناً ، قال : على هذا لعنة الله ، فأخبرني بخير الرجال ؟
قال : خيرهم الذى يقول فيه الشماخ التغلبى :

فتى ليس بالراضى بأذنى معيشة ولا فى بيوت الحى بالمتولج^(١)
فتى يَمَلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوَى سِنَانَهُ وَيضْرِبُ فى رَأْسِ الكَمِيِّ المَدَجِّجِ^(٢)

فقال له : حَسْبُكَ ، كم حَبَسْنَا عطاك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها
وخلّى سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٩٤ - ابن القرية يعدد مساوى المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تذكره المزاح وتنهى عنه ،
فقال : « المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أدلّه فرّح وآخره
ثراح ، المزاح نقائص السفهاء كالشعر نقائص الشعراء ، والمزاح بؤغر صدر الصديق ،
وينفر الرفيق ، والمزاح يبدي السرائر ، لأنه يظهر المعابر ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدي
الخفا ، لم يجرّ المزاح خيراً وكثيراً ما جرّ شراً ، الغالب بالمزاح واتر ، والمغلوب به نأثر ،
والمزاح يجلب الشتم صغيره ، والحرب كغيره ، وليس بعد الحرب إلا عفوٌ بعد قدرة » ،
فقال الحجاج : « حَسْبُكَ ، الموت خير من عفوٍ معه قدرة » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٥)

(١) الداخلى .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكفى عن كرمه ، والمدجج : الشاكى فى السلاح .

٣٩٥ - يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلى سليمان بن عبد الملك ، أتى يزيد بن أبي مُسلم : مَوْلى الحجاج ، في جامعَة^(١) ، وكان رجلاً دَمِيماً تَمْتَحِمُهُ^(٢) العين ، فلما رآه سليمان قال : لعن الله امرأً أَجْرَكَ رَسَنَكَ^(٣) ، وَوَلَى مثلك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك رأيتنى والأمر عنى مُدْبِر ، ولو رأيتنى والأمر على مُقْبِل ، لاستعظمت من أمرى ما استصغرت ، ولا استجملت ما استحققت ، فقال له سليمان : « أين ترى الحجاج ، أَيْهْوَى في النار ، أم قد استقر في قعرها ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين : لا تقل هذا ، إن الحجاج قَمَعَ لكم الأعداء ، وَوَطَأَ لكم المآبر ، وزرع لكم الهيبة في قلوب الناس ، وبعدُ فإنه يأتي يوم القيامة عن يمين أبيك ، وشمال أخيك الوليد ، فضعه من النار حيث شئت » ، فصاح سليمان : اخرج إلى لعنة الله ، ثم التفت إلى جلسائه ، فقال : قَبِّحْهُ اللهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيْبِهِ لِنَفْسِهِ ولصاحبه ، ولقد أحسن المكافأة ، أطلقوا سبيله .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، وللعقد الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

(١) الجامعة : القيد . (٢) تزدرية . (٣) الرسن : الجبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ما شاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، فحقد عليه ، وكتب إليه كتاباً شديد الهمجة ، وفيه يقول « وأيم الله نئن أمكنى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجملنك شريدا في الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : فروينك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة أتملق بها « فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمري إنك لصبى حديث السن تعذر بقلة عقلك ، وحدائة سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أمورا دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحقد من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

٣٩٦ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبداً زبّاباً ^(١) ، قنور بن قنور ^(٢) ، لا نسب له في العرب » قال سليمان : أئى شتم هذا ! إن عدو الله

(١) بائع زبيبي ، قيل إنه كان يبيع الزبيبي بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه بالطائف - ويسمى كليبا - وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة السكوثر ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبدة إباد
زمان هو العبد المقر بذله يروح صبيان القرى ويغادى

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم رواحا » ، ثم صار دباغاً كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ، وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطه ويضعفه ويصجزه في تأخير مناجزتهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له : إن الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن امكنتني الفرصة انهنزتها ، وإن لم تمكنتني فأنا أدبر ذلك بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلك ، وإن كان خطأً فعلى ، فابعث من رأيت مكاني » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنتشه بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبلغت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك من أيلته ، وكتب إليه يستوجه منه ، تقدم كعب على عبد الملك واستنشدته ؛ فأعجبه ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفوه عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاودة الدباغ غنيمة ! » فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض مشاهدته في تلك الحروب وأزمانها ، وما يوردناه المهلب من خطرها ، أن أنجو منها ، وأكون حجاما ، أو حانكا ، فقال له الحجاج : أولى لك ، لولا قدم أمير المؤمنين لما نعمك ما أسمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء : - انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وشرح العيون ص ١١٢ ، والمقد الفرید ٣ : ٦ . (٢) القنور : الشرس الصعب من كل شيء ، وكسنور : العبد .

الحجاج كتب إلى : « إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كفت لك كما كفت لها ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت محوتك ، وإن شئت أئبقتك » فالتوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبي بَرْدَةَ بن أبي موسى الأشعري فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بِبِلْمٍ » قال : هات ، قال : « كان عدو الله يتزينُ تزِينِ الْمُؤَمِّسَةِ ^(١) ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عملَ عملِ الفراعنة ، وأكذبُ في حديثه من الدجال » ، فقال سليمان لرجاء بن حيوة : « هذا وأبيك الشتمُ ، لا ما أتاني به السفلة ^(٢) » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٣٩٧ - كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأهرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال : في المخرَج من هذا الأمر . قال : يسيرٌ إن أنت فعلته . قال : وما ذاك؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حِلِّها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدهك ، قال : عظمى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر على ، قال إنما أنت سوق ، فما نفق ^(٣) عندك حِمْلٌ إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا؟ قال : وما أصنع بإنيمانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتنيتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي

(١) امرأة مومس ومومسة : فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور « من الومس كوهد : وهو احتكاك الشيء بالشيء

حتى ينجرد ؛ وأومست : أمكنت من الومس » . (٢) سفلة الناس كنفمة وفرحة : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) راج .

ما أخافك عليه : قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فما أعطاني منها قِيبْتُ ، وما منعتني منها رَضِيتُ .

(العقدة الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٩٨ - أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ فقال :
لأنكم عمرتم دنياكم ، وأخرتم آخرتكم ، فأنتم تكثرهون الثقل من العمران إلى
الخراب ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يأتي
أهله مسروراً ؟ وأما المسيء فكالعبد الآبق^(١) يأتي مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال
أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة
حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال :
فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عظمي وأوجز ، قال :
يا أمير المؤمنين ، نزه ربك ، وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ،
فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جاسائه : أسرقتَ ويحك على أمير المؤمنين ،
فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيدنه للناس
ولا يكتموننه ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال ، فردّه وقال للرسول :
قل له : وألله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟

(مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٧)

٣٩٩ - وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قدّم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرب منهم غلام للكلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجد له الحليّة ، ولو كان التقدم بالسنّ لكان في هذه الأمة من هو أحق بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد الهنئة لا وفد المرزفة^(١) ، قدّمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذى منّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأننا قد أمّنا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عطفنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرّهم حلمُ الله عنهم ، وطولُ أملهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يفرّك حلمُ الله عنك ، وطولُ أملاك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فنزل قدّمك ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغيرٌ إذا التفت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

(١) رزاه ماله كجمل وعلم: أصاب منه شيئا، ورزاه مرزفة: أصاب منه خيرا ، أى لسانا وافدين للمطام.

(٢) وفى زهر الآداب: « فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين ».

٤٠٠ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنته

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهناه بالخلافة ، فقال :
« الحمد لله الذى منّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة ، وخلافتكم
عِصمة ، ومصائبكم أسوة ، وجعلكم قدوة »
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٤٠١ — خطبة عبد الله بن الأهم

دخل عبد الله بن الأهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - مع العامة ، فلم
يفجأ عمر إلا وهو مائلٌ بين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله خلَق الخلق ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، والناسُ
يومئذٍ فى المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بشرٌ تلك المنازل ، أهل الوَرِّ وأهل المدَرِّ ،
تحتأزُّ دونهم طيباتُ الدنيا ورفاعةٌ^(١) عيشتها ، مَيِّتٌهم فى النار ، وحبُّهم أعمى ، مع
مالا يُحصى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن يذُشرَ فيهم رحمةً ، بعث
إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » ،
فلم ينعهم ذلك أن جرَّحوه فى جسمه ، ولقبوه فى اسمه^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يَرَحُلُ
إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أمر بالعزيمة أسفر لأمر الله
لونه ، فأفلج^(٣) الله حجَّته ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نقيّاً نقياً ،
صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّته وأخذ سبيله ،
وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كان قابلاً منهم ،

(١) الرفاعة والرفاقية : سعة للعيش والخصب . (٢) فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ،

وكاهن ، وشاعر . (٣) نصر .

فانتضى السيوف من أعقادها ، وأوقد النيران من شعاعها ، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يَبْرَحْ يفصل أوصالهم ، ويسقي الأرض دماءهم ، حتى أدخلهم في الذي خرجوا منه ، وقرَّهم بالذي نفرُّوا منه ، وقد كان أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وحبشية تُرَضِّع ولداً له ، فرأى ذلك غصّة عند موته في حلقه ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرِيءٌ إليهم منه ، وفارق الدنيا نقيّاً تقيّاً ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه . ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فمصر الأمصار ، وخاط الشدة باللين ، فحسر عن ذراعيه ، وشمر عن ساقيه ، وأعدّ للأموراقرانها^(٢) ، وللحرب آتيا ، فلما أصابه قِن^(٣) المغيرة بن شعبه ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُثبِتون قاتله ؟ فلما قيل له قِن المغيرة ، استهل^(٤) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفيء ، فيستجِلّ دمه بما استحلّ من حقه ، وقد كان أصاب من مال الله بضعمًا وثمانين ألفاً ، فكسر بهارِ بابه^(٥) ، وكره بها كفالة أهله وولده ، فأدّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا نقيّاً تقيّاً على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْم^(٦) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وأقمتهك ثديها ، فلما وليتها أقيمتها حيث أبقاها الله ، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتها^(٧) ، وكشف بك كرتها ، امض ولا تلتفت ، فإنه لا يَدِلُّ على الحق شيء ، ولا يعزّ على الباطل شيء ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْم » سكت الناس كلهم إلا هشاماً فإنه قال : « كذبت » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

(١) الفتى من الإبل . (٢) أسبابها التي تقاد بها ، جمع قرن كسبب : وهو الحبل يجمع به البعيران .

(٣) القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك (٤) صاح .

(٥) الرباع جمع ربع كشمس : وهو الدار . (٦) جمع ظالم : وهو للمتهم والمائل ، وأصله من ظلم

البيمر كنعج : غمز فى مشبه . (٧) الحوية : الهم والحاجة .

٤٠٢ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ، وكم من قوم قد غرهم مثل الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ، فخرجوا من الدنيا مرملين^(١) ، لم يأخذوا ما أحبوا من الآخرة عُدَّةً ، ولا لما كرهوا جنةً ، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت ، فقدّمه بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البَدَل ، حيث يجوز البَدَل ، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جوازها عنك . يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وردّ الظالم . »

(عيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٤٠٣ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد ابن أبي الجهم^(٢) بن حذيفة القدوسي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سناً ، وأفضلهم رأياً وحِلماً ، فقام متوكئاً على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت ، وأثنت عليك فأحسننت ، والله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُشيدهم فضلك ، أفتأذن لي في الكلام؟ قال: تكلم ، قال: أفأؤجز أم أطنب؟ قال: بل أؤجز ، قال: « تولاك الله أمير المؤمنين

(١) أرمل : نفذ زاده وافتقر . (٢) في الأمل « إسميل بن أبي الجهم » .

بالحسنى ، وَزَيَّنَكَ بالتقوى ، وَجَمَعُ لَكَ خَيْرَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى ، إِنْ لِي حَوَائِجٌ أَنْفَازَ كَرَاهَا ؟
 قَالَ : هَاتَهَا ، قَالَ : كَثُرَتْ سَيِّئَاتِي ، وَضَعُفَتْ قُوَايَ ، وَاسْتَدْتِ حَاجَتِي ، فَإِنْ رَأَى
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُجْبِرُ كَسْرِي ، وَيَنْفِي قَفْرِي « ، قَالَ : يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، وَمَا الَّذِي يُجْبِرُ
 كَسْرَكَ ، وَيَنْفِي فَقْرَكَ ؟ قَالَ : أَلْفُ دِينَارٍ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ ، فَأَطْرَقَ هِشَامٌ
 طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : هِيَ بَاتِ يَا بَنَ أَبِي الْجَهْمِ ، بَيْتُ الْمَالِ لَا يَحْتَمِلُ مَا سَأَلْتَ ! فَقَالَ : أَمَّا
 إِنْ الْأَمْرَ لَوْ أَحَدٌ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ آتَرَكَ لِمَجْلَسِكَ ، فَإِنْ تَعَطَّنَا لِحَقِّقْنَا أَدْبِتَ ، وَإِنْ تَمَنَعْنَا نَسَأَلُ
 الَّذِي بِيَدِهِ مَا حَوَّيْتَ ، إِنْ اللَّهُ جَمَلَ الْعَطَاءَ مَحَبَّةً ، وَالْمَنْعَ مَبْغِضَةً ، وَلَا أَنْ أُحْبِكَ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْغِضَكَ ، قَالَ : فَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَقْضَى بِهَا دَيْنًا قَدْ حُمِّمْتُ^(١) قَضَاؤُهُ ،
 وَفَدَحْتِي^(٢) سَخْلَهُ ، وَأَرْهَقْتِي^(٣) أَهْلَهُ ، قَالَ : نَعِمَ الْمَسْلُوكُ أَسْلَكْنَاهَا ، دَيْنًا قَضَيْتَ ، وَأَمَانَةً
 أَدْبَيْتَ ، وَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَزَوَّجُ بِهَا مَنْ أَدْرِكُ مِنْ وِلْدِي ، فَأَشَدُّ بِهِمْ عَضْدِي
 وَيَكْثُرُ بِهِمْ مَدْدِي قَالَ : وَلَا بَأْسَ أَغْضَضْتَ طَرْفًا ، وَحَصَّصْتَ فَرْجًا ، وَأَمَرْتِ^(٤)
 نِسْلًا ، وَأَلْفُ دِينَارٍ لِمَاذَا ؟ قَالَ : أَشْتَرِي بِهَا أَرْضًا يَعِيشُ بِهَا وَوَلَدِي ، وَأَسْتَعِينُ بِفَضْلِهَا
 عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِي ، وَتَسْكُونُ ذَخْرًا لِمَنْ بَعْدِي ، قَالَ : وَلَا بَأْسَ ، أَرَدْتَ ذَخْرًا ،
 وَرَجَوْتَ أَجْرًا ، وَوَصَلْتَ رَحِمًا ، قَدْ أَسْرَنَّا لَكَ بِمَا سَأَلْتَ ، قَالَ : فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ ،
 وَجَزَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّحِمَ خَيْرًا ، وَخَرَجَ ، فَقَالَ هِشَامٌ : تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
 أَلْطَفَ فِي سَوْأَلٍ ، وَلَا أَرْفَقَ فِي مَقَالٍ مِنْ هَذَا ، هَكَذَا فَلْيَكُنِ الْقُرَشِيُّ ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُ
 الْحَقَّ إِذَا نَزَلَ ، وَنَكْرَهُ الْإِسْرَافَ وَالْبَيْخَلَ ، وَمَا نُعْطِي تَبْذِيرًا ، وَلَا نَمْنَعُ تَقْتِيرًا ،
 وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَزَانُ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، فَإِنْ أُذِنَ لَنَا ، وَإِذَا مَنَعَ أَبَدْنَا ؛
 وَلَوْ كَانَ كُلُّ قَائِلٍ يَصْدُقُ ، وَكُلُّ سَائِلٍ يَسْتَحِقُّ ، مَا جَبَّهْنَا^(٥) قَائِلًا ، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا ،
 فَسَأَلَ الَّذِي بِيَدِهِ مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجْرِيَهُ عَلَى أَيْدِينَا ، فَإِنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

(١) حم الأمر : قضى وقدر . (٢) أثقلني . (٣) الإرهاق : أن تحمل الإنسان على
 ما لا يطيقه . (٤) كثرت . (٥) جبهه كتمه : اقيه بما يكره .

وَيَقْدِرُ^(١) ، إِنَّهُ كَانَ بِعِيَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لقد تسكمت فأبأقت ، وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال : إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمقتدى .

(صحيح الأعمش ١ : ٢٦٤ ، والأمال ١ : ١٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٤٠٤ - مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الأدهن ، وذلك في عام باكرٍ وشميه ، وتتابع وليه^(٢) ، وأخذت الأرض زخرفها ، فهي كالزرابي^(٣) المبتوثة ، والقباطي^(٤) المنشورة ، وثراها كالسكفور ، لو وضعت به بضعة^(٥) لم تُترب^(٦) ، وقد ضربت له سرادقات حبر^(٧) ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تتلأأ كالمقيان^(٨) ، فأرسل إلي ، فدخلت عليه ، ولم أنزل واقفاً ، ثم نظر إلي كالمستنطق لي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتم الله عليك نعمه ، ودفع عنك نقمه ، وجعل ما قللك من هذا الأمر رُشداً ، وعاقبة ما يتحول إليه حُخداً ، وأخلصه لك بالثقي ، وكثره لك بالمتأ ، ولا كدر عليك منه ما صفأ ، ولا خالط سُروزه بالردى ، فلقد أصبحت للمؤمنين نقة ومُسْتَرَاحا ، إليك يقصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زبن الله به ذِكْرِي ، وأطاب به نَشْرِي^(٩) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبئه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ،

(١) يقبض ويضيق . (٢) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمي بذلك لأنه يسم الأرض ، والولي :

المطر بعد الوسمى . (٣) جمع زربي بالسكسر ويضم : النارق والبسط ، أو كل ما يسط واتكى عليه

(والنارق : الوسائد الصغيرة) . (٤) قباطي بضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطي بفتح الأول

مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالضم على غير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر .

(٥) البضعة وقد تكسر : القطعة من اللحم . (٦) أتربه وتربه : جعل عليه التراب .

(٧) حبر جمع حبرة كعنبه : ضرب من برود اليمن . (٨) المقيان : الذهب .

(٩) النسر : الرائحة الطيبة .

ولا شيء، أحضر من حديث سلف الملك من ملوك العجم، إن أذن لي فيه حديثه به، قال: هات، قلت: «كأن رجل من ملوك الأعاجم جمع له فتاه^(١) السن، وصحة الطبايع، وسعة الملك، وكثرة المال، وذلك بالخوزنق، فأشرف يوماً، فنظر ما حوله، فقال لمن حضره: هل علمتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة: إن أذنت لي تسكمت. فقال: قل، فقال: أرايت ما يجمع لك، شيء هو لك، لم يزل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه، وصار إليك، وكذلك يزول عنك؟ قال: لا. بل شيء كان لمن قبلي، فزال عنه، وصار إليّ، وكذلك يزول عنى، قال: فسرت بشيء تذهب لذته، وتبقى تبعته، تكون فيه قليلاً، وتترهن به طويلاً؟ فسكى وقال: أين المهرب؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيم في ملكك، فتعمل فيه بطاعة ربك، وإما أن تُلقى عليك أمساحاً^(٢)، ثم تلحق بجبل، تعبد فيه ربك. حتى يأتي عليك أجلك، قال: فإلى إذا أنا فعلت ذلك؟ قال: حياة لاتوت، وشباب لا يهرم، وصحة لا تسقم، وملك جديد لا يبلى، قال: فإذا كان السحر فافترغ على بابي، فإني مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه، كنت وزيراً لا يعصى، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد، كنت رقيقاً لا يخالف، ففرغ عليه عند السحر بابه، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، وتهدأ للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما»، وأنشده قول عدي بن زيد:

وتفكرت ربّ الخوزنق إذا أصبح يوماً وللهدى تفكير
سرّه حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير^(٣)
فارعى قلبه، فقال: وما غبطة حتى إلى الممات يصير؟^(٤)

فبكي هشام وقام ودخل، فقال لي حاجبه: لقد كسبت نفسك شراً، دعاك أمير المؤمنين.

(١) الفتاه كناه: الشباب. (٢) الأمساح جمع مسح كحمل: وهو الكساء من شعر كتوب الرهبان.

(٣) معرضاً: من عرض الشيء إذا ظهر وبرز. (٤) النبطة: المسرة.

لتحدثه وتلميته ، وقد عرفت عاقبته ، فإزدت على أن نعتت إليه نفسه ، فأقت أياً أتوقع الشر ، ثم أتاني حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ، وأذن لك في الانصراف .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤١ ؛ الأغاني ٢ : ٢٣)

٤٠٥ - خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لشيبة بن عقال - وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير - ألا تخبرني عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائرتهم ، في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال شيبة : « أما جرير فيغفر من بحر ، وأما الفرزدق فينحّت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً تحصّله ، فقال : ما عندي غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأهم ، فقال :

« أما أعظمهم فخراً ، وأبدمم ذكراً ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلام عيلاً ، الطامح إذا زخر ، والحامح إذا زار^(١) ، والسامح إذا خطر ، الذي إن هدّر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم قوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكم لعدوه سترأ ، الأغرّ الأبلق ، الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يُلاحق ، فجير ، وكلهم ذكي الفؤاد ، رفيع العماد ، واري الزناد » .

فقال له مسلمة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين ، ولا رأينا في الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعالا » .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمته ، وأجزل لديكم قسمته ، وأنس بكم الغربة ،

(١) وفي رواية زهر الآداب : « إذا ضر » .

وفَرَّجَ بِكُمْ السَّكْرَةَ ، وَأَنْتَ وَاللَّهُ مَا عَلِمَتْ أُيْهَا الْأَمِيرُ كَرِيمُ الْغِرَاسِ ، عَالِمٌ بِالنَّاسِ ، جَوَادٌ فِي الْمَجَلِّ (١) ، بَسَامٌ فِي الْبَدَلِ ، حَالِمٌ عِنْدَ الطَّيْشِ ، فِي ذِرْوَةِ قَرِيْشٍ ، وَأَبَابُ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَيَوْمُكَ خَيْرٌ مِنْ أَمْسٍ .

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كتخالصك يابن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعًا ، وسلّمت منهم » .

(الأغاني ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٤٠٦ - خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبي بردة (٢) جلدًا حين أبتلي ، أحضره يوسف بن عمر في قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدوّ الله بلالاً ضربني وحبسني ، ولم أفارق جماعةً ، ولا خلعتُ يداً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال فقال : « الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهدأ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفياً بالشريف ، مظهرًا للمصليّة (٣) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلت عليّ بثلاث ، هن معك عليّ ، الأمير مقبل عليك ، وهو عني معرض ؛ وأنت مُطْلَقٌ ، وأنا مأسور ؛ وأنت في طينتك وأنا غريب » ، فأخمه .

وكان سبب ضرب بلال خالدًا في ولايته ، أن بلالاً مرّ بخالد في موكب عظيم ، فقال خالد : سحابة صيف عن قليل تقشع (٤) ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تقشع أو يصيبك منها شؤبوب (٥) بردٍ ، وأمر بضربه وحبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

(١) القحط والجذب . (٢) هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري .

(٣) وكان أصله من العرب البيازين . (٤) تنكشف وتنفق . (٥) الشؤبوب: الدفعة من المطر .

٤٠٧ - خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب المقدم قال :

كان الكميث بن زيد الأسدي يمدح بنى هاشم ويعرض بيني أمية ، فطلبه هشام ، فهرب منه عشرين سنة^(١) ، لا يستقر به القرار ، من خوف هشام ، وكان مسأمة بن عبد الملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ، ولا يردّه فيها ، فلما خرج مسأمة يوماً إلى بعض صيوده ، أتى الناس يسألون عليه ، وأناه الكميث بن زيد فيمن أتى ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قَفْ بِالْدِيَارِ وَقُوفَ زَائِرٍ وَتَأَنَّ ، إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ^(٢)

حتى انتهى إلى قوله :

يَا مَسْلَمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ لِمَ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٍ^(٣)
عَاقَتُ حِبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ دَمَةِ الْجَارِ الْجَارِ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِّيَّةَ ، وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَائِرِ
وَالآنَ كُنْتُ بِهِ الْمَصِيبَ كَمَا هُتِدَ ، بِالْأَمْسِ حَائِرُ

فقال مسأمة : سبحان الله ! من هذا الهندكي^(٤) الجاحب^(٥) ، الذي أقبل من أخريات الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أمأ بعد ، ثم الشعر ؟ قيل له : هذا الكميث بن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ، فسأله مسأمة عن خبره ، وما كان فيه طول غيبته ، فذكر له سُخْطَ أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسأمة أمانه ، وتوجّه به حتى أدخله على هشام - وهشام لا يعرفه - فقال الكميث : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ،

(١) يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠ - إلى سنة ١٢٥ هـ . (٢) صاغر : ذليل .

(٣) نشره وأنشره : أحياه . (٤) رجل هندي : من أهل الهند ، (وهو هنا على التشبيه) .

(٥) الجاحب : الشيخ الكبير ، والفضخم الأجلح ، (والأجلح : الذي انحمر الشعر من جانبي رأسه) .

الحمد لله ، قال هشام : نعم . الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الحكيم : مبدئى الحمد ومبتدعه ،
الذى خص بالحمد نفسه ، وأمر به ملائكته ، جملة فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ،
وكلام أهل جنّته ، أحمدَه حمدَ من عِلْمَ يقينًا ، وأبصر مُستدبينًا ، وأشهد له بما شهد به
لنفسه « قائمًا بِأَنْفِسطِ^(١) » وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده العربى ،
ورسوله الأئى ، أرسله والناس فى هفوات حيرة ، ومُدْلِهِمَاتِ ظُلْمَةٍ ، عند استمرار أهبته^(٢)
الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيله ، وعبدَ ربه ، حتى
أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم لى يا أمير المؤمنين ، تَهتُّ فى حيرة ، وحِرْتُ فى سَكْرَةٍ ، اذْلَامٌ^(٣) بى خطرُها ،
وأهاب^(٤) بى داعيها ، وأجابنى غاويها ، فاقطوطيت^(٥) إلى الضلالة ، واتسكمت^(٦)
فى الظلمة والجهالة ، جأراً عن الحق ، قائلاً بغير صدق ، فهذا مقامُ العائذِ^(٧) ، ومنطقُ
التائب ، ومبصِرِ الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أفدتم عثرته ،
ومجترم^(٨) عفوتم عن جرّمه .

فقال له هشام - وأيقن أنه الحكيم - وَيُنْحَكُ اِمْنِ سَنِّ لَكَ الْغَوَايَةِ ، وأهاب بك
فى العماية^(٩) ؟ قال : الذى أخرج أبى آدم من الجنة : فذسى ولم يجد له عزماً ،
وأمر المؤمنين كريح رحمةٍ أثارَتْ سحاباً متفرقاً ، فلفقت^(١٠) بعضه إلى بعض ، حتى التعم
فاستحكم هذر^(١١) رَعْدِهِ ، وتلاؤو برقه ، فنزل الأرضَ فرَوِيَتْ ، واخضلت^(١٢)

(١) العدل . (٢) الأبهة : العظمة والبهجة والكبر . (٣) اذلام الليل : ادلهم أى اسود
وأظلم ، وفى الأصل « اذلام » وهو تصحيف . (٤) أى دعانى ؟ وفى الأصل « وأهب » وهو تحريف ،
(ويقال أيضاً هببت به أى دعوته لينزوا) . (٥) اقطوطى : تقارب فى مشيه إسراراً .
(٦) تسكمت : مشى مشياً متمسكاً لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . (٧) اللاجى : المستجير .
(٨) جرم فلان وأجرم واجترم : أذنب . (٩) العماية : الغواية . (١٠) من لفق الثوب
كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخطهما . (١١) من هذر البعير كضرب هذرا وهديرا : صوت ؛ وفى
الأصل « هدار » وهو تحريف . (١٢) ابتلت .

واخضرت ، وأسقيت ، فروى ظمآنها ، وامتلأ عطشانها ، فكذلك نعدك أنت
يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الداجية^(١) بعد العموس^(٢) فيها ، وحقن بك
دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم^(٣) ، فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك ،
وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرت الحدق ، وعضت المغافر^(٤) بالهام ،
عز بأسك ، واستربط جأشك^(٥) ، مسعار هتان ، وكاف^(٦) بصير بالأعداء ، مغزى
الخيال بالنكراء^(٧) ، مستغن برايه عن رأى ذرى الألباب ، برأى أريب ، وحلم مصيب
فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، ونم عليه النعماء ، ودفع به الأعداء ، فرضى عنه هشام
وأمر له بجائزة .

وروى صاحب الأغاني خطبة السكيت^(٨) فقال :

(١) المظلمة . (٢) فى الأصل : « الغموس » بالعين ؛ وهو تجريف ، والصواب « العموس »
من عمس كسكرم وفرح عماسة وعموسا : اشتد واسود وأظلم . (٣) أشعر الخوف والهم قلبى :
لزق به ، وكل ما ألزقت بهئى : أشعرت به . (٤) المغفر كذبر ، وبهاء ؛ وكسكتابة : زرد من الدرع
يلبس تحت القلنصوة ؛ أو حلق يتقنع بها بالمتسلح . (٥) أى صار رابطا من ربط جأشه رباطة
(بالسكر) اشتد قلبه . (٦) فلان مسعر حرب ومسعار : أى موقد نار الحرب ، ومطر هتان :
هطال ، وكاف كذلك ، وهما كناية عن الجود .

(٧) النكراء : الأمر للشديد . (٨) وكان سبب غضب هشام على السكيت : أن حكيم بن عباس
السكيتى كان ولما بهجاه مضر والسكيت مضرى - فكانت شعراء مضر تهجوه ويحجهم ، وكان السكيت يقول
هو والله أشعر منكم ، قالوا فأجاب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى - والى العراق وهو يعنى - محسن
إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، قالوا فاسمع بأذنك ما يقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ،
وأنشده ذلك فحمى السكيت لعشيرته ؛ فقال قصيدته الملهية ؛ وبلغ ذلك خالدا فقال والله لأقتله ، ثم اشترى
ثلاثين جارية بأعلى ثمن ؛ وتخبرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ؛ فرواهن الهاشميات - وهى
قصائد قفا السكيت فى مدح بنى هاتم ، وكان معروفا بالتشيع لهم مشهورا بذلك ، وتمت هذه القصائد من جيد
شعره وبختاره وهى مطبوعة مشهورة - ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشترهن جميعا ، فلما أنس
بهن استنطقهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرأهن القرآن فقرأن واستنشدهن الشعر ، فأنشدته قصائد
السكيت الهاشميات ؛ فقال : ويلسكن ! من قائل هذا الشعر ؟ قلن السكيت بن زيد الأسدى ، قال وفى أى بلد =

حَدِّدِ اللَّهُ ، وَأَثْبِتْ عَلَيْهِ ، وَصَلِّ عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ : « أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي كُنْتُ أُتَدَهَّدِي ، فِي عَمْرَةٍ ^(١) ، وَأَعُومُ فِي بَحْرِ غَوَايَةِ ، أَخْتَفِي عَلَى خَطْلُهَا ، وَاسْتَفْزَنِي وَهَلْمَا ^(٢) ، فَتَحِيرْتُ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَسَكَّكْتُ فِي الْجَهَالَةِ ، مُهْرَعًا عَنِ الْحَقِّ ، جَائِرًا عَنِ الْقَصْدِ ، أَقُولُ الْبَاطِلَ ضَلَالًا ، وَأَفُوهُ بِالْبَهْتَانِ وَبِالْبَلَا ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ ، مُبْصِرِ الْهُدَى ، وَرَافِضِ الْعَمَايَةِ ، فَغَسِلْ عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَوْبَةَ ^(٣) بِالْتَوْبَةِ ، وَاصْفَحْ عَنِ الزَّلَّةِ ، وَاعْفُ عَنِ الْجَرِيمَةِ ^(٤) » ، ثُمَّ قَالَ :

كَمْ قَالَ قَائِلِكُمْ لَعَا لَكَ ، عِنْدَ عَثْرَتِهِ لِعَائِرَتِهِ ^(٥)
وَعَفَّرْتُمْ لِدَوَى الذَّنْوِ بِنِ الْكَبْرِ وَالْأَصَاغِرِ

= هو ؟ قلن : في العراق ثم في السكوفة . فكتب إلى خالد عامله بالعراق : ابعث إلى برأس السكमित ، فبعث إليه خالد في الليل ، فأخذه وأودعه السجن ، وعزم لينفذ أمر الخليفة فيه ، وأعمل السكमित الحيلة في الفرار ، فبعث إلى زوجته حبيبي (بضم ففتح الباء المشددة) فلما دخلت عليه ليس ثيابها ، وتنتقب ثيابها ، وأقامها مكانه ، وخرج متنكرا ، وظل متواريا مدة ، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه ، خرج ليلا في جماعة من بني أسد ، وما زال يسير حتى بلغ الشام ؛ واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فأجاره واحتال له في عفو الخليفة عنه ، فقال له : إن معاوية بن هشام مات قريبا ؛ وقد جزع عليه جزعا شديدا ، فإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق ، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشيائك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره ؛ فأصبح هشام على عادته متظننا من قصره إلى القبر ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ؛ فقال : يجاز من كان لإللكميت فإنه لا جوار له ، فقبيل : فإنه السكमित ، قال : يحضر أعتف إحضار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بشيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستمهر ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ومات حظه من الدنيا ، فأجمله هبة له ولنا ؛ ولاتفضحنا فيمن استجار به ، فسكى هشام حتى انتحب ؛ ثم أقبل على السكमित ؛ فقال له : يا كيت : أنت القائل كذا وكذا - بما أورده في هاشمياته؟ - فقال : لا والله ؛ ولا أتأت من أذن الحجاز وحشية ؛ ثم خطب بين يديه يستمطفه ، فمقا عنه وأجازه ، وتوفى السكमित سنة ١٢٦ هـ .

(١) دهدى الحجر فتهدى : دحرجه ، كدهدهه ، والنمرة : الانهماك في الباطل ، والشدة .

(٢) الوهل : الضمف والفرع . (٣) الحوبة : الإثم . (٤) الجريمة ككلمة : الجريمة .

(٥) يقال للعائر : لعاء لك ، وهو دعاء له بأن ينتعش .

أَبْنِي أُمِّيَّةَ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَاتِي لِكُلِّ مُلَّةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادِنُ الْخَلَا فِكَا بَرًّا مِنْ بَعْدِ كَا بَرِ
بِالْتَّسُّمَةِ الْمُتَتَابِعِينَ خَلَا فَاً وَبِخَيْرِ عَاشِرٍ (١)
وَإِلَى الْقِيَامَةِ لَا تَزَالُ لِشَا فِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاه أمير المؤمنين وسماحته وصباحته (٢) ،
ومناط المنتجعين بمجبله ، مَنْ لَا تُحَلُّ حُبُّوتُهُ لِإِسَاءَةِ الْمَذِينِ ، فَضْلًا عَنْ اسْتِشَا طَةِ غَضْبِهِ
بِجَهْلِ الْجَاهِلِينَ ، فَقَالَ لَهُ : وَبِلَكَ يَا كَمِيْتُ ا مِنْ زَيْنَ لِكَ الْعَوَا يَةِ ، وَدَلَاكُ فِي الْعَمَا يَةِ ؟
قَالَ : الَّذِي أَخْرَجَ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَنْسَاهُ الْعَهْدَ ، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا » فرضى عنه ، وأمر
له بِجَا ئِزَةٍ . (العقد الفريد ١ : ١٥٤ ، والأغانى ١٥ : ١١٣)

٤٠٨ - مَخَاصِمَةُ عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ لِأَمْرَأَتِهِ عِنْدَ شَرِيْحِ الْقَاضِي

دَخَلَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ عَلَى شَرِيْحِ (٣) الْقَاضِي يَخَاصِمُ امْرَأَةً لَهُ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ،
قَالَ : وَعَلَيْكُمْ ، قَالَ : اسْتَمِعْ مِنِّي ، قَالَ : قُلْ أَسْمَعُ ، قَالَ : إِنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّأْمِ ،
قَالَ : مِنْ مَكَانٍ سَحِيْقٍ ، قَالَ : وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَى بِلَدِكُمْ هَذَا ، قَالَ : خَيْرٌ مَقْدَمٌ ، قَالَ :
وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ، قَالَ : بِالرِّفَاءِ (٤) وَالبَيْنِ ، قَالَ : وَإِنِّهَا وَلِدَتْ غُلَامًا ، قَالَ :
لِيَهْنِكَ الْفَارَسُ ، قَالَ : وَقَدْ كُنْتُ شَرَطْتُ لَهَا صَدَاقَهَا ، قَالَ : الشَّرْطُ أَمْلِكُ ، قَالَ :

(١) هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء بني أمية . (٢) الصباحة: الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .
(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث السكندی ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاء
عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضيا نحسا وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة
وفكاء ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .
(٤) أى بالالتئام وجمع الشمل ، رفا الثوب كنع : لأم خرقة ، وضم بعضه إلى بعض .

وقد أردت الخروج بها إلى بلدي ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال :
قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمتَ ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال بشهادة
ابن أختِ خالتك . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٩ - كلمة لعمر و بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحُّ بنو هاشم ، وبنو أمية في ميراث بينهم
عن سُفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم وبين
بنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضابقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبو ناعرو ، فقال :
« يا بَنِي : إن لقريشَ دَرَجًا نزلُ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تخشعُ لها رقابُ
الأموال ، وغاياتٍ تقصرُ عنها الجيادُ المسومة^(١) ، وألسناً تكِلُّ عنها الشُّفار المشحودة
ولو اختلفت الدنيا ما تزيّنت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضافت بسمة أخلاقهم ، ثم إنه
ليخيّل إلى أن منهم ناسًا تخلّقوا بأخلاق العوامِّ ، فصار لهم رِفَق في اللؤم ، وخرق^(٢)
في الحرص ، ولوا مكنهم لقاسموا الطير في أرزاقها ، إن خافوا مكرهاً وتمجّلوا له
الفقر ، وإن تجلّت لهم نعمة أخزّوا عليها الشكر ، أولئك انضاء^(٣) الفِكر ، وعجزّة
حالة الشكر » . (الأمال ٢ : ٢٣٨ ، والعقد الفرید ٢ : ٤٠)

(١) الخيل المسومة : الموسلة وعليها ركبائها ، أو المعلمة ، أي التي جعل عليها سومة (بالضم) أي سمة
وعلامه ، أو المرعية . (٢) كقفل وسبب : ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .
(٣) جمع نضو كحمل : وهو المهزول .

٤١٠ - خطبة دينار

وكان سِماك بن عبيد العبسي في حصار نهاوند (سنة ٢١ هـ) أسر رجلا من أهلها
يسمى دينار فأتى - حذيفة بن اليمان فصالحه على الخراج - فنسبت إليه ماه .
وكان يواصل سماكا ويهدى له ويوافى الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة
فقدم الكوفة في إمارة معاوية فقام في الناس بالكوفة فقال :
« يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بنا ، كنتم خيار الناس ، فعمرتم بذلك
زمان عمر و عثمان ؛ ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب^(١) وغدر وضييق ،
ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتكم فإذا ذلك في مولدكم ، فعلمت من أين أتيتم ،
فإذا الحب من قبل القبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضييق
من قبل الأهواز » .
(تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٥)

٤١١ - رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

وقال رجل لخالد بن عبد الله القسري : « والله إنك لتبذل ما جَلَّ ، وتَجْبُرُ ما انْقَلَّ ،
وَتُكْثِرُ ما قَلَّ ، ففضلك بديع ، ورايك بجميع ، تحفظ ما شذَّ ، وتوَلَّف ما ندَّ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

(١) الحب : الخداع .

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤١٢ - خطبة حيان بن ظبيان السلمي

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ - وَكَانَ مِنْ أَرْتَشَ (١) يَوْمَ النَّهْرَوَانَ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعِيَّةِ الَّذِينَ كَانُوا عَفَا عَنْهُمْ ، مِنَ الْمُرْتَضِينَ يَوْمَ النَّهْرِ - فَكَانَ فِي أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ : فَلَبِثَ شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الرَّيِّ ، فِي رِجَالٍ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، فَلَمْ يَزَالُوا مُقِيمِينَ بِالرَّيِّ حَتَّى بَلَغَهُمْ قَتْلُ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، فَدَعَا أَصْحَابَهُ أَوْلِيَاءَهُ ، وَكَانُوا بِضِعْمَةِ عَشْرِ رِجَالٍ ، فَأَتَوْهُ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا الْإِخْوَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَخَاكُمْ ابْنَ مُلْجَمٍ أَخَا مُرَادٍ قَعَدَ لِقَتْلِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أَغْبَاشٍ (٢) الصَّبِيحِ ، مُقَابِلَ السُّدَّةِ (٣) الَّتِي فِي الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ الْجَمَاعَةِ ، فَلَمْ يَبْرَحْ رَاكِدًا يَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ حِينَ أَقَامَ الْمُقِيمِ الصَّلَاةَ : صَلَاةَ الصَّبِيحِ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَيْلَتَيْنِ حَتَّى مَاتَ .
فَقَالَ سَالِمُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَبْسِيُّ : لَا يَقْطَعُ اللَّهُ يَمِينًا عَمَّتْ قَدَّالَهُ (٤) بِالسَّيْفِ ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ بِمَحْدُونِ اللَّهِ عَلَى قَتْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا رِضَى عَنْهُمْ وَلَا رَحْمَةَ ،
ثُمَّ إِنَّ حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(١) ارتش : حمل من المعركة رثيثا ، أى جريحا وبه رمق . (٢) أغباش جمع غباش بالتحريك :

وهو ظلمة آخر الليل . (٣) السدة : باب الدار ، وهى هنا ما يبقى من الطاق المسدود .

(٤) القذال : جماع مؤخر الرأس .

« إنه والله ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما يلبثُ الليالي والأيامُ ، والسَّنونَ والشهورُ على ابن آدمَ ، حتى تُذيقَهُ الموتَ ، فيفارقَ الإخوانَ الصالحينَ ، ويدعَ الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العَجَزَةُ ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له هَمًّا وشَجَبًا^(١) ، فانصرفوا بنا رَحِمَك اللهُ إلى مِصْرِنَا ، فلنأتِ إخواننا ، فلندعُهم إلى الأمرِ بالمعروفِ ، والنهي عن المنكرِ ، وإلى جهادِ الأحزابِ ، فإنه لا عُذْرَ لنا في القعودِ ، وولائنا ظالمةٌ ، وَسُنَّةُ الهُدَى متروكةٌ ، وَثَارُنَا^(٢) الذين قَتَلُوا إخواننا في المجالسِ آمِنونَ ، فإن يُظْفِرِنا اللهُ بهم نَعْمِدُ بِعُدِّ إلى التي هي أهدى وأرضى وأقومُ ، وَبِشْنِي اللهُ بذلكِ صُدُورَ قَوْمِ مُؤْمِنِينَ ، وإن نُقْتَلُ فإن في مفارقةِ الظالمينَ راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أسوةٌ » .

فقالوا له : كُنَّا قائلٌ ما ذكرتَ ، وحامدٌ رأيك الذي رأيتَ ، فرِذِّبنا المِصْرَ ، فإننا معك راضونٌ بهُداك وأمرك ، فخرجَ وخرجوا معه مقبلينَ إلى الكوفةِ ، حتى نزلها ، فلم يزل بها حتى قدم معاويةَ ، وبعثَ المغيرةَ بنَ شُعْبَةَ واليًّا على الكوفةِ .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

(٢) الثَّارُ : قاتل حميمك .

(١) الشجن : الهم والحزن .

اتِّمَارُ الْخَوَارِجِ

ثم إن الخوارج في أيام المغيرة فزِعوا إلى ثلاثة نفرٍ منهم : المستورد بن علفة التميمي ، وحيان بن ظبيان السلمي ، ومعاذ بن جوبن بن حصين الطائي ، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان ، فتشاوروا فيما يُولون عليهم ، فقال لهم المستورد :

٤١٣ - مقال المستورد بن علفة

« يا أيُّها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ما تحبُّون ، وعزل عنكم ما تكرهون ، ولَّوا عليكم مَنْ أحببتم ، فوالذي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ^(١) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، مَا أَبَالَى مَنْ كَانَ الْوَالِيَّ عَلَيَّ مِنْكُمْ ، وما شرف الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلا الخلود في دار الخلود » .

٤١٤ - مقال حيان بن ظبيان

فقال حيان بن ظبيان : « أما أنا فلا حاجة لي فيها ، وأنا بك وبكل امرئ من إخواني راض ، فانظروا مَنْ شئتم منكم فسمُّوه ، فأنا أول من يبايعه » .

(١) بمسارقتها النظر إلى المحرم .

٤١٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قاتما أنما هذا ، وأنما سيدا المسلمين ، وذوّا أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وقدركما ، فن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يبلى على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقهم في الدين ، وأشدّهم اضطلاعاً^(١) بما تمحل ، وأنما بحمد الله ممن يرزى لهذا الأمر ، فليتوّله أحدكما » :

قالا : فتوّله أنت : فقد رضييناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنما أسنّ مني ، فليتوّله أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضيينا بكم أيها الثلاثة ، فولّوا أيكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقّاش أن بايعوا المستورد ، واتعدوا أن يتجهّزوا ويتيسّروا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤١٦ - خطبة المغيرة بن شعبه أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم
وتمنى إلى المغيرة بن شعبه أن الخوارج خارجة عليه ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وإني والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدبَ سوءٍ إسفهاثكم ، فأما الخلفاء الأتقياء فلا ، وإيمُ الله لقد خشيتُ أن لا أجدُ بدّاً من أن يُمصّبَ الحليم التقي ، بذنّب

(١) أي قوة على حمله .

الصفية الجاهل ، فكفوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكركم لي أن رجالاتكم يريدون أن يظهروا في المصر بالثقات والخلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حتى من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدئهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجّة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :

« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكنني كل امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحواننّ عما كنتم تعرفون ، إلى ما تذكرون وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلم لأيمّ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر .

فخرجت الرؤساء إلى عشائهم ، فنادى الله والإسلام إلا دأوم على من يزون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عيد القيس ، فقال :

٤١٧ - خطبة صعصعة بن صوحان

« يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكته ورؤسائه ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فبنت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهنت طائفة ، وتربصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلت المرتدين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وطى كل حال ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فنالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١) ، وقالت

(١) أي معاوية ، وكان والياً على الشام ، وهي بالنسبة للعراق في المغرب .

طائفة : نريد عبد الله بن وهب اراسي : راسب الأزد ، وقتلم أتم : لا نريد إلا أهل البيت ، الذين ابتدأنا الله من قبائهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أهلك الله بكم ، وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم ، الداكثين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهر ، (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ ساطنهم) ، ولا قوم أعدى لله وأسىكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجماعة المسلمين ، من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا ^(١) . واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تؤذوهم في دُوركم ، أو تكتنوا عليهم ، فإنه ليس ينبغي للحى من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد وألله ذكركم أن بعضهم في جانب من الحى ، وأنا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حُككى لى ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإن دماءهم خلال ، ثم قال : يامعشر عبد القيس : إن ولاننا هؤلاء هم أعرف شىء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شىء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به المغيرة بن شعبة في الناس ، وبما جاءهم رؤسائهم وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشائرننا ، فخرج بهم من الكوفة ، ووجه المغيرة لقتالهم معقل بن قيس ارياحي فلما علم المستورد تمسير معقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٦)

٤١٨ - خطبة المستورد

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخريف معقل بن قيس قد وُجّه إليكم ، وهو من السَّبئية^(١) المهترئين الكاذبين ، وهو الله ولسم عدو ، فأشيروا على برايكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل وننتحى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتبس الدنيا ، ولا ذكراها ، ولا فخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ آهًا لي بخذافيرها ، وأضعاف ما يُتفأس فيه منها ، بقبال^(٢) نعلِي ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يهديني الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ؛ وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لأقيم لهم حتى يقدّموا عليّ ، وهم حامون متوافرون ، ولسكن رأيت أن أسير حتى أمعن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فقطعوا وتبدّدوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . »

(١) السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء ، أسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالهم ، وغلا في علي ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة وأتى قوم منهم إلى علي فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأججت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يمدب بالنار إلا الله ، ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شيانة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فنفى ابن سبأ إلى سباط المدائن ، فلما بلغه مقتل علي قال : لو أني تمونا بدماغه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انشعبت أصناف الغلاة . (٢) قبال النعل : زمام بين الأصبع الوسطى والى تليها .

فخرجوا ففضوا على شاطىء دجلة، فعبروه ومضوا في أرض جُوخَى، حتى بلغوا المذار فأقاموا فيها، وأقبل معقل بن قيس، فأقام بالمدائن ثلاثاً، ثم جمع أصحابه، فقال: (تاريخ الطبرى ٦ : ١١٠)

٤١٩ - خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم، إرادة أن تقعجلوا في آثارهم، ففتتطموا وتبددوا، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم^(١)، وإنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله» فخرج في آثارهم حتى لحقهم بالمدار مقيمين. ودارت بينهما رحى الحرب بشدة، ودعا المستورد مَعْقِلًا للبارزة فتبارزا، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أمّ الدماغ، فوقع ميتاً، وقتل معقل، وشد أصحابه على الخوارج، فما لبثوهم أن قتلوهم. (تاريخ الطبرى ٦ : ١١١)

٤٢٠ - كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول: إذا أفضيتُ بسيرى إلى صديقى فأفشاه لم أُلْمُه، لأنى كنت أولى بحفظه، ويقول: لا تنفس إلى أحدٍ سرّاً وإن كان محلصاً إلا على جهة المشاورة، ويقول: كن أحرص على حفظ سِرِّ صاحبك، منك على حَقْنِ دمك، ويقول: أوّل ما يدُلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب. ولا يعيب إلا لا يعيب^(٢)، ويقول: المال غير باقٍ عليك، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك، ويقول: بذلُ المال في حقّه استدعاء للزيد من الجواد^(٣)، وكان يُكثِرُ أن يقول: لو ملكتُ الأرض بجزايرها، ثم دُعيت إلى أن أستفيد بها خطيئة ما فعلت.

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٥، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٣)

(٢) أى من المولى السكرم جل وعلا .

(١) تعبتهم .

اثمار الخوارج ثانية

٤٢١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السَّلَمِيُّ أصحابه إليه ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال لهم :
« أما بعد ، فإن الله عزَّ وجلَّ كتب علينا الجهاد ، فَمِنَّا مَنْ قَضَى نَجْبَهُ ^(١) ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم ، ومن يكن مِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ فهو من سَلَفْنَا المَاضِينَ نَجْبَهُم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فَلْيَسْلُكْ سَبِيلَ أصحابه وإخوانه ، يُؤْتِيهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللهُ مَعَ المُحْسِنِينَ »

٤٢٢ - خطبة معاذ بن جوين

قال مُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ الطَّائِي : « يَا أَهْلَ الإِسْلَامِ : إنا والله لو علمنا أننا إذا تركنا جِهَادَ الظَّالِمَةِ ، وَإِنْسَكَارَ الجُورِ ، كان لنا به عند الله عُذْرٌ ، لكان تركه أيسرَ علينا وأخفَّ من ركوبه ، ولسكننا قد علمنا واستيقنا أنه لا عُذْرَ لنا ، وقد جعل لنا القلوب والأسماع ، حتى نُنْكَرَ الظلم ، ونغيِّرَ الجور ، ونجاهدَ الظالمين » . ثم قال أبسط يدك نبايعك ، فبايعه ، وبايعه القوم ، فضرروا على يد حَيَّانِ فبايعوه ، وذلك في إمارة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان التَّمَقِي ^(٢) .

* * *

(١) النجب : الأجل والنذر . (٢) وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُمّاذ بن جوين ، فقال لهم حيان :
عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأسرونني أن أخرج ؟ فقال مُمّاذ : إني أرى أن تسير بنا
إلى حُلوان^(١) حتى ننزلها ، فإنها كورة بين السهل والجبل ، وبين المصر والثغر
— يعني بالثغر ارمى — فن كان يرى رأينا من أهل المصر والثغر والجبال والسّواد^(٢)
لحق بنا .

٤٢٣ — رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُمّاجِلِكَ قَبْلَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيْكَ ، لِعَمْرِي لَا يَتْرَكُونَكَ
حَتَّى يَجْتَمِعُوا إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَيْتَ أَنْ أُخْرَجَ مَعَكُمْ فِي جَانِبِ الْكُوفَةِ وَالسَّبْخَةِ ،
أَوْ زُرَّارَةَ^(٣) وَالْحَبْرَةَ ، ثُمَّ نَقَاتَهُمْ حَتَّى نَلْحَقَ بِرَبِّهَا ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ
— وَأَنْتُمْ دُونَ الْمِائَةِ رَجُلٍ — أَنْ تَهْزِمُوا عَدُوَّكُمْ ، وَلَا أَنْ يَشْتَدَّ نَكَابَتِكُمْ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ
مَتَى عَلَّمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ قَدْ أَجْهَدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ وَعَدُوِّكُمْ ، كَانَ لَكُمْ بِهِ الْعُدْرُ ،
وَأَخْرَجْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ » قَالُوا : رَأَيْنَا رَأْيَكَ .

٤٣٤ — مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عتريس بن عرقوب : ولكن لا أرى رأى جماعتكم ، فانظروا في رأى
لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتى بالحرب ، وتجربتى للأموار ، فقالوا له : أجل ،
أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل
في كثير ، والله ما تزيدون على أن تحزروم^(٤) أنفسكم ، وتقرؤوا أعينهم بقتلكم ،
وليس هكذا تكون المكايدة ، إذا آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم

(١) بلد بفارس . (٢) أى سواد العراق . (٣) عملة بالكوفة . (٤) أى تملكوهم .

ما يضرهم « قالوا : فما رأى ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي أشار بنزولها معاذا ابن جوفين ، بمعنى حلوان ، أو تسيرون بنا إلى عين التمر ، فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أتونا من كل جانب وأوب^(١) . »

٤٢٥ - رد حيان

فقال له حيان : « إياك والله لو سيرت بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين الوجهين ، ما اطمانتم به حتى يلدح بكم خيول أهل مصر ، فأنت تشفون أنفسكم ؟ فوالله ما عدتكم بالكثيرة ، التي ينبغي أن تطمعوا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين المعتدين ، فاخرجوا بجانب من مصركم هذا ، فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ، ولا ترَبَّصُوا ولا تنتظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة » قالوا : أما إذا كان لابد لنا ، فإننا لن نخالفك ، فاخرج حيث أحببت .

٤٢٦ - خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن ظبيان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا قوم : إن الله قد جمعكم تلخير ، وعلى خير ، والله الذي لا إله غيره ، ما سررت بشيء قط في الدنيا بعد ما أسدت سروري لمخرجي هذا على الظلمة الأئمة ، فوالله ما أحب أن الدنيا يحذاقها لي ، وأن الله حرمني في مخرجي هذا الشهادة ، وإني قد رأيت أن نمخرج حتى ننزل جانب دار جرير فإذا خرج إليكم الأجزاء ناجزتموم .

فقال عتريس بن عرقوب : أما أن نقاتلهم في جوف مصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ،

(١) الأوب : الطريق والجهة .

وتصعد النساء والصدّيان والإماء فيرموننا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا إذن من وراء المصر الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلا أبياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل بانقياً^(١) ، فما أسرع ما يأتبكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجة واحد ، فخرجوا ، فبعث إليهم جيش ، فقتلوا جميعاً .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤٢٧ - خطبة مسلم بن عبيس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عماله في السواد ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكروا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ايلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فجدّوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم فاختر لهم مسلم بن عبيس ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيعه .

(١) بانقياً: ناحية من نواحي الكوفة . (٢) قدمنا لك في «مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج» أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ ليقيموا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقتلوا معه ، ثم ناظروه : فلم يرقهم ماسموا منه ، فتفرقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ماوراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه فقتل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من أشد فرق الخوارج بأساً ، وأصلها عودا ، وأكثرها هددا واحتملها حوادث وأنباء .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامتيار^(١)
ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم ،
فن كان شأنه الجهادَ فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع » .

فلما صاروا « يدُولَابَ » خرج إليهم نافع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل في المعركة
ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ . (الكامل للمبرد ٢ : ١٨٠)

(١) أي جلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة بالكسر ، وهي الطعام .

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤٢٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وكان المهلب بن أبي صفرة - وهو على قتال الأزارقة - يأسر أصحابه بالتحريز ويخوفهم النبيات ، وإن بعد منهم العدو ، ويقول : « احذروا أن تُكادوا كما تسكيدون ، ولا تقولوا هزّ منا وغلبنا . فإن القوم خائفون وجلون ، والضرورة تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولهم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد لقيهم قبلكم الصابر الحنسيب مسلم بن عبيس ، والمجمل المفرط عثمان بن عبيد الله^(١) ، والمعصي المخالف

(١) هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر الذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاها بعد عبد الله بن الحارث ابن نوفل) . وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلما عبروا إليهم دجيلاً نهض إليهم الخوارج - وذلك قبيل الظهر - فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتعدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف ، فأبق على نفسك وجنتك ، فقال : أيتم أهل العراق إلا جبننا ؟ وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهم الناس ، وولى حريمهم بعده حارثة بن بدر فهزموه أيضاً ، فهرب يركض حتى أتى دجيلاً ؛ فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراه ، فصاح به : يا حارث ليس مثل ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعاً ، فاتوا غرقاً ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفاً شديداً ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القباع (وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

حارثة بن بدر ، فَقَتَلُوا جَمِيعًا رَقَبَتُوا ، فَأَلْفَوْهُمْ بِحِدِّ وَحَدِّ فَإِنَّمَا هُمْ مَهْنَتِكُمْ^(١) وَعَبِيدِكُمْ ،
وَعَارٌ عَلَيْكُمْ ، وَنَقَصَ فِي أَحْسَابِكُمْ وَأَدْيَانِكُمْ أَنْ يَغْلِبَكُمْ هَؤُلَاءُ عَلَى فَيْثِكُمْ ، وَيَطْمَئِنُّوا حَرَبَكُمْ .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩ ؛ وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٢٨٥)

٤٢٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، واهزم الناس
بسؤلأف فقال :

« وَاللَّهِ مَا بَكُم مِّن قِلَّةٍ ، وَمَا ذَهَبَ عَنكُم إِلَّا أَهْلُ الْجَبِينِ وَالضَّعْفِ ، وَالطَّمَعِ وَالطَّمَعِ^(٢) .
فَإِن يَمَسَّنِكُمْ قَرْحٌ^(٣) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، فَسِيرُوا إِلَى عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ » .
(الكامل للمبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ ص : ٣٨٦)

٤٣٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شددت على الناس بأجمعها شددة منكرة ، فأجفل الناس ، وانصابوا^(٤)
منهزمين ، لا تلوي^(٥) أم على ولد ، حتى باغ البصرة هزيمة الناس وخافوا السبأ^(٦) ،
وأسرع المهلب حتى سبهم إلى مكان يقاع^(٧) ، في جانب عن سنان المنهزمين ، ثم إنه
نادى الناس : إلى إلى عباد الله ، فتاب إليه جماعة من قومه ، فاجتمع إليه منهم
نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضي جماعتهم ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

(١) جمع ما هن ، وهو العبد والخادم . (٢) الشين والعيب . (٣) القرح ويقض : عض السلاح
ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم . (٤) انصاع : انفتل راجعا مرعا .
(٥) مر لايلوي على أحد : أي لايقف ولاينتظر . (٦) السبى . (٧) اليفاع : ما ارتفع
من الأرض .

« أما بعد : فإن الله ربّما يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزَمون ، ويُنزَل النصر على الجمع اليسير فيُظهرون ، ولعمري ما بكم الآن من قِلَّة ، إني لجماعةكم لراض ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفُرسان أهل المِضر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالاً^(١) ، عزّمت على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألاّ ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٨٨)

٤٣١ — خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصعب بن الزبير أن أقدم علىّ ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّةٌ ورحمة ، وابنُ كبيركم : طاعةٌ وبرٌّ وتبجيلاً ، وأخو مثله : مؤاساةٌ ومناجحةٌ ، فليتحسّن له طاعتكم ، وليلين له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلاّ سبقتني إليه » ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

(١) فساد . (٢) وفي الكامل للمبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا محال فيها حجارة ، وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصد الفارس ، وتعرض الراجل ، وقال رجل من الخوارج :
أتانا بأحجار ليقتلنا بها
وهل تقتل الأبطال ويحك بالحجر ؟

٤٣٢ — خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي ،
 وقتل ابن الماحوز يوم سلى وسلبرى^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا
 الزبير بن علي السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيئنا ، فقال لهم : اجتمعوا .
 فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال :
 « إن البلاء للمؤمنين تمحيصاً وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ،
 وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلفت ، وقد أصبتم منهم مسلم
 ابن عبيس ، وربيعاً الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحرثة بن بدر ، وأشجيتيم
 المهلب ، وقتلتم أخاه المعارك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين « إن يمسسكم
 قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ ، ونلكَ الأيامُ نداولها بين الناسِ » فيوم سلى
 كان لكم بلاء وتمحيصاً ، ويوم سولاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغابنَّ على
 الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبَةُ للمتقين .
 (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٨٨)

(١) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جند يسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ،
 وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

بسلى وسلبرى مصارع فتية كرام وجرحى لم توسد خدودها

(٢) كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأمركم الربيع بن عمرو
 الأجدم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفا وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها
 الحجاج بن باب الحميرى ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، التقى هو وعمران بن الحارث الراسبى
 فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين . (٣) وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تبرى ؛ وبها المعارك
 ابن أبي صفرة ، فقتلوه وصابوه ، فمضى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تبرى ، فاستنزله
 ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . (٤) وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :
 وكانن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتل في الجحيم مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أصفهان^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتابٌ يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟ فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرى أن يضمف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلى عليه ، فاتقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لقرسان أهل المصر ، وإنكم لصلحاء من أنتم منه ، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتهم منهم أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشى إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءتته ، فقاتل رجلٌ عن نفسه وصبرٌ وصدق ، فوالله إنى لأرجو إن صدقتموم أن يُظفركم الله بهم ، وأن يُظهركم عليهم .

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارثون ، فلم يشعروا بهم حتى غشوم ، فقاتلوهم بجدي لم ير الخوارج منهم مثله ، فمقرّوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهرمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أمرهم بينهم ، فولّوا عليهم قطريّ بن الفجاءة المازنيّ وبايعوه (تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٩١)

(١) أصهان : بفتح الهمة والباء ، وقد تكسر هزتها ، وقد تبدل باؤها فاء .

(٢) إن هنا فافية .

٤٣٤ - نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) قام إليه عرهم أخو بني المدوية ، فقال :

« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَشِطُّ^(٣) بقريش منهم رَجِمُ داسَةٌ مائة ، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها ، وليس صاحبهم إلا المباكر المناكر ، المُحَرَّب^(٤) المجرَّب ، الذى أَرْضَعْتَهُ الحربُ بلبانها ، وَجَرَسْتَهُ^(٥) وَضَرَسْتَهُ ، وذلك أخو الأزد المهلب بن أبى صفرة ، والله إن غنَّكَ أَحَبُّ إلينا من سَمِينِهِ ، ولكنى أخاف عَدَوَاتِ الدهر وغدره ، وليس المجرَّب كمن لا يُعْلَم ، ولا الناصح المشفق ، كالغاش المُتَمِّم » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأحدوا امرأته^(٦) وَفَرَّ عَمَّا .

(ذيل الأمالى ص ٣٣)

(١) كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر ص ٢٢٣).

(٢) قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فانصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهرًا ، ثم عد لفارس ، وخرج خالد إلى الأهواز ، وتذب للناس رجلا فجعلوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، إنى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلب على الأهواز فى ثلاثمائة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفًا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمهلب فسيعلمون ! » إلى أن قال : فنادىهم عبد العزيز ، فوافقوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تعبئة فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى انتحموا عقبه ، فانتحموا وراءهم ، والناس يهونونه ويأبى وكان لهم فى بطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين ، وانحاز عبد العزيز ، واتبعهم الحوارج يقتلونهم كيف شاءوا » . (٣) أصله من أط الرجل أطيظا : صوت .

(٤) من حرب السنان : حده . (٥) التجريس : التحكيم والتجربة ، وضرسته الحرب تضريسًا :

جربته وأحكته أيضًا . (٦) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسمى الحوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص من سبى ، قال ابن عبد ربه فى العقد للفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها =

٤٣٥ -- خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطريُّ بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حفت^(٣) بالشهوات ،
ورقت^(٤) بالقليل ، وتخببت بالعاجلة^(٥) ، وحليت^(٦) بالآمال ، وتزيّنت بالغرور ،
لا تدوم حبرتها^(٧) ، ولا تؤمن فجعها ، غرارة ضرارة ، خيانة غدّارة ، وحائلة^(٨)
زائلة ، ونافذة^(٩) بائدة ، أكالة غوّالة^(١٠) ، بدالة نقالة ، لا تعدو إذا هي تناهت إلى
أمنية أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله تعالى : « كما أنزلناه من

= في السوق حاسرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس كالا وحسنا ، فتزايدت فيها
العرب والموالي ، حتى بلغوها تسعين ألفا ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب
عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطري بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت
المال ، وقتل أمة من إمام المؤمنين : فقال له : ماتقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت هؤلاء قد تنازعا
عليها ؛ حتى ارتفعت الأصوات ؛ واهمرت الخدق ؛ فلم يبق إلا الخطب بالسيف ؛ فرأيت أن تسعين ألفا
في جنب ماخشيت من الفتنة بين المسلمين هيئة ، فقال قطري : خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها » هـ .

(١) أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نهج البلاغة ؛ وعزاها إلى الإمام على كرم الله وجهه
وكذلك القضاعي في دستور معالم الحكم ؛ وقال ابن أبي الحديد في شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) : « وهذه
الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين ؛ ورواها لقطري بن الفجاءة ؛ والناس يروونها لأمر
المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الموفقي لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية لأمر المؤمنين عليه السلام
وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب
أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد لقي قطري أكثرهم » .

(٢) أي ناضرة ، من خضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه
وسلم — انظر خطبته في الجزء الأول ص ١٥١ : (٣) أي أطافت بها الشهوات . (٤) أعجبت أهلها
بمتاع قليل ليس بدائم . (٥) أي وتخببت إليهم باللذّة العاجلة ، (والنفس مولعة بحب العاجل) .

(٦) حليت المرأة فهي حال وحالية كتحتلت . وفي رواية : « وتحتلت » . (٧) الخبرة : المرور .
وفي رواية : « لاتقوم نضرتها » ؛ لاتقوم : لاتثبت . والنصرة : النعمة والغنى والحسن .

(٨) أي متحولة متغيرة من حال يحول . وفي رواية « خاتلة » أي محاددة . (٩) أي هالككة فانية
من نفذ ينفذ كفرح . (١٠) أي مهلسكة من غاله يفوله .

السَّمَاءَ ، فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، مع أن اسماً لم يكن منها في حبرة ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بِمَدِّهَا عِبْرَةً ، ولم يَلْتَقِ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْنًا ، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْرًا ^(٢) ، ولم تَطْلُهُ غَيْشَةٌ ^(٣) رِخَاءً ، إِلَّا هَطَلَتْ ^(٤) عَلَيْهِ مَزْنَةٌ بِلَاءً ، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُنْسِيَ لَهُ خَاذِلَةً مُتَسَكِّرَةً ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْدَوْذَبَ وَاحْتَلَوَى ^(٥) ، أَمَرَ عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوْبَى ^(٦) ، وَإِنْ أَنْتَ اسْرَأَ مِنْ غَضَارَتِهَا ^(٧) وَرَفَاهَتِهَا نِعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، وَلَمْ يُنْسِ اسْرُؤُهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمٍ ^(٨) خَوْفٌ ، غَرَارَةٌ غُرُورٌ مَا فِيهَا ، قَانِيَةٌ ، فَإِنْ مَا عَلَيْهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، مِنْ أَقْوَلِّهَا اسْتَكْرَمَ مَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْ اسْتَكْرَمَ مِنْهُ اسْتَكْرَمَ مَا يُؤْبِقُهُ ^(٩) ، وَبُطِيلٌ حَزُنُهُ ، وَبَيْبَسِي عَيْنِيهِ ، كَمْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ ، وَذَى طَمَأْنِينَةً إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ ^(١٠) ، وَذَى اخْتِيَالٍ ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمْ مِنْ

(١) الهشيم : ما هشم وتحطم ، وتذروه : أى تطيهه . (٢) كنى بالبطن والظهر عن إقبالها عليه

وإدبارها عنه لأن الملاقى لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك .

(٣) طله السحاب يطله : إذا أمطره مطرا قليلا ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غبية » والغبية

بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق ،

(٤) هطلت السماء كجلس هطلا : تتابع مطرها ، وفي رواية : « هتنت » هتنت السماء كجلس

أيضا هتتا : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمزنة : السحابة أو ذات الماء .

(٥) أى صار عذبا حلوا . (٦) أمر : صار مرا وأوبى : سهل عن أوبى ،

أى صار وبيثا ، وبثت الأرض كفرح وكرم وعنى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو اللطاؤون أو كل

مرض عام . (٧) النضارة : النعمة والسعة والخصب ، وأرهقه : حمله على مالا يطيقه ، وفي رواية :

« لا يزال امرؤ من غضارتها رغبا » والرغب بالتحريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت امرأ من غضونها

ورقا » ، وفي رواية : « وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعمة ، أرهقته من نوائبها غما » .

(٨) القوادم : أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادة ، وخص الخوف بالقوادم

لأنها مقادير الريش ، والراكب عليها بمرض تسقوط قريب . (٩) بهاكته . (١٠) وفي رواية :

« وذى حكم ننته إليها قد صرعه » . (١١) الاختيال : الكبر والعجب ، والأبهة : العظمة ، والبهجة

والسكر والنخوة .

ذِي أُهْمُو فِيهَا قَدْ صَيَّرَنَهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّرَتْهُ ^(١) لِلدِّينِ وَالْفِطْرِ ، سُلْطَانَهَا دُولٌ ، وَعَيْشُهَا رَنْقٌ وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَحُلُوبُهَا صَبِيرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ^(٢) وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ^(٣) ، وَقِطَاعُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَيْثُهَا بَمَرَضٌ مَوْتٌ ، وَصِحْبُهَا بَمَرَضٌ سُقْمٌ ، وَمَنْعِيهَا بَمَرَضٌ اهْتِضَامٌ ، مَلِيكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيْمُهَا مَسْكُوبٌ ، وَجَامِعُهَا مَحْرُوبٌ ^(٥) ، مَعَ أَنْ وِرَاءَ ذَلِكَ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ ، وَهَوَلُ الْمَطْلَعِ ، وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكْمِ الْعَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحَاهُوا بِمَا عَمَلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

السَّمُّ فِي مَسَاكِنَ مِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعْدَّ عَدِيدًا ، وَأَكْتَفَ جُنُودًا ، وَأَعْتَدَّ عَتَادًا ^(٦) ، وَأَطْوَلَ عِمَادًا ، تُعَبَّدُوا ^(٧) لِلدُّنْيَا أَيْ تَعَبَّدُوا وَآثَرُوهَا أَيْ لِيُثَارَ وَظَهَنُوا عَنْهَا بِالسُّكْرِ وَالصَّغَارِ ! فَهَلْ بَالَكُمْ أَنْ الدُّنْيَا سَمَّحَتْ لِمَنْ نَفْسًا بَغْدِيَّةً ، أَوْ أَعْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِحَطَبٍ ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ أَرَهَقْتَهُمْ بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعَفْتَهُمْ بِالْفَوَائِبِ ، وَعَقَرْتَهُمْ بِالْمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَفَكَّرَهَا

(١) صرعه وقلبه . (٢) رنق المساء كفرج ونصر : كدر ، فهو رنق كمدل وكتف وجبل ، وأجاج : ملح مر ، وسمام جمع سم مثلث السين . (٣) أسباب جمع سيب : وهو الخيل ، وريام : بالية ، حبل أريام ، وريام : أى بال . (٤) السلع : شجر مر ، أو سم : أو ضرب من الصبر ، أو بقللة خبيثة الطعم . (٥) مسلوب ، من حربه حربا كطابه مليا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفي رواية : « وجارها محروب » . (٦) العتاد : العدة ، وقد عتد كسكرم عتادا فهو عتيد : أى حاضر مهيا معد ، وفي رواية : « وأعدت عنودا » من عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : أى مال ، وفي رواية : « وأشد عقودا » . (٧) أى استعبدتهم الدنيا ، تعبدوا : اتخذوا عبدا . (٨) أى بشأن وأمر . (٩) الفوادح : النوائب المشقة ، من فدحه الدين إذا أثقله ، وفي رواية : « القوادح » والقوادح جمع قادح : وهو أكال يقع في الشجر والأستان ، وفي رواية : « وأوهقتهم » أى جعلتهم في الودق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالأطول . (١٠) وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية « وعقرتهم للمناخر ، ووطنهم بالمناجم » ، عقرتهم للمناخر : ألصقت أنوفهم بالنعفر (كسبب ويسكن) وهو للتراب والمناخر جمع منخر بفتح الميم والخاء ، وبكسرهما ، وبضمهما وكجلس : الأنف ، والمناجم جمع منجم كجلس وهو خف البعير .

لَمِنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ ، إِلَى آخِرِ الْمُسْتَدِّ^(٢) ، هَلْ زَوَدْتَهُمْ إِلَّا السَّغْبَ^(٣) ، وَأَحْلَتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفَهَذِهِ تَوَائِرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَثُونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارَ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فَبُنِيتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّعَمَّهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعْمَلُوا - وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ - أَنْتُمْ تَارِكُوهَا لِأَبَدٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أُتْبِنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ^(٤) » ، وَاتَعَطَّوْا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، حُلِّمُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَأُنزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضَيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّرْبِ بَرِيحٌ أَكْثَنَانٌ ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرَّفَاتِ جَبْرَانٌ^(٦) ، فَهِيَ حَيْرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْفًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَتَدَبَّةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ يَقْنَطُوا ، جَمْعٌ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجِبْرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مَتَعَانُونَ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ، حُلْمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْفَانُهُمْ ، وَجَهْلَاءٌ

(١) أَى خَضَعَ لَهَا وَذَلَّ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « لِمَنْ رَادَهَا » أَى طَلَبَهَا : رَوَدَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَالٌ .
 (٢) الْمُسْتَدُّ : الدَّهْرُ ، وَفِي رَوَايَةٍ هِيَ إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ . (٣) الْجَوْعُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « الشَّقَاءُ وَالضَّنْكَ : الضِّيقُ . (٤) نَزَلَتْ فِي عَادٍ قَوْمِ هُودٍ ، الرِّيحُ : الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَى بُنْيَانَةٌ وَقُصُورًا يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَمْتَشُونَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَيَطَاوِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْمُنَافَى مِنَ الْقُصُورِ وَالْحِصُونِ . (٥) وَفِي رَوَايَةٍ « فَلَا يَرْعَوْنَ » أَى فَلَا يَرْعَاهُمْ أَحَدٌ . (٦) الْأَكْثَنَانُ جَمْعٌ كُنَ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ وَقَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسْتَرُهُ . وَالضَّرْبُ : الْقَبْرُ أَوْ الشَّقُّ وَسَطُهُ ، وَفِي رَوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ » وَالْأَجْنَانُ جَمْعٌ جَنَّ كَسَبْتُ : وَهُوَ الْقَبْرُ ، وَالصَّفِيحُ : الْحِجَارَةُ الْمَرَاضُ ، وَالرَّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . (٧) الْمَتَدَبَّةُ : النَّدْبُ عَلَى الْمَيِّتِ . (٨) وَفِي رَوَايَةٍ : « إِنْ جِيدُوا » مِنْ جَادَهُمُ الْغَيْثُ إِذَا أَمْطَرُوا . (٩) قَحِطَ النَّاسُ كَمَسَّ ، وَقَحِطُوا وَأَقْحَطُوا مَبْنِيَيْنَ لِلْمَجْهُولِ (قَلِيلَتَانِ) ، وَبِكُلِّ رَوَى .

قد ماتت أحقادهم ، لا يُخَشَى فَجَعُهُمْ ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وكما قال الله تعالى :
 « فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ،
 استبدلوا بظهر الأرض بطنًا ، وبالسعة ضيقًا ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة ، ففارقوها
 كما دخلوها ، حفاة عراة فرادي ، غير أن ظمنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة ، وإلى
 خلود الأبد ، يقول الله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »
 فاحذروا ما حذرکم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته
 ورزقنا وإياكم أداء حقه .

(البيان والتبيين ١ : ٦٣ . وصيغ الأعراس ١ : ٢٢٣ . والعقد الفريد

٢ : ١٦٠ . وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٠ . ونهاية الأرب ٧ :

٢٥٠ . ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ . دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبد ربه الصغير

ولما دبت عقارب الخِلاف بين الأزارقة ، وامت بهم يد الشقاق ، خلموا قَطْرِيَّ
 ابن الفجاءة ، وولّوا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من ^(١) الشَّطْر ،
 ونشبت الحرب بينه وبين المهلب ، فأجَلَّتِ الوقعة عنه قتيلا ، وقد جمع أصحابه في الليلة
 التي قتل في صديحتها ، فقال :

« يامعشر المهاجرين : إن قَطْرِيَّا وَعُيَيْدَةَ ^(٢) هَرَبَا طلبَ البقاء ، ولا سبيلَ إليه ،
 فالتقوا عدوكم ، فإن غلبوكم على الحياة ، فلا يَغْلِبُنِيكُمْ على الموت ، فتلقوا الرماحَ بنحوركم
 والسيوفَ بوجوهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا ، يَهَبُهَا لَكُمْ فِي الآخِرَةِ » .
 (الكامل للمبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٥)

(١) أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان فوجه الحجاج إليه جيشا عليه سفيان بن الأبرد
 فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه وقتل سنة ٥٧٨ هـ ، وبقتله انتهت حروب الأزارقة . (٢) هو عبيدة
 ابن هلال اليشكري من كبراء الأزارقة .

٤٣٧ - خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مُسَرَّح يرى رأى الصُّفْرِيَّةِ^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُخْبِئاً^(٣) ، مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بِدَارًا^(٤) وأرض المَوْصِلِ والجزيرة ، له أصحاب يُقرّئهم القرآن ، ويفقههم وَيَقْصُّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللهم إنا لا نَعْمُدُ بك ، ولا نَحْفِدُ^(٥) إلا إليك ، ولا نَعْبُدُ إلا إياك ، لك الخلق والأمر ، ومنك النفع والضر ، وإليك المصير ، ونشهد أن محمداً عبدك الذي اصطفيته ، ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك ، ونصيحة عبادك ، ونشهد أنه قد بلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، ودعا إلى الحق ، وقام بالقسط ، ونصر الدين ، وجاهد المشركين ، حتى توفاه الله صلى الله عليه وسلم .

أرصبيكم بتقوى الله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين ، وحبّ المؤمنين ، فإنّ الزَّهَادَةَ في الدنيا ترغّب العبد فيما عند الله ،

(١) هو صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه : وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدى بن عدى بن عميرة فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى مافيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحجاج جيشاً يقوده الحارث بن عميرة فنحارهم وقتل في المعركة صالح . (٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصغر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة أو لخلوهم من الدين وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . (٣) أخبت لله : خشع وتواضع . (٤) دارا : بلد بين نصيبين ومزديين من أرض الجزيرة . (٥) حفد كضرب : خف وأسرع .

وتفرغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تخفيف العبد من ربه ، حتى يجاز (١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين للسبب الذي يُنال به كرامة الله ورحمته وجنته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فملهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ، وفقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفا رحيمًا ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم ولي الأمر من بعده النبي الصديق ، على الرضا من المسلمين ، فاقنطى بهديه ، واستن بسنته ، حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يُخنيق في الحق على جرته (٢) ، ولم يخف في الله لومة لائم ، حتى لحق به رحمة الله عليه ، وولى من بعده عثمان ، فاستأثر بالنبي ، وعطل الحدود ، وجار في الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزّر المحرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرى الله منه ورسوله وصالح المؤمنين ، وولى أمر الناس من بعده على ابن أبي طالب ، فلم ينشب أن حكم في أمر الله الرجال ، وشك في أهل الضلال ، وركن (٣) وأدهن ، فنحن من علي وأشياعه براء ، فتيسر ورحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المنحزبة ، وأئمة الضلال الظلمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزعو من القتل في الله ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم - غير ما ترجم الظنون - ففرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائدكم ودنياكم ،

(١) جار إليه كنع : رفع صوته بالدعاء ، وتضرع واستغاث . (٢) أحق الصلب : لزق بالطن . والحرة : ما يخرج البعير من جوفه ويمضغه ، كنى بذلك عن عدم إضماره الحقد والدغل . (٣) ركن إليه : مال .

وإن اشتدَّ لذلك كرهكم وحرَّعكم ، ألا فيبعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين ، وتُعَانِقُوا الْحُورَ الْعِينِ ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذَّاكِرِينَ ، الذين يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٨ — خطبة أخرى له

وروى الطبرى أيضاً قال :

« بيذا أصحابُ صالح يَخْتَلِفُونَ إِلَيْهِ ، إذ قال لهم ذات يوم : ما أَدْرَى ما تَنْتَظِرُونَ ؟ وحتى متى أنتم مُقِيمُونَ ؟ هذا الْجُورُ قد فَشَأَ ، وهذا الْعَدْلُ قد عَمَأَ ، ولا تَزِدَادُ هذه الْوَالَاةُ على النَّاسِ إِلَّا غُلُوءًا وَعَتُوءًا ، وتباعدوا عن الحق ، وَجُرْأَةً على الرب ، فاستعدُّوا ، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الْبَاطِلِ والدعاء إلى الحق ، مثل الذى تريدون ، فبأتواكم فنلتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٩ — خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَعَجَّلُوا إلى قِتَالِ أَحَدٍ من النَّاسِ إِلَّا أن يكونوا قومًا يريدونكم وَيَنْصِبُونَ^(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضبًا لله ، حيث أنتم مَحَارِمُهُ ؟ وَعَثَى فى الأَرْضِ ، فسفكت الدماء بغير حِلِّها ، وأخذت الأموال بغير حقها ، فلا تعبيراً على قوم أعمالاً تم تعملوا بها ، فإن كلَّ ما أنتم عاملون ،

(١) أى يصادونكم .

أنتم عنه مسئولون ، وإن عظيمكم رجالة ، وهذه دواب محمد بن مروان في هذا الرشتاق^(١) ، فابدهوا بها فشدوا عليها ، فاحلوا أرجلكم ، وتقووا بها على عدوكم .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤١٠)

٤٤٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وخلّف على رئاسة الخوارج الصّفرية بعد مقتل صالح بن مسرّح أحد أصحابه ، وهو شبيب بن يزيد الشيباني ، فكتب الحجاج لقتاله الكتائب ، وكان أميرها في بعض الوقات زائدة بن قدامة ، وجاء شبيب حتى وقف مقابل القوم ، فخرج زائدة يسير بين الميمنة والميسرة ، يجرّض الناس ويقول :

« عباد الله ، إنكم الطيبون السكثرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ، فاصبروا جعلت لكم الفداء إنها حلتان أو ثلاث ، ثم هو النصر ليس دونه شيء ، ألا ترونهم والله لا يكونون مائتي رجل ؟ إنما هم أكلة رأس ، وهم السراق المراق ، إنما جاءوكم ليهربوا دماءكم ، يأخذوا فيئسكم ، فلا يكونوا على أخذهم أقوى منكم على منعه ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهل فرقة ، وأنتم أهل جماعة ، غضوا الأبصار ، واستقبلوهم بالأسنة ، ولا تحملوا عليهم حتى أمركم » ، فما برح يقاتلهم مقبلا غير مدبر ، حتى قتل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤١٥)

٤٤١ — خطبة الحجاج بن يوسف

ولما هزم شبيب الجيش الذي كان الحجاج وجهه إليه مع عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) الرشتاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (معرب) .

« أيها الناس : والله لَتَقَاتِلَنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأَبْعَثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والغیظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم - یعنی جند الشام - . »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعقِب الأير ، فليندُ بنا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٢٢ - خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا ، إلا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن لنا كل المارب الهوان والجفوة ، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الوطن ، كفعلكم في المواطن التي كانت ، لأولينكم كنفاً خشناً ، ولأغر كنكم بكل كل ثقيل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٥)

٤٤٣ - خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مئتون ومئتون ، إلا إنني مضى الظهر ، ثم سائر بكم إن شاء الله » .

(تاريخ الطبری ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٢ : ص ٤١٩)

٤٤٤ - خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ، يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قصصاً كثير أمنه قوله : « يأهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا ترون أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حمد الله فعله فما أعظم درجته ، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوك هذا يستعرض المسلمين بسيفه؟ لا يرون إلا أن ذلك لهم قرابة عند الله ، فهم شيرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القصص يقصون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنقرة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ا والله الكأني بكم وقد قرّرتكم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه تسقى في استيبر الريح ، وحل عليه شيب فتفرق عنه كثير من أصحابه وخذلوه ، وثبت في عصاة قليلة صبرت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن الحديد ١ ص ٤٢٠)

٤٤٥ - خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج تجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلهم يقتل أمراءهم ، ويقفل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستمده ، فبعث إليه سفیان بن الأبرد الكلبي ، في أربعة آلاف ، وحبیب بن عبد الرحمن الحكبي من مدحج في أنين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشدوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يأهل الكوفة ، فلا أعزَّ اللهُ من أراد بكم العزَّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، األقوا بالحجارة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهيد قتال عتَّاب ابن ورقاء^(١) . » (تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١م : ص ٤٢٠)

٤٤٦ - خطبة عبد الله بن يحيى الإباضي^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندي على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب الناس ، فحمد الله جلَّ وعزَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعظ وذكر وحذَّر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمدُ نبينا ، والكتبُ قبلتنا ، والقرآنُ إمامنا ، رضيْنَا بالحلال حلالا ، لا نبيي به بدِلا ، ولا نشتري به نمتًا قليلا ، وحرَّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهرنا ، ولا حول

(١) ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمدايمته ، فشئت جموعه فانصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشا عليه سفيان بن الأبرد فالتقيا على جسر دجيل ، وحشي بينهما وطيس القتال حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا معاشر المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه وزل حافر فرسه عن حرف السفينة ، فسقط في الماء ، وكان هلاكه سنة ٥٧٧ (٢) هو عبد الله بن يحيى الكندي ، وكان من حضر موت ، وكان مجتهدا عابدا من رؤساء الخوارج الإباضية : (والإباضية فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إباض - بكرم الهمة -) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جورا ظاهرا وعسفا شديدا ، وسيرة في الناس قبيحة فقال لأصحابه إنه لا يحل لنا المقام على ما ترى ولا الصبر عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج فوافقوه ، وشخص إليه أبو حنيفة المختار بن عوف الأزدي ، وبلغ بن عقبة السعدي في رجال من الإباضية فحرضوه على الخروج ، وكثر جمعه وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القاسم بن عمر) فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصره فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها من الخزان والأموال .

ولا قوّة إلا بالله ، وإلى الله المُشْتَكَى ، وعليه المَعْوَل ، من زنى فهو كافر ، ومن سرَق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شكّ في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات مُحْكَمَات ، وآثارٍ مُقْتَدَى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، هَدَلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والمدارة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلّ فِتْرَةٍ بقايا من أهل العلم ، يدْعُونَ من ضلّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقْتَلُونَ على الحق في سالف الدهور شهداء ، فما نَسِيَهُمْ رَبُّهُمْ ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلّكم الله بالقيام به ، فأبْلَوْا الله بلاءً حسناً في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأغاني ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

خطب أبي حمزة الشاري

٤٤٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا أهل المدينة : سأناكم عن ولاتكم هؤلاء ، فأسأتم - لعمري الله - فيهم القول ،
قلتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حلاله ، فوضعوه في غير حقه ، وجاروا
في الحكم ، فحكوا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بفقيننا ، فجعلوه دولةً بين الأغنياء

(١) بعد أن استولى عبدالله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهراً يحمدن السيرة في الناس ويلين
جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم فكثرت جمعه وأتته الشراة من كل جانب (والشراة كقضاة جمع شاركوا
وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى : أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شرينا أنفسنا في طاعة الله : أى بعناها
ووهبتها ، أخذنا من قوله تعالى :

« وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُبْتِغَاءً مَرَضًا اللَّهُ » أو لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا ،
أى اشتريناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدي ثم السلمى من
أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم التروية « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم غلب مكة فهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومضى
عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص
إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لنسير إلى من ظلمكم ،
وجار في الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدنا بكم ، فإننا لا نريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة وقالوا : يا أعداء
الله : أنحن نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج : يا أعداء الله أنحن نفسد في الأرض ؟ إنما
خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالنوء ، فانظروا لأنفسكم ، واخلموا من لم يجعل الله
له طاعة ، فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال
بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتل قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ،
منهم من قرىش أربع مائة وخمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقيت من صقر سنة ١٣٠ ، وهرب
عبد الواحد بن سليمان إلى الشام .

منهم ، وجعلوا مَقَارِسِمَنَا وَحُتُوقَنَا فِي مَهْرِ النِّسَاءِ ، وَفُرُوجِ الإِمَاءِ^(١) ، فَقَلْنَا لَكُمْ : تَمَالَوْا
نَحْنُ وَأَنْتُمْ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُونَا وَظَلَمُواكُمْ ، وَجَارُوا فِي الْحُكْمِ ، فَحُكْمُوا بِغَيْرِ مَا أُنزِلَ اللَّهُ
فَنُشَادُهُمُ اللَّهُ أَنْ يَتَنَحَّوْا عَنَّا وَعَنكُمْ ، لِيُخْتَارَ الْمُسْلِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَقَلَّمْ : لَا يَفْعَلُونَ ، فَقَلْنَا
لَكُمْ : تَمَالَوْا نَحْنُ وَأَنْتُمْ نَقَاتِلُهُمْ ، فَإِنْ نَظَرَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ نَأْتِ بِمَنْ يُقِيمُ فِينَا وَفِيكُمْ
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَلَّمْ : لَا تَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ، فَقَلْنَا لَكُمْ :
فَخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ نَظَرَ نَمْدِلُ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنُحْمِلُكُمْ عَلَى سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنُقَسِّمُ فِيكُمْ بَيْنَكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ وَقَاتَلْتُمُونَا دُونَهُمْ ، فَقَاتَلْنَاكُمْ وَقَتَلْنَاكُمْ ،
فَأَبَدَكُمْ اللَّهُ وَأَسْحَقَكُمْ .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح
ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٨ - خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فنخطب ، فقال في خطبته :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَرَرْتُ بِكُمْ فِي زَمَنِ الْأَحْوَالِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ أَصَابَتْكُمْ
عَاطَةٌ بِتَارِكِكُمْ ، وَكُتِبَتْ إِلَيْهِ تَسْأَلُونَهُ أَنْ يَضَعَ خَرَاجَكُمْ عَنْكُمْ ، فَكُتِبَ إِلَيْكُمْ بِوَضْعِهِ
عَنْ قَوْمٍ مِنْ ذَوِي الْبِيسَارِ مِنْكُمْ ، فَزَادَ الْغَنَى غِنَى ، وَزَادَ الْفَقِيرُ فَقْرًا ، فَقَلَّمْ : جَزَاكَ اللَّهُ
خَيْرًا ، فَلَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ، وَلَا جَزَاكَ خَيْرًا . »

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

(١) وفي رواية : « وسألناكم ، هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام
والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم . »

٤٤٩ - خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون صحابه^(١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيرون أصحابه ، كخدانة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متنكب قوساً عربية ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

« يا أهل المدينة ، قد بلغتني مقاتلکم لأصحابي ، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم ، لأحسنت أدبكم ، ونجّمتكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكذب ، وبيّن له فيه السنن ، وشرّح له فيه الشرائع ، وبيّن له فيه ما يأتي وما يذّر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يُنحجِم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذي عليه ، وعلم المسلمين معاملة دينهم ، ولم يدعهم من أسرم في شبهة ، ودلى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم ، حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، فعمل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الردّة ، وشمّر في أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنده راضون رحمة الله عليه ومغفرته ، ثم ولي بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجنّد الأجناد ، ومصّر الأمصار ، وجبى الفداء ، وفرّض الأعطية ، وشمّر عن ساقه ، وحسّر عن ذراعه ، وجلّد في الحجر ثمانين ، وجمع الناس في شهر رمضان^(٢) ، وغزا العدو في بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه - وكان دونهما - ثم سار في الست الأواخر بما أحبّط به الأوائل ، واضطرب جبل الدين بعدها ، فطلبها^(٣) كل امرئ

(١) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

(٢) أي لصلاة القيام ، وفي رواية : « وقام في شهر رمضان » .

(٣) أي الخلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معاوية فيها .

لنفسه ، وأتمرّ كل رجل منهم سريرةً أبداها الله عنه ، حق مضواً على ذلك ، ثم وليَ
 على بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله :
 ثم ولي معاوية بن أبي سفيان له من رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه (١) ،
 وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق . فسفك الدم الحرام ، وأخذ
 عباد الله خولاً (٢) ، ومال الله دُولاً (٣) ، وبغى دينه عوجاً ودغلاً (٤) ، وأحلّ الفرج
 الحرام ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ،
 يزيد الخجور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروود (٥) ،

(١) انظر ص ٢٣ و ٢٤ . (٢) عبيدا . (٣) جمع دولة بالضم : أى متداولاً بين عشيرته
 دون سائر المسلمين . (٤) الدغل : الفساد كالدخل . (٥) روى المسعودى فى مروج الذهب -
 ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقروود ، وفهود ؛ ومنادمة على الشراب ؛ وجلس
 ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - فأقبل على ساقيه ، فقال :

استقى شربة تروى مشائى ثم صل فاسق مثلها ابن زياد
 صاحب السر والأمانة عندى ولتسديد مغنى وجهادى

(والمشاش كغراب : النفس والطبيعة) ، ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان
 يعمله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب ،
 وكان له قرد يكتى بأبى قيس ؛ يحضره مجلس منادته ؛ ويطرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله
 على أتان وحشية ؛ قد ريفت وذلك لذلك بسرجه ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الخلبة ، فجاء فى بعض الأيام
 سابقاً فتناول القصبية ؛ ودخل الحجره قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباه من الحرير الأحمر والأصفر مشهر
 (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأتان سرج من
 الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبى قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطت ضبان
 ألا من رأى القرد الذى سبقت به جيايد أمير المؤمنين أتان !

وروى ابن طباطبأ فى الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفاً بالصميد لا يزال لاهياً
 به ، وكان يلبس كلاب الصميد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالسكمر جمع جل بالضم
 والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به » ويهب لكل كلب عبداً يخدمه ، قيل إن عبید الله بن زياد أخذ من بعض =

الفاسقُ في بطنه ، المأبون^(١) في فرجه ، نخالف القرآن ، واتبع السكّهان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طرّيد لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وابن لعينه ، فاسقٌ في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه . ثم تداوها بنو مروان بعده ، أهل بيت الائمة ، طرّداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقومٌ من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، وآعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيما لها أمة ! ما أضيها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سبي أعمالهم ، واستخفاهم بكتاب الله تعالى ، قد تَبَذَّرَهُ وراء ظهورهم لعنهم الله ، فالعنوه كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يَسْكُدْ وَعَجَزَ عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر - .

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلامٌ ضعيف سفيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رُشدُه ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ : « فَإِنْ آتَسَّمْهُ

= أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جباية وجعلها في خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق في تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضراً فيها ، فضرب تخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر حود يزيد من الصيد ، فبينما هو في بعض الأيام جالس في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبلغاً كبيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شدت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدها بنفسه ، فاشمر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زى الملوك ؛ وقد علتة غبرة ، فقام إليه ، وسلم عليه ، فقال له أرايت كلبة عابرة هذا الموضع ؟ فقال : نعم يامولانا ، هاهي في الخيمة ، قد شربت ماء واستراحت وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، وفظز إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب بحبلها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

(١) أبته بشيء كنصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كهقده : العيب . (٢) بلغ أشده : أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد اختلف المؤرخون في مقدار سن يزيد ، فقيل إنه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهراً ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسفهه وعكوفه على اللذات والشهوات .

مِنْهُمْ رُشْدًا فَأَذْفَمُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(١) ، فأمرُ أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها ، أعظم عند الله من مال اليتيم ، وإن كان عند الله عظيماً ، غلام مأبون في بطنه وفرجه ، يشرب الحرام ، ويأكل الحرام ، ويلبس الحرام ، يلبس بُرْدَتَيْنِ قَدْ حَبَّكَتَاهُ ، وقومًا على أهلها بألف دينار ، وأكثر وأقل ، قد أخذت^(٢) من غير حِلِّها ، وصُرفَت في غير وجهها ، بعد أن ضُربت فيها الأُبْشَارُ^(٣) ، وَحُلِقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وهتكت فيها الأستار ، واستُحِلَّ ما لم يُحِلَّ اللهُ لعبد صالح ، ولا نبي مرسل ، ثم يُجلس حَبَابَةً عن يمينه ، وسَلَامَةً عن شماله ، تغنيانه بزمامير الشيطان ، ويشرب انجر العُصْرَاحِ الحُرْمَةَ نَصًا بَيْنَهُمَا ، حتى إذا أخذت منه مأخذها ، وخالطت رُوحَهُ ولحمه ودمه ، وغلبت سَوْرَتَهَا على عقله ، مَرَّقَ حُلِّيَيْهِ ، ثم التفت إليهما فقال : أنأذنان لي أن أطير^(٤) ؟ نعم ، فطرني إلى لعنة الله ، وحرىق ناره ، وألم عذابه ، طرني إلى حيث لا يردك الله .

(١) الآية الكريمة في اليتامى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ

أَسْتَمْتُمْ . . . » . (٢) أى الدنانير . (٣) فيها : أى في تحصيلها . والأبشار : جمع بشر ، وهو جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد ضرب الناس في جباية الأموال . (٤) ذكر ذلك ابن طباطبائي الفخرى ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خلیع بنى أمية شغف بجاريتين أمم إحداهما سلامة ، والأخرى حيابة فقطع مهمما زمانه ، قالوا : فغنت يوما حيابة :

بين التراق والهواة حرارة
ماتطمئن ولا تسوخ فتبرد

فأهوى يزيد إيطير ، فقال : يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : فملى من تدع الأمة ؟ قال : عليك وقبل يديها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : « سخنت عينك فأسخنك » وروى أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حيابة مولة من مولدات المدينة ، حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء ؛ وقد قال يزيد بن عبد الملك : ماتقر عيني بما أرتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة وحيابة ، فأرسل فاشتريتا له ، فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فأنقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أقبل على يزيد يلومه في الإلحاح على الغناء والشراب ، وقال له : إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاغللت بهذه الأمة من النظر في الأمور ، والوفود ببابك ، =

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال: « أصابوا إمرة ضائمة ، وقوماً طعماً أجھالاً ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فأسكوا الأسر ، وأسلطوا فيه تسلط رُبُوبِيَّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظنَّة ، ويعطون الحدود بالشفاعات ، ويأمنون الخوثة ، ويُقصون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَىٰ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرَّقَابِ ، وَالْعَارِمِينَ

= وأصحاب الظلمات يصيحون ، وأنت غافل عنهم ، فقال : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ، ولم يدخل على حيابة أياما ، فندت حيابة إلى الأحوص أن يقول آياتنا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لآلمه اليوم أن يتبلدا	فقد غلب المخزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى فن شاء لأمى	ومن شاء أمى فى البكاء وأسعدا
وإنى وإن فندت فى طلب الفنى	لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا
إذا أنت لم تمشق ولم تدر ما الهوى	فكن حجرا من يابس الصخر جلدا
فا العيش إلا ماتلذ وتشهى	وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

ومكث يزيد جمعة لا يرى حيابة ، ولا يدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواربها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمينى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فتلقتة والعود فى يدها ، ففنت البيت الأول ، ففطى وجهه ، وقال : مه لاتفعل ، ثم غنت : فا العيش إلا ماتلذ وتشهى : فعدل إليها ، وقال : صدقت والله ، ففحج الله من لأمى فىك ، يا غلام . مسلمة أن يصلب بالناس ، وأقام معها يشرب وتغنيه ، وعاد ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائجك ، فكتب إليه فى نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها ، انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، وما ذكره المسعودى : أن حيابة امتلقت فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياما لا يدفنها حتى جيفت فقيل له : إن الناس يتحدثون بجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى • فبالياس تساو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما قلائل ومات .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ^(١) « فَأَقْبِلْ صِنْفٌ تَأْسَعُ لَيْسَ مِنْهَا ، فَأَخَذَ كُلُّهَا : تَلَسَّكَ
الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوم لهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنني سمعت الله
عزَّ وجلَّ قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ،
لا يرجعون إلى نظرٍ نافذٍ في القرآن ، ولا عقلٍ بالغٍ في الفقه ، ولا تفتيشٍ عن حقيقة
الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصيبة لحزبٍ لزوم ، وأطاعوه
في جميع ما يقوله لهم ، غيياً كان أو رشداً ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدُّول في رَجْمَةِ
الموتى^(٢) ، وَبُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ قَبْلَ السَّاعَةِ ، وَيَدَّعُونَ عِلْمَ الْغَيْبِ لِمَخْلُوقٍ ، لا يعلم أحدهم
ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه توبه ، أو يحويه جسمه ، يَتَقَمِّمُونَ الْمَعَاصِيَ عَلَى أَهْلِهَا
ويعملون إذا ولّوا بها ، يُصِرُّونَ عَلَى الْفِتْنَةِ ولا يعرفون المَخْرَجَ مِنْهَا ؛ جُفَاءً فِي دِينِهِمْ ،

(١) الصدقات : الزكاة . العاملين عليها : الساعين في تحصيلها وجمعها . والمؤلفة قلوبهم : الذين
أسلدوا وفتيتهم ضميعة في الإسلام ، فتستألف قلوبهم . وفي الرقاب : أى وفي ذلك رقاب المكاتبين ، فيعانون
بشيء منها . والغارمين : أى المدينين لأنفسهم في غير معصية ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .
(٢) كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن
أعين الناس ؛ فالشيعة الكيسانية يقولون إن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يموت ، وإنه في جبل رضوى
(بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وصل ، وإنه يعود بعد النبية فيملأ
الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يغيب ولا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والنصل لابن حزم ٤ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨
والاثنا عشرية « وهى إحدى فرق الشيعة الإمامية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الإمام الثاني عشر وهو محمد
ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدي المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ،
وأنه يخرج في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون في كل ليلة
بهد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيبتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك
النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

قليلة عقولهم^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن مؤالاهم لهم
تغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى
يؤفكون^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق بأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تفتدون ؟ وقد بلغنى
أنكم تنتقصون أصحابي ! قاتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويحكم بأهل المدينة !
وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون في الخير إلا شبابا
أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم بتقابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم
ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباب الله مُكْتَهَلُونَ^(٣) في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن
الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء^(٤) عبادة ، وأطلاحُ مَهَرٍ^(٥) ، باعوا
أنفساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية
أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما صرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا
مرّ بآية من ذكر النار شقق شهقةً ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض
رُكَبَهُمْ وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال^(٦) الليل بكلال النهار ، مُضْفَرَةٌ
ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب
الله ، مؤفون بهد الله ، مُفْجَزُونَ لوعد الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوّت^(٧) ،
ورماحهم وقد أشرعت^(٨) ، وسيوفهم وقد انتضيت^(٩) ، وبَرَفَتِ السكتية ورعدت
بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد السكتية لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد

(١) وفي البيان والتبيين « جفاة عن القرآن ؛ أتباع كهان » . (٢) أفسكه عنه كضرب : صرفه
وقلب رأيه . (٣) أى قد أحرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم . (٤) جمع نضو كحمل ، وهو
المهزول . (٥) جمع طلع وهو كنضو وزنا ومعنى . (٦) الكلال : التعب والإعياء .
(٧) فوق السهم : جعل له فوقاً (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ؛ أى أعدت للرى .
(٨) سددت . (٩) استلت .

الكتيبة ، ولَقُوا شَبَابًا^(١) الأسننة ، وشائِك السهام ، وظَبَاتِ السيوف بنحورهم ،
 ووجوههم وصدورهم ، ففضى الشاب منهم قُدُماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
 واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّرَ^(٢) جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ،
 وتمرقتة سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكَم من عين في منقار طائر طالما بكى
 بها صاحبها في جَوف الليل من خَوف الله ، وكَم من يد قد أُبِينت عن ساعدها ، طالما
 اعتمد عليها صاحبها راکماً وساجداً ، وكَم من وجه رقيق ، وجَبِين عَتِيق^(٣) ، قد فُلق
 بعمد الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
 وأدخل أرواحهم الجنان » . الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
 والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٠ - خطبة أخرى

ورقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أُرْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 وَصَلَّةِ الرَّحْمِ ، وَتَعْظِيمِ مَا صَعَّرَتِ الْجَبَابِرَةُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ ، وَتَضْعِيفِ مَا عَظَّمَتِ مِنَ الْبَاطِلِ ،
 وَإِمَانَةِ مَا أَحْيَوْا مِنَ الْجُورِ ، وَإِحْيَاءِ مَا أَمَاتُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَأَنْ يُطَاعَ اللَّهُ ، وَيُنْصَى
 الْعِبَادُ فِي طَاعَتِهِ ، فَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَلِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالطَّاعَةُ لِلْخَلْقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَلْقِ ، نَدْعُو
 إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَالْقِسْمِ بِالسُّوْبَةِ ، وَالْعَدْلِ فِي أَرْعِيَةِ ، وَوَضْعِ الْأَخْمَاسِ فِي
 مَوَاضِعِهَا الَّتِي أَسْرَأَ اللَّهُ^(٤) بِهَا ، تَعْلَمُونَ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَنَّا لَمْ نَخْرُجْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا أَشْرَأَ

(١) جمع شبابة : وهي حد كل شيء ؛ والظبات : جمع ظبة ؛ وهي حد السيف . (٢) أصابه العفر :

وهو التراب . (٣) كريم .

(٤) قال الله تعالى : « وَعَلَّمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » .

وَلَا بَطْرًا ، وَلَا عِبْتًا ، وَلَا لَهْوًا ، وَلَا لِدَوْلَةِ مُلْكٍ نَزِيدَ أَنْ نَخْوِضَ فِيهِ ، وَلَا لِنَارِ قَدِيمِ نَيْلٍ مَنَا
 وَلَكِنَّا لَمَّا رَأَيْنَا مَصَابِيحَ الْحَقِّ قَدْ أَطْفِئَتْ ، وَمَعَالِمَ الْعَدْلِ قَدْ عَطَلَتْ ، وَكَثُرَ الْأَدْعَاءُ فِي
 الدِّينِ وَعَمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُنِفَ الْقَائِلُ بِالْحَقِّ ، وَقَتِلَ الْقَائِمُ بِالنِّسْبِ ، ضَاقَتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ
 بِمَا رَحُبَتْ ، وَسَمِعْنَا دَاعِيًا ^(١) يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُسِّمَ الْقُرْآنُ ، فَأَجَبْنَا دَاعِيَ اللَّهِ
 وَمَنْ لَا يُجِيبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٢) فِي الْأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنَا مِنْ قِبَلِ شَتَّى ،
 النَّفْرِ ^(٣) مَنَا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، عَلَيْهِ زَادُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، يَتَعَاوَرُونَ لِحَافًا وَاحِدًا ، قَلِيلُونَ
 مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَأَوَانَا اللَّهُ وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَأَصْبَحْنَا وَاللَّهِ جَمِيعًا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ،
 وَهَلَى الدِّينَ أَعْوَانًا ، ثُمَّ لَقِينَا رِجَالَهُمْ بِقَدِيدٍ ، فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحَكْمِ الْقُرْآنِ ،
 وَدَعَوْنَا إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَحَكْمِ مَرْوَانَ وَآلِ مَرْوَانَ ، فَشَتَّانَ لِعَمْرٍُ اللَّهِ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ
 وَالرَّشْدِ ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهَرَعُونَ وَزَرْقُونَ ^(٤) ، قَدْ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ بَجْرَانَهُ ^(٥) ، وَغَلَّتْ بِدِمَائِهِمْ
 مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، وَأَقْبَلَ أَنْصَارُ اللَّهِ عَصَائِبَ وَكُتَابَ ، بِكُلِّ مَهْنَدٍ
 ذِي رَوْثٍ ، فَدَارَتْ رِحَانًا وَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ بِضَرْبِ يَرْتَابٍ مِنْهُ الْمُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يُسْحِقِكُمْ ^(٦) اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ
 عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، وَبِشَفِ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ أَوْلَيْتُمْ خَيْرَ أَوْلٍ ،
 وَآخِرَكُمْ شَرًّا آخِرًا ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : النَّاسُ مَنَا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدًا وَثَنًا ، أَوْ كَافِرًا
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عَضُدِهِ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ لِلَّهِ عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبٌ ^(٧) .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨) ، الأغانى ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١)

(١) يريد عبد الله بن يحيى الكندي . (٢) أى لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته .

(٣) النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة . (٤) زف الظلم وغيره كضرب زفا وزفيها

وزفوفًا ، وأزف : أسرع . (٥) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره : أى استولى عليهم .

(٦) أسحت : استأصله . (٧) روى أنه قال عقب ذلك : « يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية

أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي ، على حبه للضعيف ، فجاء تاسع ، ليس له منها ولا سهم واحد ، =

٤٥١ - خطبة له في سبّ أهل المدينة وتقرير بهم

وخطب المدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل المدينة : مالى رأيت رسم الدين فيكم بقيًا ، وآثاره دارسةً ، لا تقبلون عظّمته ولا تفقهون من أهله حُجّةً ، قد بايت فيكم حدّته ، وانطمست عنكم سنّته ، ترون معروفه منكراً ، والمنكر من غيره معروفًا ، إذا انكشفت لكم العبر ، وأوضحت لكم النذر^(١) ، عميت عنها أبصاركم ، وصمّت عنها أسماعكم ، ساهين في غمّرة ، لاهين في غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر ، وتنبصر عن الحق إذا ذكر ، مستوحشةً من العلم ، مستأنسةً بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نُفورًا ، تحملون قلوبًا في صدوركم كاللحجارة أو أشد قسوة من الحجارة ، أو لم تَلِن لكتاب الله الذي لو أُزِل على جبلٍ لرأيتَه خاشعًا مُتصدّعا من خشية الله ، يا أهل المدينة ، ما تُتفني عنكم صحة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سببًا غالبًا ينقاد له ، ويطيع أمره . وجعل القلوب غالبيةً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب ميلاً ، كانت الأبدان لها تبعًا ، وإن القلوب لا تَلين أهلها إلا بصحتها ، ولا يصحّحها إلا المعرفةُ بالله ، وقوّة النية ، ونفاذ البصيرة ، ولو استنشعرت تقوى الله قلوبكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يا أهل المدينة : داركم دارُ الهجرة ، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نبتت به داره ، وضاق به قراره ، وآذاه الأعداء وتجهمت^(٢) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قومٍ لعمري لم يكونوا أمثالكم ، مُتوّازرين مع الحق على الباطن ، مختارين الأجل على العاجل ، يصبرون للصبراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاءوا في سبيله ، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النور

= فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ، ما يقولون فيه وفيمن عاونوه على فعله ؟ يا أهل المدينة بلغني أنكم

تنتقصون أصحابي ... الخ » وقد حدثته هنا لوروده في الخطبة السالفة .

(١) النذر : جمع نذير ، وهو المنذر . (٢) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه كريمة .

الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ، وَأَثَرُوا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١) . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَكْثَرَ بِئْسَ جُوعًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، وَأَنْتُمْ
أَبْنَاؤُهُمْ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْقِهِمْ ، تَتْرَكُونَ أَنْ تَقْتَدُوا بِهِمْ ، أَوْ تَأْخُذُوا بِسُنَّتِهِمْ ، عُغِي الْقُلُوبُ ،
صُمَّ الْأَذَانُ ، اتَّبَعْتُمْ الْهَوَى ، فَأُرْزِدَاكُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَسْهَأَكُمْ ، فَلَا مَوَاعِظُ الْقُرْآنَ تَزْجُرُكُمْ
فَتَزْجُرُونَ ، وَلَا تَعِظُكُمْ فَتَعْتَبِرُونَ ، وَلَا تُوقِظُكُمْ فَتَسْتَيْقِظُونَ ، لَيْسَ الْخَلْفَ أَنْتُمْ مِنْ
قَوْمٍ مَضَوْا قَبْلَكُمْ ، مَا سِرْتُمْ بِسِرَّتِهِمْ ، وَلَا حَفِظْتُمْ وَصِيَّتَهُمْ ، وَلَا احْتَذَيْتُمْ مِثْلَهُمْ ، لَوْ شِئْتَ
عَنْهُمْ قُبُورُهُمْ ، فَعُرِضْتَ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَكُمْ ، لَعَجِبُوا كَيْفَ صُرِفَ الْعَذَابُ عَنْكُمْ !
(الْأَغْنَى ٢٠ : ١٠٥ ، وَشَرَحَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ ١ : ص ٤٥٨)

* * *

وجاء في رواية العقد الفريد :

« يَا هَلْ الْمَدِينَةُ : أَوْلَسْكُمْ خَيْرٌ أَوَّلَ ، وَآخِرَكُمْ شَرٌّ آخِرَ ، إِنَّكُمْ أَطَعْتُمْ قُرَاءَكُمْ
وَقَفَّهَأَكُمْ فَآخْتَنَانُوكُمْ^(٢) عَنْ كِتَابِ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ ، بِنَادِي الْجَاهِلِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ،
فَأَصْبَحْتُمْ عَنِ الْحَقِّ نَائِبِينَ^(٣) ، أَمْوَانًا غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : يَا أَبْنَاءَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمُ بِإِحْسَانٍ ، مَا أَصْحَحَ أَصْلَكُمْ ، وَأَسَقَمَ فَرْعَكُمْ ! كَأَنَّ
أَبَاؤَكُمْ أَهْلَ الْيَقِينِ ، وَأَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِالْدِينِ ، وَالْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ ، وَأَنْتُمْ
أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلَةِ ، اسْتَعْبَدْتُمْ الدُّنْيَا فَأَدَلَّتْكُمْ ، وَالْأَمَانِي فَأَضَاتْكُمْ فَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ
بَابَ الدِّينِ فَسَدَّدْتُمُوهُ ، وَأَغْلَقَ عَنْكُمْ بَابَ الدُّنْيَا فَتَحْتُمُوهُ ، مِرَاعٌ إِلَى الْعِتَّةِ ، بِطَالٍ
عَنِ السُّنَّةِ ، عُغِي عَنْ الْبِرَّهِانِ ، صُمُّ عَنْ الْعِرْفَانِ ، عَمِيْدَ الطَّمَعِ ، حُلْفَاءَ الْجَزَعِ ، نِعَمَ
مَا وَرَّثَكُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وَبئس ما تَوَرَّثُونَ أَبْنَاءَكُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ ، نَصَرَ اللَّهُ
آبَاءَكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَخَذَلَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، كَانَ عَدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعَدَدُكُمْ كَثِيرًا

(١) الخصاصية : الفقر . (٢) خازنكم . (٣) أى عادلين عنه منصرفين .

خيث ، اتبعتم الهوى ، فأزداكم ، واللهو فأفسهاكم ، ومواعظُ القرآن تزجركم
فلا تزدرجون ، وتعبركم^(١) فلا تعتبرون «
(العقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٢ - خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في ناشئٍ فِتنة^(٢) ، وقائدٍ ضلالة ، قد طال
جُثومها ، واشتدَّ عليك عُثُومُها ، وتلوَّنت^(٣) مصايدُ عدو الله فيها ، وما نصَّب من
الشرك لأهل الغفلة عمَّا في عواقبها^(٤) ، فلن يَهْدَ عمودها ، ولن يَنْزِعَ أوتادها ،
إلا الذى بيده ملك الأَشْيَاء ، وهو الله الرحمن الرحيم ، ألا وإن الله بقايا من عباده
لم يتحيروا في ظُلْمِها ، ولم يُشايِعوا أهلها على شُبهها ، مصاصيحُ النور في أفواههم تزهُو ،
وَأَلْسِنَتُهُمْ بِحُجَجِ الْكِتَابِ تَنْطِقُ ، رَكِبُوا مَنَهْجَ السَّبِيلِ ، وقاموا على العَلَمِ^(٥) الأعظم ،
هم خصماء الشيطان الرجيم ، بهم يُضْلِحُ اللهُ البلاد ، وَيَذْفَعُ عن العباد ، فطوبى لهم
وللمستصبحين^(٦) بتورمهم ، وأسأل الله أن يجعلنا منهم^(٧) . »

(العقد الفريد ٢ : ١٦٢)

-
- (١) المراد : تمظكم ، من العبارة ؛ ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذى فيها : « عبر
الدرهم : وزنها . » (٢) من إضافة الصفة للموصوف أى في فتنة ناشئة ، أى حية شابة .
(٣) تمددت وسمارت ذات ألوان : أى نصب العدو لنا المصايد ، ودبر المكائد للإيقاع بنا .
(٤) أى ولسنا منهم . (٥) العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستخفون في دعوتهم .
(٦) أى المستصبيين . (٧) ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب منى إسنادها ؛ وهى لأبي
حمزة كما في العقد الفريد .

٤٥٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان^(١) فقال :
« يا أهل المدينة : إنا خارجون لحرب مروان ، فإن نظهر نعدل في أحكامكم ،
ونحمِلكم على سنة نبيكم ، ونقسم بينكم فيكم ، وإن يكن ما تمنون لنا : فسيعلم
الذين ظلموا أيُّ مُتَقَلِّبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغاني ٢٠ : ١١٠ وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦١)

٤٥٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران^(٢) بن حطان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ،
فقال عمران : لبئس ما أدبك أدلك يا حجاج ! كيف أمِنتَ أن أجيبك بمثل
ما لقيتني به؟ أبعث الموت منزلةً أصانمك عليها؟ فأطرق الحجاج استجابةً وقال : خلوا عنه ،
فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع إلى حربه معنا ،
فقال : هيهات ! غلَّ يَدًا مُطْلِقُهَا ، وأسَرَ رَقَبَةً مُعْتَقُهَا .

(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

(١) وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام؛ واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ،
وأمره أن يمضي فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، ويقاوم عبد الله بن يحيى ، فساد إليهم ،
وخرج أبو حمزة للقائه ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حمزة ؛ وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه
هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بني العباس ، ثم سار ابن عطية إلى
اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

(٢) كان رأس القعد من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

الخطب الوعظية والوصايا

٤٥٥ - خطبة سبحان بن زفر الوائلي^(١) (توفي سنة ٥٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارٌ بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أهبها الناس : فخذوها من دار تمرِّكم لدار ممرِّكم ، ولا تهتكوا أمتاركم عند من لا تحفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، فيها حَيِّيم وانفيرا خَلِقم ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة ما قدم لله ؟ قدّموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم » .

(سرح العيون ص ٩٥)

(١) هو سبحان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في المصاححة والبيان ، فقيل : « أخطب من سبحان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموجزة ، على أنها ترمز إلى الإمام على - انظر نهج البلاغة ١ . ٢٦٠ - وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابياً خطبها بالبادية - تهذيب الكامل ١ : ٢٨ - وكذا ذكر أبو علي القائل - في الأمالي ١ : ٢٥٨ - وابن عبد ربه - في العقد الفريد ٢ : ١٦٤ - وأبو الفضل الميداني - في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ - والحصري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأمر المؤمنين على عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيره » - م ٣ : ص ٢ . وقد روى ابن نباتة في سرح العيون أنه قدم على معاوية وقد من خراسان ، فبهم سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلب سبحان فلم يوجد في منزله ، فانتضب من ناحية انتضابا ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ماتنحج ، ولاسل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فزال تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ؛ فأشار إليه سبحان أن لا تقطع كلامي ، فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعده ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سبحان : « والمعجم والجن والإنس » اه ، ولعل هذه الإطالة هي التي عاقت الرواة عن حفظ مايقول .

٤٥٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم في كَرِّ الجديدين^(١) ، ثم ارجعوها كلية عن بلوغ
الأمَل ، فإن الماضي عِظَةٌ للباقي ، ولا تجعلوا الفرورَ سبيلَ العجز عن الجدِّ ، فَيَنْقَطِعَ
حجبتكم في موقفِ الله سائِلُكم فيه ، ومحاسبُكم فيما أسلفتم ، أيها الناس : أمْسِ شَاهِدٌ
فاحذروه ، واليوم مؤدَّب فاعرفوه ، وغداً رسولٌ فأكرموه .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٥٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أيها الناس : اعملوا لله رغبةً ورهبةً ، فإنكم نبات نِباتِ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدِ نِعْمَتِهِ ،
ولا تفرس لكم الآمالُ ، إلا ما تجتنيه الآجالُ ، وَأَقْلُوا الرغبة فيما يورث العطبَ ،
فكل ما تزرعه العاجلةُ ، تَقْلَمُه الآجلةُ ، واحذروا الجديدين ، فهما يكرهان عليكم ،
إن عُقْبَى من بَقِيَ لِحُوقِ بَيْنِ مَضَى ، وعلى أثرٍ من سَلَفٍ ، يمضى من خَلْفٍ ،
فَتَرَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . »

(مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

(١) الجديدان : الليل والنهار .

٤٥٨ — خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرّد: حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبِلاغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ ، وَرَأَى رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبُّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدَكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ . »

(تهذيب الكمال ١ : ٢٧)

(١) هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقه مزاحا المبرّد إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كما ترى وروى الميداني في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

كلام الحسن البصرى

(المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٥٩ - خطبة له

قال الحسن البصرى رحمه الله ^(١) :

« يان آدم : بيع دنياك بأخرتك ترَبِحُهُمَا جَمِيعاً ، ولا تَبِعِ آخِرَتِكَ بِدُنْيَاكَ فَنَخَسِرَهَا جَمِيعاً . يان آدم : إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشرِّ فلا تَقْبِطْهُمْ عَلَيْهِ ، التَّوَاءُ ^(٢) هَاهُنَا قَلِيلٌ ، وَالْبَقَاءُ هُنَاكَ طَوِيلٌ ، أُمَّتُكُمْ آخِرُ الْأُمَمِ ، وَأَنْتُمْ آخِرُ أُمَّتِكُمْ ، وَقَدْ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟ الْمَعَايِنَةَ ؟ فَكَيْفَ أَنْ قَدْ هَبَّتْ هَيْهَاتَ لِدُنْيَاكُمْ بِجَاهِهَا ^(٣) ، وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ قَلَانِدَ فِي أَعْنَاقِ بَنِي آدَمَ . فَيَا لَهَا مَوْعِظَةٌ لَوْ وَافَقَتْ مِنَ الْقُلُوبِ حَيَاةً ! أَمَا إِنَّهُ وَاللَّهِ لَا أُمَّةَ بَعْدَ أُمَّتِكُمْ ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَا كِتَابَ بَعْدَ كِتَابِكُمْ ، أَنْتُمْ تَسُوقُونَ النَّاسَ وَالسَّاعَةَ تَسُوقُكُمْ ، وَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلَاكُمْ أَنْ يَلْحَقَهُ آخِرُكُمْ ، مِنْ رَأْيِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ رَأَاهُ غَادِيًا وَرَائِحًا ، لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ ، وَلَا فِصْبَةً عَلَى قِصْبَةٍ ، رُفِعَ لَهُ عِلْمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ ^(٤) ، فَالْوَحَاءُ الْوَحَاءُ ^(٥) »

(١) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتنسين

وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ وأصل بن عطاء شيخ المعتزلة . (٢) الإقامة .

(٣) أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى فهي حال وحالية : ليست الحلى ، والمعنى ذهب

بزخرفها الذى تزينت به الناس فأصلتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها »

وهو تحريف . (٤) وفى نسخة : « فها إليه » . (٥) الوحاء ويهد : المجلة والإسراع .

وَالنَّجَاءَ النِّجَاءَ ، عَلَامَ تَعْرِجُونَ ؟ أَرَيْتُمْ وَرَبَّ السَّعْيَةِ أَقْدَأُ سُرْعَ بَحْيَارِكُمْ : وَأَنْتُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَرْتَدُّونَ^(١) ، فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ ، اخْتِيارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَكَانَ صَفْوَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَرَسُولَهُ إِلَى عِبَادِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَوْضِعًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ^(٢) ، وَأَتَاهَا مِنْهَا قُوَّةً وَبُلْغَةً ، ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . فَرِغِبْ أَقْوَامٌ عَنْ عَيْشِهِ ، وَاسْتَخَطُوا مَا رَضِيَ لَهُ رَبُّهُ ، فَأَبَدَهُمُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُمْ^(٣) . »

يَا بَنِي آدَمَ : طَلَّ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ ، فَإِنَّهَا عَنْ قَائِلِ قَبْرِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَذِهِ عَمْرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمَّكَ . رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ فَنَفَسَكَرَ ، وَتَفَسَّكَرَ فَاعْتَبَرَ ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ ، فَقَدْ أَبْصَرَ أَقْوَامٌ وَلَمْ يَصْبِرُوا ، فَذَهَبَ الْجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُدْرِكُوا مَا طَلَبُوا ، وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى مَا فَارَقُوا .

يَا بَنِي آدَمَ : إِذْ كَرَّ قَوْلُهُ : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ^(٤) فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، أَفْرَأُ كِتَابَكَ ، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . » عَدَلٌ وَاللَّهُ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خَذُوا صِفَا الدُّنْيَا ، وَذَرُّوا كَدَّرَهَا ، فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدَّرَا ، وَلَا السَّكْدَرُ مَا عَادَ صَفُّوا ، دَعُوا مَا يُرِيْبِكُمْ إِلَى مَا لَا يَرِيْبِكُمْ ، ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَقَلَّتِ الْعُلَمَاءُ ، وَعَفَّتِ^(٥) السُّنَّةُ ، وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحَّيْتُ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ حَسْبَتُهُمْ إِلَّا قُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ الصَّدُورِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَاتِهِمْ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ^(٦) مِنْكُمْ - مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا عَلَيْهِمْ - ، وَكَانُوا فِيهَا أَحْلَى اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ، مَا لِي أَسْمَعُ حَسِيسًا ، وَلَا أَرَى

(١) أى تصيرون أردالا جمع رذل : وهو الدون الخسيس . (٢) أى موضعا ساميا .

(٣) أى أبددهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم . (٤) أى عمله يحمله فى عنقه ،

والتصير به لما كانوا يتيمينون ويتشامون بالطائر السانع والبارح ، استعير لما هو سبب الخير والشر .

(٥) بحيث . (٦) أخوف

أُنَيْسًا ، ذهب الناس وبقى النِسْناس^(١) ، لو تفكاشتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ، ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أَعِدُّوا الجواب ، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذ من قِبَلِ ربه ، إن هذا الحق قد جَهَّدَ أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عَرَفَ فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذمَّ الآخرة ، وليس بكره لقاء الله إلا مُقِيمٌ عَلَى سَخَطِهِ .

يا بن آدم : الإيمان ليس بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ، ولكنه ما وَقَّرَ في القلوب ، وصدَّقه العمل .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٨ وعيون الأخبار ٢ م ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦٩)

٤٦٠ - خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ^(٢) » قال :
عَمَّ أَلْهَأَكُم ؟ عن دار الخلود ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ^(٣) ، هذا والله فَصَّحَ القومَ ، وَهَتَكَ السُّتْرَ ، وأبدى العوارِ^(٤) ، تُنفِقُ مِثْلَ دِينِكَ فِي شَهْوَاتِكَ سَرَقًا ، وتمنع في حق الله دِرْهَمًا اسْتَعْلَمَ يَأْكُوعُ^(٥) ، الناس ثلاثة : مؤمن ، وكافر ، ومنافق ؛ فأما المؤمن : فقد أُلْجِمَهُ الخوفُ وَقَوْمَهُ ذِكْرُ العَرَضِ ؛ وأما الكافر : فقد قَمَعَهُ السيفُ ، وشرَّدهُ الخوفُ ، فأدَعَنَ بِالْجِزْيَةِ ، وَسَمَّحَ بِالضَّرْبِيَّةِ ؛ وأما المنافق : ففي الحُجْرَاتِ وَالطَّرِيقَاتِ ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُعْلَنُونَ ، وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ ، فاعتبروا إنكارهم ربهم ، بأعمالهم الخبيثة ، وبلك ؟ قنلتَ وليه ، ثم تمنَّيَ عليه جَنَّتَهُ ؟ .

(١) في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقى النسناس » قيل : فالنسناس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير النسناس كلام كثير ، منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوهم في أشياء ، وليسوا منهم .

(٢) التباهى بالكثرة . (٣) لا تنفى . (٤) العوار مثلث اليمين : العيب .

(٥) الكعج : التميم والأحقي .

٤٦١ — خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خلأ بكتاب الله ، فَعَرَّضَ عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أَعْتَبَ وأُنَابَ ، وراجع من قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظَ أخاه وأهله فقال : « يَا أَهْلِي : صَلَاتِكُمْ صَلَاتِكُمْ ، زَكَاتِكُمْ زَكَاتِكُمْ ، جِيرَانِكُمْ جِيرَانِكُمْ ، إِخْوَانِكُمْ إِخْوَانِكُمْ ، مَسَاكِينِكُمْ مَسَاكِينِكُمْ ، لِمَلِ اللهُ بِرُحْمِكُمْ ، فَإِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْتِى عَلَى عِبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ ، فَقُلْ : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . يَا بَنَ آدَمَ : كَيْفَ تَكُونُ مُسْلِمًا وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ جَارُكَ ، وَكَيْفَ تَكُونُ مُؤْمِنًا وَلَمْ يَأْمَنْكَ النَّاسُ ؟ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٦٢ — خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيبٍ هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصحح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ينبغي له أن يصلحهُ ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عمالك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئًا من الخير وإن صغر فإنك إذا رأيت سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئًا من الشر وإن صغر فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَسَبَ طَيِّبًا ، وَأَنْفَقَ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ فَضْلًا ، وَجَهَّوْا هَذِهِ الْقُضُولَ ^(١) حَيْثُ وَجَّهَهَا اللهُ ، وَضَعُوهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِنْ مِنْ كَانَ قَلْبُكُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاغَتِهِمْ ، وَيُؤَثِّرُونَ بِالْفَضْلِ ، أَلَا إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَضْرَبَ بِالدُّنْيَا فَفَضَحَهَا ، فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدَ ذُو لُبٍّ فِيهَا فَرَحًا ، فَإِذَا كُمْ وَهَذِهِ السَّبِيلُ الْمَتَفَرِّقَةُ ، الَّتِي جَمَاعُهَا الضَّلَالَةُ ، وَمِيعَادُهَا النَّارُ ، أَدْرَكْتُ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمًا كَانُوا إِذَا جَنَّتْهُمْ اللَّيْلُ فَقِيَامَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ خُدُودَهُمْ ، تَجْرِي دِمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يَبْتَاجُونَ مَوْلَاهُمْ فِي فِكَكَ رِقَابِهِمْ ، إِذَا عَمَلُوا الْحَسَنَةَ سَرَّهَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمْ ، وَإِذَا عَمَلُوا سَيِّئَةً سَاءَتْهُمْ ، وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ ، يَابْنَ آدَمَ : إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَلَيْسَ هَاهُنَا شَيْءٌ يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ يَكْفِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَالْقَائِلُ مِنَ الدُّنْيَا يَكْفِيكَ ، يَابْنَ آدَمَ : لَا تَعْمَلْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ رِيَاءً ، وَلَا تَتْرِكْهُ حَيَاءً .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٤ - خطبة أخرى

وكان يقول : « إِنْ الْعُلَمَاءُ كَانُوا قَدْ اسْتَفْتَوْا بَعْلَهُمْ عَنِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانُوا يَقْضُونَ بَعْلَهُمْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا لَا يَقْضِي أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ فِيهَا ، وَكَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَبْذُلُونَ دُنْيَاهُمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ رَغْبَةً فِي عِلْمِهِمْ ، فَأَصْبَحَ لِلْيَوْمِ أَهْلُ الْعِلْمِ يَبْذُلُونَ عِلْمَهُمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دُنْيَاهُمْ ، فَارْتَبَّ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ ، وَزَهَدُوا فِي عِلْمِهِمْ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ سُوءِ مَوْضِعِهِمْ عِنْدَهُمْ » ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا أَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُوَارِي

(١) جمع فضل : وهو الزيادة من المال وغيره .

غنى غناه ، ويُبْدِي لى فقره ، وَيُعَلِّقُ دونى بابه ، ويعتنى ما عنده ، وأدع
من يفتح لى بابه ، ويُبْدِي لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٥ - خطبة أخرى

وكان يقول : « يا بن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك
من الآخرة أفقر ، مؤمن مُهْتَمٌّ ، وَعِلْجِ اغْتَمِّ ، وأعرابى لا فقه له ، ومنافق مكذَّب ،
ودنياوى^(١) مُتَرَفٍّ ، نَعَقَ بهم ناعق فاتبعوه ، فَرَّاشُ نارٍ^(٢) ، وَذِبَّانُ طَمَعٍ ، والذى نَفَسُ
الحسن بيده ، ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن
راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بَلَاءٌ صاروا إلى
حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أى قوم : إن نعمة الله عليكم
أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ،
ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الحماة من همه . »

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٦ - خطبة أخرى

وقال فى يوم فِطْرٍ - وقد رأى الناس وهيتائهم - : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان
مِضْماراً لخلقهِ ، يَسْتَبِقُونَ فيه بطاعته إلى مَرَضَاتِهِ ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون
خفاوا ، فالعَجَبُ من الضاحك اللاعب ، فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه
المبطلون ، أما والله أن لو كُشِفَ الغطاء ، أشْغِلَ محسن بإحسانه ، ومُؤْسَى بِإِسْأَاتِهِ ،
عن ترجيل^(٣) شِعْرٍ ، أو تجديد نوب .

(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

(١) نسبة إلى دنيا . (٢) أى هم كالقراش يتهاقت على النار يحسبها نافعة له فتحرقه .
(٣) وفى رواية الكامل للمبرد : « ترطيل بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن ومكسره وإرخاؤه وإرساله .

٤٦٧ - مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما ولى عُمر بن هُبَيْرَةَ الفَزَارِيَّ العِراقَ - وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك - استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِيَّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيدَ خَلِيفَةُ اللَّهِ ، استخلفهُ على عبادِهِ ، وأخذَ علمهم الميثاقَ بطاعته ، وأخذَ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولَّاني ما تَرَوْنَ ، فيكتبُ إلىَّ بالأمر من أمرِهِ ، أعرفُ في تنفيذِهِ المَلَكَةَ ، فأخافُ إن أطمعتهُ غِصَبَ اللَّهِ ، وإن عصيته لم آمَنَ سَطَوْتُهُ ، فما تَرَوْنَ ؟ فقال ابن سيرين والشَّعْبِيُّ قولاً فيه تَفَيُّهُ ، وكان ابن هُبَيْرَةَ لا يستثني دن أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال : « يا ابن هبيرة : خَفِ اللَّهَ في يزيدَ ولا تخَفِ يزيدَ في اللَّهَ ، إن اللَّهَ يمنَعُكَ من يزيدَ ، وإن يزيدَ لا يمنَعُكَ من اللَّهَ ، وأوشك أن يبعثَ إليك مَلَكًا ، فيزِيلُكَ عن سريرِكَ ، ويخرجُكَ من سَعَةِ قِصْرِكَ ، إلى ضيقِ قَبْرِكَ ، ثم لا يُنْجِيكَ إلا عَمَلُكَ ، يا ابن هبيرة : إن تَعَصَى اللَّهَ ، فإنما جعلَ اللَّهُ هذا السلطانَ ناصراً للدينِ اللَّهَ وعبادِهِ ، فلا تَرَكِبَنَّ دينَ اللَّهِ وعبادِهِ بسطانِ اللَّهِ ، فإنه لا طاعةَ لمخلوقِ في معصيةِ الخالقِ » .

وفي رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يُوشِكُ أن يزلَ بِكَ مَلَكٌ من ملائِكَةِ اللَّهِ فَظَّ غَلِيظٌ ، لا يَعِصِي اللَّهَ ما أمرَهُ ، فيخرجُكَ من سَعَةِ قِصْرِكَ ، إلى ضيقِ قَبْرِكَ ، فلا يُغْنِي عَنْكَ ابن عبد الملك شيئاً ، وإني لأرجو أن اللَّهَ عزَّ وجلَّ سيعصِمُكَ من يزيدَ ، وإن يزيدَ لا يمنَعُكَ من اللَّهَ ، فاتقِ اللَّهَ أيها الأميرُ ، فإنكَ لا تأمنُ أن ينظرَ اللَّهُ إليك ، وأنتَ على أفتحِ ما تكونُ عليه من طاعةِ يزيدَ ، نظرةً يَمُقَّتُكَ بها ، فيُمَلِّقُ عَنْكَ بابَ الرَّحْمَةِ ، واعلمُ أني أخوفُكَ ما أخوفُكَ اللَّهُ سبحانه حينَ يقولُ : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وإذا كنتَ مع اللَّهَ عزَّ وجلَّ في طاعتهِ كما كُنتَ بَوَاتِقِ^(١) يزيدَ ، وإن كنتَ مع يزيدَ على معصيةِ اللَّهِ وكَلَّكَ اللَّهُ إلى يزيدَ حينَ لا يُغْنِي عَنْكَ شيئاً » .

(١) جمع بائقة وهي اللداهية .

فبكي عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسَفْنَا^(١) له فَسَفَسَفَ لنا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار ٢ م : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٦٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو - وكان والياً على البصرة - الحسن البصري يوماً ، فقال : يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خالق الدنيا وما فيها من رباشها^(٢) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فقال الحسن :

« أبا الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجحت^(٣) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يُعْطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيتها ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّرَ له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالاته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مهيئاً ، وحدد له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسالك طريقته ، ونعمل بسنته ، فإلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فلعليتنا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب نخرجنه ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها » :

(١) سفسف عمله : لم يبلغ في إحكامه . (٢) الرياش : الالباس الفاخر والمال والخصب والمعاش .

(٣) أى ملت إليها ، من ترجمت به الأرجوحة : مالت .

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لننحِبَ ربنا ، فقال الحسن :
 « لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه :
 « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » فجعل سبحانه أتباعه صلى الله
 عليه وسلم علما للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق الله أيها الرجل في نفسك ،
 وإثم الله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك في مكانك ، يعقلون المنابر ، وتهتز لهم المراكب
 ويحزرون الذيول بطراً ورياء الناس ، يبنون المدر^(١) ، ووثرون الأثر^(٢) ، ويتنافسون
 في النياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربههم ،
 ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التغابن^(٣) ، ويا ويحهم - يوم يفر المرء من أخيه
 وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .
 (الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٠)

٤٦٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أيدك الله ، إن أخك من نصحك في دينك ، وبصرك عيوبك ،
 وهداك إلى مرادك ، وإن عدوك من غرك ومناك ، أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحت
 مخالفا للقوم في الهدى والسيره ، والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتمني الأمانى ،
 وترجع في طلب العذر ، والناس أصلحك الله طابان ، فطالب دنيا ، وطالب
 آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتمب الآخر واخترم^(٤) ،

(١) المدر : قطع الطين اليابسة ؛ والمراد يبنون القصور . (٢) استأثر على أصحابه : اختار
 لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة بالضم والكسر ، والجمع أثر
 كفرصة وفرص . (٣) غينه في البيع يغينه ، والتغابن : أن يغيب بعض القوم بعضا ، وسمى يوم القيامة
 يوم التغابن لأن أهل الجنة تغيب أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا . (٤) هلك .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني ، وترك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكماً قال :

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سفاها بكأس الموت ساقبها
نعوذ بالله من الحوز بعد الكوز^(١) ، ومن الضلالة بعد الهدى ، لقد حدثت أيها الأمير
عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أميناً ، وعلى
أعمالهم معيناً » . (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥١)

٤٧٠ - مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسطة

وروى أن الحجاج بنى داراً بواسطة^(٢) ، وأحضر الحسن ليرأها ، فلما دخلها قال :
« الحمد لله : إن الملوك يروون لأنفسهم عزاً ، وأنا آنزى فيهم كل يوم عزيراً ، بعمد
أحدهم إلى قصر فبشيده ، وإلى فرش فينجدده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب فيحسبها ،
ثم يحفُّ به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا ما صنعت ! فقد
رأينا أيها الغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك ،
وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغررت في دار
الغرور ، لتذلَّ في دار الحيود ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على
العلماء ، كيبيدئذً للناس ولا يكتمونونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل الشام أيشتمني
عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو
يمرك شفتيه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : يا أبا سعيد ، أما كان لإمارتي
عليك حق ، حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله أيها الأمير ، إن من خوك حتى

(١) الحوز : النقصان ، والكوز : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نعوذ بالله من الحوز بعد
الكوز » أي من النقصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من كوز العمامة وهو
لفها وجمعها . (٢) واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .
(٣) التنجيد : التزيين ، والتنجاد : الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

تبلغ أَمْنِكَ أرفقُ بك وأحبُّ فيك من أَمْنِكَ حتى تبلغ الخوف، وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فاقبل الأوتى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحباه ، وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « فَأَمَّا بِالْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْدِسِي » عَلِمُ عَلَى وَعُثْمَانُ عِنْدَ اللَّهِ قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية^(١) وعَلَفَ بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحجاج فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عِنْدَ كُرْبَتِي ، ويا صاحِبِي عِنْدَ شِدَّتِي ، ويا رَأِيَّ نِعْمَتِي ، ويا إلهِي وإلهَ آبَائِي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته ، واصرف عني أذاه » ففعل ربي عز وجل .

ز الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٣ ، والنية والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأما السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٧١ — صفة الإمام العادل^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام المادل قوام كل مائل ، وقصد^(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(٤) كل مظلوم ، ومفزع كل مالهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد

(١) طيب . (٢) أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامها في سلك اللوصايا .

(٣) هداية ورشاد . (٤) اسم من الإنصاف .

لها أطيب الرعى ، ويذودها عن مرائع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر وأقر^(١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسقى لهم صيفاً ، ويملمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويذخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، نسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارةً ، وتقطعه أخرى ، وتفرح بهافيته ، وتقمّ بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى ، وخازن المساكين ، برّبي صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويربهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تسكن يا أمير المؤمنين فيما مأكلك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفزق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتله من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فترود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحبائك ، يسئلونك في قبره فريداً وحيداً ، فترود له ما يصحبك يوم يقرئ المرء من أخيه ، وأبوه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتابات لا يُعادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد

(١) مثلث القاف : البرد .

الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يَرْتَقِبُونَ في مؤمنٍ إلا^(١) ولا ذِمَّةً ، فنبؤء بأوزارك ، وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يفرتك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في تجمّع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنّت^(٢) الوجوه للحى الميثوم ، إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بمظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي ، فلم آلك^(٣) شفقةً ونصحةً ، فأنزل كتابي إليك كدأوى حبيبته ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما ير جوله في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »
(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٦)

٤٧٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلى يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكأن الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو كائن قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقت تمجيل مرارته ، فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الموى ، وإن أذاقت طعم حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة » .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

(١) عهدا . (٢) خضعت وذلك . (٣) لم أقصر .

٤٧٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وَ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : ا كْتُبْ إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِذَمِّ الدُّنْيَا ، فَ كَتَبَ إِلَيْهِ :

«أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظنن^(١) وانتقال ، وليست بدار إقامةٍ على حال ، وإنما أنزل إليها آدمُ عقوبةً ، فاحذرْها فإن الراغب فيها تارك ، والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدها تذل من أعزها ، وتفرق من جمعها ، فهي كالسَّمِّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حَتْفُهُ ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداري جراحه ، يحمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، الصبرُ على لآوائها^(٢) ، أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرْها ولم يفتقر بزینتها ، فإنها غدارة ختالة^(٣) خداعة ، قد ترضت بآمالها ، وتزينت لخطأها ، فهي كالعروس ، العيون إليها نظرة ، والقلوب عليها وآله^(٤) ، وهي - والذي يمث محمداً بالحق - لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها ، واحذر عثرتها ، فالرِّخاء فيها موصول بالشدّة والبلاء ، والبقاء مؤدّا إلى الهلكة والفناء .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيتها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفتوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موقف ، وللتمسك بها هالك غرق ، والفتن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذر ، وقدّر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ؛ الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يفتقر من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداري جراحه ، يصبر على مرارة الدواء ، لما يرجو من

(٢) شنتها .

(١) ارتحال .

(٤) من الوله بالتحريك : وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

(٣) خداعة .

للعافية ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الدَّارِ ، وَالدُّنْيَا وَيَأْمُرُ اللهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حُطْمَ ، وَالْآخِرَةَ
يَقْفُظَةً ، وَالْمُتَوَسِّطَ بَيْنَهُمَا الْمَوْتَ ، وَالْعِبَادَ فِي أَصْفَاتِ أَحْلَامِ ، وَإِنِّي قَاتِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَا قَالَ الْحَكِيمُ :

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخْلَاكَ نَاجِيًا .
وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابَهُ إِلَى عَمْرِ ، بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَقَالَ :
يَرْحَمُ اللهُ الْحَسَنَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يُوقِظُنَا مِنَ الرَّقَدَةِ ، وَيُنَبِّئُنَا مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَاللهِ هُوَ مِنْ
مُشْفِقِي مَا أَنْصَحَهُ ! وَوَاعِظِي مَا أَسَدَقَهُ وَأَفْصَحَهُ !

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٢١)

٤٧٤ - كلمات حكيمة للحسن البصرى

وقال : احذر من نقل إليك حديث غيرك ، فإنه سينقل إلى غيرك حديثك .
أيها الناس : إنكم لا تتألمون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تُدركون ما تأملون
إلا بالصبر على ما تكرهون . الصبر صبران : صبرٌ عند المصيبة ، وصبرٌ عن المعصية ،
فن قدّر على ذلك فقد نال أفضل الصبرين . أفضل الجهاد جهاد الهوى . لا تكن ممن
يجمع علم العلماء وحكم الحكماء ، ويمجى في الحق مجرمى الشفهاء . من خاف الله أخاف
الله سبحانه منه كل شيء ، ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة
ما طأ ابن آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بمد ذلك لوثاب . احذروا
العابد الجاهل ، والعالم القاسق ، فإن فيهما فتنة لكل مفتون . ترك الخطيئة أهون
من معالجة التوبة . لا تكن شاة الراعى أعقل منك ، تزجرها الصيحة ، وتطردھا
الإشارة . المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان ، بأسر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ،
وإنما يتبدل المفاق ليستأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسرّه علانيته ،
ومشهدّه مخفيته . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله

والذكر من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشرية ما استعمل التسوية ، واتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح في الأمانى . الحق مُرٌّ لا يصبر عليه إلا من عرف حسن العاقبة ، ومن رجا الثواب خاف العقاب حادوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور^(١) ، واقدعوا^(٢) هذه النفوس ، فإنها طلّمة^(٣) ، وإنسكم إلا تزعوها^(٤) تنزع بكم إلى شر غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمذك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليالك إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الناس صراخاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رزق نعمة فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لو قت الليل حتى ينحني ظهرك ، وصمت النهار حتى يستقم جسمك ، لم يذمك ذلك إلا بورع صادق . وسمع رجلاً يكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أمسك عليك لسانك . فقد قيل : ما شيء أحق بسجن من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب خلق الله إلى الله فأنسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل) ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذل .

وقال : « يا عجبا لِقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ، فليت شعري ! ما الذى ينتظرون ؟ » وقال : اجعل الدنيا كالتنظرة : تجوز عليها ، ولا تممرها ، وقال : ليس العجب بمن عطب كيف عطب ، إنما العجب بمن نجا كيف نجا ، وقال : « من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحرص على العلم ، وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبر في استقامة ، وفقه في يقين ، وكسب في حلال . » (الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ - ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى ١ : ١١٠-١١١ . وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ . وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

(١) دثور القلوب : امحاء الذكر منها . (٢) كفوها واكبحوها . (٣) نفس طلّمة :

تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » . (٤) وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية :

٤٧٥ - خطبة واصل بن عطاء^(١) المنزوعة الرأ

الحمد لله القديم بلا غاية ، والبقاى بلا نهاية ، الذى علا فى دُنُوهُ ، ودنا فى عُلُوِّهِ ،
فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يثُوده^(٢) حِفْظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالِ
سبق ، بل أنشأ ابتداعا ، وَعَدَّله اصطناعا ، فأحسن كل شيء خلقه ، وتمم مشيئته ،
وأوضح حكيمته ، فدل على ألوهيَّته ، فسبحانه لَمُعَقَّب^(٣) الحُكْمه ، ولا دافع لقضائه ،
تواضع كل شيء لعظمته ، وذلَّ كل شيء لسلطانه ، ووسيع كل شيء فضله ، لا يعزُّب
عنه مثقالُ حَبَّة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، إلهًا تقدَّست
أسماءه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ،
فلا تبلُغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول ولا الأذهان ، يُعصَى فيحلم ، وَيُدعى فيسمع ،
ويقبل التوبة من عباده ، وَيَغفُو عن السيِّئَات ، وَيَعْلَم ما تفعلون ، وأشهد شهادةَ حق ،
وقولَ صدق ، بإخلاصٍ نيَّة ، وِصْحَة طَوِيَّة ، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه ، وخالصته^(٤)
وصفيَّه ، اجتمعه إلى خلقه بالبينَّة والهدى ودين الحق ، فبأنَّ مَأْلُكته^(٥) ، ونصح لأمته ،
وجاهد فى سبيل الله ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يصدّه عنه زعم زاعم ، ماضيا
على سنته ، مؤفيا على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصلى الله على محمد ، وعلى آل محمد

(١) هو أبو حليفة واصل بن عطاء شيخ المعتزلىن ، وأحد الأئمة المعكلمين ، وكان يبلغ
بالراء ، فيجعلها غينا ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
والى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتجل
هذه الخطبة وعراها من حرف الرأ ، وأبدع فى القول :

ففضل عبد الله خطبة واصل وضوعف فى قسم الصلوات له الشكك

(والشكك بالضم : العطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . (٢) يثقله ، آده أودا (كنصر) بلغ
منه المجهود . (٣) لا راد له . (٤) هذا الشيء خالصته لك : أى خاصة . (٥) المألكة : بضم
اللام وتفتح : الرسالة .

أفضل وأزكى ، وأتم وأمّى ، وأجل وأعلى صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائكته ، وأضام ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعته ، والجانبية لمصيته ، وأحضكم على ما يذنبكم منه ، ويُرْزَلْكُمْ لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معادٍ ، ولا تلهيَنَّكم الحياة الدنيا بزِينَتِهَا وخُدَعِهَا ، وفَوَاتِنِ لَذَاتِهَا ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، ومُدَّةٌ إلى حين ، وكل شىء منها يزول ، فكم عابتم من أعاجيبها ، ولم نصبْتْ لكم من حباثلها ، وأهلكت من جنح إليها ، واعتمد عليها إذا قهتهم خلواً ، ومزجت لهم سماً ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأرثقوا الأبواب ، وكاثقوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملَكُوا البلاد ، واستخدموا التلاد ، قبضتهم بحماها^(١) ، وطحنهم بكلسكلها^(٢) ، وعرضهم بأنبيائها ، وعاضتهم من السمّة ضيقاً ، ومن العِزَّةِ ذُلًّا ، ومن الحياة فناءً ، فسكنوا اللحد ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لا ترى إلا مَسَا كِفَتَهُمْ ، ولا تجد إلا مَعَالِمَهُمْ ، ولا تُحِسُّ مِنْهُمْ من أحد ، ولا تسمع لهم نبساً ، فتزودوا عاقاكم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلمكم تفلحون ، جعلنا الله وإياكم بمن ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظّه وسعادته ، ومن يستمع القول فيتبع أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا نُبِّلَ عليكم فأنصتوا له ، وأنسموا لعلمكم تفلحون ، أعوذ بالله القوي ، من الشيطان الغوى ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ثم قال :

(١) الحمل : شقان على البعير يحمل فيهما العنيلان ، والمراد احتوت عليهم .

(٢) الكسكل : الصدر .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وَالوحي المبين ، وَأعاذنا وإياكم من العذاب
الآليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم .
(مفتاح الأفكار ص ٢٧٠)

٤٧٦ - وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابدلوا نداءكم ، وَكفوا إذاكم ،
وَاعفوا إذا قَدَرتم ، ولا تَبْخلوا إذا سُلِّتم ، فإن خير المال ما أفاد جِداً ، أو نَفَى ذِماً ،
ولا يَقْوَان أحدكم : ابدأ بمن تعولُ ، فإنما الناس عِيَالُ الله ، قد تكفل الله
بأرزاقهم ، فن وَسَّعَ أخلفَ الله عليه ، وَمَن ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللهُ عليه .
(الأمال ٢ : ٣٢)

٤٧٧ - وصية عبد الله بن شداد لابنه^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابناً له يقال له محمد ، فقال :
« يا بُنَيَّ ، إني أرى داعِيَ الموت لا يُقْلِع ، وَأرى من مَضَى لا يرجِع ، ومن بقي
فإليه يَنْزِع^(٢) ، وَإني موصيك بوصية فاحفظها ، عليك بتمقوى الله العظيم ، وليكن
أولى الأمور بك شُكْرُ الله ، وَحَسْنُ النية في السِّرِّ والعَلانية ، فإن الشُّكْرَ يزداد ،
والتقوى خيرُ زاد ، وَكن كما قال الحطيئة :

وَلستُ أرى السعادةَ جَمَعَ مالٍ ولكنَّ التَّيِّبَ هو السعيدُ
وَتَقوى اللهِ خيرُ الزادِ ذُخْراً وعندَ اللهِ للأنبيِّ مزيدُ
وَمَا لا بُدَّ أن يَأْتِيَ قَريبٌ ولكنَّ الذي يمضي بَعِيدُ

(١) هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة اللبثي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث على

الحجاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجماجم ، اقتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . (٢) يشناه .

ثم قال : أئى بُنَى ، لاتزهدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، وَالأيام
ذات نواب ، على الشاهد وَالغائب ، فكم من راغبٍ أصبح مطلوباً مالمديه ، واعلم
أن الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبَ الزمان يَرِ المهوان ، وَكن أئى بُنَى كما قال
أبو الأسود الدؤلى :

وَعُدُّ من الرحمن فَضْلاً وَنِعْمَةً عليك ، إذا ماجاء للعرْفِ طالبٌ^(١)
وإن امرأ لا يُرْتَجَى الخيرُ عنده يكن هَيْبَةً ثِقْلاً على مَنْ يصاحبُ
فلا تمننَ ذا حاجةٍ جاء طالباً فإنك لاتدرى متى أنت راغبٌ
رأيتُ التوا هذا الزمانِ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوابُ^(٢)

ثم قال : أئى بنى ، كن جواداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
الخلق ، فإن أحمدَ جود المرء الإنفاقُ فى وجه البرِّ ، وإن أحمدَ بُخلُ الحرِّ الضنُّ^(٣)
بمكتوم السرِّ ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أجودُ بمكنون التلاد ، وإننى بسرِّك عمن سألنى لَصينٌ^(٤)
إذا جازز الإثنين سرٌّ فإنه بذتُّ ، وتكثير الحديثِ قينٌ^(٥)
وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتنى مكانُ بسوداءِ الفوادِ مَسكينٌ^(٦)

ثم قال : أئى بنى ، وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن
السكريم يحتمل ، والدنى عيالٌ^(٧) ، وكن أحسنَ ماتكون فى الظاهر حالا ، أقلُّ

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اوج .

(٣) الضمن بالسكر والضمانة بالفتح : البخل . (٤) سال يسال من باب خاف لغة فى سأل

المهموز ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

(٥) نت الحديث : أفشاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الإثنين للضرورة .

(٦) سوداء الفواد ؛ وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حبه . (٧) العيال جمع عيل كجيد :

وهو ما يلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) .

ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاق^(١) نعمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدي^(٢) :

وَجَدْتُ أَبِي قَدْ أَوْرَثَهُ أَبُوهُ خِلَالاً قَدْ تَمَدُّهُ مِنَ الْمَعَالِي^(٣)
فَأَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيَّ نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَجْمَلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
وَإِنْ نِلْتُ النِّعَى لَمْ أَغْلُ فِيهِ وَلَمْ أُخْصُصْ بِجَفَوَاتِي الْمَوَالِي^(٤)

ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك إن أمضيتها حياً لها^(٥) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وَمَا مِنْ شَيْبَتِي شَمُّ ابْنِ عَمِّي وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مِنْ يَرْتَجِمِينِي
وَكَكَلِمَةِ حَاسِدٍ فِي غَيْرِ جُرْمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مُرِّي فَأَقْدِينِي^(٦)
فَمَا بُوَاهَا عَلَيَّ وَلَمْ تَسُوْنِي وَلَمْ يَعْزَقْ لَهَا يَوْمًا جَبِينِي
وَذَوَالْوَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيْقًا وَبَلِسَ إِذَا تَغَيَّبَ يَا تَلِينِي^(٧)
سَمِعْتُ بِمَيْبِهِ فَصَفَحْتُ عَنْهُ مُحَافِظَةً عَلَيَّ حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا نواخ امرأ حتى تعاشره ، وتتمقده موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٨) ، فواخه على إقالة المثرة ؛ والمواساة فى المصرة ، وكن كما قال المقنع الكندي :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمْ فَمَا لَهُمْ وَتَفَقَّدِ

(١) الفقر . (٢) هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . (٣) بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد . (٤) الموالى جمع مولى : وهو هنا القريب . (٥) قد حيااله وبجيااله : بإزائه ، أى إن تركتها تجرى فى مجراها . (٦) نفذهم : جازهم . (٧) ائتل : قصر ، أى لا يقصر فى نهش عرضى . (٨) الخبر والخبرة بكسر الحاء فيهما ، ويضمان : العلم بالشئ كالإختبار .

فَإِذَا ظَنَرْتِ بَدَى الْأَبَابَةُ وَالْتَمَقِي فَبِهِ الْيَدَيْنِ (قَرِيرَعَيْنِ) نَاشِدُ^(١)
وَإِذَا رَأَيْتِ (وَلَا مَحَالَةَ) زَلَّةً فَوَلِي أَخِيكَ بِفَضْلِ حِدِّكَ فَارْزُدِي

ثم قال : أى بنى ، إذا أَحْبَبْتَ فَلَا تُفْرِطِ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تُشْطِطِ^(٢) ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ
يُقَالُ : أَحْبَبَ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا ، وَأَبْغَضَ بَغِيضَكَ
هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَّا ، وَكَانَ قَالَ هُدْبَةُ بْنُ الْخَشْرَمِ الْعُدْرِيُّ :

وَكَانَ مَعْقِلًا لِلْحَلِمِ وَأَصْفَحَ عَنِ الْخَلْفَاءِ فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا حَبِيبَتِ وَسَامِعُ^(٣)

وَأَحْبَبَ إِذَا أَحْبَبْتَ حَبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتِ نَازِعُ^(٤)

وَأَبْغَضَ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتِ رَاجِعُ

وَعَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ ، وَكَانَ كَمَا
قَالَ الشَّاعِرُ :

أُحْسِبُ الْأَخْيَارَ وَارْغَبُ فِيهِمْ رَبُّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرْبِ

وَدَعِ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَأْمْتَ فَاشْتِمِيْ ذَا حَسَبِ

إِنَّ مَنْ شَأْمَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ^(٥)

وَأَصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبْ

(الأمال ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧ ، ١٢٨)

(١) لب من باب تمب ؛ وفي لغة كقرب مع الفتح في المضارع لبابة : أى صار ذا لب بانضم وهو المعقل . (٢) شط في حكمة . وأشط : جار . (٣) المعقل : اللجأ ، والخنا : الفحش .
(٤) نزع عن الشيء : انتهى عنه . (٥) الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : النحاس .

٤٧٨ - وصية أسماء بن خارجة لابنته^(١)

زَوْجِ اسْمَاءِ بْنِ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هَذَا مِنْ الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةً
أَرَادَ الْبِنَاءَ بِهَا ، قَالَ لَهَا اسْمَاءُ : « يَا بِنْتِي ، إِنْ الْأُمَمَاتِ يُؤَدِّبْنَ الْبَنَاتِ ، وَإِنْ أُمَّكَ
هَلَكْتَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ الْحُسْنِ الْكُحْلِ ، وَإِيَّاكَ
وَكثيرة العاتية ، فإنها قطيعة لودّ ، وإياك والغيرة ، فإنها يفتح الطلاق ، وكوني لزوجك
أمةً ، يكن لك عبداً ، واعلمى أنى القائل لأُمَّكَ :

خدى العفو مَنِ تَسْتَدِي مَوَدِّي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ^(٢)
وَلَا تَنْقُرِي نَفْرَةَ اللَّفِّ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغْيِبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحَبُّ يَذْهَبُ
(الأغاني ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٧٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وخرج الزُّهْرِيُّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيتُ كالِيومَ ،
وَلَا سَمِعْتُ كَأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، تَكَلَّمَ بِهِنَ رَجُلٌ عِنْدَ هِشَامٍ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ، فِيهِنَّ صَلاَحٌ مُلْكِكَ ، وَاسْتِقَامَةٌ
رِعْيَتِكَ . قَالَ : وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « لَا تَمُدَّ عِدَّةَ لَا تَتَّقُ مِنْ نَفْسِكَ . إِنْجَازَهَا ، وَلَا يَفْرُقَنَّكَ
الْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا إِذَا كَانَ الْمُتَحَدِّرُ وَعُزًّا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ جِزَاءٌ ، فَاتَّقِ
الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَقَعَاتٍ ، فَكُنْ طَلِي حَدَرًا . »

قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث الهدي ، وفي يده لقمة قد رفعها إلى فيه ،

(١) أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوجز ، وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته

(٢) السورة : الحدة .

فأمسكها ، وقال : وَيَحْكُ ! اَعِدْ عَلَيَّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين اسبغ^(١) لقمتهك ، فقال :
حديثك أعجبُ إليَّ .

(زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٨٠ - وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكاتب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٢) رسالة إلى الكاتب يوصيهم فيها ، قال :
« أما بعدُ حفظكم الله بأهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن
الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد
الملك المكرمين أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرّفهم في صنوف الصناعات ،
وضروب المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب
في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ،
وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للعالم سلطانهم ، وتعمر بلادهم ، لا يستغنى
الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ، فوقعكم من الملك موقع أسماءهم التي
بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وأستنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي
بها يبيطشون ، فأتممكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه^(٣)
من النعمة عليكم .

وليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة
المعدودة منكم أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثقُ به في مهمات أموره ، أن
يكون حليماً في موضع الحلم ، فهِمياً في موضع الحكمة ، مقدماً في موضع الإقدام ، مُجِجاً
في موضع الإحجام ، مؤثراً للعفاف ، والمدلل والإنصاف ، كقولاً للأسرار ، وقيماً عند

(١) ابتلع . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء

الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ . (٣) أسبغ .

الشَّدَائِدِ ، عالماً بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، وَالطَّوَارِقِ أَمَا كُنْهَا ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحْكَمَهُ ، فإن لم يُحْكِمْهُ ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بغيره عتله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيمُدُّ لكل أمر عُدَّتَهُ وَعَتَادَهُ ^(١) ، ويهيئ لكل وجه هينته وعادته ، فتدافسوا ، يا معشر الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف ^(٢) ألسنتكم ، ثم أجيّدوا الخطَّ ، فإنه حليّة كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعِينٌ لَكُمْ على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تصبّغوا النظر في الحساب ، فإنه قوام كُتَابِ الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيئِهَا ^(٣) ، ودنِيئِهَا ، وسَفَسَافِ ^(٤) الأمور ومحقرها ، فإنها مدلّة للرّقاب ، مفسدة للكتّاب ، ونزّهوا صناعتكم عن الدفءات ، وأزبثوا ^(٥) بأنفسكم عن السّعاية والنّميمية ، وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم وَالْكِبْرَ وَالصَّلَفَ وَالْعِظْمَةَ ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابثوا في الله عزَّ وجلَّ في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليقُّ بأهل الفضل والمدل والنّيل من سلفكم

وإن نبأ الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب ^(٦) إليه أمره ، وإن أقدم أحدكم الكِبْرَ عن مَكَّابِهِ ولفاء إخوانه ، فزُوروه وعظّموه وشارروه ، واستظهروا ^(٧) بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عرّضت في الشغل محمّدة ، فلا يضيفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرّضت مدّمة ، فليحملها

(١) للعتاد : العدة . (٢) الثقاف في الأصل : ماتسوى به الرماح . (٣) ريفيها .

(٤) الردىء من كل شيء . (٥) ربأ : علا وارتفع . (٦) يرجع . (٧) تقووا .

هو من دونه ، وليحذر السَّقطةَ والزَّلَّةَ ، والمَلَلُ عند تَمييزِ الحال ، فإن العيبَ إليكم معشرَ الكتاب ، أسرعُ منه إلى الفِرَاءِ ، وهو لكم أفسدُ منه لها .

فقد علمتُم أن الرجلَ منكم إذا صحَّبه الرجلُ ، يَبْذُلُ له من نفسه ما يجب له عليه من حقِّه ، فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وقائِهِ ، وشكركه ، واحتماله ، وصبره ، ونصيحتِهِ ، وكتِّمان سرِّه ، وتدبير أمره ، ما هو حَزَّاءُ لِحَقِّهِ ، ويصدِّقُ ذلك بفعاله عند الحاجةِ إليه ، والاصطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا إذا كنتم - وفقكم الله من أنفسكم - في حالة الرخاء والشدة والحِرمان والمواساة والإحسان ، والسرِّاء والصرِّاء ، فنفعت الشَّيْمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعات الشريفة ، فإذا وُلِّيَ الرجلُ منكم ، أو صيِّرَ إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثِرَ طاعته ، وليكن على الضميف رقيقاً ، وللمظلوم مُنصِفاً ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبُّهم إليه أرقُّهم بعِياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مُكْرِماً ، وللقِيءَ موقِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية مُتألِّفاً ، وعن إيذائهم منخفياً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سِجِّلاتِ خِراجِهِ واستقضاءِ حقوقِهِ رقيقاً ، وإذا صحَّبَ أحدكم رجلاً فليختبر خلانته ، فإذا عَرَفَ حَسَنها وقبيحها ، أعانها على ما يوافقها من الحَسَن ، واحتمل لصرْفِهِ عما يهواه من القبيح ، بأطف حيلة ، وأجل وسيلة ، وقد علمتُم أن سائس الهيمة إذا كان بصيراً بسرائرِها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً^(١) لم يَهْجِها إذا رَكِبها ، وإن كانت شَبُوباً^(٢) انتقاها من قِبَلِ يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً توقَّأها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرُوناً قَمَعَ برفقِ هواها في طريقها ، فإن استمرَّت عطفها يسيراً ، فيتسلسل له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والسكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعتِهِ ، ولطيف حيلتِهِ ، ومعاملتِهِ لمن يجاوره

(١) رمحه الفرس كنعج : رمسه . (٢) شب الفرس كضرب ونعر : رفع يديه .

من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أرى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم
وَدَه ، من سائس البهيمة التي لا تُحِير^(١) جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ،
إلا بقدر ما يُصَيِّرُها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فأمِنُوا رَحِمَكُمُ اللهُ في النظر ،
وَأَعْمَلُوا فِيهِ ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتهموه الفموة ،
والاستفقال والجفوة ، وَيَصِيرُ^(٢) منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى اللواخاة والشفقة ،
إن شاء الله تعالى .

ولا يجازنَّ الرجل منكم - في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومركبته ، ومطعمه ،
ومشربه ، وبنائه^(٣) وخدمته وغير ذلك من فنون أمره - قدر حقه ، فإنكم - مع ما فضلكم
الله به من شرف صنعتكم - خدمة لا تُحْمَلُونَ في خدمتكم على التقصير ، وحفظه
لا تُحْتَمَلُ منكم أعمال التضييع والتبذير ، واستعينوا على هفائكم بالقصد في كل ما ذكرته
لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما
يُمَقِّبان الفقر ، وَيُذِلَّان الرقاب ، وَيَفْصَحان أهلها ، ولا سيما الكناب ، وأرباب
الآداب ، والأُمور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤنتف^(٤) أعمالكم
بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أروخها بحجة : وأصدقها حجة
وأحدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتتافَةً ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ،
فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ،
ولياخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لعمله ، ومدفمة للتشاغل عن إكثاره ،

(١) لا ترد . (٢) تأمنوا ؛ مجزوم في جواب الأمر ، أو بمباراة أخرى جواب لشرط محذوف مع
فعل الشرط أي إن تعملوا . . . تأمنوا ؛ ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب
والرفع كما هو مشهور . فقول بعضهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ » مردود .
(٣) بني على أمه ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . (٤) مبتدأ .

وَلْيَضْرَعِ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَٰةٍ تَوَفِيْقَهُ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةً وَقَوْعَهُ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدْبِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا ، أَوْ قَالَ قَائِلًا : إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صِنْعَتِهِ ، وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حَيْلَتِهِ ، وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلُ لِإِمْبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مِنْ رَحْمِي بِالْمُعْجَبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنْ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْغَرِيبَيْنِ أَنْ يَمْرِفَ فَضْلَ نِعْمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْؤُهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَكَاثُرٍ عَلَى أُخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَدُّ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ وَالتَّدَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : « مَنْ يَلْزَمِ النَّصِيْحَةَ ^(١) يَلْزَمِهِ الْعَمَلُ » وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ؛ فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَّمْتُهُ بِهِ ، تَوَلَّيْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكِتَبَةِ ، بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .
(صَبِيْحُ الْأَعْمَى ١ : ٨٥)

(١) فِي نَسْخَةِ : « الصَّحَّة » ، وَذَكَرَ الْجَاحِظُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ (٢ : ٤٦) أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ كَلَامِ الْأَحْمَفِ السَّائِرِ فِي أَيْدِي النَّاسِ .

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٨١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبيل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نيبانة ابن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نيبانة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثاها ، فلدارآم أهل خراسان هابوم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوم لعدلم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانزع سلطانهم وساط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واستزقوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون

(١) هو أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصوراً من عند إبراهيم الإمام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

(٢) من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . (٣) وكان قحطبة قبل ذلك قد تبعاً لقتال تميم بن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هاربا ، وتفرق عنه أصحابه ، فسار إلى نيبانة بن حنظلة بجرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، فمات بها كذا .

المظلوم ، ثم بدّلوا وغيّروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرِّ والتقوى من عِثْرَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالثأر ، وقد عهد إليَّ الإمام^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدَّة ، فينصرم الله عز وجل عليهم ، فتهمزموهم وتقتلونهم .

وقد قرى على قحطبة كتابُ أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهض عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرك ، فإذا ظهرت عليهم ، فأنخن في القتل » فالتقوا في مستهل ذي الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٨٢ - خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، وللعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمامُ أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالتقوا بجِد واحْتساب ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيَّة إلى أبي مسلم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

(١) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يعلمه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو للدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحميمة (كجبيته) حيث يقم إبراهيم فيشده وثاقا ، فحمل إلى مروان فحبسه في حران ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام خاف أخواه السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأخل لهم أبو سلمة الخلال دارا بالكوفة ، وكتب أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على يفي العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبيع بها سنة ١٣٢ هـ .

استدراك على الجزء الأول

سقطت هذه الخطبة سهوا في أثناء الطبع فأوردناها هنا

خطبة السيدة عائشة حين أنبتت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة ريد المدينة ، فلما كانت بسرف أنبتت بقتل عثمان ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحِجْرَ فسترت فيه ، واجتمع إليها الناس فقالت :

« أيها الناس : إن الفوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنته ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحيى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طيباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا نخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من درنه ، إذ ماصوه^(١) كما يماص الثوب بالماء . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

(١) الموص : غسل لين ولذلك باليد .

سقط من هامش ص (٣٠) ما يأتى :

جاء في مقال الحسن بن علي رضى الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٣٠ : « وإن حداق في الزنا ثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه . » وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فاتهمه أبو بكر - أخو زياد - هو ونفر معه بأنه زنى بأمة جميل بنت الأرقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فمزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعري - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل المغيرة وأبو بكر ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه مأتى إلا امرأته ، وكان اليهود عليه : أبا بكر ، وشبل بن معبد البجلي ، ونافع بن كلفة ؛ وزيادا ، فبدأ عمر بأبي بكر ، فشهد عليه أنه زنى بأمة جميل ، وشهد شبل ونافع بمثل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فنجاه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ » فقال المغيرة : اشفى من الأصب . فقال : أسكت ، أسكت الله نامتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرحمتك بأحبارك .

انتهى الجزء الثانى

ويليه

الجزء الثالث وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا

العصر العباسى الأول

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	٧	
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	٧	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية		
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٩	٢
مقال عدى بن حاتم	٩	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	١٠	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	١١	٥
خطبته في الصلح بينه وبين معاوية	١٢	٦
خطبة له بعد الصلح	١٢	٧
خطبة لمعاوية في أهل الكوفة	١٤	٨
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	١٤	٩
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٥	١٠
خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح	١٦	١١

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم للصفحة
خطبة له في عهد خلافته	١٢	١٧
» أخرى له	١٣	١٨
مخاصمة ومهاجاة		١٩
بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بمحاضرة معاوية		
مقال عمرو بن العاص	١٤	٢١
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٥	٢١
» عتبة بن أبي سفيان	١٦	٢٢
» المغيرة بن شعبة	١٧	٢٢
رد الحسن بن عليّ عليهم	١٨	٢٢
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضي الله عنهما	١٩	٣١
مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه		
تأبيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة		
نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضي الله عنهما	٢٠	٣٥
بعثة مسلم بن عقيل إلى الكوفة		
خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري	٢١	٣٧
» النعمان بن بشير	٢٢	٣٧
» عبید الله بن زياد	٢٣	٣٨
» أخرى له	٢٤	٣٩
» كثير بن شهاب	٢٥	٣٩
» عبید الله بن زياد	٢٦	٤٠

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة		
نصيحة ابن عباس له	٢٧	٤٢
« أبى بكر بن عبد الرحمن المخزومى اه	٢٨	٤٤
خطبة عبید الله بن زياد	٢٩	٤٥
« للحسين رضى الله عنه	٣٠	٤٦
« أخرى له	٣١	٤٦
« » »	٣٢	٤٧
« زهير بن القين البجلي	٣٣	٤٧
« للحسين أيضاً	٣٤	٤٨
خطبته ليلة قتله	٣٥	٤٩
رد أهل بيته عليه	٣٦	٥٠
« أصحابه	٣٧	٥٠
خطبته غداة يوم قتله	٣٨	٥١
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٩	٥١
خطبته وقد دنا منه القوم	٤٠	٥٢
خطبة أخرى	٤١	٥٢
« زهير بن القين	٤٢	٥٤
« الحر بن يزيد	٤٣	٥٦
طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه		
خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٤	٥٨
خطبة رفاعة بن شداد	٤٥	٥٩
« سليمان بن صرد	٤٦	٦٠
« خالد بن سعد بن نفيل	٤٧	٦١
« سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٨	٦٣

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي	٤٩	٦٢
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٥٠	٦٣
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥١	٦٥
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥٢	٦٦
رد المسيب بن نجبة .	٥٣	٦٦
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٤	٦٧
خطبة سليمان بن سرد	٥٥	٦٨
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٦	٦٨
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٧	٦٨
رأى ابن سرد	٥٨	٦٩
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٩	٧٠
» سليمان بن سرد	٦٠	٧٠
» أخرى له	٦١	٧١
» »	٦٢	٧٢
» عبد الملك بن مروان	٦٣	٧٣
طلب المختار بن أبي عبيد التقي بدم الحسين رضي الله عنه		٧٤
خطبته حين قدم الكوفة	٦٤	٧٤
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٥	٧٥
خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٦	٧٦
رد السائب بن مالك	٦٧	٧٧
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٨	٧٨
» أخرى له	٦٩	٧٨
» محمد بن الحنفية	٧٠	٧٩
» المختار	٧١	٧٩

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٨٠	٧٢
« المختار في دار لإبراهيم بن الأشتر	٨١	٧٣
« يزيد بن أنس الأسدي	٨٢	٧٤
« عبد الله بن مطيع	٨٢	٧٥
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٨٣	٧٦
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٨٣	٧٧
« المختار بعد هرب ابن مطيع	٨٤	٧٨
« « وقد استنصره ابن الحنفية	٨٥	٧٩
« « وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٨٧	٨٠
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٨	٨١
—————		
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام -	٩٠	٨٢
عبد الله بن عباس ومعاوية	٩١	٨٣
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية	٩٤	٨٤
« ابن عباس	٩٥	٨٥
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لابن عباس	٩٥	٨٦
« ابن عباس	٩٦	٨٧
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لبني هاشم	٩٧	٨٨
« ابن عباس	٩٧	٨٩

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

مقال معاوية	٩٠	٩٨
د ابن عباس	٩١	٩٩
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً	٩٢	٩٩
عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان	٩٣	١٠٠

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

جواب ابن عباس	٩٤	١٠١
مقال عمرو بن العاص	٩٥	١٠٢
جواب ابن عباس	٩٦	١٠٢
مقال مروان بن الحكم	٩٧	١٠٣
جواب ابن عباس	٩٨	١٠٤
مقال زياد	٩٩	١٠٥
جواب ابن عباس	١٠٠	١٠٥
مقال عبد الرحمن بن أم الحكم	١٠١	١٠٦
جواب ابن عباس	١٠٢	١٠٦
مقال المغيرة بن شعبة	١٠٣	١٠٧
جواب ابن عباس	١٠٤	١٠٧
مقال يزيد بن معاوية	١٠٥	١٠٨
جواب ابن عباس	١٠٦	١٠٩
مقال معاوية	١٠٧	١٠٩
جواب ابن عباس	١٠٨	١٠٩

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

مقال ابن عباس	١٠٩	١١١
---------------	-----	-----

الخطبة أو اللوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
رد ابن العاص	١١٠	١١٢
عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضا	١١١	١١٣
عمرو بن العاص وابن عباس	١١٢	١١٤
مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس	١١٣	١١٤
ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم		
مقال ابن الزبير	١١٤	١١٩
» » عباس	١١٥	١٢٠
—————		
خطبة عبد الله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بني هاشم	١١٦	١٢٠
» ابن الزبير يتنقص ابن عباس	١١٧	١٢٣
رد ابن عباس عليه	١١٨	١٢٥
عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص	١١٩	١٢٧
الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص	١٢٠	١٢٩
الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم	١٢١	١٣٠
عقيل بن أبي طالب ومعاوية	١٢٢	١٣١
خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام	١٢٣	١٣٤
خطبة السيدة زينب بنت علي عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٤	١٣٦
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٥	١٣٩
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٢٦	١٤٠
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٢٧	١٤٥
قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية		
مقال معاوية	١٢٨	١٤٥
رد قيس بن سعد	١٢٩	١٤٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٤٦	١٣٠
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٤٨	١٣١
» » » وعبد الله بن عباس	١٥٠	١٣٢
» » » ورجل من بني فزارة	١٥٤	١٣٣
رجل من آل صوحان يجبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٥٥	١٣٤
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٥٦	١٣٥
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٥٧	١٣٦

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٥٩	١٣٧
» معاوية	١٥٩	١٣٨
» ابن الزبير	١٦٠	١٣٩
» معاوية	١٦٢	١٤٠

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٦٤	١٤١
عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٦٥	١٤٢
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٦٨	١٤٣
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٦٩	١٤٤
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٧٣	١٤٥
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٧٤	١٤٦
» لما بلغه قتل مصعب	١٧٥	١٤٧
خطبة أخرى له	١٧٧	١٤٨
خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق	١٧٧	١٤٩

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٥٠	١٧٨
خطبته يوم قتله	١٥١	١٧٩
خطبة أخرى	١٥٢	١٨٠
» مصعب بن الزبير	١٥٣	١٨١

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٥٤	١٨٢
خطبة أخرى له بالمدينة	١٥٥	١٨٣
» له بالمدينة	١٥٦	١٨٣
خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة السكوفة	١٥٧	١٨٤
خطبة له في يوم صائف	١٥٨	١٨٥
آخر خطبة له	١٥٩	١٨٥
خطبته وقد حضرته الوفاة	١٦٠	١٨٥
وصيته لابنه يزيد	١٦١	١٨٧

خطب يزيد بن معاوية

خطبته بعد موت معاوية	١٦٢	١٨٩
خطبة أخرى له	١٦٣	١٨٩
» معاوية بن يزيد	١٦٤	١٩٠
وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز	١٦٥	١٩١

خطب عبد الملك بن مروان

خطبته بمكة	١٦٦	١٩٢
------------	-----	-----

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة له موجزة	١٦٧	١٩٢
خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص	١٦٨	١٩٣
» لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير	١٦٩	١٩٤
» عام حججه	١٧٠	١٩٥
» وقد علم بخروج ابن الأشعث	١٧١	١٩٦
وصيته لبعض أمرائه	١٧٢	١٩٧
» للشعبي	١٧٣	١٩٧
» لأخيه عبد العزيز بن مروان	١٧٤	١٩٨
» لولده عند وفاته	١٧٥	١٩٨
<hr/>		
خطبة للوليد بن عبد الملك	١٧٦	١٩٩
» لسليمان بن عبد الملك	١٧٧	٢٠٠
خطب عمر بن عبد العزيز		
أولى خطبه	١٧٨	٢٠١
خطبة له بالمدينة	١٧٩	٢٠١
خطبة أخرى	١٨٠	٢٠٢
خطبة أخرى	١٨١	٢٠٣
» »	١٨٢	٢٠٤
» »	١٨٣	٢٠٤
» »	١٨٤	٢٠٥
» »	١٨٥	٢٠٥
» له يوم عيد	١٨٦	٢٠٦
» أخرى	١٨٧	٢٠٦
» »	١٨٨	٢٠٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	١٨٩	٢٠٧
» »	١٩٠	٢٠٨
» »	١٩١	٢٠٨
» »	١٩٢	٢٠٨
» »	١٩٣	٢٠٩
» »	١٩٤	٢١٠
» »	١٩٥	٢١٠
» »	١٩٦	٢١١
آخر خطبة له	١٩٧	٢١١
نص آخر	١٩٨	٢١٢
كلامه في مرضه الذي مات فيه	١٩٩	٢١٣
مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج	٢٠٠	٢١٤
تأيينه ابنه عبد الملك	٢٠١	٢١٧
—————		
خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد	٢٠٢	٢١٨
وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه	٢٠٣	٢١٩
خطبة عتبة بن أبي سفيان		
خطبة له في تهدد أهل مصر	٢٠٤	٢٢٠
» » في تقريرهم وتهدهم	٢٠٥	٢٢١
» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية	٢٠٦	٢٢١
خطبته فيهم وقد منعوا الخراج	٢٠٧	٢٢٢
» فيهم إذ طعنوا على الولاية	٢٠٨	٢٢٢
» بمكة	٢٠٩	٢٢٣
» في علقته التي مات فيها	٢١٠	٢٢٤
وصيته لمؤدب ولده	٢١١	٢٢٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وصية سعيد بن العاص لابنه	٢١٢	٢٢٥
خطب عمرو بن سعيد الأشدق		
خطبة له بالمدينة	٢١٣	٢٢٨
» » بمكة	٢١٤	٢٢٩
ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية	٢١٥	٢٣٠
خطبته حين غلب على دمشق	٢١٦	٢٣١
—————		
خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	٢١٧	٢٣٢
خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان	٢١٨	٢٣٣
نصيحة لعمرو بن عتبة بن أبي سفيان	٢١٩	٢٣٤
تأديب معاوية لجلسائه	٢٢٠	٢٣٤
كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه	٢٢١	٢٣٤
تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله	٢٢٢	٢٣٥
طلب معاوية البيعة ليزيد		
خطبة الضحاك بن قيس الفهري	٢٢٣	٢٣٧
» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	٢٢٤	٢٣٨
» ثور بن معن السلمى	٢٢٥	٢٣٩
» عبد الله بن عصام الأشعري	٢٢٦	٢٤٠
» عبد الله بن مسعدة الفزاري	٢٢٧	٢٤٠
» عمرو بن سعيد الأشدق	٢٢٨	٢٤١
» الأحنف بن قيس	٢٢٩	٢٤٢
» الضحاك بن قيس	٢٣٠	٢٤٢
» الأحنف بن قيس	٢٣١	٢٤٣
» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	٢٣٢	٢٤٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة معاوية	٢٤٤	٢٣٣
يزيد بن المقنع	٢٤٥	٢٣٤
الأحنف	٢٤٥	٢٣٥
معاوية	٢٤٦	٢٣٦
عبد الله بن عباس	٢٤٧	٢٣٧
عبد الله بن جعفر	٢٤٧	٢٣٨
عبد الله بن الزبير	٢٤٨	٢٢٩
عبد الله بن عمر	٢٤٨	٢٤٠
معاوية	٢٤٩	٢٤١
مروان بن الحكم	٢٥٠	٢٤٢
معاوية	٢٥١	٢٤٣
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٥١	٢٤٤
خطبة معاوية	٢٥٣	٢٤٥
الحسين	٢٥٥	٢٤٦
معاوية	٢٥٧	٢٤٧
عبد الله بن عمر	٢٥٧	٢٤٨
معاوية	٢٥٨	٢٤٩
عبد الله بن الزبير	٢٦٠	٢٥٠
معاوية	٢٦١	٢٥١
تهنئة وتعزية		
خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٦٣	٢٥٢
عطاء بن أبي سفيان الثقفى	٢٦٤	٢٥٣
عبد الله بن مازن	٢٦٤	٢٥٤
غيلان بن مسلمة الثقفى	٢٦٥	٢٥٥

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده	٢٥٦	٢٦٦
» وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه	٢٥٧	٢٦٧
» وقد استلحقه معاوية	٢٥٨	٢٦٩
» حين ولي البصرة (وهي البتراء)	٢٥٩	٢٧٠
» بالكوفة وقد ضمت إليه	٢٦٠	٢٧٤
خطبة أخرى له بالكوفة	٢٦١	٢٧٥
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٦٢	٢٧٥
خطبة أخرى له	٢٦٣	٢٧٦
» »	٢٦٤	٢٧٦
وصية لزياد	٢٦٥	٢٧٧
ما كان يقوله لمن ولاه عملا	٢٦٦	٢٧٧
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٧	٢٧٨
خطبته عند موت معاوية	٢٦٨	٢٧٩
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٩	٢٨٠
» عبید الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	٢٧٠	٢٨١
رد معاوية على ابن زياد	٢٧١	٢٨٣
مقال يزيد بن معاوية	٢٧٢	٢٨٤
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٧٣	٢٨٥

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبة بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٤	٢٨٧
خطبته بعد قتل ابن الزبير	٢٧٥	٢٨٧

رقم الصفحة رقم الخطبة الخطبة أو الوصية

خطبته حين ولي العراق	٢٧٦	٢٨٨
» وقد سمع تكبيراً في السوق	٢٧٧	٢٩١
» وقد قدم البصرة	٢٧٨	٢٩٢
» بعد وقعة دير الجماجم	٢٧٩	٢٩٣
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٨٠	٢٩٥
» له بالبصرة	٢٨١	٢٩٥
» أخرى له بالبصرة	٢٨٢	٢٩٦
خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية	٢٨٣	٢٩٧
خطبة أخرى	٢٨٤	٢٩٧
خطبته لما مات عبد الملك بن مروان	٢٨٥	٢٩٨
» حين أُرلِد الحِج	٢٨٦	٢٩٨
» لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد	٢٨٧	٢٩٩
» وقد أرجف أهل العراق بموته	٢٨٨	٣٠٠
خطبة له في الوعظ	٢٨٩	٣٠١
» أخرى	٢٩٠	٣٠٢
» »	٢٩١	٣٠٢
» »	٢٩٢	٣٠٣
» »	٢٩٣	٣٠٣

خطب قتيبية بن مسلم الباهلي

خطبته يحث على الجهاد وقد تهباً لغزو طخارستان	٢٩٤	٣٠٤
» وقد تهباً لغزو بلاد السغد	٢٩٥	٣٠٥
» وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة	٢٩٦	٣٩٦
» حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك	٢٩٧	٣٠٧
خطبة أخرى	٢٩٨	٣١٠

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة أخرى	٣١٠	٢٩٩
»	٣١١	٣٠٠
كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم	٣١٢	٣٠١
<hr/>		
خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس	٣١٤	٣٠٢
نص آخر لخطبة طارق	٣١٦	٣٠٣
خطبة عثمان بن حيان المرثي	٣١٦	٣٠٤
وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد	٣١٨	٣٠٥
نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه	٣٢٠	٣٠٦
خطب خالد بن عبد الله القسري		
خطبته بمكة بدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة	٣٢١	٣٠٧
خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد	٣٢٢	٣٠٨
خطبته بمكة في الحججاج	٣٢٢	٣٠٩
» في الحث على مكارم الأخلاق	٣٢٣	٣١٠
» يوم عيد	٣٢٤	٣١١
قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه	٣٢٤	٣١٢
<hr/>		
خطبة يوسف بن عمر الثقفي	٣٢٤	٣١٣
خطبة له	٣٢٥	٣١٤
خطب الفتن والأحداث		
فتنة المدينة ووقعة الحرة		
خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري	٣٢٦	٣١٥
» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام	٣٢٧	٣١٦
» مسلم يحرضهم	٣٢٧	٣١٧

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة ابن حنظلة يمحرض أصحابه	٣٢٨	٣٢٨

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣١٩	٣٢٩
» أخرى له	٣٢٠	٣٣٠
» عمرو بن حريث	٣٢١	٣٣١
» عمرو بن مسمع	٣٢٢	٣٣١
خطبة الأحنف بن قيس	٣٢٣	٣٣٢
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣٢٤	٣٢٤
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣٢٥	٣٣٦

خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج	٣٢٦	٣٣٧
خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة	٣٢٧	٣٣٨
» » »	٣٢٨	٣٣٨
خطبة سعيد بن المجالد	٣٢٩	٣٣٩

فتنة ابن الأشعث

خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٣٠	٣٤٠
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٣١	٣٤٠
خطبة عامر بن وائلة السكتاني	٣٣٢	٣٤١
» عبد المؤمن بن شيبث بن ربيع	٣٣٣	٣٤٢
» ابن الأشعث بالمربد	٣٣٤	٣٤٢
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٣٥	٣٤٣
عامر الشعبي والحجاج	٣٣٦	٣٤٤
أيوب بن القرية والحجاج	٣٣٧	٣٤٤
كلمة لابن القرية	٣٣٨	٣٤٨

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٩	٣٤٩
يزيد بين يدي الوليد	»	٣٤٠
مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبدالعزيز	»	٣٤١
يزيد بن المهلب يمرض أصحابه على القتال	»	٣٤٢
أخرى له	»	٣٤٣
»	»	٣٤٤
الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب	»	٣٤٥
مروان بن المهلب	»	٣٤٦

خطب الأحنف بن قيس التميمي

الأحنف ومعاوية	٣٤٧	٣٥٦
»	»	٣٤٨
أيضاً	»	٣٤٩
قوله في مدح الوالد	٣٤٩	٣٥٨
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٥٠	٣٥٨
نصيحته لقومه	٣٥١	٣٥٨
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٥٢	٣٥٩
كلمات حكيمة للأحنف	٣٥٣	٣٦٠
صفية بنت هشام المنقرية تؤذ بن الأحنف	٣٥٤	٣٦١

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية	٣٥٥	٣٦٣
وفد أهل العراق على معاوية ، وفهم الأحنف	٣٥٦	٣٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة زياد	٣٥٧	٣٦٤
» معاوية	٣٥٨	٣٦٥
» الأحنف بن قيس	٣٥٩	٣٦٥
وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٦٠	٣٦٥
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٦١	٣٦٩
وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٦٢	٣٦٩
وفود العرب ومعاوية	٣٦٣	٣٧١
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٦٤	٣٧٢
» زيد بن منية على معاوية	٣٦٥	٣٧٣
» ضرار بن حمزة الصدائى على معاوية	٣٦٦	٣٧٤

الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية	٣٦٧	٣٧٥
» أم سنان بنت خيثمة على معاوية	٣٦٨	٣٧٨
» بكاره الهلالية على معاوية	٣٦٩	٣٨٠
» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية	٣٧٠	٣٨١
أم البراء بنت صفوان ومعاوية	٣٧١	٣٨٤
دارمية الحجونية ومعاوية	٣٧٢	٣٨٥
—————		
شداد بن أوس ومعاوية	٣٧٣	٣٨٧
معاوية ورجل من أهل سبأ	٣٧٤	٣٨٨
حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان	٣٧٥	٣٨٩
حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية	٣٧٦	٣٩٠
حديث عرابه بن أوس بن حارثة مع معاوية	٣٧٧	٣٩١
سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية	٣٧٨	٣٩٢

الخطبة أو التوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
مصقلة بن هيرة ومعاوية	٣٧٩	٣٩٣
روح بن زنباع ومعاوية	٣٨٠	٣٩٣
مخاضمة أبي الأسود الدؤلى وامراته بين يدى زياد بن أبيه	٣٨١	٣٩٤
صورة أخرى	٣٨٢	٣٩٥
وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير	٣٨٣	٣٩٨
كلام خطيب الأزدي بين يدى عبد الملك بن مروان	٣٨٤	٣٩٨
سؤال عبد الملك للحجاج وما أجابه به	٣٨٥	٣٩٩
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان	٣٨٦	٣٩٩
قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك	٣٨٧	٤٠٢
وفود ممالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٣٨٨	٤٠٣
» كعب الأشقرى على الحجاج	٣٨٩	٤٠٤
سليمان بن سلكة والحجاج	٣٩٠	٤٠٥
جامع الحارثي والحجاج	٣٩١	٤٠٦
ليلي الأخيلى والحجاج	٣٩٢	٤٠٧
الغضبان بن القبيص والحجاج	٣٩٣	٤١٢
ابن القرية يعدد مساوى المزاح	٣٩٤	٤١٤
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٣٩٥	٤١٥
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٣٩٦	٤١٦
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٣٩٧	٤١٧
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٣٩٨	٤١٨
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٣٩٩	٤١٩
خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنته	٤٠٠	٤٢٠
خطبة عبد الله بن الأهم	٤٠١	٤٢٠
مقام محمد بن كعب القرظي بين يدى عمر بن عبد العزيز	٤٠٢	٤٢٢
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٤٠٣	٤٢٢

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٤٠٤	٤٢٤
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٤٠٥	٤٢٦
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٤٠٦	٤٢٧
خطبة السكيت بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٤٠٧	٤٢٨
مخاصمة عدى بن أرطاة لا مرأته عند شريح القاضي	٤٠٨	٤٣٢
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٠٩	٤٣٣
خطبة دينار	٤١٠	٤٣٤
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤١١	٤٣٤
خطب الخوارج وما يتصل بها		٤٣٥
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤١٢	٤٣٥
أثمار الخوارج		٤٣٧
مقال المستورد بن علفة	٤١٣	٤٣٧
» حيان بن ظبيان	٤١٤	٤٣٧
» معاذ بن جوين	٤١٥	٤٣٨
خطبة المغيرة بن شعبة	٤١٦	٤٣٨
» صعصعة بن صوحان	٤١٧	٤٣٩
» المستورد بن علفة	٤١٨	٤٤١
» معقل بن قيس الرياحي	٤١٩	٤٤٢
كلمات حكيمة للمستورد	٤٢٠	٤٤٢
أثمار الخوارج ثانية		٤٤٣
خطبة حيان بن ظبيان	٤٢١	٤٤٣
» معاذ بن جوين	٤٢٢	٤٤٣

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
رد حيان بن ظبيان	٤٢٣	٤٤٤
مقال عتريس بن عرقوب	٤٢٤	٤٤٤
رد حيان	٤٢٥	٤٤٥
خطبة حيان	٤٢٦	٤٤٥
مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة	٤٢٧	٤٤٦
خطب المهلب بن أبي صفرة		٢٤٨
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤٢٨	٤٤٨
خطبة أخرى له في جنده	٤٢٩	٤٤٩
نص آخر	٤٣٠	٤٤٩
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٣١	٤٥٠
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٣٢	٤٥١
عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار	٤٣٣	٤٥٢
نصيحة عرهم العدوي لخالد بن عبد الله	٤٣٤	٤٥٣
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٣٥	٤٥٤
عبد ربه الصغير	٤٣٦	٤٥٨
صالح بن مسرح	٤٣٧	٤٥٩
أخرى له	٤٣٨	٤٦٠
»	٤٣٩	٤٦١
زائدة بن قدامة	٤٤٠	٤٦٢
الحجاج بن يوسف	٤٤١	٤٦٢
أخرى للحجاج	٤٤٢	٤٦٣
شبيب بن يزيد الشيباني	٤٤٣	٤٦٣
عتاب بن ورقاء	٤٤٤	٤٦٤
الحجاج	٤٤٥	٤٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى	٤٤٦	٤٦٥

خطب أبي حمزة الشارى

خطبته حين دخل المدينة	٤٤٧	٤٦٧
خطبة أخرى له	٤٤٨	٤٦٨
خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيبون أصحابه	٤٤٩	٤٦٩
خطبة أخرى	٤٥٠	٤٧٦
خطبته فى سب أهل المدينة وتقريرهم	٤٥١	٤٧٨
خطبة أخرى	٤٥٢	٤٨٠
خطبته حين خرج من المدينة	٤٥٣	٤٨١
عمران بن خطان والحجاج	٤٥٤	٤٨١

الخطب الوعظية والوصايا

خطبة سحبان بن زفر الوائلى	٤٥٥	٤٨٢
» معاوية	٤٥٦	٤٨٣
» عبد الملك بن مروان	٤٥٧	٤٨٣
» لعمر بن عبد العزيز	٤٥٨	٤٨٤

كلام الحسن البصرى

خطبة له	٤٥٩	٤٨٥
» أخرى	٤٦٠	٤٨٧
» »	٤٦١	٤٨٨
» »	٤٦٢	٤٨٨
» »	٤٦٣	٤٨٩
» »	٤٦٤	٤٨٩
» »	٤٦٥	٤٩٠

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٩٠	٤٦٦	خطبة أخرى
٤٩١	٤٦٧	مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة
٤٩٢	٤٦٨	مقام الحسن البصرى عند النضر بن عمرو
٤٩٣	٤٦٩	مقام آخر له عند النضر
٤٩٤	٤٧٠	مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التى بناها بواسط
٤٩٥	٤٧١	صفة الإمام العادل
٤٩٧	٤٧٢	موعظته لعمر بن عبد العزيز
٤٩٨	٤٧٣	موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
٤٩٩	٤٧٤	كلمات حكيمة للحسن البصرى
٥٠١	٤٧٥	خطبة واصل بن عطاء
٥٠٣	٤٧٦	وصية عبد الملك بن مروان لبنى أمية
٥٠٣	٤٧٧	» عبد الله بن شداد لابنه
٥٠٧	٤٧٨	» أسماء بن خارجة لابنته
٥٠٧	٤٧٩	رجل ينصح لهشام بن عبد الملك
٥٠٨	٤٨٠	وصية عبد الحميد بن يحيى السكاك للكتاب

الصراع بين الأموية والعباسية

٥٠٩	٤٨١	خطبة فحطبة بن شبيب الطائى
٥١٠	٤٨٢	» أخرى له

استدراك على الجزء الأول

٥١١	٤٨٣	خطبة السيدة عائشة حين أنبثت بقتل عثمان
-----	-----	--

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع اتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أم البراء بنت صفوان : ٣٨٤	(١)
أم سنان بنت خيثمة : ٣٧٨	لإبراهيم بن الأشتر : ٨٣
السيدة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ١٣٤	لإبراهيم بن محمد بن طلحة : ٦٦ - ٣٩٩
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٩	أبو الأسود الدؤلي : ٣٩٤
أيوب بن القرية : ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٤٤٤	أبو بكر بن عبد الرحمن : ٤٤
(ب)	أبو بكر الهذلي : ٤٠٢
بكاره الهلالية : ٣٨٠	أبو حازم الأعرج : ٤١٧ - ٤١٨
بلال بن أبي بردة : ٤١٦	أبو حاضر الأسدي : ٣٩٨
(ث)	أبو حمزة الشاري : ٤٦٧ - ٤٦٨ -
ثور بن معن السلمى : ٢٣٩	٤٦٩ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٨٠ -
(ج)	٤٨١
جامع المحاربي : ٤٠٦	أبو صخر الهذلي : ١٧٣
(ح)	الأحنف بن قيس : ٢٤٢ - ٢٤٣ -
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ - ٢٨٨ -	٢٤٥ - ٣٣٢ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -
٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٥ -	٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٣ -
٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ -	٣٦٤
٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ -	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب : ٣٨١
٤٠٢ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤	أسماء بن خارجة : ٥٠٧

الحر بن يزيد : ٥٦

الحسن البصرى : ٤٨٥ — ٤٨٧

٤٨٨ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٤٩١

٤٩٢ — ٤٩٣ — ٤٩٤ — ٤٩٥ — ٤٩٧

٤٩٨ — ٤٩٩

الحسن بن علي رضي الله عنه : ٧ — ٦

١٠ — ١١ — ١٢ — ١٤ — ١٦ — ١٧

١٨ — ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٠

الحسين بن علي رضي الله عنه : ٤٥

٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥١

٥٢ — ١٣٩ — ٢٥٥

حيان بن ظبيان : ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٤٣

٤٤٤ — ٤٤٥

(خ)

خالد بن سعد بن نقييل : ٦١

خالد بن صفوان : ٤٠١ — ٤٠٢ — ٤٢٠

٤٢٤ — ٤٢٦ — ٤٢٧

خالد بن عبد الله بن أسيد : ٢٣٣

خالد بن عبد الله القسرى : ٣٢١ —

٣٢٢ — ٣٢٣ — ٣٢٤

خالد بن يزيد : ٢٣٢

الخيار بن أوفى النهدي : ٣٩٠

(د)

دارمية الحجونية : ٣٨٥

دغفل بن حنظلة : ٣٦٥ — ٣٦٩

دينار : ٤٣٤

(ذ)

ذكوان : ١٥٩

(ر)

رفاعة بن شداد : ٥٩

روح بن زنباع : ٣٣٤ — ٣٣٦ — ٣٩٣

(ز)

زائدة بن قدامة : ٤٦٢

الزبير بن علي : ٤٥١

زهير بن القين البجلي : ٤٧ — ٥٤

زياد بن أبيه : ١٠٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٩

٢٧٠ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٣٦٤

زيد بن منية : ٣٧٣

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها :

١٣٦

(س)

السائب بن مالك : ٧٧

سحبان بن زفر : ٤٨٢

سعد بن حذيفة بن اليمان : ٦٢

سعید بن العاص : ٢٢٥

سعید بن عثمان بن عفان : ٣٩٢

سعید بن المجالد : ٣٣٩

سليك بن السلسكة : ٤٠٥

سليمان بن صرد : ١٥ — ٦٠ — ٦٨

٦٩ — ٧٠ — ٧١ — ٧٢

سليمان بن عبد الملك : ٢٠٠

سودة بنت عمارة : ٣٧٥

(ش)

شبيب بن يزيد الشيباني : ٤٦٣

- عبد العزيز بن زرارّة : ٣٧٢
عبد العزيز بن مروان : ٤٢٠
عبد الله بن الأهمّ : ٤٢٠
عبد الله بن جعفر : ١٢٧ - ٢٤٧
عبد الله بن الحنظل : ٦٢
عبد الله بن حنظلة الأنصاري : ٣٢٦ -
٣٢٨
عبد الله بن الزبير : ١١٤ - ١١٩ -
١٢٣ - ١٦٠ - ١٦٤ - ١٦٥
١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٣ - ١٧٤
١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩
١٨٠ - ٢٤٨ - ٢٦٠
عبد الله بن سعد : ٦٨
عبد الله بن شداد : ٥٠٣
عبد الله بن عباس : ٤٢ - ٩١ - ٩٥ -
٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢
١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧
١٠٩ - ١١١ - ١١٣ - ١١٤
١٢٠ - ١٢٥ - ٢٤٧
عبد الله بن عبد الحجر : ٣٨٩
عبد الله بن عصام : ٢٤٠
عبد الله بن عمر : ٢٤٨ - ٢٥٧
عبد الله بن الكواء : ١٤٦
عبد الله بن مازن : ٢٦٤
عبد الله بن مسعدة : ٢٤٠
عبد الله بن مطيع : ٧٦ - ٨٢ - ٨٣

- شداد بن أوس الطائي : ٣٨٧
شريح القاضي : ٤٣٣
(ص)
صالح بن مسرح : ٤٥٩ - ٤٦١
صخير بن حديفة بن هلال : ٦٨
صعصعة بن صوحان : ١٤٦ - ١٤٨ -
١٥٠ - ١٥٤ - ٣٦٩ - ٤٣٩
صفية بنت هشام المنقرية : ٣٦١
(ض)
الضحاك بن قيس : ٢٣٧ - ٢٤٢ -
٢٧٨ - ٢٧٩
ضرار بن حمزة الصدائي : ٣٧٤
(ط)
طارق بن زياد : ٣١٤ - ٣١٦
(ع)
السيدة عائشة رضی الله عنها : ٥١١
عابس بن أبي شبيب : ٣٧
عامر الشعبي : ٣٤٤
عامر بن وائلة الكناني : ٣٤١
عبد الحميد بن يحيى : ٥٠٨
عبد ربه الصغير : ٤٥٨
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٥١
عبد الرحمن بن أم الحكم : ١٠٦
عبد الرحمن بن شريح : ٧٨
عبد الرحمن بن عثمان : ٢٣٨ - ٢٤٤
عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٣٤٠ -
٣٤٢ - ٣٤٣

عمر بن عبد العزيز : ٢٠١ - ٢٠٢ -

٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ -

٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ -

٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ -

٢١٧ - ٤٨٤

عمر بن هبيرة : ٣٢٠

عمرو بن حريث : ٣٣١

عمرو بن سعيد الأشدق : ٢٢٨ - ٢٢٩ -

٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤١

عمرو بن العاص : ٢١ - ١٠٢ - ١١٢ -

١١٣ - ١١٤ - ١٤٠ - ١٦٥

عمرو بن عتبة بن أبي سفيان : ٢٣٤ - ٢٣٣ -

عمرو بن مسمع : ٣٣١

عمران بن حطان : ٤٨١

(غ)

الفضيان بن القبعثري : ٣٣٧ - ٤١٢

غيلان بن مسلمة الثقفي : ٢٦٥

(ق)

قتيبة بن مسلم : ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ -

٣٠٧ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ -

قحطبة بن شبيب الطائي : ٥٠٩ - ٥١٠ -

قطري بن الفجاءة : ٤٥٤

قيس بن سعد بن عبادة : ١٤٦

(ك)

كثير بن شهاب : ٣٩

كعب بن معدان الأشقري : ٤٠٤

عبد الله بن هاشم : ١٤٠ - ١٤٥ -

عبد الله بن همام السلولي : ٢٦٣

عبد الله بن وال التيمي : ٦٧

عبد الله بن يحيى الأباضي : ٤٦٥

عبد الله بن يزيد الأنصاري : ٦٥ - ٧٠ -

عبد المؤمن بن شبيب بن ربيعي : ٣٤٢

عبد الملك بن مروان : ٧٣ - ١٩٢ -

١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ -

١٩٧ - ١٩٨ - ٢٣٥ - ٤٨٣ -

٥٠٣

عبيد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤٥ - ٢٨١ - ٣٢٩

عبيد الله بن عبد الله المري : ٦٣

عتاب بن ورقاء الرياحي : ٤٥٢ - ٤٦٤ -

عتبة بن أبي سفيان : ٢٢ - ٢٢٠ -

٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٦٤

عريس بن عرقوب : ٤٤٤

عثمان بن حيان المري : ٣١٦

العجاج بن رؤبة : ٣٩٩

عدى بن حاتم : ٩

عدى بن أرطاة : ٤٢٢

عرابة بن أوس بن حارثة : ٣٩١

عهرم العدوي : ٤٥٣

عطاء بن أبي سفيان : ٢٦٤

عقيل بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦ -

عمر بن عبد الرحمن : ٤٥

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٧ -

٢٣٤ - ٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ -

٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٥٨ -

٢٦١ - ٣٨٢ - ٣٦٥ - ٣٧١ -

٣٨٨ - ٤٨٣

معاوية بن يزيد : ١٩٠

معقل بن قيس : ٤٤٢

المغيرة بن شعبة : ٢٢ - ١٠٧ - ٤٣٨

المهلب بن أبي صفرة : ٢٨٥ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٠

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٧ - ٢٨٠

(و)

واصل بن عطاء : ٥٠١

الوليد بن عبد الملك : ١٩٩

الوليد بن عقبة : ٢١ - ٢٣٠

(ى)

يزيد بن أبي مسلم : ٤١٥

يزيد بن أنس الأسدي : ٨٢

يزيد بن معاوية : ١٠٨ - ١٨٩ - ٢١٩ - ٢٨٤ -

يزيد بن المقنع : ٢٤٥

يزيد بن المهلب : ٣١٨ - ٣٥٠ - ٣٥٢ -

٥٣٣ - ٣٥٤

يزيد بن الوليد : ٢١٨

يوسف بن عمر الثقفي : ٣٢٤ - ٣٢٥

تم فهرس أعلام الخطباء

الكثير بن زيد الأسدي : ٤٢٨

(ل)

ليلي الأخيلية : ٤٠٧

(م)

مالك بن بشير : ٤٠٣

محمد بن أبي الجهم العدوي : ٤٢٣

محمد الباقر : ١٥٧

محمد بن الحنفية : ٣١ - ٣٥ - ٩٠

محمد بن عمير بن عطار : ٤٠١

محمد بن كعب القرظي : ٤٢٣

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٧٤ - ٧٥ -

٨١ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٧ - ٨٨

مخلد بن يزيد بن المهلب : ٣٥٠

مروان بن الحكم : ١٠٣ - ١٩١ - ٢٥٠

مروان بن المهلب : ٣٥٥

المستورد بن علفة : ٤٣٧ - ١٤٤ - ٤٤٢

مسلم بن عبيس : ٤٤٦

مسلم بن عقبة : ٣٢٧

المسيب بن نجبة : ٥٨ - ٦٦

مصعب بن الزبير : ١٨١

مصقلة بن هيرة : ٢٩٣

مطرف بن المغيرة : ٣٣٨

معاذ بن جوين : ٤٣٨ - ٤٤٣

معاوية بن أبي سفيان : ١٤ - ٩٤ - ٩٥ -

٩٧ - ٩٨ - ١٠٩ - ١٤٥ - ١٤٦

١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٥ -